مُقَدِّمَات

الإِمَامِ أَبِي الحَسَنِ النَّدْوِيِّ

إعداد

سَيِّد أحمد زكريَّا الغَوْرِيّ النَّدْوِيّ

(الجزء الثالث)

دار ابن كثير

دمشق . بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَاتُ
الإِمَامِ أَبِي الحَسَنِ النَّدْوِيِّ

الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: مقدمات الإمام أبي الحسن الندو
الإعداد: سيد أحمد زكريا الغوري الندو:

الورق: أبيض
ألوان الطباعة: لون واحد
عدد الصفحات: 1314
القياس: 17×24
التجليد: كرتونيه
الوزن: 2500 غ

التنفيذ الطباعي:
مطبعة الديك - بيروت
التجليد:
دار الفن للتجليد - بيروت

ISBN: 978-9953-520-82-7

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
و التصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي
و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير
للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس: 01 817857 - جوال: 03 204459
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

مقدِّماته

لمؤلَّفاته

في الدراسات القرآنية

١ ـ النبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن .

٢ ـ الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف) .

٣ ـ المدخل إلى الدراسات القرآنية .

٤ ـ تأمُّلات في القرآن الكريم .

النُّبُوَّةُ والأنبياء
في ضوء القُرْآن

دار القلم
دمشق

مقدِّمة الطَّبعَةِ الرَّابعَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين ، وصلَّى الله على خير خلقه ، وأشرف أنبيائه ، وخاتم رسله ، محمَّدٍ ، وعلى آله ، وصحبه ، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد : فيسرُّ المؤلِّف ، ويسعده أن يقدِّم للطَّبعة الرَّابعة لهذا الكتاب ، الذي هو من أحبِّ كُتبه إليه ؛ لجلال موضوعه ، وخطره ، واتِّصاله بالجماعة الَّتي هي أحبُّ خلق الله إلى الله ، وعلى دعوتها ، وجهادها مدار سعادة الإنسانيَّة ، وفلاحها ، ونجاتها .

وقد تأخَّرت هذه الطَّبعة لأسباب قاسرةٍ ، منها عدم تفرغ المؤلِّف للنَّظر في الكتاب ، وتناوله بالزِّيادة ، والتَّنقيح ، وكان من أهمِّ الفصول الَّتي كان المؤلِّف يودُّ ضمَّها إلى الكتاب الفصل الَّذي يراه القارىء في آخر هذا الكتاب بعنوان « محمَّد رسول الله ﷺ ، آخر الرُّسل وخاتم النَّبيِّين » وكان تجرُّد الكتاب من هذا الفصل الَّذي هو في صميم الموضوع ، وإكمالٌ له نقصاً كبيراً ، وكان المؤلِّف قد أجَّله لوقتٍ آخر يتفرَّغ فيه للبحث في هذا الموضوع ، وإيفائه حقَّه من الدِّراسة والتَّحليل والبحث المقارن ، وقد أثار بعض المغرضين في الزَّمن الأخير حوله نقعاً ، وجعلوه من القضايا الَّتي تحتاج إلى عرضٍ جديدٍ ، وإقناعٍ مزيدٍ بعدما كانت قضيةً مسلَّمةً بديهيَّةً ، وقد كان المؤلِّف يشعر بمسؤوليته في هذا المجال العلميِّ ، ويشعر برغبةٍ قويَّةٍ في الإسهام في هذا الموضوع مع كثرة ما كتب فيه في أوائل هذا القرن ، ومنتصفه .

وقد كان من الممكن أن يتأجَّل ذلك لوقتٍ آخر ، ولكنَّ القضيَّة دخلت في الزَّمن الأخير في المرحلة الحاسمة الَّتي لا تحتمل تأجيلاً ، وأصدرت أكبر مملكةٍ إسلاميَّةٍ حكمها في هذه القضية ذات الصِّلة العميقة الوثيقة بمصير الإسلام ، والمسلمين ،

ومستقبل هذا الدِّين ، وإن كانت القضيَّة قد انتهت على الصَّعيد الحكومي والإداريِّ ؛ فإنها في حاجة إلى أن تنتهي على الصَّعيد العلميِّ والفكريِّ ، وليس هذا البحث الَّذي يراه القارىء إلا محاولةً لتحقيق هذا الغرض ، ومساهمةً من جنديٍّ صغيرٍ في هذا الجهاد الكبير .

وهكذا جاءت هذه الطَّبعة بإذن الله تعالى وتأييده أتمَّ ، وأكمل ، وأكثر قيمةً وغَنَاءً من الطَّبعتين الأوليين ، والحمد لله أوَّلاً ، وآخراً ؟

٧ شوال المكرَّم ١٣٩٤هـ

٢٤ من أكتوبر ١٩٧٤م

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

المجمع العلميُّ الإسلاميُّ ، ندوة العلماء

لكهنؤ ، (الهند)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المؤلِّف

الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى . أمَّا بعد :

فقد تلقَّيت في شعبان عام ١٣٨٢هـ برقيةً من نائب رئيس الجامعة[1] الإسلاميَّة في المدينة المنوَّرة صاحب الفضيلة الشَّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ؛ يدعوني كأستاذٍ زائرٍ لهذه الجامعة ، ويقترح عليَّ إلقاء محاضراتٍ على طلبتها الَّذين قصدوا هذه الجامعة من أنحاء العالم الإسلاميِّ ، وقد قبلت شاكراً هذه الدَّعوة الكريمة ، ورأيت أنَّها فرصةٌ سانحةٌ يجب أن تُنْتَهز للتَّحدُّث إلى هذه المجموعة الطيِّبة من الشَّباب الإسلاميِّ ، الَّتي يتعسَّر وجودها في مكانٍ واحدٍ ، ولغرس معانٍ كريمةٍ في قلوب النَّاشئة الصَّافية في بلدٍ طيِّبٍ يَخرجُ نباتُه بإذن ربِّه .

وكان الموضوع الَّذي آثرته لهذه المحاضرات « النُّبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن » ولم يكن موضوعاً مُرتجلاً ولا من سوانح الآراء ؛ إنَّما هو موضوعٌ كان يجول في خاطري مِنْ زمنٍ طويلٍ ، وأرى معالجته ، والحديث عنه من أهمِّ البحوث والدِّراسات الَّتي تشتدُّ حاجة الطَّبقة المثقَّفة إليها ، وأعتقد أنَّ أقوى سبب انحراف هذه الطَّبعة الموجِّهة للشُّعوب الإسلاميَّة عن الجادَّة ، وتخلِّيها عن روح الإسلام الصَّحيحة . وخضوعها الزَّائد للمفاهيم والقيم المادِّيَّة المنافية لروح الدِّيانات السَّماوية ، وتمسُّكها بالأساليب الصِّناعيَّة ، والمناهج الفكريَّة الغربية ، حتَّى في تفسير الإسلام ، وفي مجال الدَّعوة والإصلاح العامِّ ، هو بعدُها عن منهج النُّبوَّة ، وجهلُها لقيمتها ، وفضلها على الحياة والمدنيَّة ، والعقل الإنسانيِّ ، وشدَّةِ حاجة

---

(١) هو رئيس الجامعة حالياً ، والمرجع الدِّينيُّ والعلميُّ الكبير في المملكة العربيَّة السُّعودية .

الإنسانيَّة في جميع أدوارها إلى قيادتها . وكذلك غفلتُها عن سير الأنبياء والرُّسل ، وطبائعهم ، وأخلاقهم .

جاءت هذه الدَّعوة الكريمة من جهةٍ كريمةٍ ، فأثارت هذا الشُّعور الكامن ، وهيَّأت الفرصة المناسبة ، والدَّوافع النَّفسيَّة القويَّة للتَّفرُّغ لهذا الموضوع ، الَّذي لولا هذه الدَّعوة ، ولولا هذا الدَّافع القريب لتأجَّل إلى وقتٍ آخر ، كما تتأجَّل مواضيعُ أخرى تتغلَّب عليها ، وتشغل عنها حاجاتٌ مؤقَّتةٌ ، أو أعمالٌ رتيبةٌ تملأ فراغ الوقت ، وتشغل الخاطر ، ورأيت أنَّ خير مكانٍ للحديث عن هذا الموضوع الجليل هو المدينة المنوَّرة ، الَّتي حصل فيها آخر اتِّصال السَّماء بالأرض لهداية البشريَّة عن طريق الوحي والنُّبوَّة .

وكتبتُ أكثر هذه المحاضرات في رمضان (١٣٨٢هـ) في قريتي الصَّغيرة[١] المنعزلة البعيدة عن كلِّ مكتبةٍ ، واعتمدت فيها على القرآن الكريم ، وأسَّستها على دراسته ، والتَّدبُّر فيه ، وكنتُ أطلب أحياناً بعض المصادر الَّتي أنقل منها العبارات ـ شرحاً لفكرةٍ ، أو تأييداً لقولٍ ـ من مكتبة ندوة العلماء العظيمة في لكهنؤ . ، وجاءت ستَّ محاضراتٍ لكلِّ محاضرةٍ عنوانٌ خاصٌّ ، وزدت إليها شيئاً يسيراً .

وصلت إلى المدينة المنوَّرة في آخر شوَّال (عام ١٣٨٢هـ) وبدأتُ المحاضرات في ذي القعدة ، وكانت تلقى مرَّتين في الأسبوع في قاعة المحاضرات في الجامعة الإسلاميَّة بعد صلاة العشاء ، يمهِّد لها الأستاذ عطيَّة محمَّد سالم مدير الشُّؤون التَّعليميَّة في الجامعة[٢] ويعلِّق عليها فضيلة الشَّيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة ، ويحضرها ـ غير الطَّلبة ـ عددٌ من أعيان المدينة ، ورجال الثَّقافة ، وأساتذة الجامعة .

وهانحن أولاء ننشر هذه المحاضرات مجموعةً في كتاب ، لا نزعم : أنَّها بحوثٌ مبتكرةٌ ، أو فتحٌ جديدٌ في العلم ، والتَّحقيق ، ولكنَّها إنارة فكرٍ ، وإثارة

---

(١) زاوية جدِّنا الكبير الشَّيخ علم الله الحسني النَّقشبنديِّ في راي بريلي .
(٢) نائب رئيس القضاة بالمدينة المنوَّرة الآن .

شعورٍ ، وخطوطٌ عريضةٌ لبحثٍ أكثر تركيزاً ، وكتابٍ أوسع مادَّةً ، وقد تعمَّدت الأسلوب الأدبيَّ ، والاجتماعيَّ الخفيف ، وتجنَّبت أسلوب علم الكلام ، والعقائد العميق الثَّقيل ، ولكن رغم ذلك قد احتوت على حقائق وإشاراتٍ تطلب التَّفكير العميق ، وتستدعي البحث الدَّقيق ، في المجتمع الإسلاميِّ المعاصر ، الَّذي هو في طور انتقالٍ ، وتصميمٍ ، ويواجه صراعاً عنيفاً بين القيم والمفاهيم ، والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم .

المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)
أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
لخمس خلون من محرَّم الحرام
١٣٨٣هـ

الصِّراعُ
بين الإيمان والمادِّيَّة
(تأمُّلاتٌ في سُورة الكهف)

دار القلم ـ دمشق

دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسوله الكريم محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين .

أمَّا بعدُ! فقد نشرت مجلَّة « المسلمون » الغرَّاء سلسلة مقالاتٍ للكاتب بعنوان « تأملات في سورة الكهف » نشرتها تباعاً في عام ٧٧ ـ ١٣٧٨هـ (المجلد السَّادس ، عدد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) ، حظيت بالعناية والإعجاب في الأوساط العلميَّة الدِّينية ، ولعلَّها باعثةٌ لكثير من القرَّاء على دراسة هذه السُّورة الكريمة ، والتأمُّل فيها من جديدٍ ، والاقتناع بأنَّ بينها وبين فتن هذا العصر ، والقدرة على مقاومتها صلةً قويَّة عميقةً ، وبقيت هذه المقالات دفينةً مطمورةً في مجلَّدات المجلَّة ، لا يتَّسع وقت الكاتب لتنقيحها ، والزِّيادة فيها ، ولنشر الكتاب من جديدٍ ؛ حتَّى جدَّت حوادث في العالمَيْن العربيِّ ، والإسلاميِّ ، ورأى المؤلِّف افتتان العقول ، والنُّفوس بالمادِّيَّة ، وسرعة إيمانها بكلِّ دعوةٍ برعت ، وفاقت في التَّدجيل ، والتَّلبيس ، ورأى قصَّة الصِّراع بين الإيمان والمادِّيَّة تمثَّل على مسرح العالم بصفةٍ عامَّةٍ ، وعلى مسرح الشَّرق العربي بصفةٍ خاصَّةٍ من جديدٍ ، وكلُّ ذلك شَحَذَ العزمَ على نشر هذه السِّلسلة ، وَجَدَّتْ للمؤلِّف في هذه المدَّة دراساتٌ وتأمُّلاتٌ ، وتفتَّحت له منافذ جديدةٌ ، وجوانبُ عديدةٌ في التَّدبُّر في معاني هذه السُّورة .

فتناول هذه المقالات بالتَّحرير ، والزِّيادة ، وضمَّ إليها موادَّ جديدةً ، وبحوثاً مقارنةً في قصَّة أصحاب الكهف ، وذي القرنين تزيد هذه السِّلسلة قيمةً علميَّة ، وتحمل الباحثين على الدِّراسات المقارنة ، وإثبات إعجاز القرآن ، وهدايته للإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .

وهانحن أولاء ننشر هذا الكتاب متوكِّلين على الله ، ثمَّ معتمدين على أنَّ الإيمان لم تنطفىء جمرتُه ، وعلى أنَّ النفُوس لم تفقد صلاحيَّتها لقبول النَّافع المقبول ، والمستقيم المعقول ، وعلى أنَّ الخيط الَّذي كان يربط قلوب هذه الأمَّة بهذا الكتاب لم ينقطع بعدُ ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

٢٥ شعبان ١٣٩٠هـ

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
المجمع الإسلاميُّ العلميُّ
دار العلوم ، ندوة العلماء ، لكهنؤ ـ (الهند)

المدخل

إلى الدِّراسات القرآنيَّة

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين ، محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين .

وبعد! فإنَّ قصَّة هذا الكتاب ـ القديم في التأليف والتَّكوين ، والجديد في الطَّبع والصُّدور ـ وتاريخه . يرجعان إلى عام (١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م) حين تعيَّن مؤلِّف هذا الكتاب معلِّماً في دار العلوم التَّابعة لندوة العلماء لمادتي : تفسير القرآن الكريم ، والأدب العربيِّ وتاريخه ، وأُسندت إليه دروسٌ في تفسير متن القرآن الكريم .

وكانت الخطوة الجديدة في عالم المدارس الدِّينيَّة في الهند ، فقد جرت العادة فيها منذ القديم بالاكتفاء بتدريس كتب التَّفسير القديمة كـ « الجلالين » و« البيضاوي » و« الكشاف » .

وقد سبقت ندوة العلماء إلى تدريس متن القرآن الكريم ، كمادةٍ مستقلَّة ، ومن غير ارتباط بكتابٍ خاصٍّ في التَّفسير ، حتَّى يستوعب الطَّالب دراسة القرآن الكريم من أوَّله إلى آخره تحت إشراف معلمٍ توفَّر على دراسة القرآن الكريم ، وتذوقه ، ثمَّ يدرِّس كتب التَّفسير القديمة المقرَّرة في المنهج الدِّراسي في تفصيلٍ ، وتحقيقٍ ، وقد كانت في ذلك فوائد ، ومزايا ، لا تحصل بربط القرآن الكريم بكتب التَّفسير ربطاً وثيقاً نهائيّاً ، لا يمكن تصور أحدهما إلا بالآخر ، والانطلاق من حدود المنهج الرَّتيب إلى الجو القرآنيِّ الفسيح .

ولمَّا باشر المؤلِّف تدريس أجزاء القرآن الكريم الَّتي اختيرت له ؛ رأى : أنَّ الطلبة الشَّباب الدَّارسين لهذا الكتاب المعجز العظيم ليست عندهم ركيزةٌ دراسيَّةٌ ، ورصيدٌ مذخورٌ لمعرفة مكانة هذا الكتاب المعجز الخالد ، وما اشتمل عليه من آياتٍ ، ومعجزات ، وما انفرد به من آفاقٍ ، وأعماقٍ . وما قام به من دورٍ في نشر الهداية ، والوصول إلى الحقيقة ، وربط المخلوق بالخالق ، وإخراج الجيل البشريِّ

من الظُّلمات إلى النُّور ، ومن السَّخافات ، والسَّفالات إلى قمَّة الإنسانيَّة السَّامية القائمة على الرِّسالة السَّماويَّة ، والهداية الرَّبَّانيَّة ، ومكانته بين الصُّحف السَّماوية القديمة في ضوء الدِّراسة المقارنة ، وشهادات المؤرخين من غير المسلمين ، وما اشتمل عليه من نبوءاتٍ تبدو متحديَّةً للعقل ، والقياس ، وتظهر كالشمس السَّاطعة من وسط الضَّباب ، والغبار .

وما هي الصِّفات ، والشُّروط الَّتي تهيِّىء الطَّالب إذا استوفاها للانتفاع بالقرآن الكريم ، والاهتداء بهدايته ، والوصول إلى أعلى الدَّرجات من السَّعادة ، وما هي الحُجب والحواجز الَّتي تحول بين الطَّالبين ، والمخاطبين بالقرآن الكريم ، وبين الانتفاع به ، إلى غير ذلك من البحث ، واللَّفتات ، والمعاني ، والإيضاحات ؛ الَّتي يستطيع بها الدَّارسون للقرآن الكريم أن يُقبلوا على دراسته ، فيجدوا نورَهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وشهود العلم ، والتَّاريخ ، والتَّحليل العلميِّ ، والدِّراسات المقارنة ، والعدول واقفون على كثبٍ منهم ، يشهدون بصدق ما جاء فيه ، وبكونه منزلاً من الله ، لم تمسَّه يد التَّحريف ، والأهواء ، ولم تؤثِّر فيه الحوادث ، والتَّغيرات ، فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم .

بدأ المدرِّس الشَّابُّ ـ وهو لم يتجاوز العقد الثَّاني من عمره إلا قليلاً ـ يدرس المصادر العلميَّة الإسلاميَّة ، والأجنبيَّة ، ويستخرج منها معلوماتٍ جديدةً مفيدةً ، وشهاداتٍ ذاتَ قيمةٍ علميَّةٍ تاريخيَّةٍ ، وجوانب منيرة مثيرة تفتح آفاقاً جديدة لفهم القرآن الكريم ، والاقتناع بإعجازه ، وسماويَّته ، فيكوِّن منها بحوثاً يمليها على طلبة السَّنة السَّادسة في دار العلوم[1] في لغة البلاد العلميَّة ، والتَّعليميَّة ؛ الَّتي كانت ، ولا تزال أداة التَّعليم في مدارس المسلمين في شبه القارة الهنديَّة ، والمدارس الدِّينية بصفةٍ خاصَّةٍ ، وهي : « أردو » يكتبها الطَّلبة بأقلامهم ، وتصبح مادَّةً دراسيَّةً يُمتحنون فيها .

وقد نُشِرَ كثيرٌ من هذه البحوث في مجلَّة « النَّدوة » الَّتي كانت لسان حال ندوة

---

(١) كان ذلك في سنة ٥٧ ـ ١٣٥٨هـ ، ٣٨ ـ ١٩٣٩م .

العلماء ، ومجلّتها العلميّة الرّسميّة ، وبقي أكثرها بين دُفَّتَيْ دفاتر الطَّلبة الَّذين تخرَّجوا من دار العلوم ، وغادروها ، ورجعوا إلى أوطانهم ، ومراكز اشتغالهم .

فلما بدا للمؤلف مؤخّراً أن ينشر هذه البحوث في مجموعةٍ تكون كالمدخل للدِّراسات القرآنيّة الكريمة حافزةً ، مثيرةً للتوسُّع في فهم هذا الكتاب السَّماويِّ الإلهيِّ المعجز الخالد ، والتأمُّل فيه ، والانتفاع به ؛ وجد : أنَّه لا يملك مجموعةً يعتمد عليها في نشر هذا الكتاب ، وأنَّ ما انتسخه الطَّلبة ، وقيَّدوه في دفاترهم قد ذهب معهم ، ولا أمل فيه ، ولا سبيل إليه ، فقطع الرَّجاء من الحصول عليه ، ونفضَ اليد منه .

وإذا به في يومٍ من الأيام يجد المجموعة الَّتي كان يحتفظ بها لنفسه عند طالبٍ عزيزٍ[1] ، فكأنَّه وجد الضالة المنشودة ، ودرَّته المفقودة ، فتناول هذه المجموعة بالتَّنقيح ، والتَّهذيب ، وتعديلات ، وزيادات يسيرةٍ ، وضمَّ إليها بحثاً ، عنوانه : « القرآن الحميد والصُّحف السَّماوية القديمة في ميزان العلم والتاريخ » ، أخذه من كتابه : « النُّبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم » وزاد بحثاً عنوانه : « نماذج من تدبُّر السَّلف وتلاوتهم للقرآن الكريم » والفصل الأخير هو : « بعض تجارب وملاحظات » .

وقد اشتمل الكتاب على مجموعةٍ من معلوماتٍ جديدةٍ ، وبحوثٍ مبتكرةٍ لم يطَّلع عليها المؤلِّف في كتابٍ آخر ـ والعلم عند الله ، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم ـ خصوصاً ما جاء تحت عنوان : إحدى نبوءات القرآن العظيم (نبوءة غلبة الرُّوم) ، وقد حذف من مجموعة هذه الأمالي ما جاء في مؤلَّفاته الأخرى ككتاب : « الأركان الأربعة » و« النُّبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم » أكثر تفصيلاً ، وفي شكلٍ أوسع ، وأقوى .

وقد أسند المؤلِّف عمل نقل هذه المجموعة إلى اللُّغة العربيَّة ـ لغة القرآن نفسه ـ إلى السَّيِّد « سلمان الحسيني النَّدوي » أستاذ دار العلوم ندوة العلماء ، وهو الَّذي

---

(١) هو الشيخ السَّيِّد محمَّد طاهر المنصور بوري ، مساعد مدير ندوة العلماء حالياً .

تولَّى نقل عدَّةٍ من كتب المؤلِّف إلى اللُّغة الفصحى . وأحسن القيام بهذا العمل[1] ، واستحقَّ إعجاب المؤلف ، ودعواته ، وَشُكْرَ القرَّاء بالعربيَّة .

هاهو ذا المؤلف يقدِّم هذه المجموعة ـ الَّتي كانت باكورة مؤلَّفاته ، وبحوثه العلمية ، ومن آثار شبابه ، وكلَّ ما يمتُّ إليه بصلةٍ حبيبٌ أثيرٌ ـ إلى الأوساط العلميَّة ، والتَّربويَّة المعنيَّة بدراسة القرآن الكريم ، وتفهُّمه ، وتعريف الشَّباب المتعلِّم الدَّارس به ، وحثِّهم على دراسته ؛ والتأمُّل فيه بهمةٍ عاليةٍ ، ونفسٍ توَّاقةٍ . ونظرٍ بعيدٍ ، عسى أن يُحشر المؤلِّف ، ويُدرج اسمه مع مَنْ أكرمهم الله ، وشرَّفهم بخدمة القرآن الكريم ، والتَّمهيد ، والتَّوطئة لفهمه ، ودراسته .

وعسى أن يكون هذا الكتاب من العوامل الحافزة المثيرة ، للإقبال على التَّعرُّف على هذا الكتاب العظيم من جديدٍ ، والعناية به ، وحمد الله تبارك وتعالى ، وشكره على هذه الكرامة ، الَّتي خصَّ بها هذه الأمَّة .

﴿ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

أبو الحسن علي الحسني الندوي

٢٢ من ذي القعدة الحرام ١٤٠٥هـ

١٠ من أغسطس ١٩٨٥م

---

(١) كالجزء الثالث من رجال الفكر والدَّعوة الخاص بالإمام السَّرهندي ، والجزء الرَّابع منها الخاص بالإمام الدِّهلوي ، وجزأين من « مسيرة الحياة » للمؤلِّف .

تأمُّلاتٌ

في القرآن الكريم

دار القلم

دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدِّمَة

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ، صلَّى الله عليه ، وآله وسلم .

وبعدُ : فيُسعِد صاحب هذه المقتطفات من : « تأمّلات في القرآن الكريم » ممَّا فتح الله به عليه حين دراسته للكتاب الحكيم ، وما عرضت له من معانٍ ، وفُتِح له من آفاقٍ حين تناوله لتفسيره في دروسه ، ومقالاته ؛ أن يقدِّم ذلك للقرَّاء ، ودارسي القرآن راجياً من الله الأجر ، والسِّتر ، والحشر . أمَّا الأجر فعلى الاشتغال بالتَّدبُّر في القرآن ، والدَّعوة إليه ، وأمَّا الستر وهو التَّغطية فعلى ما صدر من تقصيرٍ وزلَّات ، لا يخلو منها مجهودٌ بشريٌّ ، وأمَّا الحشر فهو الشُّمول في زمرة خدمة القرآن ، والمتدبِّرين فيه ، ولو كان موضع كاتب هذه المقالات في صفوفهم الخلفيَّة ، أو المواضع الجانبيَّة ، فلكلٍّ من ذلك شرفٌ يغتبط به المغتبطون ، ويحرص عليه الطَّامحون الطَّامعون .

لم يزل صاحب هذه التأمُّلات تلميذاً متواضعاً من تلاميذ مدرسة القرآن الإيمانيَّة ، والعلميَّة ، والدَّعويَّة الإصلاحيَّة ، يدين لهذا الكتاب العظيم ، في ثقافته وتدبُّره ، وكتاباته ، وبحوثه ، ومؤلَّفاته ، وفي خطبه الشَّعبية ، ومحاضراته العلميَّة ما لا يدين لأيِّ كتابٍ ، أو دراسةٍ علميَّة ، ومدرسةٍ فكريَّةٍ ، وأدبٍ من آداب اللُّغات والثَّقافات ، يشهد بذلك من اطَّلع على ما وفَّق الله إليه كاتب هذه السُّطور من كتاباتٍ ، وخطاباتٍ .

وقد كان الفضل الأكبر في ذلك ـ بعد توفيق الله تعالى ـ لتلاوته للقرآن ، وتدبُّره فيه ، مكتفياً بمتن القرآن ، مستشعراً إعجازه ، وحيويَّته ، وخلوده ، وصلاحه لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وتيسُّره لكلِّ طالبٍ متدبِّرٍ ، وذلك بعدما درس أمّهات كتب التَّفسير ،

واستفاد من كبار الأساتذة المختصّين في الموضوع واطّلع على أكثر ما نُشِر من بحوثٍ ، وتعليقاتٍ ، وكتبٍ عصريّة ، واشتغل بعرضه ، وشرحه أمام مجموعاتٍ كبيرةٍ من المثقّفين ، والعامّة ، والخاصّة ، في حلقاتٍ قرآنيّةٍ في بعض المراكز الدّعوية ، والشّعبيّة في بلده سنين طوالاً .

وعُيِّن الكاتب معلِّماً للتّفسير ـ مع مواد دراسيةٍ أخرى ـ في دار العلوم التّابعة لندوة العلماء في الثّلاثينات الأولى من التّقويم الميلاديِّ ، واستمرَّ على ذلك نحو عشر سنين ، درَّس في خلالها متن القرآن في فصولٍ مختلفةٍ ، وأملى مقالاتٍ تمهيديَّةً تهيّىء العقول ، والأذهان لدراسة القرآن العميقة ، والإيمان بإعجازه ، وخلوده ، وتُيسِّر طرق الانتفاع ، والنّفع به في مجالات الدَّعوة ، والعلم ، والبحث . ونشرت مجموعة هذه المقالات بعنوان : « المدخل إلى الدِّراسات القرآنية » في « أردو » ، ولغة مسلمي الهند ، والعربيّة[١] .

ونشرت له مقالاتٌ تناول فيها تفسير بعض السُّور ، والآيات في مجلّة « الضِّياء » ـ مجلّة « النّدوة » ـ العربيّة ؛ الّتي كانت تصدر عن ندوة العلماء في الثّلاثينات الأولى الإفرنجيّة ، رئيس تحريرها صديق الكاتب الأديب الكبير الأستاذ مسعود النّدويُّ ، وفي مجلّة « المسلمون » الغرّاء ، التي كانت تصدر من القاهرة ، ثمَّ من دمشق ، وجنيف ، رئيس تحريرها صديق الكاتب الحبيب الدُّكتور سعيد رمضان ، وكان بعض هذه المقالات أحاديثُ إذاعيَّة ، كذلك أذيعت من إذاعة دلهي (القسم العربي) .

كانت كلُّ هذه المقالات ، والأحاديث مشتّتةً مبعثرةً في كتبٍ ورسائل مطبوعةٍ ، أو صحفٍ مخطوطةٍ ، معرّضةٍ للضّياع ، فلمّا جدَّ طلب بعض المطّلعين على هذه المقالات ، والأحاديث ، وأبدى بعض الناشرين ، وأصحاب المكتبات ـ في مقدِّمتهم الأستاذ محمد علي دولة صاحب دار القلم في دمشق ـ رغبتهم بذلك ؛ رأى الكاتب تحقيق هذا الطلب ، والموافقة على فكرة نشر هذه المقالات ، والأحاديث

---

(١) نشرته دار الصّحوة بالقاهرة .

من تيسير الله تعالى ، وإتاحة الفرصة لنشر هذه المقتطفات التي تتّصل بكتابه الكريم ، وتنضوي إلى راية القرآن ، فهو المبرِّر لنشرها ، وإذاعتها ، وتلك قيمتها ، عسى الله أن ينفع بها الطَّالبين ، المتدبِّرين في القرآن ، وتفتح لهم بعض آفاقٍ جديدةٍ من التدبُّر في معانيه ، وشواهد بلاغته ، وإعجازه ، وخلوده وعمومه لكلِّ جيلٍ من الأجيال ، ولكلِّ عصرٍ من العصور ، ولكلِّ مجتمعٍ من المجتمعات ، فالقرآن لا تنقضي عجائبُه ، ولا تبلى جِدَّته ، كما قيل .

والحمد لله أوَّلاً ، وآخراً . . .

أبو الحسن الحسني الندوي

دارة الشَّيخ علم الله الحسني
رائي بريلي
٩ من صفر ١٤١٠هـ
١ من سبتمبر ١٩٨٩م

مقدِّماته

لمؤلَّفاته في السَّيرة

١ ـ السيرة النبوية .

٢ ـ سيرة خاتم النبيِّين (للأطفال) .

٣ ـ الطريق إلى المدينة .

٤ ـ جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية

السِّيرة النَّبويَّة

دار الشُّروق ـ جدَّة

دار ابن كثير ـ دمشق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة الكتاب للطَّبعة الأولى[1]

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين ؛ محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد ؛ فقد كانت السِّيرة النَّبويَّة ـ على صاحبها الصَّلاة ، والسَّلام ـ المدرسة الأولى الَّتي تعلَّم فيها مؤلِّف هذا الكتاب ، وقد دخلها في سنٍّ مبكِّرةٍ ، لا يدخل فيها الأطفال في عامَّة الأحوال ، والفضل في ذلك يرجع إلى الجوِّ الَّذي كان يسود بيته ، وأسرته ، فقد كانت السِّيرة تكون عنصراً أساسياً في الثَّقافة الَّتي يتلقَّاها أبناء الأسرة ، وأطفال البيت ، وإلى المكتبة الصَّغيرة البسيطة المؤلَّفة من منظومٍ ، ومنثورٍ ؛ الَّتي كانت تنتقل من يدٍ إلى يدٍ ، ثمَّ إلى تربية أخيه الأكبر الدُّكتور السَّيِّد عبد العلي الحسني ، وتوجيهه الحكيم ، فقرأ في صباه أفضل ما كُتِبَ في السِّيرة النَّبويَّة في « أردو » لغة مسلمي الهند ، وهي أغنى لغات العالم الإسلاميِّ بعد اللغة العربية في موضوع السِّيرة ، وهي تحتوي على أقوى ، وأجمل ما كُتِبَ فيها في العصر الأخير .

ثمَّ لمَّا صار يشدو باللغة العربيَّة ؛ عكف على كتب السِّيرة ؛ الَّتي أُلِّفت فيها ، وكانت في مقدِّمتها السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام ، و« زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن قيِّم الجوزيَّة ، ولم يدرسهما دراسةً علميَّةً فحسب ، بل عاش فيهما زمناً طويلاً ، يذوق بهما حلاوة الإيمان ، ويغذِّي بما جاء فيهما من القصص ، والأخبار عاطفة الحبِّ والحنان ، ومن المقرَّر : أنَّ السيرة أقوى العناصر التَّربويَّة ، وأكثرها تأثيراً في النَّفس ، والعقل بعد القرآن ، ثمَّ قرأ ما وصلت إليه يداه من كتب السِّيرة ،

---

(١) اقرأ قصَّة صلة المؤلف بكتب السِّيرة ، وتأثيرها في ثقافته ، وعقليته ، وسيرته في كتاب « الطريق إلى المدينة » المقال الأول بعنوان « الكتاب الَّذي لا أنسى فضله » .

وهي المادة الأولى الَّتي يعتمد عليها في كتاباته ، ومحاضراته ، يستمدُّ منها القوَّة في البيان ، والتأثير في العقول ، والقلوب ، والدَّلائل القويَّة ، والأمثلة البليغة لإثبات ما يريد إثباته ، وهي الَّتي كانت ، ولا تزال تفتق قريحته ، وتشعل مواهبه ، ومامن كتابةٍ ذات قيمةٍ من كتاباته إلا وعليها مسحةٌ من جمال السِّيرة ، وفضل لدراستها ، والتأمُّل فيها ، وقد جمع ما كتب في جوانب السِّيرة المختلفة ، وعظمة البعثة المحمَّدية ، وما ألقاه من محاضراتٍ ، وأحاديثَ في كتابٍ أسماه : « الطريق إلى المدينة »[1] .

وقد عاش المؤلِّف هذه المدَّة الطَّويلة وقد ألف عشراتٍ من الكتب لا يفكِّر في إفراد كتابٍ في السِّيرة النَّبويَّة ؛ رغم أنَّه كان يشعر بمسيس الحاجة إلى كتابٍ كُتِبَ في أسلوبٍ عصريٍّ علميٍّ ، استُفيد فيه مِنْ خير ما كُتِبَ في القديم ، والحديث مؤسَّساً على مصادر السِّيرة الأولى الأصيلة ، مطابقاً لما جاء في القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة ، لم يكتب في الأسلوب الموسوعي Encyclopedic الحاشد للمعلومات في غير نقدٍ وتمحيصٍ ، الأسلوب الَّذي اعتاده أكثر المؤلفين المتوسِّطين ، والمتأخِّرين ، وقليل من المؤلِّفين المتقدِّمين ، والَّذي كان مثار كثير من التَّساؤلات الَّتي برَّأ الله السِّيرة الكريمة منها ، وأغنى المسلمين عنها ، قد نالته يد التَّنقيح ، والتَّحقيق من غير تقليدٍ للاتجاهات العصريَّة ، وخضوع لكتابات المستشرقين ، وأقوال المشكِّكين ، متمشياً مع المقرَّرات الدِّينيَّة الَّتي تُفهم في ضوئها الكتب السَّماوية ، وسِيَر الأنبياء ، والمُعجزات ، والأخبار الغيبيَّة ، قائماً على مبدأ : أنَّه سيرة نبيٍّ من الأنبياء ، مبعوثٍ من الله ، مؤيَّدٍ منه ، لا سيرة عظيمٍ من العظماء ، أو زعيم من الزُّعماء ، يسوغ أن يقدَّم إلى كلِّ مثَّقف منصف من المسلمين ، وغير المسلمين من غير تحفُّظ ، أو استثناء ، أو حاجةٍ إلى تأويلٍ . يعتمد فيه المؤلف على الحوادث ، والوقائع ، ومادَّة السِّيرة ، ويدعها تنطق بلسانها ، وتشقُّ الطَّريق بنفسها إلى القلوب ، والعقول أكثر ممَّا يعتمد على فلسفته للحوادث ، وتعليله للأخبار ، ومقدِّماته الطَّويلة العريضة ، فالسِّيرة النَّبويَّة غنيةٌ بجمالها ، وروعتها ، وسحرها

---

(١) ظهرت لهذا الكتاب ثلاثُ طبعاتٍ من المدينة المنوَّرة ، ولكهنؤ ، ودمشق .

على النُّفوس ، والعقول ، ووقعها منها موقع القبول عن شفاعة شافعٍ ، وتدليلِ حكيم ، وبراعة أديب ، وجلُّ ما يحتاج إليه المؤلِّف هو جمال العرض ، وحسن التَّرتيب ، وجودة التَّلخيص .

ثم يتجلَّى فيه العقل ، والعاطفة جواراً بجوارٍ ، فلا يكون فيه البحث العلميُّ ، والنَّقد التَّحليليُّ على حساب العاطفة ، والحبِّ ، والإيمان ؛ الَّذي لابدَّ منهما في تذوُّق السِّيرة ، والاستفادة منها ، وفهم قضاياها ، وأحكامها ، وحوادثها ، فإنَّه إذا تجرَّد الكتاب من العاطفة ، والحبِّ ، والإيمان ، كان خشبياً مصنوعاً ، لا حياة فيه ، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفيُّ العقيديُّ على حساب المتطلَّبات العقليَّة السَّليمة ؛ الَّتي نماها هذا العصر بصورةٍ خاصَّةٍ ، وعلى حساب المنطق السَّليم الَّذي لم يتجرَّد منه عصرٌ من العصور ، فيكون كتابَ عقيدةٍ ، وتقليدٍ فحسب ، لا يطيق قراءته ، ولا يسيغ ما جاء فيه إلا الأقوياء في الإيمان ، والرَّاسخون في الإسلام ، من الَّذين نشؤوا في بيئةٍ دينيَّةٍ خالصةٍ لا شأنَ لها بالعالم الخارجيِّ ، وبالثَّقافة العصريَّة ، وذلك وإن كانت موهبةً من الله ، فإنَّ سيرةَ نبيٍّ أرسل إلى النَّاس كافَّةً ، وأرسل رحمةً للعالمين ، لا يجوز أن تُجعل مقصورةً على هذه الطَّبقة السَّعيدة المؤمنة ، محجورةً على مَنْ لم تسمح ظروفهم بالنُّشوء في هذه البيئة المسلمة المؤمنة ، وأرادت حكمة الله أن يولدوا في بيئاتٍ غير إسلاميَّةٍ ، ثمَّ يدركهم اللُّطف الإلهيُّ ، وتهبُّ عليهم نفحةٌ من نفحات هذه السِّيرة العطرة ، فينتقلون بقوَّتها وجاذبيَّتها إلى حظيرة الإيمان ، ومعسكر الإسلام ، وليس حقُّ غير المسلمين على هذه السِّيرة ، وحظُّهم فيها أقلَّ من حقِّ المسلمين الَّذين نشؤوا في ظلال الإيمان ، والإسلام . والدَّواء حاجة المريض أكثر من حاجة السَّليم ، والقنطرة يحتاج إليها من يعيش وراء النَّهر أكثر ممَّا يحتاج إليها مَنْ يعيش دونه .

ثمَّ لا يسع المؤلِّف في السِّيرة صرف النَّظر عن البيئة الَّتي كان فيها وجودُها ، وقيامُها ، وعن العصر الَّذي كان فيه طلوعُها ، وبزوغُها ، فلابدَّ من وصف الجاهلية العالميَّة الضَّاربة أطنابها على الأرض كلِّها في القرن السَّادس المسيحيِّ ، ومدى ما وصل إليه هذا العصر من الفساد ، والانحطاط ، والقلق ، والاضطراب ،

ووصف حالته الخلقيَّة ، والاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، والسِّياسيَّة ، وما تضافر عليه من عوامل الإفساد ، والإضلال ، والتَّدمير ، والإبادة من حكوماتٍ جائرةٍ ، وأديانٍ مُحرَّفةٍ ، وفلسفاتٍ متطرِّفةٍ ، وحركاتٍ هدَّامةٍ . وحين أراد المؤلِّف أن يكتب فصلاً في تفصيلٍ ، وتوسُّعٍ على العصر الجاهليِّ يقدِّم به كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وجد في ذلك صعوبةً لا ينساها حتَّى اليوم ، واضطرَّ إلى أن يجمع المعلومات من المراجع الأجنبيَّة ، والكتب الَّتي أُلِّفت في تاريخ البلاد ، والأمم ، والدُّول المعاصرة لنشوء الإسلام في اللُّغات الأوربيَّة ، فالتقطها مِنْ ثنايا هذه الكتب ، كما تُلتقط حبَّات السُّكر الدَّقيقة من أفواه النَّمل (حسب المثل الأرديِّ) ، فجاء هذا الفصل الموسَّع[1] ، الَّذي يُنير الطَّريقَ لِمَن يقرأ كتب السِّيرة ، ويحاول أن يدرك عظمة البعثة المحمَّديَّة وضخامة المهمة الَّتي اضطلعت بها والنَّتائج العظيمة الجسيمة الَّتي أسفرت عنها ، وكان كلُّ كتابٍ يؤلَّف في السِّيرة النَّبويَّة في العصر الحديث جديراً بهذا النَّوع من البحث ، والنَّمط في التَّحقيق ، وإلقاء الأضواء القويَّة العلميَّة على العصر الجاهليِّ ، والتَّصوير الدَّقيق الأمين لما كان يجيش به من فسادٍ ، واضطرابٍ ، وانهيارٍ ، وانتحارٍ .

وذلك شأن البيئة الَّتي كانت فيها البعثة ، وظهور الإسلام ، والبلد الَّذي ظهرت فيه هذه الدَّعوة ، وولد فيه صاحب الرِّسالة ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وقضى فيه ثلاثاً وخمسين سنةً من عمره ، وعاشت فيه الدَّعوة ثلاث عشرة سنةً ، فلابدَّ أن يعرف الدَّارس للسِّيرة مدى ما وصل إليه العقل فيه ، والوعي ، والمدنيَّة ، ومكانة هذا البلد الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة ، وحالته الدِّينيَّة ، والعقائدية ، ووضعه الاقتصادي ، والسِّياسي ، وقوَّته الحربيَّة والعسكريَّة ، حتَّى يعرف طبيعة هذا البلد ، وعقليَّة سكانه ، والعقبات الَّتي كانت تعترض في سبيل انتشار الإسلام ، وشقِّه الطريق إلى الأمام .

---

(١) جاء هذا الفصل في ٦٦ صفحة ، في كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » بعنوان : « الإنسانية في احتضار » راجع الطَّبعة الأخيرة المصحَّحة ، والمنقَّحة ، طبعة دار ابن كثير الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م ، بعناية سيد عبد الماجد الغوري .

وقل مثل ذلك وأكثر عن مدينة يثرب ؛ الَّتي انتقل إليها الإسلام ، وهاجر إليها الرَّسول ، وأصحابه ، وأراد الله أن تكون مركز الإسلام الأوَّل ، فلا يُقَدَّر مدى قيمة النَّجاح الَّذي حقَّقه الإسلام ، وقدرته على التَّربية ، والبعث الجديد ، وحلِّ المعضلات ، والجمع بين العناصر المتناقضة ، وعظمة المأثرة النبويَّة ، وإعجازها في تأليف القلوب ، وتربية النُّفوس ؛ إلا إذا عرف الإنسان وضعية هذه البيئة الغريبة المعقَّدة ؛ الَّتي واجهها الرَّسول والمسلمون ، ولا تُفهم كثيرٌ من الحوادث ، والأحكام ؛ الَّتي يمرُّ بها القارىء في كتب السِّيرة ، والحديث إلا إذا عرف حالة المدينة الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، والسِّياسيّة ، وطبيعة أرضها ، وجغرافيَّة هذا البلد ، وما حوله ، وما كان يتركَّب به من عناصر إنسانيَّة ، وإقليميَّة ، وصلاتِ أجزاء عمرانه بعضها ببعضٍ ، والأعراف ، والمعاملات الشَّائعة قبل الهجرة ، وانتشار الإسلام فيه ، فإذا جهل القارىء كلَّ هذا ، وبدأ رحلته في كتب السِّيرة ؛ شعر بأنَّه يمشي في نفقٍ لا يبصر فيه ما حوله ، وكان على غير بيِّنةٍ من الأمر .

وكذلك القول عن الحكومات المعاصرة ، والبلاد المجاورة ، فلا يتبيَّن القارىء خطورة الإقدام الَّذي قامت به الدَّعوة الإسلاميَّة ، وقوَّة مغامرتها ؛ إلا إذا عرف حجم هذه الحكومات الَّتي كانت تقوم حوله ، والَّتي خاطبها الإسلام ، ودعاها الرَّسول ـ عليه الصَّلاة السَّلام ـ إلى الإيمان برسالته ، وقبول حكم الإسلام ، وما وصلت إليه من المدنيَّة والثَّقافة ، والقوَّة الحربيَّة ، والرَّفاهية ، والعمران ، وماكان يتمتَّع به ملوكُها من حَوْلٍ ، وطَوْلٍ ، وصولةٍ ، وشوكَةٍ ، وقد ألقى العلم الحديث ضوءاً على تاريخ هذه الحكومات ، والبلاد ، والمجتمعات الَّتي كانت تعيش فيها ، ورفع السِّتار عن كثيرٍ ممَّا كان مجهولاً ، أو غامضاً ، أو ملتوياً في العصر القديم ، فكان من الواجب أن يستعين بكلِّ ذلك المؤلِّف العصريُّ في السِّيرة النبويَّة ، ويستعين بالحديث الأحدث ممَّا كُتب ونُشر من كتب التَّاريخ والجغرافية ، والدِّراسة المقارنة .

كان المؤلِّف يشعر بكلِّ هذا مع اعترافٍ بجهود المؤلِّفين في هذا الموضوع ، وبقيمة ما صدر عن أقلامهم في فتراتٍ مختلفةٍ ، ولغاتٍ مختلفةٍ ، وفضله في الدَّعوة

الإسلاميَّة ، وتحبيب السِّيرة إلى نفوس القرَّاء ، وتقريبها إلى أذهان النَّاشئة ، وكان يرى السَّعادة في تأليف كتابٍ جديدٍ في السِّيرة النَّبويَّة لينخرط في سلك المؤلِّفين النوارنيِّين في هذا الموضوع الحبيب الجليل .

ولكنَّه كان يتهيَّب الكتابة في هذا الموضوع في توسُّعٍ وتفصيلٍ لضيق وقته ، وضعف بصره ، ولأنَّه جرَّب أنَّ كتاب سيرةٍ لعظيم من العظماء ـ فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء ، فضلاً عن سيِّد الأوَّلين ، والآخرين ، وأشرف المرسلين ـ من أصعب الموضوعات الَّتي يعالجها المؤلِّفون ، وأدقِّها ، وقد مارس موضوع تأليف السِّير ، والتَّراجم للشَّخصيات المشهورة ، وأعلام المسلمين من القدماء ، والمحدثين ، والمعاصرين عملياً ، فقد اشتغل بكتابة السِّير ، وحياة العظماء من أئمَّة المسلمين ، وقادتهم ، والمُصلحين والعلماء الربَّانيِّين بعدما شبَّ عن الطَّوق ، وأمسك القلم ، وعرف الكتابة ، وقد كتب بقلمه آلافاً من الصَّفحات في سيرة هؤلاء العظماء ، وعاش بين التَّراجم ، والسِّير منذ الصِّغر ، فقرأ منها الكثير ، وكتب منها الكثير .

ومن هنا عرف دقَّة هذا الموضوع ، وضخامة هذه المسؤوليَّة ، فَمِنَ المؤلِّفين مَنْ تتغلَّب عليه نزعةٌ ، أو اتِّجاه خاصٌّ ، فيُخضع له مَنْ يترجمه من حيث يشعر ، ومن حيث لا يشعر ، فتأتي كتابتُه صورةً لعقليَّته ، وعاطفته ، ممثلةً لاتجاهٍ خاصٍّ كان يسيطر على مؤلِّف الكتاب . ومنهم من يريد أن يصوِّر أحد العظماء ، فيصوِّر نفسه ، ويريد أن ينظر إليه نظرةً مجرَّدةً ، فيبدأ ينظر إليه مِنْ خلال ميوله ، وتجاربه ، ووجهة نظره ، ويسلِّط عليه مقاييسه الخاصَّة .

إنَّ مَنْ درس علم النَّفس ، والأخلاق ، وعُني بدراسة الشَّخصيات المعاصرة ، وعاش معها طويلاً ؛ عرف : أنَّ النُّزول في أعماق نفس إنسان ، والإحاطة بآفاقها ، وتصويرها تصويراً دقيقاً شاملاً من أصعب أنواع المعرفة ، وأساليب البيان ، وأدقِّها ، وأنَّه لا يحسن ذلك بعضَ الإحسان ، ولا يقدر عليه بعض القُدرة إلا مَنْ عرف شيئاً كثيراً من خوالج النَّفس وخواطرها ، وآمالها ، وآلامها ، وأحزانها ، وأشواقها ، والتهاب الرُّوح ، ولوعة القلب ، وقد رأى كيف يبيت هذا الإنسان ليله ، ويقضي نهاره ، وكيف يعاشرُ أهله ، ويعامل أصحابه ، قد رآه في السِّلم ،

والحرب ، والرِّضا ، والغضب ، وفي العُسر ، واليُسر ، والضَّعف ، والقوَّة ، وَمِن أحوال النَّفس الإنسانيَّة ، ومشاعرها ، وأحاسيسها ، ومن مظاهر الجمال ، والكمال ما لم توضع له ألفاظٌ بعدُ ، ولا تفي به ثروةٌ لغويَّةٌ مهما اتَّسعت ، ودقَّت .

والسِّيرة النَّبويَّة المُحمَّدية تتميَّز من بين سير أفراد البشر ـ وفيهم الأنبياءُ ، وغير الأنبياء ـ بدقَّتها ، وشمولها ، واستيعابها لدقائق الحياة ، وتفاصيلها ، وملامحها ، وقسماتها ، وذلك بفضل علم الحديث الَّذي لا يوجد له نظير ، لا في تاريخ الأنبياء ، ولا في تاريخ العظماء ، وكُتب السِّير ، والشَّمائل ، وما جُمع ، وحُفظ من الأدعية[1] والأذكار النَّبوية ، ومناجاته ـ ﷺ ـ لربِّه آناء الليل وأطراف النَّهار ، وما حُفظ ، ونُقل مِنْ جوامع الكلم ، وما أُثر عن الوصَّافين الحاذقين من أصحابه ، وأهل بيته في صفته الَّتي لم تَحْفَظْ كتبُ الآداب ، والتَّاريخ ، والأنساب صفةً أكثر منها دقَّةً ، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشريَّة ، والدقائق الخُلقية[2] ، ولذلك لم يكن الأمر في تأليف السِّيرة النَّبوية من الصُّعوبة ، والغُموض ، والافتراض ، والقياس كما هو في سير العظماء الأبطال ، وأنَّ سيرته ـ ﷺ ـ أكملُ السِّير ، كما كانت أجملَها ، وهي مؤسَّسةٌ على نصوصٍ قرآنيَّةٍ ، ووثائق تاريخيَّةٍ ، ودقائق في الخَلق ، والخُلق ، وتفاصيل في العادات ، والعبادات ، والأخلاق ، والمعاملات ، لا يُتصوَّر فوق ذلك ، وهي أقرب إلى الحقيقة ، والواقع قرباً لا يُتصوَّر فوقه ، ولا يُطمع في أكثر منه ، بعد أن مضى على هذه الحياة الطَّيِّبة الكريمة مدَّةٌ طويلة .

---

(١) ليراجع مقال المؤلِّف في صلة الأدعية النَّبويَّة بالسِّيرة ؛ وقيمتها ، وأهمِّيتها في دراستها ، وأنَّها مرآةٌ تجلَّت فيها خصائص النُّبوَّة ، وأسرارها ، وصلتها بالله ، وبالخلق ، والمعرفة الدَّقيقة لحقائق الحياة الإنسانيَّة ، وعلم النفس ، والأخلاق ، ودقائقها ؛ وقد نشر هذا المقال في رسالةٍ مفردةٍ في الأردية ، ونقلها إلى العربيَّة الأستاذ نور عالم الأميني النَّدوي ، ونشرتها « المختار الإسلامي » في القاهرة بعنوان : « دراسة للسِّيرة النَّبويَّة من خلال الأدعية المأثورة المرويَّة » .

(٢) اقرأ للتَّفصيل مقال المؤلِّف « القدوة الدَّائمة للأجيال البشريَّة كلِّها ، وكيف أمكن ذلك ؟ » في كتابه : « النَّبيُّ الخاتم » صدر عن دار ابن كثير الطَّبعة الأخيرة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

ولكن رغم وجود هذا الفارق الكبير بين سيرته ﷺ وبين سير العظماء ، بل وبين سير الأنبياء ، ورغم دقَّتها الَّتي لا دقَّة فوقها ، وشمولها الَّذي لا شمول فوقه ، لابدَّ من الاعتراف بأنَّ تصوير حياته ، وأخلاقه ، واستيعاب المعجزات الَّتي اشتملت عليها سيرته ، ودعوتُه ، وحياتُه الانفراديَّة ، والاجتماعيَّة ، ومعاملته مع الله ، ومع الخلق ، وآيات الحسن ، والإحسان في تكوين خَلْقه ، وخُلُقه ، وفي حبِّه ، ورأفته ، وفي دعائه ، وابتهاله وفي تألُّمه للإنسانيَّة ومصيرها ، وفي منطقه ، وحكمته ، وفي جامعيَّته ، وكماله ، يكاد يكون مستحيلاً ، وأنَّ ما جاء في كتب السِّير ، والشَّمائل ـ على جماله وروعته ـ هو بعض ما خصَّه الله به من جمال السِّيرة ، وكمال الخَلْق ، والخُلُق لا كلُّه ، وأنَّ جُلَّ ما هنالك : أنَّها محاولاتٌ ، وجهودٌ يُشكر عليها هؤلاء المؤلِّفون ، ويُؤجرون عليها ، وهي ثروةٌ عامَّةٌ خالدةٌ ، يجد فيها كلُّ إنسانٍ ، وكلُّ جيلٍ من البشر ، وكلُّ طبقةٍ من طبقات النَّاس حظَّها من الهداية والنُّور ، والتَّقليد ، والاقتداء ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

لكلِّ ذلك كنت أتهيَّب الكتابة في السِّيرة النَّبويَّة والتَّأليف فيها وأستعظمها ، وأستصغر نفسي ، وقد حثَّني عددٌ من الفضلاء ، وكرام الأصدقاء[1] على أنْ أؤلِّف كتاباً في السِّيرة النَّبويَّة في اللُّغة العربيَّة أراعي فيه عقليه الجيل الجديد ، وذوقه ، ومستوى فهمه ، ونفسيَّته ، وما جدَّ من طلباتٍ وحاجاتٍ ، وأسلوبٍ كتابيٍّ ، ومنهج علميٍّ ، فلكلِّ عصرٍ أسلوبه ، ولغته ، ومقادير ، وترتيباتٌ في الأدوية ، والأغذية ، وذلك كما قدَّمنا ، من غير إخضاع السِّيرة النَّبويَّة للأهواء ، والأغراض ، وللنَّظريات العلميَّة ؛ الَّتي تتغيَّر صباح مساء ، والشُّبه ، والاعتراضات ؛ الَّتي يدفع إليها التَّعصُّبُ الدِّينيُّ ، أو الجهل العلميُّ ، أو الغرض السِّياسيُّ .

وشرح الله صدري أخيراً لهذا التَّأليف ، فعكفت على هذا الموضوع ، وعشت

---

(١) في مقدِّمتهم صديق المؤلف فضيلة الشَّيخ محمَّد محمود الصَّواف عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلاميِّ في مكَّة المكرمَّة .

فيه ، أقرأ كتب السِّيرة ، والحديث ، وكلَّ ما أستعين به في هذا الموضوع من القديم ، والحديث ، وبدأت أكتب معتمداً على أصحِّ ما كُتب وأُلِّف في هذا الموضوع ، واستعنت بما كُتب في هذا الموضوع في العصر القديم ، والعصر الحديث ، وبالمراجع الأجنبيَّة الَّتي توضِّح الكثير من السِّيرة ، والتَّاريخ المعاصر ، وتلقي ضوءاً على الحكومات ، والمجتمعات المعاصرة[١] ، وحاولت أن يجمع الكتاب بين الجانب العلميِّ ، وبين الجانب التربويِّ البلاغيِّ ، لا يطغى أحدُهما على الآخر ، وأن يشتمل على أكبر مقدارٍ من القطع النَّابضة الدَّافقة بالحيويَّة ، والتَّأثير ، الآسرة للقلوب ، والنُّفوس التي لا يوجد نظيرها في سيرة إنسانٍ ، ولا في تاريخ فردٍ أو جيلٍ ، أو دعوةٍ ، أو دينٍ ، وذلك كلُّه من غير تنميقٍ ، أو تلوينٍ ، أو تحبيرٍ ، أو تحسينٍ ، فجمال الطَّبيعة ، والحقيقة لا يحتاج إلى تجميلاتٍ خارجيَّةٍ ، أو تزييناتٍ صناعيَّةٍ .

وكان هذا الكتاب شغلي الشَّاغل ما بين شوَّال ١٣٩٥هـ وشوَّال ١٣٩٦هـ (أكتوبر ١٩٧٥م ـ أكتوبر ١٩٧٦) لم أشتغل بغير هذا الموضوع إلا اضطراراً ، تتخلَّل ذلك فتراتٌ قليلةٌ من المرض ، ورحلاتٌ طويلةٌ في الشَّرق ، والغرب ، حتَّى يَسَّرَ الله إتمامه في غرَّة شوال سنة ١٣٩٦هـ ، وهاهو الآن بين يدي القرَّاء .

وأرى لزاماً عليَّ أن أشكر صديقين فاضلين ، لقيت منهما مساعدةً كبيرةً في تأليف هذا الكتاب ، وهما : فضيلة الشَّيخ برهان الدِّين السَّنبهلي أستاذ الحديث ، والتَّفسير في دار العلوم ندوة العلماء ، وقد أعانني في تخريج الأحاديث ، والبحث عنها ، والتَّحقيق في بعض ما جاء في كتب السِّيرة ، جزاه الله خير الجزاء ، والأستاذ محيي الدِّين أحمد[٢] فقد ساعدني مساعدةً غاليةً في دراسة المراجع الأجنبيَّة ، والتقاط المعلومات المفيدة من كتب تاريخ الأمم والبلاد ، والموسوعات الأجنبيَّة ، والمؤلِّف شاكرٌ لفضله ، ومعترفٌ بجهوده ، وإخلاصه . ولمَّا كان هذا الكتاب كلُّه إملاءً لعجز المؤلِّف عن الكتابة مباشرةً استعان ببعض الإخوان في كتابته ، وكان في

---

(١) وفي آخر الكتاب قائمةٌ للمراجع العربيَّة ، والأجنبيَّة .

(٢) وهو الَّذي وفق أخيراً لنقل هذا الكتاب إلى اللُّغة الانكليزيَّة ، وقد صدرت له طبعتان .

مقدِّمتهم العزيزان : محمد معاذ الأندوري النَّدوي ، وعليٌّ أحمد الكجراتي النَّدوي ، وساهم في ذلك الأستاذ نور عالم الأميني النَّدوي .

وقد كان للأستاذ محمد حسن الأنصاري فضلٌ في وضع الخرائط التَّاريخية الجغرافية الَّتي زيَّن بها الكتاب ، وزاد في قيمته العلميَّة ، كما كان للأستاذ الكبير الدُّكتور محمد شفيع رئيس قسم الجغرافية في جامعة « علي كره » الإسلاميَّة ومساعد نائب رئيس الجامعة ، وللقسم الجغرافيِّ في الجامعة فضلٌ في تحسينها ، وإكمالها ، والمؤلِّف شاكرٌ للإخوان جميعاً .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يتقبَّله تقبُّلاً حسناً ، وأن يجعله ذخراً للآخرة ، ووسيلةً لدراسة هذه السِّيرة الطَّاهرة ، والاستزادة منها ، والانتفاع بها ، وكفى للمؤلف شكراً ، وللكتاب قيمةً إذا أثار كامن الحبِّ ، والإيمان في نفس مؤمنٍ ، وانجذاباً في قلب أحدٍ من غير المسلمين إلى هذه السِّيرة الطَّاهرة ، العطرة ، وحملته على دراسة الإسلام وتفهُّمه . إنَّه وليُّ التَّوفيق !

الجمعة ٥/ ١١/ ١٣٩٦هـ

٢٩/ ١٠/ ١٩٧٦م

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

رائي بريلي ـ الهند

تقديم الطَّبعة السَّابعة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين .

وبعد : فقلبُ المؤلِّف ، وقلمُه يسجدان لله شكراً ، ويلهجان بحمده نطقاً ، وكتابةً على تقديم الطَّبعة السَّابعة « للسِّيرة النَّبويَّة » فقد صدرت الطَّبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) والطَّبعة السَّادسة في ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) ، من دار الشُّروق بجدَّة ، ولقي الكتاب من القرَّاء ، والمعنيِّين بالموضوع ، ورجال التَّربية ، والمؤسَّسات العلميَّة عنايةً ؛ يحمَد اللهَ عليها المؤلِّفُ ، ونقلت إلى عدَّة لغات غير العربيَّة ، مثل الأرديَّة ، والهنديَّة (اللغة الرَّسمية في الهند القريبة إلى السنسكريتيَّة) والإنجليزيَّة والتُّركيَّة ، والأندونيسيَّة ، وعُنيَ بها الدَّارسون في إطار هذه اللُّغات المنتشرة في نطاقٍ واسعٍ .

وقد سنحت للمؤلِّف فرصة الاطِّلاع على ما كتب في السِّيرة النَّبويَّة وما يتَّصل بها تاريخيًّا ، وجغرافياً ، وحضارياً ، واجتماعيّاً ، ودراساتٍ مقارنةً ، خصوصاً في اللُّغات الثَّلاث : العربيَّة ، والأرديَّة ، والإنجليزيَّة في هذه الفترة ، فالتقط منها بعض ما يزيد في المواد الموضوعيَّة ، وشرح خلفيَّات الحوادث ، والدِّراسة المقارنة ، ويلفت نظر المؤلف إلى إيضاح بعض الجوانب التَّاريخية ، والعلميَّة ، والدَّعويَّة في السِّيرة النَّبويَّة ، فاستفاد من ذلك ، وقام بضمِّ زياداتٍ ذات قيمةٍ يبلغ عددها إلى عشرين زيادةً ، بين موجزةٍ ، ومستفيضةٍ ، يجدها القارىء في مكانها .

ولم يقتصر المؤلف ـ من أوَّل عهده بتأليف هذا الكتاب إلى استئناف نظره فيه ، والزِّيادة ، والتَّنقيح ـ على عرض الوقائع ، والأخبار ، ومجرَّد التَّاريخ ، والتَّوقيت كقائمة معلوماتٍ رتيبةٍ خشيبةٍ ، بل عُنِيَ كذلك باستنتاج نتائج عميقة المَعنى ، بعيدة المدى ذات قيمةٍ في دراسة سير الأنبياء ودعواتهم ، لاسيَّما سيرة سيِّدهم ، وخاتمهم

ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ودعوته ، وفي النَّفسيات البشريَّة ، وعلم الاجتماع ، والأخلاق ، وهي من وحي السِّيرة ، ومن حقوقها ، وواجباتها على الدَّارس المؤمن والمَعنيِّ بتربية الأجيال المسلمة ، وتوجيه المُربِّين والدُّعاة ، والمؤلِّفين ، والباحثين في موضوع السِّيرة .

وقد جاءت هذه الطَّبعة ـ بتوفيق الله تعالى ، وتيسيره ـ جامعةً بين موادِّ السِّيرة الأصيلة الموثوق بها ، وبين أحدث ما كُتِبَ ، وتوصَّل إليه الباحثون في هذا الموضوع ، وبين الأمانة التَّاريخية ، والتَّحقيق العلميِّ ، وبين تغذية الإيمان ، والعاطفة بما لا سبيل إليه إلا في السِّيرة وهي غاية أكبر عددٍ من قرَّائها ، وحاجة الجميع من أفراد البشر ، وذلك من غير تفخيمٍ ، أو تلوينٍ ، فالسِّيرة غنيَّةٌ عن كلِّ هذا ، فائقةٌ في روعتها ، وجمالها ، قائمةٌ بذاتها في التأثير على النُّفوس ، والعقول .

وأخيراً : المؤلِّف يحمَد اللهَ على أنَّه فسحَ له في أجله ، وهيَّأ له الأسباب ، حتَّى يتمكَّن من النَّظر في كتابه ، وتناوله بالتَّنقيح ، والزِّيادة ، ويشكر « دار الشروق » العزيزة ، وصاحبها الحبيب الفاضل سعادة الأستاذ محسن أحمد باروم على عنايتها بنشر هذا الكتاب ، وإصداره طبعة بعد طبعةٍ ، والعناية بحسن إخراجه ، ويسأل الله لهما التَّوفيق الدَّائم ، وحسن القبول !

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
أمين عام ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)
بومباي الهند ١٧ ربيع الثاني ١٤٠٧هـ
٢٠/ ١٢/ ١٩٨٦م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة الطّبعة الثّانية عشرة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المُرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين .

أمَّا بعد ! فإنَّ أكبر مجموعٍ من كلمات الشُّكر ، وإبداء السُّرور لا يكفي للتَّعبير عمَّا يجده مؤلِّف الكتاب ـ الَّذي يعرف قدره ـ من السُّرور ، والشُّكر ، والامتنان على صدور الطَّبعة الثانية عشرة لكتابه المفضل المحبوب : « السِّيرة النَّبويَّة » الصَّادرة من « دار ابن كثير » بدمشق . في سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ، ولا يجد إلى ذلك سبيلاً إلا أن يستعين بالقول المأثور في الشُّكر ، والامتنان ، والاعتراف بالفضل ، والإحسان ، « الحمد لله الَّذي بعزَّته ، وجلاله تتمُّ الصَّالحات » .

وينتهز المؤلِّف ـ ككل مؤلِّفٍ فاحصٍ ، يواصل سيره في طلب المزيد الجديد ، والمنير المفيد ، في رحلته العلمية التَّأليفيَّة ـ هذه الفرصة لضمِّ زياداتٍ ، ليست كبيرة القامة ، ولكنَّها كبيرة القيمة ، وتعديلاتٍ يسيرةٍ ، إلى هذه الطَّبعة (الثانية عشرة) ، وآثر ـ في ضوء تجاربه كمؤلِّف ـ أن يكون ذلك تحت إشرافه ، وعلى كثبٍ منه .

وإلى القرَّاء الكرام ، والمؤسَّسات العلميَّة ، والمراكز التَّعليميَّة ، والتَّربويَّة ، الَّتي عُنيت بهذا الكتاب ، وآثرته دراسةً ، وتدريساً ، وفحصاً ، وتدقيقاً هذه الطَّبعة الجديدة المزيدة ، والحمد لله أولاً ، وآخراً ، وظاهراً ، وباطناً .

دار العلوم لندوة العلماء ـ لكهنؤ

المؤلِّف

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

سيرة خاتم النَّبيِّين

(للأطفال)

مؤسَّسسة الرِّسالة
بيروت

بين يدي الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أما بعد : فإنَّ أكبر مجموعةٍ من الكلمات ، وأبلغ بيانٍ يقصران عن إيفاء حقِّ الحمد ، والشُّكر لله تعالى ، وعن التَّعبير عن السُّرور الذي يغمر قلب كاتب هذه السُّطور ؛ وهو يقدِّم الجزء الأخير لسلسلة « قصص النَّبيين للأطفال » وهو الجزء الخاصُّ بسيرة خاتم النَّبيِّين ﷺ ، وقد مدَّ الله عمر الكاتب ، ورافقه التوفيق الإلهيُّ ، فأكمل هذه السِّلسلة المباركة ، وختمها بختمٍ ، هو مسك الختام ، ولو عجِّلت به منيَّته ، ومات قبل أن يكملها ؛ لحمل معه حسرةً لا تنتهي ، وحاجةً في نفس يعقوب ما قضاها ، وقد كان الشَّيءُ الزَّهيد من الأشغال ، والحوادث كافياً ليشغله عن وضع هذا الكتاب ، وإكمال هذه السِّلسلة ، وفي تاريخ التَّأليف ، والكتابة ، والتراجم لمؤلِّفين الكبار نماذج من السَّلاسل التي لم تكمل ، والأعمال التي لم تتمَّ .

وقد تعرَّض المؤلف نفسُه لمثل هذا الخطر ، فقد وقعت فترةُ مدَّة ثلاثين سنةً بين جزء « قصص النبيين » الَّذي انتهى إلى قصَّة سيدنا موسى ـ عليه ، وعلى نبيِّنا الصَّلاة ، والسَّلام ـ وبين الجزء الَّذي ابتدأ بقصَّة سيدنا شعيب ، وانتهى إلى قصَّة سيدنا عيسى بن مريم عليهم الصَّلاة ، والسَّلام ، وما بالحياة ثقةٌ ، وليس على ريب الزَّمان معوَّل ، ولكن أدركه اللُّطف الإلهيُّ ، وحالفه التَّوفيق ، فشرع في وضع السِّيرة النَّبويَّة للأطفال على إثر انتهائه من تأليف الجزء الأخير من « قصص النبيين » ، وذلك في شوال سنة ١٣٩٥هـ ، وعكف على تأليف هذا الكتاب حتى انتهى في مدَّةٍ قريبةٍ ، ثمَّ اشتغل بتأليف الكتاب الكبير في السِّيرة النَّبويَّة وقد كان هذا

الكتاب الصَّغير نواةَ هذا الكتاب الكبير ، وأساسه ، ووُفِّق لإتمامه في غرَّة شوال سنة ١٣٩٦هـ[1] .

وقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على تلخيص السِّيرة النَّبوية لابن هشام ـ الَّذي هو من أقدم كتب السِّيرة الموجودة الآن مطبوعةً متداولةً ، وأكثرها تأثيراً في النُّفوس ، والقلوب ـ مستنداً في ذلك إلى بعض المراجع القديمة ، وكتب الصِّحاح ـ ولم ير المؤلف ضرورة إحالة القارىء إلى هذه المراجع بقيد الصَّفحات ، والطبعات ؛ لأنَّ الكتاب قد أُلِّف للصِّغار النَّاهضين لا للباحثين ، والمحقِّقين ـ مقتصراً على النُّصوص والرِّوايات ، لم أمزجها بالبحوث العلميَّة ، والتَّعليلات الفلسفيَّة ، والشَّهادات الأجنبيَّة ؛ لأنَّ ذلك يشغل القارىء عن التَّشبُّع بروح السِّيرة ، والتَّذوُّق بجمالها ، ولأنَّ موضع هذه المباحث للكتاب الكبير الموسَّع في موضوع السِّيرة ؛ الَّذي كتب للمتوسِّعين في الثَّقافة ، المتقدِّمين في مداركهم العقليَّة ، والعلميَّة ، المواجهين للتساؤلات العصريَّة ، والكلاميَّة ، والدِّراسات المقارنة .

ولم أتقيَّد في هذا الكتاب بالالتزامات الَّتي التزمتها في الأجزاء الأولى من « قصص النبيين للأطفال » من محاكاة أسلوب الأطفال ، وطبيعتهم ، وتكرار الكلمات ، والجمل ، وسهولة الألفاظ ، وبسط القصَّة ، فقد شبَّ هؤلاء القرَّاء الصِّغار عن طوقهم ، وتقدَّموا في ثقافتهم اللُّغوية . . . ودرجتهم العقليَّة ، فأصبحوا قادرين على إساغة هذا الغذاء العلميِّ العقليِّ ، والتَّذوُّق لهذه القصَّة الرَّائعة لحياة أكبر إنسانٍ ، وأشرف نبيٍّ .

وهكذا جاء الكتاب ـ بحول الله تعالى ـ وسطاً بين الكتب الَّتي أُلِّفَت في السِّيرة للكبار النَّابغين ، والكتب التي أُلِّفت للصِّغار النَّاهضين ، فهو جدير بأن يدرسه الصِّغار المراهقون في مدارسهم ، ويقرأه الكبار المتوسِّطون في مكتباتهم ، ومنازلهم ، ويقدَّم كذلك إلى غير المسلمين ، أو يُنقل إلى لغاتٍ أجنبيَّةٍ ، وقد

---

(١) أخرجته دار الشُّروق في جدَّة باسم « السِّيرة النَّبويَّة » ، وصدرت من القاهرة في ربيع الآخر سنة ١٣٩٧هـ (أبريل ١٩٧٧م) وجاء ٤٧٥ صفحة بالقطع الكبير .

جاءت فيه خلاصة السِّيرة ، ولبابها ، وروائع حكاياتها ، وأخبارها ، وتاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة الأولى ، وفتوحها ، وانتصاراتها ، وعجائب التَّربية النَّبويَّة ، ومعجزاتها ، فأصبح الكتاب مدرسةً كاملةً ينشأ فيها الطَّالب بين إيمانٍ ، وحنانٍ ، ويتقلَّب بين رَوْح ، ورَيْحانٍ ، ويخرج منها ؛ وقد حمل معه الزَّاد الَّذي يسايره في حياته ، والنُّور الَّذي يسير في ضوئه ، والسِّلاح الَّذي يدافع به عن نفسه ، وإيمانه ، والرِّسالة الَّتي يحملها للعالم ، والأمم .

ولمَّا كان الكتاب قد أُلِّف لتلاميذ المدارس الثانوية ، وما شاكلها ؛ رأى المؤلِّف ضرورة شرح المفردات الغريبة ، وماهي فوق مستوى هؤلاء القرَّاء الصِّغار ، فطلب من الأستاذ نور عالم الأميني النَّدوي ، وهو يمارس التَّدريس في دار العلوم ندوة العلماء ، ويعرف مستوى أمثال هؤلاء التَّلاميذ الثَّقافي ، أن يتناولها بالشَّرح ، والإيضاح ، فقام بذلك مشكوراً ، جزاه الله خيراً !

وأخيراً لا آخراً : أحمدُ الله على هذا التَّوفيق ، وأشكره على آلائه ، ونعمه ، وأسأله القبول ، وأن ينفع به الجيل الجديد ، والنَّاشئة المسلمة ؛ الَّتي تُحيط بها العواصف ، وتُفرش في طريقها الأشواك .

والله يهدي مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم . .

١٥/ من ذي القعدة ١٣٩٧هـ

٢٩/ أكتوبر ١٩٧٧م

أبو الحسن علي الحسني النَّدْويُّ

دارة الشَّيخ علم الله

رائي بريلي

الطَّريقُ إلى المدينة

دار ابن كثير
دمشق ـ بيروت

كلمة المؤلِّف

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ، أمَّا بعد :

فرحم الله الشَّاعر[1] الَّذي يقول : « لقد عزمتُ على أنْ أجهِّز جيشاً جديداً من بلاد الحبِّ ، والعاطفة ، فقد بدت في مركز الإسلام طلائع ثورةٍ ، يقودها العقل الفلسفيُّ » .

لقد رأى المؤلِّف طلائع هذه الثَّورة بعينه في بلادٍ كانت مصدر الإيمان ، والحنان ، والعاطفة ، والوجدان ، وفي ربوعها تمثَّلت أروع روايةٍ من روايات الوفاء ، والفداء ، وقوَّة العاطفة ، ولم تزل شعوب العالم الإسلاميِّ تستمدُّ منها هذا الحبَّ الطَّاهر ، وهذه العاطفة الجيَّاشة ، وتشعل بها مجامر قلوبها ؛ الَّتي تتعرَّض حيناً بعد حينٍ للانطفاء ، وتواجه العواصف الهوجاء .

وهال المؤلِّفَ ، وأفزعه ضعفُ العاطفة في هذه البلاد ، وضعف الصِّلة الرُّوحيَّة ، والعاطفة بالنَّبيِّ ﷺ ، وهو خطرٌ كبيرٌ ، يمهِّد لكلِّ ثورة ، ولكلِّ اضطرابٍ ، ولكلِّ ضعفٍ ، ولكلِّ نوعٍ من أنواع الفوضى . وقد تمالأت عوامل كثيرةٌ ، ودعواتٌ عديدةٌ على تجفيف منابع هذا الحبِّ ، وإضعافه على الأقلِّ ، وأصيبت النُّفوس بجفافٍ في الشُّعور ، وفي التَّفكير ، سرى ذلك في الأدب والشِّعر ، وتعدَّى إلى الدِّين ، ومظاهره .

وقد أراد المؤلِّف أن يكون جنديّاً صغيراً في مهاجمة هذا التَّيَّار ، وفي إثارة هذا الحبِّ الدَّفين ، والعاطفة ـ الَّتي اعتقد أنَّها كامنةٌ كشرارةٍ في الرَّماد في قلب كلِّ مسلمٍ ـ وتغذيتها ، وتنميتها ، فجمع لهذا الغرض ما كتب من مقالاتٍ ، وما ألقى من محاضراتٍ ، وأحاديث في خلال هذه السَّنوات ، وهي انطباعاتٌ عن هذه

---

(١) الدكتور محمد إقبال الشَّاعر الفيلسوف .

الشَّخصية الحبيبة ، وسيرتها ، وحياتها ، وعرضٌ سريعٌ لما قد تغنَّى به الشُّعراء ، والمحبُّون في ديار العجم ، وقد أسميت هذه المجموعة الصَّغيرة بـ « الطريق إلى المدينة » فإنَّها تمهِّد الطَّريق إلى هذه المدينة ، وتبعث الأشواق إليها ، وإلى منوِّرها عليه ألف ألف سلامٍ ، وأعتذر إلى صديقي الأستاذ محمد أسد الَّذي أخذت منه فكرةَ هذه التَّسمية ، والَّذي سمَّى كتابه الجليل بـ « الطَّريق إلى مكَّة » .

وقد طلبت من صديقي أديب العربية الأستاذ علي الطنطاوي أن يكتب كلمةً كمقدِّمةٍ للكتاب ، فتفضَّل بها مشكوراً ، وهي كلمةٌ بليغةٌ رقيقةٌ ، كما هو العهد بصاحبها .

وأسأل الله مخلصاً أن ينفع بهذا الكتاب الصَّغير ، ويحقِّق به الغرض الكبير الَّذي كتب لأجله .

جدَّة ١٣/ ١/ ١٣٨٥هـ **أبو الحسن علي الحسني النَّدويُّ**

مقدِّمة الطَّبعة الرَّابعة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين محمدٍ ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، أمَّا بعد :

فقد ظهرت الطَّبعة الأولى لكتاب « الطَّريق إلى المدينة » سنة ١٣٨٥هـ ، وظهرت الطَّبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م ، وقد تُلقِّيَ الكتاب بقبولٍ كبير ، وأبدى عددٌ من الأدباء ، والكتَّاب ، والعلماء إعجابهم بالكتاب ، وتأثُّرهم العميق بما جاء فيه ، وقد كان له فضلٌ في إشعال الجمرة الإيمانيَّة ، والحبِّ الدَّفين الكامن للرَّسول الأعظم ﷺ ، وتلك قيمة الكتاب : إن كانت له قيمة ، وقد نُقل في مدَّة قريبة إلى اللُّغة التُّركيَّة ، وإلى اللُّغة الأرديَّة الهنديَّة[1] ، وقد قُرِّر تدريسُه ، ومطالعتُه في بعض المعاهد المحترمة .

ويعاد طبع الكتاب من جديدٍ ، لنفاد الطَّبعة الأولى ، والثانية ، والثَّالثة ، وكثرة الطَّلبات لهذا الكتاب، وقد كان المؤلف ضمَّ بعض المواد إلى ترجمة الكتاب الأرديَّة، فنقل ما سهل نقله إلى هذه الطَّبعة ، وترك ما توقَّف على الصِّناعات اللفظيَّة ، والتَّعبيرات المحليَّة ، والاستعارات ، والكنايات الفارسيَّة ، أو الأرديَّة ، فلا يتذوَّقها إلا من عاش في أجواء هذه اللُّغات ، وبيئاتها ، وضمَّ إليها بعض محاضراتٍ جديدةٍ بالعربيَّة ، وإلى القارىء الكريم الكتاب في طبعته الجديدة ، وثوبه القشيب .

أبو الحسن علي الحسني النَّدويُّ
ندوة العلماء ـ لكهنؤ

جدَّة ٨ من صفر سنة ١٤٠٧هـ
١٣/١٠/١٩٨٦م

---

(١) وقد ظهرت ترجمته الهندية ، وترجمته الإنجليزية من « المجمع الإسلامي العلمي » بندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند) .

جوانب السِّيرة المضيئة
في المدائح النَّبويَّة
بالفارسيَّة والأردوية

دار الصَّحوة
القاهرة

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على أفضل الدَّاعين وسيد المنيبين : محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد ، فهذه عجالةٌ تناول فيها الكاتب جانباً من جوانب السِّيرة النَّبويَّة المحمَّديَّة ، بالتأمُّل ، والدِّراسة ، والتَّحليل ، والاستعراض ، ممَّا له اتصالٌ وثيقٌ بالسِّيرة ، قد فاتت كثيراً من المؤلِّفين في موضوع السِّيرة العناية به ، والتوسُّع فيه ، وإفراد البحث عنه ، وكان هذا الحديث في إطار مقالٍ كتب على طلب من إحدى المجلات الإسلاميَّة[1] في أردو ، وإلحاح رئيس تحريرها ، وقد حاز هذا المقال إعجاب القرَّاء ، والمعنيِّين بالسِّيرة المحمَّدية ، فنشر في رسالةٍ مفردة ، أعيد طبعها مراراً ، ونقله إلى اللُّغة العربيَّة الأخ العزيز نور عالم الأميني النَّدوي أستاذ دار العلوم ندوة العلماء ، لكهنؤ ـ الهند ، ونشر في مجلَّة « البعث الإسلامي » ومجلَّة « الأزهر » . وإلى القراء ترجمتُه العربيَّة كاملةً .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
دائرة الشَّيخ علم الله الحسني ، رائي بريلي ـ الهند
٦ شوال ١٣٩٧هـ
٢١ سبتمبر ١٩٧٧م

---

(١) وهي مجلَّة « فاران » الصَّادرة من كراتشي ، رئيس تحريرها الأستاذ ماهر القادري .

مقدِّماته

لكتبه في الفقه والعقيدة

١ ـ الأركان الأربعة .

٢ ـ العقيدة والعبادة والسُّلوك .

الأركانُ الأربعة
في ضوء الكتاب والسُّنَّة

الدَّار الشَّاميَّة ـ بيروت
دار ابن كثير ـ دمشق

بين يدَي الكتَاب

الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى ، أمَّا بعد :

فهذا كتابٌ تحدَّثتُ فيه عن أركان الإسلام الأربعة : الصَّلاة ، والزَّكاة ، والصَّوْم ، والحجِّ : عن وضعها السَّماويِّ ، وحقيقتها الشَّرعية ، وتشريعها في الإسلام ، ومكانتها في الدِّين ، وفي الحياة الفرديَّة ، والاجتماعيَّة ، وعن مقاصدها ، وأسرارها ، كما قرَّرها الكتاب [القرآن الكريم] ، والسُّنة ، وفهمها المسلمون في القرون المشهود لها بالخير ، والمتمسِّكون بلباب الدِّين ، والرَّاسخون في العلوم في مختلف العصور ، والأجيال ، في غير تكلُّف عجميٍّ ، وتنطُّع فلسفيٍّ ، وتطرُّفٍ شخصيٍّ ، وفي غير خضوعٍ لأفكارٍ أجنبيَّةٍ ، واتِّجاهاتٍ عصريَّةٍ ، وفي غير إخضاعٍ ـ لمعانيها، وحكمها ، ونظمها ، ومناهجها ـ للفلسفات السِّياسيَّة، والمذاهب الاقتصادية ، والاجتماعية السَّائدة في عصورهم ، وأمصارهم.

وقد درستُ ـ زمن تأليفه ـ القرآن الكريم من جديدٍ ، ومصادر السُّنَّة ، ودواوينها الصَّحيحة ، وما كُتب في موضوع هذه الأركان ، وشرحها ، وتفسيرها ، وبيان مقاصدها ، وأسرارها ، وعُنيت بصفةٍ خاصَّةٍ بكتابات الأئمَّة الَّذين شرح الله صدرهم لفهم مقاصد الإسلام ، وروحه ، والوصول إلى أعماقه في غير تفريطٍ ، وإفراطٍ ، وتكلُّفٍ ، وإغراق ، ووفقوا لبيان مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ، وأسرار التَّنزيل ، وحكم التَّشريع ، كما أرادها الشَّرع ، وكما فهمها المسلمون الَّذين توجَّه إليهم الخطاب ، ونزل في لغتهم الكتاب ، وكانوا يجمعون بين الفهم العميق ، والعلم الغزير ، والعمل القويِّ ، والاتِّباع الدَّقيق (للرسُول ﷺ) والمجاهدة الدَّائبة في مجال العلم ، والعمل ، فتمهَّدت لهم السُّبل ، ولانت لهم الصِّعاب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . وقد تشبَّعوا بروح هذه العبادات ، كما تضلَّعوا في علومها ، ومارسوها

بصدقٍ ، وإيمان ، كما درسوها بدقَّةٍ ، وإمعانٍ ، فنطقت هذه الأركان على لسانهم ، وعبَّرت عن مكنوناتها ، ومضمراتها في شرحهم ، وبيانهم ، وكان أكثر استفادتي من كتاب (حجَّة الله البالغة) ، لشيخ مشايخنا شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرَّحيم المعروف بوليِّ الله الدِّهلوي[1] ، وهو كتابٌ فريدٌ في موضوعه ، وقد جاءت خلاصة ما كتبه في الأركان الأربعة ، وروحُه في هذا الكتاب .

فبدأت بالكتاب والسُّنَّة ، وما ورد عن هذه الأركان ، وعن روحها ، وحقيقتها، ومقاصدها ، وآدابها في القرآن ، والحديث ، وأردفت ذلك بما جاء في كتاب هؤلاء الأئمَّة في تفسيرها ، وتفصيلها ، وتوجيهها ، وتعليمها ، فجاء تفصيلاً للمجمل ، وتبسيطاً للموجز ، ولم يمنعني الحياء والشُّعور بالنَّقص عن عرض ما فتح الله به عليَّ ـ وهو الفتَّاح العليم ـ من فهم بعض مقاصد هذه الأركان الجليلة ، والكشف عن بعض جوانبها ، ومطاويها ، وصلتها بالحياة ، وفضِّها لكثير من المُعضلات ، والمشكلات ، ولم أتوقَّف من نقل بعض أقوال العلماء المعاصرين ، وذلك كلُّه في أسلوبٍ علميٍّ ، أدبيٍّ ، عصريٍّ ، فجاء الكتاب بحول الله يجمع بين القديم ، والجديد ، ويمثِّل المكتبة الإسلاميَّة الزَّاخرة في هذا الموضوع ، ويعرضها عرضاً جديداً للجيل الإسلاميِّ الجديد ، فقد كادت صلته تنقطع عن كتب المتقدِّمين ، وأساليبهم ، وخير ما دبَّجَتْه أقلامهم ، وفاضت به خواطرهم ، فكان ذلك خطراً على الجيل الجديد ، وتفريطاً في حقِّ السَّلف ، وإساءةً إلى المكتبة الإسلاميَّة ؛ الَّتي لا تُدانيها مكتبةٌ دينيَّةٌ في أمَّةٍ من الأمم ، وقد توارثت هذه الأمَّة فهم معاني العبادات وحقيقتها ، ومقاصدها ، كما توارثت أوضاعها ، وأشكالها ، وأحكامها ، وآدابها ، وتوارثت العمل بها من غير انقطاعٍ ، أو فترةٍ ، أو جهالةٍ ، أو غفلةٍ ، حتَّى وصل إلينا هذا الدِّين ، متواتراً متَّصلاً ، في المعاني ، والأشكال ، والمقاصد ، والهيئات ، فليس لأحدٍ في هذا العصر أن يبتكر لركنٍ من هذه الأركان مفهوماً لم تعرفه هذه الأمَّة في عمرها الطَّويل ، أو يلبسه لباساً (مستورداً) من الخارج ، أو مستعاراً من أجنبيٍّ .

---

(١) (١١١٤ ـ ١١٧٤هـ) راجع لترجمته نزهة الخواطر للسَّيد عبد الحي الحسني (المجلَّد السَّادس) .

وبدا لي ، بعد ذلك أن أدرس هذه العبادات ـ وهي العبادات الَّتي تلتقي عليها جميع الدِّيانات الَّتي كانت لها أيُّ صلةٍ بالسَّماء في عهدٍ من العهود ـ في الدِّيانات الأخرى ، وهي الَّتي لا يزال يدين بها خلقٌ كثيرٌ ، وشعوبٌ كبيرةٌ في العالم المعاصر ، وأن أقارن بين أوضاع هذه العبادات ، ومناهجها ، وفلسفتها ، وأحكامها في هذه الدِّيانات ، وبين أوضاعها ، ومناهجها ، وفلسفتها ، وأحكامها في الدِّين الإسلامي ، والشَّريعة الإسلاميَّة ، وأن أعتمد في ذلك على مصادر هذه الدِّيانات الأصيلة الموثوق بها عند أهلها ، كما اعتمدت في الحديث عن أركان الإسلام الأربعة وعرضها وتفسيرها على القرآن ، والحديث غالباً ، وعلى كتب أئمَّة الإسلام نادراً ، وأن يكون استعراضي لما كُتب في هذا الموضوع في الدِّيانات الأخرى ، ودراستي له دراسة أمينةً عميقةً ، أحاول فيها بقدر الإمكان أن أهتدي في هذا البحث والدِّراسة إلى اللُّباب ، والقول الفصل في هذا الباب عند فقهاء هذه الدِّيانات ، وزعمائها .

وقد كانت هذه المهمَّة عسيرةً دقيقةً ؛ إذ الوضع الدِّينيُّ ، والفقهيُّ في هذه الدِّيانات يختلف عن الوضع الدِّينيِّ ، والفقهيِّ عند المسلمين ، اختلافاً كبيراً ، والباحث يواجه غموضاً ، واضطراباً عظيماً ، وفراغاً علميّاً هائلاً ، لا عهد له به في كتب الشَّريعة ، والفقه ، وتاريخ التَّشريع الإسلاميِّ ، وقد استطعت بحول الله أن أخرج في هذا الكتاب بدراسةٍ مقارنةٍ تسدُّ ـ إلى حدٍّ ما ـ فراغاً في هذا الموضوع .

وقد كانت الحاجة إلى الدِّراسة المقارنة شديدةً ؛ لأنَّ المسلم لا يستطيع أن يقدِّر نعمة الإسلام ، وما أكرمه الله به عن طريق هذا الدِّين الكامل الخالد الَّذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، ولا أن يستوفي حقَّ الشُّكر ، والحمد ؛ إلا إذا قارن بين هذه العبادات في الإسلام ، والعبادات في الأديان الأخرى ، فضلاً عن العقائد ، والمبادىء ، والأسس الَّتي يقوم عليها صرح الإسلام العقائديُّ ، والكلاميُّ . وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر : أنَّه قال : (يوشك أن ينقض الإسلامَ عروةً عروةً مَنْ نشأ في الإسلام لا يعرف الجاهليَّة) . والموضوع خاضعٌ للتَّوسُّع ، والتَّرقِّي ، وزيادة الإتقان ، ودقَّة البحث ؛ لما يتجدَّد من

معلوماتٍ ، ويصدر بين حينٍ ، وآخر من موسوعاتٍ علميَّةٍ ، ومؤلَّفات دينيَّةٍ بقلم علماء هذه الدِّيانات ، والمؤلِّف مستعدٌّ للإفادة منها في الطَّبعات الجديدة .

وكان ممَّا حفز المؤلِّف على هذا التَّأليف ـ رغم أمراضه الَّتي يُعانيها ، والأشغال ، والمسؤوليَّات التي ترهقه ـ ما كان يشعر به من مدَّةٍ طويلةٍ من اضطراب الآراء ، والكتابات في تفسير هذه الأركان ، ومقاصدها ، وغاياتها ، وفوائدها ، ومصالحها في هذا العصر ، وإخضاعها في جراءةٍ كبيرةٍ ، وتوسُّعٍ ، وسخاءٍ للفلسفات العصريَّة ، والمذاهب الاقتصادية ، والسِّياسيّة ، ومصطلحاتها ، وتعبيراتها المحدودة ، حتَّى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التَّفسير ، وخضع لهذا العرض تفقد حقيقتها ، وقوَّتها ، وتضيع مقاصدها الَّتي شرعت لأجلها ، وكاد معنى الإيمان ، والاحتساب يضيع من بين هذه التَّعبيرات المادِّية ، والتَّفسيرات العصريَّة ، وكاد التَّفكير المادِّيُّ يطغى على روح العبادة ، والإخلاص ، فكان ذلك ـ بحيث يشعر أصحاب هذه الفكرة ، أو لا يشعرون ـ خطراً كبيراً على الأمَّة ، وطليعة تحريفٍ كبيرٍ في فهم المعاني الدِّينيَّة ، والمقاصد الشَّرعيَّة .

وحدث : أنَّ مجلَّة (المسلمون) الغرَّاء دعت المؤلِّف إلى كتابة مقال الحجِّ بمناسبة موسمه ، واتَّفق ذلك ثلاث مرَّات ، فكان المؤلف يكتب مقالاً كلَّ عامٍ ، عن حقيقة الحجِّ ، وروحه ، ومقاصده ، تنشره المجلَّة العزيزة ، وتذيعه الإذاعة السُّعودية في أكثر الأحيان ، ويقرأه الشَّباب المسلم بعنايةٍ زائدةٍ ، وتقديرٍ كبيرٍ ، ونظر المؤلِّف في هذه المقالات الثَّلاث ، فشعر بأنَّه أسلوب جديدٌ للكشف عن مقاصد الحجِّ الشَّرعيَّة الحقيقيَّة ، ومحاولةٌ متواضعةٌ للانتصار لهذا الرُّكن المظلوم ، الذي كان إخضاعه للاتجاهات الجديدة ، والمعاني السياسيَّة أكثر من كلِّ ركنٍ ، حتَّى أصبح في نظر كثيرٍ من المثقَّفين مؤتمراً سياسيّاً عالميّاً ، يُعقد كلَّ عامٍ ، وليست له إلا هذه القيمة السِّياسيَّة الاجتماعيَّة ، فرأى أن يوسع هذا المقال ، وينشره كرسالةٍ مفردةٍ ، تعرض الحجَّ في إطاره الإسلاميِّ الأصيل الواسع ، وتُثير معانيه العميقة ، ومقاصده البعيدة ، وروحه القويَّة ، الإبراهيميَّة ، الحنيفيَّة .

وكذلك وُفِّق المؤلف لكتابه مقالين عن رسالة الصِّيام ، ومقاصده بمناسبة حلول

رمضان ، واقتراح مجلّة (المسلمون) ، فبدا للمؤلف أن يكمل هذين المقالين ، ويضمَّ إليهما ركن الصَّلاة ، والزَّكاة ، وهكذا تكوَّنت فكرة الكتاب ، واستولت على مشاعر المؤلِّف ، وأعصابه ، فشغلته عن كلِّ عمل تأليفيٍّ ، أو تحقيقٍ علميٍّ ، وبقي يعيش في هذه الفكرة أكثر من عام ، يدرس النُّصوص ، ويراجع المصادر ، ويُملي المقالات ـ لعجزه عن الكتابة ، والمطالعة بنفسه ـ ويساعده بعض إخوانه ، وزملائه في كتابة هذه الأمالي ، وفي تخريج الأحاديث وفي النَّظر في الموادِّ الأجنبيَّة ، والبحث عن الموادِّ ، أخصُّ بالذكر ، والشكر منهم العزيز نثار الحقِّ النَّدوي ، والأستاذ تقي الدِّين النَّدوي ، والمفتي محمد ظهور النَّدوي ، والأستاذ شاهد علي ، مدرس اللغة الإنكليزية في دار العلوم ، والعزيز علي آدم الإفريقي[1] ، والأخوين نذر الحفيظ ، وغياث الدِّين النَّدويين ، جزاهم الله جميعاً عن المؤلف ، والقرَّاء ! فجاء هذا الكتاب حصيلة مطالعةٍ ، ونتيجة تأملاتٍ ، ورائد بحثٍ أوسع وأعمق ، والحمد لله الَّذي بعزَّته ، وجلاله تتمُّ الصَّالحات .

أبو الحسن علي الحسَني النَّدْوي
دائرة الشَّيخ علم الله الحسني
رائي بريلي (الهند)
٢ ـ ٢ ـ ١٣٨٧هـ

---

(١) ومحمد سعيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقدِّمةُ الطَّبعَةِ الثَّالثِة

الحمدُ لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ، أما بعد :

فإنَّ مؤلِّف الكتاب يشعر بابتهاجٍ ، وغبطةٍ ، ويلهج لسانه ، وجميع جوارحه بالثَّناء على الله ، والحمد على توفيقه ؛ وهو يقدِّم للطَّبعة الثَّالثة لهذا الكتاب ، الَّذي يعتبره من أحبِّ الأعمال ، وأعظم القُربات في مجال الكتابة ، والتَّأليف ، ويردِّد قول الشَّاعر من أعماق قلبه :

فلو أنَّ لي في كلِّ مَنْبَتِ شعرةٍ لساناً لما استوفيتُ واجبَ حَمْدِهِ

وقد كانت العناية بموضوع هذا الكتاب ، والتَّنويه بشأنه في الأوساط العلميَّة ، والدِّينيَّة فوق ما كان يتوقَّعه المؤلِّف ، وأكثر ممَّا كان يستحقُّه التَّأليف ، وظهرت ترجمتُه بالتُّركيَّة في مدَّةٍ قليلةٍ ، وترجمته بالأرديَّة ، والإنجليزيَّة ، ونفدت الطَّبعة العربيَّة الأولى في بضعة أشهرٍ ، والتجأ الناشر لكثرة الطَّلب ، وضغط الطَّالبين إلى إعادة طبعه بالتَّصوير ، فلم يتمكَّن المؤلِّف من تصويب الأخطاء ، والَّتي وقعت في الطَّبعة الأولى ، وكانت مع الأسف كثيرةً ، وصدرت الطَّبعة الثَّانية طبق الأصل في كلِّ شيءٍ ، وتأخَّرت مراجعة الكتاب ، وتصحيح الأخطاء لكثرة أشغال المؤلِّف وأسفاره ، حتَّى وفَّقه الله لذلك أخيراً ، فانصرف كلِّيّاً إلى قراءة هذا الكتاب وتصحيحه ، وتنقيحه ، وتهذيبه ، حتَّى أتمَّة في مدَّة قليلةٍ .

وكان المؤلِّف يشعر بفراغٍ ، أو بنقصٍ في المواد فيما يتَّصل بالصَّدقات في الدِّيانات الهنديَّة القديمة ، وعند اليهود ، والمسيحيِّين ، فدرس هذا الموضوع من جديد ، وألحق فصولاً جديدةً في هذا الموضوع ، هي غايةُ ما وصل إليه علمُه ودراسته ، واحتوت عليه مصادر هذه الدِّيانات ، الموثوق بها ، علاوةً على زياداتٍ

يسيرة ، وإيضاحاتٍ قليلةٍ ، يجدها القارىء في هذه الطَّبعة ، فجاءت الطَّبعة الثالثة بحول الله أكبر قيمةً ، وأغنى مادَّةً ، وأكثر ضبطاً ودقَّةً من الطَّبعتين الأوليين .

وها نحن أوَّلاً ، نقدِّم هذا الكتاب في طبعته المنقَّحة المزيدة ، وفي ثوبه القشيب للشَّباب الإسلاميِّ المثَّقف ، ومديري المدارس ، ومنظِّمي حلقات الدِّراسة ، والمطالعة ، ولقادة الحركات الإسلاميَّة ، ورجال التَّربية ، عسى أن يكون حلقةً مفقودةً ، كان المربُّون والموجِّهون بحاجة ملحَّةٍ إليها في التَّثقيف الدِّينيِّ الصَّحيح ، وفي تكوين المزاج الإسلامي النَّبويِّ ، والتَّمسُّك بلباب الدِّين ، وروحه ، وإثارة روح الإيمان ، والاحتساب في العاملين ، وتغذية العقل ، والقلب في وقتٍ واحدٍ ، في الدِّراسات الإسلاميَّة ، وهي غاية ما أمَّله المؤلِّف من تأليف هذا الكتاب ، وتشوَّف إليه ، والله مِنْ وراء هذا القصد .

لستَّ عشرةَ خلون مِنْ رجبٍ
سنة تسع وثمانين وثلاث مئة وألف
زاوية الشيخ علم الله الحسني رحمه الله
رائي بريلي ـ الهند

أبو الحسن علي الحسَني النَّدْوي

العقيدة والعبادة والسُّلوك

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين من العلماء المصلحين ، والمربِّين المرشدين .

وبعد ! فقد تكاثرت الكتب ، والمؤلَّفات في مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ، وأحكام الدِّين ، واتَّسعت حياة المسلم ، وتشعَّبت ، وتنوَّع المجتمع الإسلاميُّ ، وتنوَّعت حاجاتُه ، وعللُه ، وأسقامُه ، ومطالبه ، ومقتضياته ، وبدأت المكتبة الإسلاميَّة الدِّينيَّة تتَّسع ، وتمتدُّ ، وتتضخَّم تضخُّماً ، لا يصعب على المسلم المعاصر الاحتواء عليها فحسب ، بل يصعب عليه كذلك التخيُّر منها ، والانتفاع بها إجماليّاً ، لذلك وُجِدَ ـ بطبيعة الحال ـ في طبقة المعنيِّين بشؤون هذه الأمَّة ، واتِّجاهات هذا المجتمع ، والمطَّلعين على كثرة متطلَّبات الحياة ، ومشاكل العصر ، وحيرة المسلم بها شعورٌ بالحاجة إلى كتابٍ منقَّحٍ مركَّزٍ يكون مرشداً ، ودليلاً للمسلم في العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والعادات ، وقانوناً ، ودستوراً للحياة ، وهي حاجة إنسانيَّةٌ ، وشعورٌ طبعيٌّ ، لا يخلو عنه زمانٌ ، ولا يُستثنى منه إنسانٌ ، فقد روي : أنَّ أعرابيّاً قال لرسول الله صلَّى الله عليه ، وآله ، وسلَّم :

(إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ ، فأنبئني منها بشيءٍ أتشبَّث به !)

وقد لقي من الرَّسول الأكرم ، والمربِّي الأعظم استجابةً كريمةً ، فلم يلمْه صلى الله عليه وآله ، وسلم ، ولم يتَّهمه بقصور الهمَّة ، والانصراف عن التضلُّع بالعلم ، والدِّين ، بل قال : « **لا يزال لسانُك رطباً من ذكر الله عزَّ وجلَّ**[1] » .

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الأدب ، باب فضل الذِّكر رقم (٣٧٩٣) .

وعن أبي عمرو (وقيل : أبي عمرة) سفيان بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : قلتُ : (يا رسول الله ! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك) . قال : « **قل آمنت بالله ، ثمَّ استقم** » .

فكان ذلك حافزاً قويًّا ، ومشجِّعاً كبيراً لمن يُخرج للمسلمين كتاباً يتَّخذونه دستوراً لحياتهم ، وغنيةً ، وكفايةً ـ إلى حدٍّ خاصٍّ ـ في معلوماتهم الدِّينية ، وأعمالهم اليوميَّة ، وأخلاقهم الإسلاميَّة ، ومعيشتهم الفرديَّة والجماعيَّة .

وكان أكثرَ مَنْ تفطَّن لهذه الحاجة ، واستجاب لها استجابةً علميةً وتجلَّى هذا الاتجاه عنده في أروع مظاهره الإمامُ حجَّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (م٥٠٥هـ) ، فألَّف كتابه الخالد الطَّائر الصِّيت « إحياء علوم الدِّين » .

ويبدو : أنَّ المصنِّف حاول أن يكون هذا الكتاب مرشداً ومربِّياً للطَّالبين ، مغنياً عن غيره ، قائماً مقام المكتبة الإسلاميَّة ، فجعله يحتوي على العقائد ، والفقه ، وتزكية النَّفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الإحسان ، مشتملاً على التَّرغيب والتَّرهيب ، وعلى المواعظ الحكيمة الرَّقيقة المرقِّقة للقلوب ، يثيرها على الإيمان ، والعمل الصالح ، وتهذيب النَّفس ، ويحذِّر من أمراض القلب ، ويصف علاجها . ورغم ما ورد في الكتاب من موادَّ من كلام الفلاسفة ، وأحاديث ضعيفةٍ ، إلى غير ذلك من مآخذ تعقَّبها العلامة الحافظ ابن الجوزي(١) ، وشيخ الإسلام ابن تيميَّة(٢) مع اعترافهما بفضل الكتاب ، فقد كان له من الإقبال ، والعناية ، وحسن التلقِّي ، والقبول ، والانتشار ، والذُّيوع ، والثِّقة ، والاعتماد ما لم يُسْمَعْ عن كتابٍ آخر بعد الصِّحاح الستَّة ، وعددٍ قليلٍ من كتب الدِّين ، واتَّخذه النَّاس ـ جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصرٍ ـ في أرجاء العالم الإسلامي المترامية دستوراً ، ونبراساً للحياة ، واستمرَّ ذلك بعد عصر الغزالي ؛ حتَّى لم ير إمامٌ جليلٌ ، مشهورٌ بالنَّقد

---

(١) انظر « المنتظم » لابن الجوزي ، ج/٩ ، ص/١٦٩ و١٧٠ طبع دائرة المعارف ، حيدر آباد .

(٢) انظر « فتاوى ابن تيميَّة » ، ج/٢ ، ص/١٩٤ .

الحرّ الجريء ، ومؤلف كتاب « تلبيس إبليس » وهو الإمام العلامة الحافظ أبو الفرج عبد الرّحمن بن الجوزي (م٥٩٧هـ) مندوحةً عن تلخيصه ، وتهذيبه ، والنّسج على منواله ، وألّف كتاباً ، وسمّاه : « منهاج القاصدين »(١) ، وعني كبار العلماء بشرح الإحياء ونقده ، فقام الحافظ الإمام زين الدِّين العراقي صاحب « الألفية » بتخريج أحاديث الإحياء من الأخبار ، وشرحه نابغة الهند السيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزَّبيدي (م١٢٠٥هـ) في عشرين مجلداً ، وأسماه « إتحاف السّادة المتّقين شرح إحياء علوم الدِّين » ، والكتاب يكاد يكون موسوعةً ، وقد قامت مدرسةٌ مستقلةٌ في التربية والسُّلوك على أساس كتاب الإحياء ، تسمَّى « الطريقة الغزاليّة » ، وكانت منتشرةً في حضرموت ، وبعض البلاد العربيّة .

وقد ألف الإمام الغزالي كتاباً آخر في الفارسيَّة على منوال كتاب الإحياء ، راعى فيه الاختصار ، والتَّيسير ، وثقافة أبناء هذه اللُّغة ، يكاد يكون مختصر الإحياء في الفارسية ، أسماه : « كيمياء سعادت » ، كان له انتشارٌ ، وذيوعٌ في الأوساط الدِّينيَّة التي تطالع الكتب في الفارسيَّة وتستفيد منها ، أو تميل إلى الاختصار والسُّهولة(٢) .

ويلي كتاب « إحياء علوم الدين » في هذا الاتِّجاه التَّأليفي ، وتحقيق حاجة العصر ، ومطالب طلاب الإصلاح ، والتَّربية ، وخاصةً لمن وضع يده في يد شيخ مربٍ ، وداعٍ مصلحٍ ، وأراد السَّير على طريق الشَّرع والسُّنَّة وتهذيب الأخلاق ، كتاب : « غنية الطَّالبين » للإمام عبد القادر الكيلاني (م٥٦١هـ) واسم الكتاب « الغنية لطالبي طريق الحقِّ عزَّ وجلَّ » ألّفه مؤلِّفه العظيم الّذي هو أحد أئمّة الإسلام ، وكبار المربِّين للأمّة ، للطالبين الصّادقين من أصحابه ، وتلاميذه ، ومن انخرط في سلكهم ، لمعرفة الآداب الشَّرعية من الفرائض ، والسُّنن والهيئات

(١) وقد اختصر هذا الكتاب أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر بن قدامة المقدسي ، ونشر باسم : « مختصر منهاج القاصدين » .

(٢) وللإمام الغزالي رسالةٌ صغيرة بالعربيَّة في نفس الغاية ، اسمها : « بداية الهداية » قدَّم لها وعلّق عليها فضيلة الشَّيخ محمد الحجّار من علماء حلب . يقوم بنشرها وتوزيعها مكتبة دار الدَّعوة في حلب ، وهي رسالةٌ مفيدةٌ ، منيرةٌ للأذهان .

ومعرفة الصَّانع ـ عز وجل بالآيات ، والعلامات ، ثمَّ الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبويَّة ، ومعرفة أخلاق الصَّالحين ، ليكون عوناً لهم على سلوك طريق الله عزَّ وجلَّ ، وامتثال أوامره ، وانتهاء نواهيه ، وذكر في الكتاب أحكاماً لا بدَّ من معرفتها للمسلم الواعي ، من الطَّهارة ، والصَّلاة ، والزَّكاة ، والصِّيام ، والحجِّ ، وذكر الآداب الإسلاميَّة الثابتة من الكتاب والسُّنَّة ، والسِّيرة النَّبويَّة ، كأنَّه كتاب من لا يحضره الفقيه ، والمحدث ، والمعلم ، والمربي ، مع شيءٍ من مُجَرَّباته ، وأوراده ، وهو في ذلك فقيهٌ متمسكٌ بالسُّنَّة وعاملٌ على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ! وقد عقد في الكتاب باباً في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، ثمَّ شرح عقيدة أهل السُّنَّة ، وهو في ذلك على مذهب السَّلف من أتباع الإمام أحمد بن حنبل في مسألة الصِّفات ، والردِّ على الفِرَقِ الضَّالة عن طريق الهدى .

وقد رأى ـ رحمه الله ـ أن يضمَّ إلى هذا الكتاب مجالس التَّذكير ، والوعظ ، وفصولاً في فضائل الشُّهور ، والأيام ، لينوب الكتاب عمَّا اشتهر به رحمه الله من مجالس الذِّكر ، والوعظ ، التي انتفع بها في حياته خلائقُ لا تحصى ، وقد توسَّع في هذه الفصول توسعاً أليق بالمذكِّرين منه بالمحدِّثين ، وعيَّن الأوراد ، والأذكار لأهل طريقته ، وختم الكتاب بآداب المريدين ، وأخلاقهم ، وسلوكهم .

وقد ظلَّ الكتاب دستوراً لمن انتمى إلى طريقته ، ولمن قصد تنظيم حياته ، وضبطها في ضوء الكتاب ، والسُّنَّة ، وعقيدة السَّلف الصَّالح النَّقيَّة ، وتزكية النَّفس وتهذيب الأخلاق ، ويبلغ عددهم إلى مئات الألوف في القارَّتين آسيا ، وأفريقية .

وعلى هذا الطِّراز من النِّيَّة ، والقصد صنَّف المحدِّث اللُّغويُّ الجليل العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (م٨١٧هـ) كتابه : «سفر السَّعادة»[1] ، وقد عني في الكتاب بعرض السِّيرة النَّبويَّة باختصارٍ ، ثم بسننه ، وتعليماته في

(١) واسمه « صراطٌ مستقيم » المعروف بـ « سفر السَّعادة » ، وأصله بالفارسيَّة ، ونقله إلى العربيَّة أبو الجود محمد بن محمود المخزومي المصري (م٨٠٤هـ) .

العبادات ، والمعاملات ، وفي مختلف أحوال الحياة ، وبالأخلاق النَّبويَّة ، والشَّمائل المرضية ، فالكتاب يدور حول السِّيرة ، والطَّريقة النَّبويَّة ، في الحياة الفرديَّة ، والاجتماعيَّة ، ليتَّخذه المسلم الرَّاغب في معرفة السُّنن ، والطَّريقة المرضية النَّبوية دستوراً في حياته ، وقد ضمَّن الكتاب فصولاً في الطبِّ النَّبويِّ ، وفي مداواة المرضى ، والكتاب يقع في مئة وخمسين صفحةً من القطع المتوسط .

إلا أنَّ أكبر مجهودٍ في هذا الاتجاه ، وأعظمه قبولاً ، وانتشاراً ، هو كتاب : « زاد المعاد في هدي خير العباد » للإمام الحافظ ابن قيِّم الجوزية (م٧٥١هـ) فإنه يحتوي على مواضيع مختلفةٍ من السِّيرة ، والسُّنَّة ، والفقه ، وعلم الكلام ، والتَّزكية ، والإحسان ، وأعتقد : أنَّه ليس هناك كتابٌ جامعٌ أُلِّف للعمل ، والإصلاح بعد كتاب « إحياء العلوم » (للإمام الغزالي) بل وقد يفوقه من ناحية التَّحقيق ، والاستناد ، والتَّطبيق بين الكتاب ، والسُّنَّة ، ويبدو : أنَّه أراد أن يؤلِّف كتاباً ينوب عن المكتبة الدِّينية إلى حدٍّ كبير ، ويقوم مقام مربٍّ ، ومرشدٍ ، وفقيهٍ ، ومحدِّثٍ ، ولقد شغف بهذا الكتاب وأولع به مَنْ كانوا يتذوَّقون الحديث ، ويحرصون على اتِّباع السُّنَّة ، والآداب النَّبويَّة ، وكانوا يهتمُّون بها .

وقد يلاحظ : أنَّه خليط للعلوم الإسلاميَّة كلِّها ، من السِّيرة ، والحديث ، والفقه ، والتَّاريخ ، والكلام ، والنَّحو ، والصَّرف ، ولكنَّه رغماً من ذلك كلِّه يعتبر من أهمِّ كتب الإسلام الذي يقوم مقام مكتبةٍ بأسرها ، ووجوده كوجود عالمٍ كثير الفنون متبحِّرٍ ومحقِّقٍ في العلوم ، نال به آلافٌ مؤلَّفةٌ من طلاب الحق ، ومتبعي السُّنَّة هدايةً دينيَّة ، وغذاءً روحيّاً ، وحلاوةً إيمانيَّة(١) .

ومن هذه المؤلَّفات الَّتي أُلِّفت لهذا الغرض : (التَّوجيه الدِّيني والتَّربية الخُلقية) كتاب : « شرعة الإسلام إلى دار السَّلام » للشَّيخ الجليل « ركن الإسلام ، واعظ القوم محمَّد بن أبي بكر السَّمرقندي(٢) » ، ألَّفه المؤلِّف لتهذيب أطفال أهل

---

(١) ملتقطاً من كتاب « رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام ، الجزء الثاني ، لسماحة المؤلف ـ رحمه الله ـ طبع في دار ابن كثير ـ بدمشق .

(٢) لم يعثر سماحة المؤلِّف على ترجمة حياته إلا أنَّ صاحب « كشف الظُّنون » الحاجي خليفة=

الإيمان ، وقد وصفه في بعض كلامه بقوله : « إنَّه أوَّل ما يلقن به أطفال أهل الإيمان ، وأحقُّ ما يتحفَّظه أهل الإيقان ، بل لا مندوحة دونه لسالك سبيل الهدى ؛ كيلا يتردَّى به الهوى في هوة الردَّى »[1] .

والظَّاهر : أنَّ المؤلِّف قصد بهذا الكتاب أن ينتفع به أعقابه ، ويتَّخذوه دليلاً ، ومرشداً ، لقد قال في مقدِّمة الكتاب : « والمأمول من فضل الكريم الوهاب أن يبارك لمن أخلفه من الأعقاب ، بما أودعته هذا الكتاب . إنَّه ولي الإجابة والإيجاب ، وإليه المصير والمآب »[2] ، وقد ذكر ما ثبت بالسُّنة من عقائد الدِّين ، وملَّة الإسلام ، ينهج في ذلك نهج السَّلف من المحقِّقين ، وأنصار السُّنَّة النَّبويَّة . وذكر منهجاً للمسلم في العقيدة ، والعمل ، والأخلاق ، وتعرَّض لأخلاق العلماء ، وقد ذكر فيه تجاربه ، وملاحظاته كخبيرٍ مجربٍ ، وذكر آداب المتعلِّم ، وحقوق المعلِّم ، وجاء في ذلك بتوجيهاتٍ دقيقةٍ ، وفي الكتاب موادُّ تخضع للنَّقد الفنيِّ ، والبحث العلميِّ في ضوء علم الحديث المختمر ، ومعرفة السُّنَّة الصَّحيحة ـ على حسن نيَّة المؤلف ، وصلاحه ـ ولا تقبل على علاتها ، شأن القارىء النَّاقد المميِّز مع كتاب الإحياء ، وكتب الصُّوفية[3] .

ومن الكتب المقبولة الميسَّرة التي نفع الله بها في عصرها خلقاً كثيراً كتابُ : « ما لا بدَّ منه » للإمام العالم الكبير ، العلامة ، المحدِّث ثناء الله العثماني الباني

= ذكر الكتاب ، وقال : « إنَّه كتاب نفيسٌ ، كثير الفوائد » وقال : « إنَّه كتابٌ ما رأت عين الزَّمان مثلَه » .

(١) الكتاب ص(٣) .

(٢) المقدِّمة ص (٤) .

(٣) اكتشفَ هذا الكتاب المطمور في ركامٍ من المخطوطات أخونا الفاضل السَّيِّد محمَّد نينار ، ووجد نسختين من هذا الكتاب في مكتبة متحف سالارجنك في حيدر آباد (SALAR JANG MUSEUM) والثَّالثة في المكتبة المركزية الحكوميَّة الَّتي كانت تُعرف سابقاً بالمكتبة الآصفية ، وعني بتحقيقه ، وتمييز الاختلاف بين هذه النُّسخ ، وعلَّق على الكتاب ، وخرَّج الأحاديث ، والكتاب ماثلٌ للطَّبع .

بتي (م١٢٢٥هـ) المعروف بالقاضي ثناء الله الباني بتي[1] ، بدأ فيه بالعقائد الَّتي أصبحت شعاراً لأهل السُّنَّة ، والجماعة ، واحتوت عليها كتب العقائد ، وعلم الكلام وذلك بطريقٍ مبسَّطٍ ، وأسلوبٍ سهلٍ تتناوله أفهام النَّاشئين ، حتَّى عقول العواتق في الخدور[2] ، ثمَّ عقد فصولاً في الاهتمام بالصَّلاة ، ومسائل الطَّهارة ، وأحكام الصَّلاة بأنواعها ، وأحكام الزَّكاة ، والصَّوم مع الإشارة إلى فريضة الحجِّ ، والإحالة على الكتب الموسَّعة في أحكامه ، ومسائله ، واختار من هذه الأحكام ، والمسائل ما يكثر إليها الاحتياج ، ويعمُّ وقوعُها ، محترزاً في ذلك عن التَّطويل ، والتَّقعير ، وذكرُ المسائل النَّادرة ، ثمَّ جاء بفصلٍ خاصٍّ في التَّقوى مع مراعاة روح العصر ، والإشارة إلى ما عمَّ الابتلاء به ، وأنواع البيع ، والشِّراء ، والمعاملات المشروعة ، وغير المشروعة في زمانه ، وفصل في آداب المعاشرة ، وحقوق النَّاس ، والمعاصي ، والمحظورات المنتشرة في زمانه ، والَّتي استهان بها النَّاس ، واستصغروها ، وأشار في ذلك إلى رذائل الأخلاق ، وغوائل النَّفس ، وعادات الجاهليَّة مع الحثِّ على الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، والأخلاق الفاضلة ، ثمَّ عقد فصلاً خاصّاً في الإحسان ، وهو تزكية النَّفس ، وإخلاص الدِّين لله ، والحصول على لبه ، وحقيقته ، وذلك بكلامٍ وجيزٍ ، وإشاراتٍ تكفي العاقل ، وتنير له السَّبيل .

ومزيَّة الكتاب اقتصاره على ما لابدَّ من معرفته ، والتَّمسُّك به للمسلم المتوسِّط المشغول ، ولمن كان في سنِّ المراهقة الطبعيَّة ، أو العقليَّة ، ولذلك ظلَّ هذا

---

(١) قال الشيخ غلام علي العلوي الدِّهلوي في كتابه : « المقامات » : إنَّه كان مع صفاء الذِّهن ، وجودة القريحة ، وقوَّة الفكر ، وسلامة الذِّهن بلغ إلى رتبة الاجتهاد في الفقه ، والأصول ، له كتابٌ مبسوطٌ في الفقه ، التزم فيه بيان المسألة مع مآخذها ، ودلائلها ، ومختارات الأئمَّة الأربعة في تلك المسألة ، وله رسالة مفردةٌ في أقوى المذاهب المسمَّى بـ « الأخذ بالأقوى » وله تفسيرٌ للقرآن في سبع مجلَّدات كبار (نقلاً مِنْ : « نزهة الخواطر » ج٧) .

(٢) ظل الكتاب مدَّةً طويلةً من المقرَّرات الدِّراسيَّة لبنات المسلمين ، وأبنائهم ، والسَّيِّدات في بيوت الهند الإسلاميَّة ، وقد أدرك سماحة المؤلف آخر هذا العصر ، ونهايته .

الكتاب مدّة قرنٍ وزيادة من المقرّرات الدِّراسيّة في الأسر الإسلاميّة ، والبيوتات الشّريفة ، وكان لابدّ من دراسته ، ومطالعته في أوّل مراحل التّعليم الدِّيني ، والكتاب باللُّغة الفارسيّة ـ لغة المسلمين الدِّراسيّة في شبه القارة الهنديّة في ذلك العصر ـ يحتوي على ١٥٠ صفحة بالقطع المتوسّط .

ومن أحسن ما أُلِّفَ في هذا الموضوع ، ولهذا الغرض ، وكان أثره عميقاً في النُّفوس ، والأخلاق ، والعقائد ، والأعمال ، ونفعه واسعاً وكبيراً ، كتاب « الصِّراط المستقيم » ، وهو من إفادة إمام الدَّعوة الإسلاميّة ، وكبرى حركات الجهاد ، والإصلاح في شبه القارة الهنديّة في القرن الثّالث عشر الهجري ، السَّيِّد الإمام أحمد بن عرفان الشّهيد (ش١٢٤٦هـ) وتأليف رفيقه ، ووزيره العلامة محمَّد إسماعيل الشهيد (ش ١٢٤٦هـ) وزميله العلامة الشَّيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي (م ١٢٤٣هـ) بالفارسيّة[1] .

وفي الكتاب تعليماتٌ واضحةٌ ، وتوجيهاتٌ نيِّرةٌ للسَّير على صراط الإسلام المستقيم ، ومحجّة الشريعة البيضاء ، والسُّنَّة السَّنية الغرّاء ، وتفضيل طريق النُّبوَّة على طريق الولاية ، وشرحها ، والقرب بالفرائض على القرب بالنَّوافل ، وفي تصحيح العقيدة ، وإخلاص الدِّين لله ، والتَّحذير من أنواع الشِّرك ، والبدع على اختلاف أنواعها ، وخصوصاً من البدع التي كانت فاشيةً في عصره في أوساط الصُّوفيَّة ، والمتعبِّدين ، والَّتي نشأت بتأثير الفلاسفة والملحدين ، والباطنيَّة ، والمعطِّلين ، والشِّيعة الرافضة ، والغلاة المبتدعين ، وكذلك ما انتشر منها ، وغزا المجتمع الإسلاميَّ ، وجاس خلال الدِّيار باختلاط المسلمين بالوثنيِّين ، من التقاليد ، والأعراف ، والشَّعائر ، والعادات الجاهليَّة في الأفراح ، والأعراس ، والمآتم ، والمناسبات الاجتماعيَّة ، والعائلية ، وما نبت من النَّابتة (كالحشائش الشَّيطانيَّة) في حقل حياة المسلم ، بسبب الجهل للكتاب والسُّنَّة ، وبُعد العهد عن

---

(١) وقد عرَّبه الشيخ عبد الحي المذكور أثناء إقامته بالحجاز بأمرٍ من شيخه السَّيِّد أحمد ، وطلب من الرَّاغبين ترجمته (١٢٣٧هـ)

الاشتغال بالحديث ، تلا ذلك فصولٌ في تهذيب الأخلاق ، وتزكية النَّفس ، مع بيان مكايد النَّفس ، ومصايد الشَّيطان ، والأخلاق الرَّذيلة ، وما يخلُّ بالعبادة ، والوصول إلى الله ، والحصول على درجات الكمال الإنسانيِّ ، والإيمانيِّ ، وشرح معالجاتها ، وطرق التَّغلُّب عليها ، وإزالتها[١] .

ومن مزايا هذا الكتاب : أنَّه مزج التَّعليمات في الأذكار ، والعبادات ، وإصلاح العقيدة ، والسلوك إلى الله بالدَّعوة إلى الله ، والجهاد في سبيل الله ، والعمل بالعزيمة ، والاهتمام بأمر الأمَّة ، والتهيؤ لاعلاء كلمة الله ، والانتصار لدين الله ، ومحاولة إظهاره ، وتغليبه على كلِّ دينٍ ، وعلى كلِّ منهجٍ ، وطريقٍ .

وقد أضيف إلى أهمِّيَّة هذا الموضوع ، وحاجة الجيل الجديد إليه ما اتسم به هذا العصر من حبِّ الاختصار ، والاقتصار على الضَّروري المفيد[٢] والشُّعور البالغ ـ إلى حدِّ الحساسية الزَّائدة ـ بقيمة الوقت ، وسرعة مضيِّه ، والزُّهد في كلِّ شيءٍ طويلٍ معقَّدٍ ، وما يجهد النَّفس ، ويستنفد طاقتها من التأمُّل ، والمطالعة ، بل ما يشقُّ على النَّفس من الفهم ، والإدراك ، مضافاً إلى كلِّ ذلك ما اتسم هذا الجيل به من قصور الهمَّة ، وضعف الإرادة ، بل وضعف القوى ، هذا مع ما امتاز به هذا العصر من ارتفاع مستوى المعيشة ، وتعقُّد المدنيَّة ، وكثرة مطالب الحياة ، وتكاليفها .

كلُّ ذلك استلزم وضع كتابٍ جديدٍ يقوم مقام الكتب الَّتي سبقت الإشارة إليها ، فلكلِّ عصرٍ لغةٌ خاصَّةٌ لا يفهم أهله إلا بها مع وحدة اللُّغة ؛ الَّتي درجت عليها

---

(١) ويدخل في هذا الموضوع كتاب : « تعليم الدِّين » للمصلح ، والمربِّي الكبير في عصرنا هذا الشَّيخ أشرف علي بن عبد الحقِّ التهانوي (م١٣٦٢هـ) ، والكتاب يقع في ١٤٤ صفحة ، ويحتوي على فصول في العقائد ، والتَّصديقات ، والأعمال ، والعبادات ، والمعاملات وآداب العشرة ، وسلوك الطريقة . وله كتابٌ أوسع منه ، وأكثر انتشاراً ، وهو كتاب « بهشتي زيور » بمعنى : « حلية الجنَّة » ألَّف أصلاً للسَّيِّدات ، والبنات المسلمات ، ولكن انتفع به المسلمون على اختلاف طبقاتهم ، ولا يزالون .

(٢) حتَّى سمِّي هذا العصر بعصر الشَّطيرة (Sandwich Age) .

الأجيال ، ولكلِّ عصرٍ نفسيةٌ ، ومنطقٌ ، وأسلوبٌ لابدَّ من مراعاته إلى حدٍّ ، زد إلى ذلك ما يجدُّ ، ويتغيَّر من الأمراض النَّفسيَّة ، ومواضع الضَّعف ، ومداخل الشَّيطان في كلِّ عصرٍ ، وبيئةٍ . وما تتفاوت درجاتُه من الأهميَّة ، واللُّزوم .

وكذلك الفهم الدِّينيُّ ، والتَّصوُّر الإسلاميُّ يتأثران بعوامل خارجيَّةٍ ، تتغيَّر باختلاف الأزمنة ، وتأثير الفلسفات ، والنُّظم السائدة المسيطرة ، فقد تأثرا في القرن الثاني فما بعده بالفلسفة اليونانيَّة ، والفكرة العقلانيَّة المنتشرة في ذلك العصر ، وهما يتأثران اليوم بالفلسفات الغربيَّة السِّياسيَّة ، والنُّظم الاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، وأساليب تنظيم الحياة ، والمجتمع في هذا العصر ، وإنَّ الكتاب الوحيد الَّذي لا تبلى جدَّته ، ولا يؤثِّر فيه الزَّمان ، هو كتاب الله المعجز الخالد ، وسنَّة رسوله الثابتة ، وما صحَّ من حديثه ﷺ . أمَّا ما عداهما ؛ فهو خاضعٌ لناموس التَّغيُّر ، قابلٌ للتَّطوير ، والتَّنقيح ، والحذف ، والزيادة ، والاختيار ، والتَّلخيص .

وقد كان بعض الإخوان المخلصين يقترحون عليَّ مِن زمانٍ وضع كتاب في هذا الموضوع ينتفع به رجال هذا الجيل ، ويتَّخذونه دستوراً ، ودليلاً لحياتهم ، كما انتفع رجال الأجيال القديمة ، والعصور الماضية بما وضع لهم في عصرهم ، وكنت أستصغر نفسي ، وبضاعتي لتحقيق هذا الطَّلب ، وأتهيَّب إدلاء دلوي في هذا الموضوع إذا نظرت إلى قائمة المؤلِّفين فيه في القديم ، وجلالة شأنهم ، وعلوِّ مكانهم في العلم ، والإخلاص ، وزيادةً على ذلك كانت أعمالي الكتابيَّة ، والمخطَّطات التأليفيَّة التي كنت وضعتها ، ورأيتها ، وأراها لزاماً عليَّ ؛ كانت تعوقني عن التفكير الجدِّي في هذا الموضوع ، فضلاً عن اقتحامه ، والخوض فيه ، حتَّى أدَّتني إلى ذلك دراستي الشَّخصية وتجاربي الخاصَّة ، واطِّلاعي المباشر على ما يُعانيه المخلصون : الطَّالبون للهداية ، والنَّصيحة ، القابلون للحقِّ متى وُجد ، وأينما وجد بوجود هذا الفراغ في المكتبة الإسلاميَّة العصريَّة ، وعجز الكتب الكبيرة المطوَّلة عن ملءِ هذا الفراغ ، وسدِّ هذه الثُّغرة ، فشرح الله صدري بالقيام بهذا العمل بحسب مؤهِّلاتي ، وبضاعتي في العلم ، ورأيتُ : أنَّ التَّأخير فيه إخلالٌ بالواجب ، وتفريطٌ في أداء فريضةٍ ، ولعلَّ الله يحاسبني عليها ، فتوكَّلت على الله ، واستخرته ، ودعوته للتَّوفيق ، والتَّيسير .

ووفق الله لتأليف هذا الكتاب ، وقد صببت فيه عصارة دراساتي ، وخلاصة تجاربي في مجال الدَّعوة ، والتَّربية ، ومعرفتي بطبقات الأمَّة المختلفة معرفةً عمليَّةً ، فاستفدت من كلٍّ ذلك في تأليف هذا الكتاب ، ولم أتحاش عن عرض مقتطفاتٍ من كتاباتي السَّابقة ؛ إذا كانت وافيةً بالغرض ، معبرةً عن المعاني الَّتي كنت أريدها ، وقد رأيت فيها غنىً ، وكفايةً عن العودة إلى الكتابة في موضوعها ، فنقلتُها باختصارٍ ، وتعديلٍ ، وأحلتها إلى مظانِّها .

وأرجو الله أن ينفعني بهذا الكتاب أولاً ، وينفع الطَّالبين الصَّادقين ، النَّاصحين لأنفسهم ، وللدِّين من المسلمين عامَّةً . وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكَّلتُ ، وإليه أنيب .

٧ من شعبان ١٤٠٢هـ .

٣١ من مايو سنة ١٩٨٢م

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
دارة السَّيد علم الله الحسني ، رحمه الله !
رائي بريلي

مقدِّماته

لكُتبه في السِّير والتراجم

١ ـ المرتضى .

٢ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام .

٣ ـ إذا هبَّت ريحُ الإيمان .

٤ ـ الإمام الذي لم يُوَفَّ حقَّه من الإنصاف والاعتراف .

٥ ـ روائع إقبال .

٦ ـ شخصيات وكتب .

المرتضى

(سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه)

دار القلم
دمشق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بَين يَديْ الكتَابْ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

أما بعد : فإنَّ لكثيرٍ من عظماء الرِّجال ، وقادة الأجيال ، وصانعي التَّاريخ ، ومُثْري الآداب ، والعلوم ، وفضائل الأعمال ديوناً ، وحقوقاً على الشُّعوب والأمم ، والمجتمعات الَّتي تُجِلُّهم ، وتتغنَّى بأمجادهم ، وبطولاتهم ، وعبقريَّاتهم ، وقد تتفانى ، وتغلو في حبِّهم ، وتفضيلهم يتأخر أداؤها ، وإيفاؤها ، وقد تطول هذه المدَّة ، فتبلغ إلى قرونٍ ، وتمتدُّ إلى أجيالٍ ، وقد تقصر ، فتصل إلى عقودٍ من السِّنين ، وفتراتٍ تاريخيَّةٍ محدودة .

وهي حكاية كثيرٍ من الأمم ، والعهود ، وطبقاتٍ مختلفةٍ من حَمَلَةِ راية الإصلاح ، والدَّاعين إلى سبيل الرَّشاد ، والصَّلاح ، ومنقذي الأمم ، ومحرِّري البلاد ، والمبدعين لصنوف العلم ، والأدب ، والحكمة .

بقي ذكرهم مطموراً في ركام التَّاريخ ، واسمهم مغموراً في قائمة الأسماء اللاَّمعة ـ لأسبابٍ خاصَّةٍ ـ وأحاطت بهم هالاتٌ من الأساطير ، والمبالغات ، والتَّفاصيل الجانبيَّة الَّتي لا تلقي ضوءاً على شخصيتهم المميَّزة ، ولا تحدِّد مكانتهم في التَّاريخ .

وقد تحول بينهم ، وبين فهمهم الصَّحيح ، والإنصاف لهم خلافاتٌ مذهبيَّةٌ ، وحوادث تاريخيَّةٌ ، ومصالح سياسيَّةٌ ، ونقولٌ تقليديَّةٌ ، فتحجبهم عن الأنظار ، أو

تجعلهم ملكاً لطائفة خاصَّةٍ ، أو فرقةٍ معيَّنةٍ ، ويعتبر الخروج من هذا السُّور العالي ، والاعتراف بالفضل والنَّظر إليهم كثروةٍ مشاعةٍ للبشريَّة ـ أو لديانةٍ خاصَّةٍ على الأقلِّ ـ وهبةٍ إلٰهيَّةٍ ، ومعجزةٍ من معجزات الرَّسول الأعظم ، ودليلٍ على صدق الإسلام ، وقدرة إنجابه للعظماء ، وأهل الكمال انحرافاً عن الدَّائرة التَّقليديَّة ، وشذوذاً مذهبيّاً يتحاشاه المتديِّن المتحمِّس .

***

ومن هذه الشَّخصيات المظلومة ، أو المهضومة حقَّها شخصيةُ سيِّدنا عليٍّ بن أبي طالبٍ ، الَّتي تراكمت عليها حجبٌ كثيفةٌ على مدى القرون ، والأجيال لأسبابٍ مذهبيَّةٍ طائفيةٍ ، ونفسيَّةٍ ، ولم ينُصَف لها حقُّ الإنصاف ، ولم تُعْرَضْ للدَّارسين والباحثين ـ وحتَّى للمحبِّين المجلِّين ـ في صورتها الحقيقيَّة ، وإطارها الواسع الشَّامل ، وفي استعراضٍ أمينٍ ، دقيقٍ ، محايدٍ للعصر الَّذي نبغت فيه ، والأحداث الَّتي عاشتها ، والمجتمع ، ورجاله ، وقادته الَّذين عاصرتهم ، وتعاونت معهم ، والمعضلات والمصاعب الَّتي واجهتها ، والقيم ، والمُثُل الَّتي تمسَّكتْ بها أشدَّ التمسُّك ، والخطَّة السِّياسيَّة ، والإدارية الَّتي آثرتها ، ولم يُبحث عن أسبابها ، ونتائجها ، ولم تُقارن بنقيضها ، وضدِّها ، ونتائجه ؛ لو فضَّله ، وسار عليه .

والتَّبعةُ الكبيرة في ذلك على الأسلوب التَّاريخيِّ ، والتَّراجميِّ الَّذي آثره مؤرِّخونا ، والمؤلِّفون في السِّير ، والتَّراجم ، ومناقب الرِّجال ، ومآثرهم ، والمؤلِّفون في تاريخ الفِرَق ، والطوائف ، والدِّراسات المقارنة ، فاعتمدوا ـ في الغالب ـ على ما كُتب قديماً ، وجاء في كتب الأوَّلين من غير بحثٍ حرٍّ وموسَّع في المصادر القديمة الَّتي قد لا تعتبر مراجع الموضوع المباشرة الصَّميمة ، وحتَّى في المصادر المعوَّل عليها قديماً ، وحديثاً في هذا الموضوع ، فجرت سنَّة التَّناقل ، والاعتماد على ما قاله ، ونقله عن هذه المصادر المؤرِّخون ، والمؤلِّفون في العصر الماضي .

والتَّاريخ ـ كما يعرفه المجرِّب الباحث ـ كأنقاض بنايةٍ شامخةٍ ، أو قصرٍ مشيدٍ ، تناثرت على الأرض ، وتراكم بعضُها على بعضٍ ، حتَّى أصبحت كومةً من الرُّكام ،

فيها الغثُّ ، والسَّمين ، والأحجار ، والأتربة ، وأسباب الزِّينة ، والحلية ، وفيها الرِّكاز الدفين ، والكنز الثَّمين ، وفيها ما يصلح أن يكون حجر الزَّاوية ، وقيمة القصر كلِّه ، فالَّذي يكتفي بمجهود مَنْ تقدَّمه من المؤلِّفين في العثور على ما تضمَّنته أنقاض هذا البناء ، والبيان عنه ، ويعتمد على ذلك في تصوير ما كان يحتوي عليه هذا القصر حين كان قائماً على أعمدته ، وأسسه ، عامراً بأهله ، وزخارفه ؛ حُرم الشَّيء الكثير ، وحَرم قرَّاءه من الاطلاع على جمال هذا القصر ، وروعته ، وسعته ، وحسن هندسته ، وتصميمه .

فلكلٍّ باحثٍ رائدٌ من طبيعته ، وتربيته ، ونفسية عصره ، يواصل سيره في الرِّحاب التَّاريخية ، وفي مجالات المكتبة الواسعة ، وأجنحتها ، وثروتها في قيادة هذا الرَّائد ، ودلالة هذا الموجِّه الدَّافع ، والنَّاس فُطروا على حبِّ السُّهولة ، والتَّفادي من التَّعب المضني ، والسَّير المرهق ، فيكتفون بما نقله الأوَّلون ، ويعتمدون على ما عرضه ، واختاره الأقدمون ، ولكنَّه كما قال الأوَّلون : (كم ترك الأوَّل للآخر!) . فالتَّاريخ ، وموضوع السِّير ، والتَّراجم لا يزال ينتظر السَّائح المغامر ، والغوَّاص المخاطر ، والسَّائح القوي الهمَّة البعيد النَّظر ، ولسان الغيب ينشد ـ في شيءٍ من التَّحرُّز مما أراده الشاعر الحكيم ـ :

ستُبدي لكَ الأيَّامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تزوِّدِ
ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تَبِعْ لهُ ... بتاتاً ولم تضربْ له وقتَ مَوْعِدِ

***

ذاتَ يومٍ (في الخمسينات الأخيرة من القرن الميلادي الجاري) قال لي أخي الأكبر ، وصاحب الفضل في تثقيفي ، وتربيتي ـ وقد تُوفي والدي[1] ـ رحمه الله ـ

---

(١) هو العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤرِّخ الهند الكبير ، وصاحب المؤلَّفات العظيمة في تاريخها ، وثقافتها ، ومدنيَّتها ، وتراجم رجالها كـ(نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) في ثماني مجلدات كبار ، و(الثقافة الإسلامية في الهند) ، وهو دليلٌ لمؤلفات أهل الهند في العلوم والآداب الإسلاميَّة ، و(الهند في العهد الإسلامي) وغير ذلك من المؤلَّفات=

وأنا ابن تسع سنوات ـ الدكتور السَّيِّد عبد العلي الحسني[1] بصوتٍ شجيٍّ : (عليك يا عليُّ ! بتأليف كتابٍ في سيرة سيِّدنا عليٍّ ، رضي الله عنه ، وأنت جديرٌ بذلك ، قديرٌ عليه) ، قال لي ذلك ، وقد ألَّفتُ عدَّة كتب في سيرة الرِّجال العظماء ، والدُّعاة إلى الله ، والمصلحين ، والمجاهدين ، ومنها ما يزيد مجموع صفحاته على ألف صفحةٍ ، قال لي ذلك ؛ وقَوسي مُوتَرةٌ ، وفرسي مُسرجةٌ في ميدان التَّأليف ، والكتابة ، ولكنِّي تهيَّبت هذا الموضوع تهيُّباً ما تهيَّبته لموضوعٍ آخر ؛ لأنَّ فيه مواقف ، وبحوثاً هي أحَدُّ من الشَّفرة ، وأدقُّ من الشَّعرة ، لا يمرُّ بها المؤلف سليماً إلا إذا اتَّسع صدره ، وقوي صبره ، واتَّزن فكره ، وبالأصح : إذا حالفه التَّوفيق الإلٰهيُّ . فآثرت السَّلامة على التَّعرُّض للملامة ، والوقوف على السَّاحل على اقتحام البحر الخِضَمِّ ، ومضى ـ رحمه الله ـ إلى رحمة الله ، ولم يُكتبْ لي أن أحقِّق رغبته ، وأدخل السُّرور على نفسه .

ولكنِّي بدأت بعد ذلك أشعر بشدَّة فراغٍ مثيرٍ للاستغراب ، والدَّهشة في المكتبة الإسلاميَّة العالميَّة فيما يختص بموضوع سيرة سيِّدنا عليٍّ بن أبي طالبٍ ، سيرةً موسَّعةً ، مؤسَّسةً على دراسةٍ تاريخيَّةٍ جديدةٍ واسعةٍ ، يتخطَّى فيها المؤلِّف الحدود المرسومة الَّتي قيَّد فيها المؤلِّفون كتاباتهم ، ولا يكون عيالاً على ما كُتب ، وألِّف ، ولا على مصادر التَّاريخ المعدودة العرفيَّة ، المعيَّنة ؛ الَّتي يستقي منها المؤلِّفون

= في العربية ، والأردية ، مات رحمه الله في (١٦ من جمادى الآخرة عام ١٣٤١هـ/ ٣ فبراير سنة ١٩٢٣م) .

(١) كان من نوادر الرِّجال في عصره في الجمع بين الثَّقافتين : القديمة ، والحديثة ، والتَّعمُّق فيهما ، والرُّسوخ في الدِّين ، مع سعة الأفق ، وتفتُّح الفكر ، كان فيه عرقٌ حسنيٌّ علويٌّ نابضٌ ، مع التمسُّك ـ كل التَّمسُّك ـ بعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة ، والمحافظة على مسلك السَّلف ، دام مديراً لندوة العلماء ثلاثين سنة ، تقدَّمتْ فيها تقدُّما ملحوظاً ، توفي في (٢٤ من ذي القعدة سنة ١٣٨٠هـ/ ٧ من مايو سنة ١٩٦١م) .
وهو والد فقيد الدَّعوة الإسلامية والكاتب الإسلامي القوي السَّيِّد محمد الحسني (م ١٧/ رجب ١٣٩٩هـ ـ ١٣ من يونيو ١٩٧٩م) منشىء مجلة (البعث الإسلامي) الصَّادرة من ندوة العلماء صاحب كتابَيْ : (الإسلام الممتحن) و(النهج الإسلامي السَّليم) .

معلوماتهم في الغالب ، وتسمو همَّته إلى دراسةٍ واسعةٍ متنوعةٍ ، وتعريف الشَّخصية العملاقة الَّتي كثُر فيها التنازع ، وعظُم فيها الإفراط ، والتَّفريط ، ونظر إليها كلُّ فريقٍ من زاويةٍ خاصَّةٍ ، وكثيراً ما أخضعوا التَّعريف به لنظريَّاتهم ، وأهوائهم ، حتَّى صار أفراداً معدودين ، وأشخاصاً خياليين باسمٍ واحدٍ ، واحتجب الشَّيء الكثير من أسرار عظمته ، ومظاهر عبقريَّته عن العيون[1] .

* * *

بدأ المؤلف رحلته الشَّاقة العسيرة ـ على تقدُّم سنِّه ، وضعف صحَّته ، وكثرة شواغله ، ورحلاته ـ متوكِّلاً على الله ، محتسباً ، وملكته هذه الفكرة ، واستولت على أعصابه ، ومشاعره ، حتَّى ما تركت له مجالاً للكتابة ، والتَّفكير في موضوعٍ آخر ، فبدأ يدرس المصادر التَّاريخية من جديدٍ ، ويقتبس منها مقتطفاتٍ ، ونقولاً ، حتَّى إذا انتهى منها ؛ بدأ يُملي هذا الكتاب من ١١ رجب سنة ١٤٠٨هـ (١ مارس ١٩٨٨م) ، وذلك في مدينة (إندور) في الولاية المتوسِّطة في الهند ، وقد قام مساعده ، وزميله فضيلة الشَّيخ محمد معين النَّدوي نائب مدير ندوة العلماء بجميع التَّيسيرات ، وتهيئة الجوِّ الهادىء المناسب للتَّأليف ، وذلك في بيت الوجيه شاه نواز ملك ، والأخ العزيز الشَّيخ أبي البركات النَّدوي .

ثمَّ رجع إلى مقِّره في لكهنؤ ، وراي بريلي، وظلَّ مشتغلاً بالإملاء ، والكتابة ثلاثة أشهر (بما فيها شهر رمضان) يتخلَّلها جولاتٌ ، وفتراتٌ ؛ حتَّى وُفِّق لإكماله بتوفيق الله تعالى في منزل مضيفه الكريم القديم الحاج غلام محمَّد في (بمبائي) ، حيث يتهيَّأ له دائماً الجو الهادىء المساعد للتَّأليف ، وذلك في أوائل شهر شوال عام ١٤٠٨هـ، وكانت نهاية الكتاب في (١٤ من شوال سنة ١٤٠٨هـ/ ٣١ مايو ١٩٨٨) .

---

(١) إنَّ ممَّا يقتضيه الإنصاف ، والاعتراف بالحقِّ : أنَّ خير ما كُتب عن سيِّدنا عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ هو كتاب (عبقرية الإمام) للأستاذ الكبير عبَّاس محمود العقاد ، الَّذي نشر في مجموع رسائله ، ومقالاته (العبقريَّات الإسلاميَّة) ونشر مفرداً باسم (عبقرية الإمام) ، ولكنَّه تحليل نفسيٌّ ، وبحث تاريخيٌّ مقارنٌ أكثر من سيرةٍ مفصَّلةٍ للإمام الكبير ، وقد أفاد منه المؤلِّف كثيراً ، وأحال إليه حين نقل عنه ، واستفاد .

وبعدما انتهى المؤلِّف بتوفيق الله تعالى من سيرة سيِّدنا عليٍّ ـ كرّم الله وجهه ـ وإلقاء الأضواء على عصره ، وصِلاته بالَّذين سبقوه بالخلافة ، ومدى إخلاصه لهم ، وتعاونه معهم ، ثمَّ على دوره في الخلافة ، والمعضلات ، والأزمات الدَّقيقة الَّتي واجهها ، وخطَّته في الخلافة ، والإدارة ، والمبادىء الَّتي تمسَّك بها أشدَّ التَّمسُّك ، والقيم ، والمُثُل الَّتي استهدفها دائماً ، وسيرته العطرة الزَّاهدة النَّادرة ، وما أكرمه الله به من مزايا ، وخصائص . . . لمَّا انتهى من هذه المرحلة ـ وهو المحور الَّذي يدور حوله الكتاب ـ واصل رحلته إلى الحديث عن ابنَيه العظيمَين الكريمين سبطي الرَّسول ﷺ وريحانتيه ، ودورُهما في قيادة المسلمين ، ومواجهة الأمر الواقع وإيفاء الظُّروف ، والمتطلَّبات حقَّها من الجِدِّ ، والإخلاص ، والعزم ، والحماس .

* * *

ثمَّ انتقل إلى أخلافهم ، وذرِّيتهم ، فتحدَّث عن سيرتهم العطِرة المثاليَّة ؛ الَّتي تليق بالذُّرِّيَّة النَّبويَّة ، وآل الرَّسول ، والَّتي لا تزال حافزةً على الأخلاق الإسلاميَّة المثاليَّة ، ونمط الحياة المثلىٰ .

ثمَّ ذكر ما كان لهم من جهودٍ لإقامة الحكم الصَّالح ، وتغيير الأوضاع ، وقيادة حركات الجهاد ، وتحرير البلاد في أزمنةٍ مختلفةٍ ، ومالها من قيمة ، وفضلٍ في تاريخ الإسلام المبدئيِّ ، والخلقيِّ ، والإصلاحيِّ ـ وإن لم تستطع لأسبابٍ طبيعيَّةٍ ، وسياسيَّةٍ أن تحقِّق الهدف المطلوب ـ ثمَّ انصراف نوابغ هذا البيت ، وقادته إلى تربية الرِّجال ، وتزكية النُّفوس ، والدَّعوة إلى الله ، وربْط القلوب به ربطاً قوياً محكماً ، والتَّسامي على الأغراض المادِّيَّة ، ومالهم من فضلٍ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ، وانتشار الإسلام في أقطارٍ بعيدةٍ ، فظهر بذلك : أنَّ خليَّة الإسلام لم تزل تعسل ، وغصن العترة النَّبويَّة لم يزل يورق ، ويُثمر ، وذلك ممَّا قلَّ أن تعرَّض له المؤلفون في سيرة سيدنا عليٍّ ـ كرم الله وجهه ـ على نُدرتهم ، وقلَّة عددهم .

* * *

وتعرَّض في آخر الكتاب ـ مضطراً ومحتسباً ـ لنقد بعض العقائد ، والنَّظريات

الَّتي استخدم فيها أصحابُها انتصارهم لأهل البيت وذرِّيَّة سيدنا عليٍّ ، وهي دخيلةٌ على الإسلام منبثقةٌ من الفلسفات العجميَّة ، والشُّعوبية ، والإقليميَّة ، ومن رواسب الحضارات ، والنُّظم الدِّينيَّة القديمة ، والإسلام بريءٌ منها .

وبذلك جاء الكتاب استعراضاً تاريخيّاً طويل المدى ، واسع الأرجاء ، ومساهمةً متواضعةً في عرض سيرة رجلٍ كبيرٍ من كبار الجيل الإنسانيِّ ، وخرِّيجي مدرسة النُّبوَّة المنجبة .

* * *

ولا بأس بالإشارة إلى أنِّي التزمتُ في تأليف هذا الكتاب مبدأين كلَّ الالتزام ؛ أولاً : أن أعتمد على الكتب القديمة الموثوق بها المتلقَّاه بالقبول فقط ، ثانياً : التزمت الإحالة في النَّقل إلى اسم الكتاب بقيد الجزء ، ورقم الصَّفحة ، واسم المطبعة بقدر الإمكان ، خلافاً لكثير من المؤلِّفين المعاصرين الَّذين لا يرون حاجةً إلى الإحالة إلى الكتاب المنقول عنه ، فضلاً عن رقم الصَّفحة ، والإشارة إلى الطَّبعة ، أو المطبعة .

* * *

ولا يفوتني أخيراً أن أشكر فضيلة الشَّيخ محمَّد عتيق البستوي أستاذ دار العلوم ـ ندوة العلماء على مساعدته في البحث في المراجع القديمة ، والاهتداء إلى بعض مظانِّ الشَّهادات ، والنُّقول ، وأن أشكر الأخ العزيز الأستاذ نثار الحقِّ النَّدوي على الكتابة ، والانتساخ ، والأخ العزيز الشَّيخ محمد هارون النَّدوي على الطَّبع على الآلة الكاتبة ، فلهم جميعاً شكر المؤلف ، واعترافه .

وأخيراً ـ لا آخراً ـ أحمدُ الله ـ تبارك ، وتعالى ـ على توفيقه للقيام بهذا العمل ، وإتمامه، وأسأله أن ينفع به مؤلفه، وقرَّاءه ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ وبالإجابة جدير .

أبو الحَسَن علي الحَسَني النَّدوي

٢١ من شوال ١٤٠٨هـ (٧/٦/١٩٨٨م)

بمبائي (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة الطّبعة الثّانية

الحمد لله وحدَه ، والصَّلاة ، والسَّلام على مَنْ لا نبيَّ بعده .

أمَّا بعد : فيسعد المؤلِّف ، ويدعوه إلى حمد الله تبارك وتعالى ، والشُّكر على نعمائه أن يجد مناسبةً قريبةً في مدَّةٍ قصيرةٍ لكتابة مقدِّمةٍ للطَّبعة الثَّانية لكتاب (المرتضى رضي الله عنه) ، فقد كان للكتاب في الُّلغتين : العربيَّة ، والأردية ؛ الَّلتين ظهر فيهما للمرَّة الأولى رواجٌ ، وانتشارٌ ، وتقديرٌ من أهل الاختصاص والدِّراسة للموضوع ؛ لم يكن يتوقَّعهما المؤلِّف لدقَّة الموضوع ، وحساسيته الزَّائدة ، ولاتِّساع الفجوة بين النِّحَل ، والطَّوائف ، وأهل النَّظر فيما يتَّصل بهذا التَّاريخ ، ورجاله ، وشخصيَّاته ، وحوادثه ، وخلافاته ، وقد نفدت الطَّبعة الأولى في أردو في ظرف ثلاثة أشهر ، وصدرت الطَّبعة الثانية ، وهي على وشك النَّفاد ، وكذلك الشَّأن مع الطَّبعة الأولى للكتاب في اللُّغة العربية ؛ الَّتي أُلِّف الكتاب فيها أصالةً[1] ، وهاهي الطَّبعة الثَّانية ، وقد بلغَت المؤلِّف أنباءُ نقل الكتاب إلى لغاتٍ أخرى ، ولله الحمد أوَّلاً ، وآخراً .

وقد واصل المؤلِّف رحلته في المكتبة التَّاريخيَّة ، والتَّراجميَّة ، والكلاميَّة الواسعة ، الَّتي تكوَّنت على مدى القرون ، يبحث عن موادَّ جديدةٍ ، وحلقاتٍ لهذه السِّلسلة الذَّهبيَّة ، كانت مغمورةً ، أو مطمورةً تحت ركام النُّقول ، والتَّفاصيل الجزئيَّة ، والموادِّ المبعثرة ، ومنها ما لها قيمةٌ كبيرةٌ في تكوين الرَّأي ، واتِّزان

(١) لدار القلم في دمشق ، ولصاحبها الأستاذ محمد علي دولة فضلٌ في إصدار الطَّبعة الأولى ، والأمل في صدور الطَّبعة الثَّالثة المزيدة المنقَّحة قريباً .

الفكر ، والإنصاف لأبطال هذه القصّة الطّويلة الشّائكة ، والحكم على الحوادث ، والأشخاص ، في عدلٍ وهدوءٍ ، وأمانةٍ تاريخيَّةٍ ، فانتفع بها المؤلِّف ، وزاد في ضوئها والاعتماد عليها زياداتٍ ذات قيمةٍ كبيرةٍ ، تاريخيَّةٍ ، وتراجميَّةٍ ، وعقديَّةٍ ، استنارت بفضلها جوانب من السِّيرة العلويَّة ، وتاريخ القرن الأوَّل المجيد ، لم يكن من قبل في هذا الوضوح ، والجلاء ، وزادت في ثروة الكتاب ، وقيمته .

وانتفع المؤلِّف بلفتاتٍ علميَّةٍ ، وملاحظاتٍ وجيهةٍ ، صدرت من بعض الفضلاء الَّذين تناولوه بالاستعراض ، والنَّقد ، في دقَّةٍ ، وإنصافٍ .

نذكر من هذه الزِّيادات ـ غير الزِّيادات الجانبيَّة الكثيرة ، والتَّعديلات الجزئيَّة العديدة ـ زياداتٍ خاصَّةٍ طويلةً ، منها :

* سيِّدنا عليُّ بن أبي طالبٍ في مرآة الآثار ، والأخبار .

* جوانب من خلافة سيِّدنا عليٍّ ، لم تنل مكانها اللائق من التَّنويه ، والمعرفة .

* أسوة سيِّدنا عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في حالةٍ اضطرارية ، قد تمرُّ بها هذه الأمَّة .

* السَّبب في نقل مركز الخلافة إلى الكوفة .

* أضواء على سيرة سيِّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ وفضله ، وموقفه من الحكم ، والتَّحذير من بسط اللِّسان فيه .

* وقفةٌ قصيرةٌ عند خلافات الصَّحابة ، وحروبهم .

وهناك زياداتٌ أخرى ذاتُ قيمةٍ علميَّةٍ ، وتاريخيَّةٍ يجدها القارىء في محلِّها ويصعب استقصاؤها .

ونقدِّم الطَّبعة الثَّانية إلى القرَّاء مع هذا المجهود المتواضع ، والمحاولات الدِّراسيَّة القاصرة ، والاعتراف بجلالة الموضوع ، وعظمة مَنْ يدور حولهم مع اتهام النَّفس بالقصور والضَّآلة ، ونرجو من الله الأجر ، والقبول ، بصرف النَّظر عن المدح ، والإطراء ، والنَّقد ، والإزراء .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلتُ ، وإليه أنيب .

دار الشَّيخ علم الله الحسني
رائي بريلي
أبو الحَسَن علي الحَسَني النَّدوي
١٤ من شهر ذو القعدة ١٤٠٩هـ

رجال الفِكر والدَّعوة في الإسلام

الجزء الأوَّل

دار القلم ـ الكويت
دار ابن كثير ـ دمشق

مقدّمة الطّبعة الأولى

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيّدنا ، ومولانا محمّدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمّا بعد : فقد طلبتْ منّي كلّيّة الشّريعة في الجامعة السُّورية إلقاءَ محاضراتٍ على طلابها في موضوع دينيٍّ علميٍّ . وأجبتُ إلى رغبتها حرصاً منّي على التّعاون مع أساتذتها في خدمة هذه المؤسَّسة العلميَّة ، العظيمة ، النّاشئة ؛ الّتي يُرجى أن تقوم بدورٍ مهمٍّ في نشر العلوم الدِّينيّة ، وتكوين جيلٍ علميٍّ جديدٍ في هذا البلد ، واخترت موضوع الإصلاح والتّجديد ، والتّعريف بكبار رجال الدّعوة ، والعزيمة ، والجهاد في تاريخ الإسلام ، وقدِمتُ إلى دمشق في آخر شعبان سنة ١٣٧٥هـ ، واستمررت في إلقاء المحاضرات إلى ١٩ شوال سنة ١٣٧٥هـ الموافق ٣٠ أيار سنة ١٩٥٦ ، وكانت في كلِّ يوم أربعاء محاضرة في مُدرَّج الجامعة الكبير ، وكانت ثماني محاضرات ، وهي في الأصل عشر محاضراتٍ ، أدمجت بعضُها في بعضٍ حرصاً على توفير الوقت ، وأعدتُها إلى أصلها ـ عشر محاضرات ـ عند نشرها ، ثمَّ أضفْتُ إليها خمس محاضراتٍ عن الإمام عبد القادر الجيلاني ، ومولانا جلال الدِّين الرُّومي .

لقد كان في النِّيَّة أن أختم السّلسلة الأولى من هذه المحاضرات بمولانا جلال الدِّين الرُّوميِّ ، وأبدأ الثّانية بشيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وأختمها برجال الإصلاح في القرن الثّالث عشر الهجري ، ولكنَّ وصولي متأخراً ، وضيق الوقت قد حالا دون ذلك ، فختمتُها بحجَّة الإسلام الغزاليِّ(١) .

وإنِّي في هذه المحاضرات لا أدّعي علماً غزيراً ، ولا اكتشافاً جديداً ، كلُّ

---

(١) استدرك المؤلف أثناء الطّبع ، فأنهى السّلسلة بمولانا جلال الدِّين الرُّومي كما نوى سابقاً .

ما حرصت عليه هو دراسه هذه الشَّخصيات من جميع نواحيها ، وإبرازها ، والقول المتَّزن ، وألا أقول شيئاً إلا عن اعتقادٍ ، واقتناع ؛ مستنداً إلى حقائقِ التَّاريخ ، وشهاداته ؛ غير مجازفٍ في القول ، ولا معتمدٍ على القياس ، والنَّزعة الفرديَّة ، ولم يكن شأني في ذلك شأن من يُحدِّد غايةً ، ثمَّ يُخضِع التَّاريخ لها ، وما أهون ذلك على مؤلِّف قديرٍ ، وكاتب لَبِقٍ .

وفي الأخير أرى من واجبي أن أشكر الجامعة السُّورية ، وكلِّية الشريعة بصفة خاصَّةٍ ، على أنَّ اقتراحها للتَّحدُّث في هذا الموضوع أثار في نفسي رغبةَ دراسةِ هذا الموضوع في نطاقٍ واسعٍ ، واستعراضَ التَّاريخ من هذه النَّاحية من جديدٍ انتفعتُ بها شخصيّاً ، وقد أتاحتْ لي فرصةَ التَّحدُّث إلى مجموعةٍ طيِّبةٍ من المثقَّفين .

وأوجِّه كلمةَ شكرٍ ، وتحيَّةً بصفةٍ خاصَّةٍ ، إلى صديقي الجليل الأستاذ الكبير الدُّكتور مصطفى السِّباعي عميد كلِّية الشَّريعةعلى أنَّ إلحاحه لم يدع لي عذراً ، وكان سبباً في تكوين هذه المحاضرات ؛ وأشكر زملاءه الفضلاء على عنايتهم بتنظيم هذه الحفلات الأسبوعيَّة ، والدَّعوة إليها ، وبذل الوُسع في إنجاحها .

وأشكر أخيراً لا آخراً أساتذة الجامعة ، وطلبتَها ، وعلماءَ دمشق ، والشَّباب المثقَّف على حرصهم على حضور هذه المحاضرات ، والتفرُّغ لها وحسن استماعهم ، وقد كان لكلِّ ذلك أطيبُ الأثر في نفسي ، وكان مشجعاً كبيراً في دراسة هذا الموضوع الخطير ، والبحث فيه ؛ وشهادةً للذَّوق العلميِّ ، والرُّوح العلميَّة في هذا البلد الإسلاميِّ العربيِّ . وأدعو الله أن ينفعني ، والمستمعين الكرام بكلِّ ما جاء في هذه المحاضرات من معانٍ ساميةٍ ، وأن يُحرِّك في النُّفوس رغبة الإصلاح ، والتَّجديد على الأساس الإسلاميِّ الصَّحيح ، وتلك رسالة هذه الشَّخصيات ؛ الَّتي تحدثتُ عنها ، وذلك ما يطلبُه منَّا العصر الجديد ، والله الموفِّق للسَّداد ، والهادي إلى سبيل الرَّشاد .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

دمشق ٢٣ من ذي القعدة الحرام سنة ١٣٧٥هـ

مقدِّمة الطَّبعة الثَّالثة

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله .

أمَّا بعد : فقد ظهرت الطَّبعة الثانية لكتاب « رجال الفكر والدَّعوة » في سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) وقد وُجدتْ للمؤلِّف دراساتٌ ، وتأملاتٌ ؛ ألحَقها بالطَّبعة الأرديَّة ، وحالتِ الشَّواغلُ ، ومؤلفاتٌ اشتغل بها المؤلف في هذه الفترة عن العناية بهذا الكتاب ، وتجهيزه للطَّبعة الجديدة ؛ رغم إلحاح بعض دور النَّشر على ذلك ، وشعور المؤلِّف بفراغٍ واقعٍ في المكتبة الإسلاميَّة الحديثة ، بنفاد الطَّبعة الثَّانية من زمانٍ ، وحاجةِ الشَّباب الإسلاميِّ إلى مثلِ هذه الكتب في إيجاد الثِّقة بتاريخ الإصلاح ، والتَّجديد ، وبصلاحية الإسلام ، وتعاليمهِ في إنشاء المصلحين ، والدُّعاةِ ، وأصحابِ الرِّسالة ، والإبداع في التَّفكير ، والإنتاج ، وما يعتقده المؤلِّف ـ وكثيرٌ من رجال التَّربية والتَّعليم ـ : أنَّ خيرَ وسيلةٍ لإشعال المواهب ، وإثارة الرُّوح ، وتقويمِ الأخلاق ، والعزم على مكافحة البيئة الموبوءة ، والمجتمع الفاسدِ ، والتَّسامي لمعالي الأمور ، هِيَ سِيَرُ عُظماء الرِّجال ، وزُعماء الإصلاح ، والتَّجديد ، والربَّانيِّين ، والصِّدِّيقين ، فحَمَله كلُّ ذلك على إعادة النَّظر في هذا الكتاب ، وتناوله بالزِّيادة والتَّنقيح ، وتقديمه للطَّبع والنَّشر في أوَّل فرصة .

وليستِ الزِّيادات كثيرةَ العدد ، ولكنَّها كبيرةُ القيمة ، وأهمُّها ما جاء تحت عنوان : « غارَةُ التتر على العالم الإسلاميِّ ، وظهورُ معجزة الإسلام » وقد بحث فيه المؤلِّف لأوَّل مرَّةٍ في أسباب هذه الكارثة الجذريَّة في ضوء القرآن ، وقانون المجازاة الإلهيِّ ، وتجارب الأمم ، واستعرض واقع العالم الإسلاميِّ في فجر القرن السَّابع الهجريِّ ، وفي هذا الفصل دروسٌ للأجيال الإسلاميَّة في جميع العصور ، وخاصَّةً في العصر الَّذي وقعت فيه كارثة العالم العربي والإسلاميِّ « كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧م » ويليها في الأهمية معلوماتٌ جديدة في محاولات الإصلاح في تاريخ

الدِّيانة الهندوكيَّة ، والمسيحيَّة ، ومصيرها في مقدِّمة الكتاب ، وما عدا ذلك فزيادات مُبعثرةٌ في ثنايا الكتاب ، وتصويباتٌ لأخطاءٍ مطبعيَّةٍ أكثرُها في السِّنين ، والتَّواريخ .

وأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، ويُحقِّق به آمال المؤلِّف ، ويسدَّ به عوزاً في المكتبة الإسلاميَّة ، وفي مناهج التَّربية والتَّعليم ، وأن يحمل هذا الكتاب الشَّبابَ على تقليد هؤلاء العُظماءِ ، واقتفاءِ آثارهم ، وحبِّهم وتقديرِهم ، وعلى الله قَصْدُ السَّبيل .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

ندوة العلماء ـ لكهنؤ
١٨/ ٥/ ١٣٨٩هـ
٣/٨/١٩٦٩م

رجال الفِكر والدَّعوة في الإسلام

الخاصُّ بـ « شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيميَّة الحرّانيِّ الدِّمشقيِّ »

الجزء الثَّاني

دار القلم ـ الكويت
دار ابن كثير ـ دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلِّف

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين من أئمَّة المسلمين المجدِّدين ؛ الَّذين ينفون عن هذا الدِّين تحريف الغالين ، وانتحال المُبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما بعد : فَيسرُّ المؤلِّف ، ويُسعده أن يقدِّم للقرَّاء العرب الجزء الثَّاني من كتابه : « رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام » ، وهو الجزء الخاصُّ بحياة شيخ الإسلام تقيِّ الدِّين أحمد ابن تيميَّة الحَرَّاني الدِّمشقي ، وقد سبق تأليفه باللُّغة الأرديَّة سنة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م ، وهي الحلقة الثَّانية من سلسلة كتب المؤلف : « تاريخ الدَّعوة والعزيمة » ، وقد تولَّى المؤلِّف نقل الجزء الأوَّل من هذا الكتاب إلى العربيَّة مع حذفٍ وزيادةٍ ، وتحسينٍ ، وتأويلٍ ، سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ، وأفرغه في قالب محاضراتٍ ألقاها في المدرَّج الكبير بجامعة دمشق أمام طلبة كليَّة الشَّريعة ، وصفوةٍ من أساتذة الجامعة ، وعلماء البلد ، وأعيانه ، وقادة الفكر ، ورجال التَّعليم والتَّربية ، في عاصمة بني أميَّة ، وصدرت لهذا الجزء عدَّة طبعاتٍ ، وقدَّم له فقيد العلم والإسلام الدُّكتور مصطفى السِّباعي ، رحمه الله ! وقد نال هذا الكتاب قبولاً عظيماً في الأوساط العلميَّة ، والدِّينية ، والتَّربويَّة ، واعترفَ كثيرٌ من أهل العلم ، ورجال التَّربية : أنَّه سدَّ عَوزاً كبيراً ، وملأ فراغاً في المكتبة الإسلاميَّة العربيَّة المعاصرة ، وجاء في أوانه .

وقد صدر الجزء الثَّاني لكتاب : « تاريخ الدعوة والعزيمة » في أردو سنة

١٣٧٧هـ ١٩٥٧م من المجمع الإسلاميِّ الأكبر في الهند ، المعروف بـ « دار المصنِّفين » في أعظمكره ، وصدرتْ له طبعةٌ ثانيةٌ من المجمع الإسلاميِّ العلميِّ في لكهنؤ سنة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ونقل إلى الُّلغة الإنجليزيَّة سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م ، ورَحَّبتْ بالتَّرجمة الإنجليزيَّة الأوساط العلميَّة ، والمشتغلون بالدِّراسات الإسلاميَّة ، والبحوث التَّاريخية ترحيباً كبيراً ، وأبدى عددٌ من الباحثين ، والمعنيِّين بالفكر الإسلاميِّ ، وحركات الإصلاح ، والتَّجديد في الإسلام إعجابهم الكبير بهذا الكتاب ، وكان أوَّلَ كتابٍ يصدر في حياة شيخ الإسلام ابن تيميَّة في الُّلغة الانجليزيَّة بهذا التَّفصيل ، والتَّحقيق .

كان كلُّ ذلك كافياً لانتهاز أوَّل فرصةٍ لنقل هذا الجزء إلى الُّلغة العربيَّة ، ويصحُّ أن يقال : إنَّ هذا العصر عصر ابن تيميَّة ، وقد كانت لشخصيَّته ، ودعوته ، ودوره الإصلاحيِّ عودةٌ في هذا العصر ، ولكتاباته ، وأفكاره ، واتِّجاهاته انتفاضةٌ لم تكن لمصلح إسلاميٍّ ، أو مؤلِّفٍ من المؤلِّفين القُدامى ؛ لأسباب يطلع عليها القارىء في ثنايا هذا الكتاب ، ومطاويه ، فكان مِنَ المعقول والمُنتظر أن يبادر المؤلِّف إلى نقل هذا الكتاب إلى اللُّغة العربيَّة ، وإتحاف المُعجبين بشيخ الإسلام بهذا السِّفر .

ولكنَّ المؤلِّف كان يُزهِّده في القيام بهذا العمل ، ويُثنيه عنه صدور عدَّة كتبٍ لكبار علماء هذا العصر ، وفي مقدِّمتهم علامة مصر الجليل الشَّيخ محمَّد أبو زهرة ، رحمه الله! وماكان يَعلمه من آثار ابن تيميَّة في الُّلغة العربيَّة ، وقد قيَّض الله للمملكة العربية السُّعودية ، علماء ، وأمراء لإثارة هذه الكنوز ونشرها ، وكان يُخيَّل للمؤلِّف حين كان يحدِّث نفسه بإصدار هذا الجزء بالعربيَّة : أنَّه كناقل التَّمر إلى هَجَر .

ولكنَّ الله شَرح صدره لتحقيق هذه الأمنية ، وقبول هذا الاقتراح من إخوانه الَّذين عرفوا وجَود هذا الكتاب باللُّغة الأرديَّة ـ وفي مقدِّمتهم صديق المؤلف الأستاذ عبد الحليم محمَّد أحمد صاحب دار القلم الكويتيَّة ـ واقتنع أخيراً بأنَّ لكلِّ مؤلِّف طابعاً ، ولكلِّ كتابٍ شخصيةً يتفرَّد بها كشخصية الإنسان ، ترجع إلى بيئة المؤلف ، وتجاربه الخاصَّة ، وفهمه الخاصِّ ، فلا يكون إصدار هذا الكتاب من قبيل تحصيل

الحاصل ، ولا من قبيل الجهاد في غير طائلٍ ، وإلا ؛ كان كلٌّ من ألَّف في موضوعٍ طُرِق ، وبحث ، واستوعب من زمانٍ من فضول الأعمال ، وإضاعة الوقت .

هنالك عهد المؤلِّف بنقل هذا الكتاب إلى اللُّغة العربيَّة إلى زميله العزيز الأستاذ سعيد الأعظمي النَّدوي أستاذ دار العلوم لندوة العلماء ، ومحرِّر مجلَّة « البعث الإسلامي » فقام به خير قيام ، وقرأه المؤلِّف حرفيّاً ، وتناوله بالتَّنقيح والتَّهذيب ، والحذف ، والزِّيادة ، وعلَّق عليه بعض تعليقاتٍ جديدةٍ مفيدةٍ ، فجاء أكمل ، وأجمل ، وأوفق للذَّوق العربيِّ السَّليم .

وهاهو ذا الكتاب بين أيدي القرَّاء ، والله المسؤول أن ينفع به الإسلام ، والمسلمين ، ويرفعَ همَّة الباحثين ، والمؤلِّفين ، والعاملين في مجال الإصلاح والتَّربية وخدمة الدِّين ، وهو الموفق ، والمُعين .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
المجمع الإسلاميُّ العلميُّ ـ لكهنؤ

يوم الخميس ٩/ ٥/ ١٣٩٥هـ ـ ٢٢/ ٥/ ١٩٧٥م

رجال الفكر والدّعوة
في الإسلام

الجزء الثّالث

الخاصُّ بالإمام السّرهنديّ

دار القلم ـ الكويت
دار ابن كثير ـ دمشق

بين يدي الكتاب

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلام على سيِّد المُرسلين ، وخاتَم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

وبعدُ : فإنَّ الحكاية يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥هـ (٣٥ أو ١٩٣٦م) حين أوصاني أخي ومُربِّيَّ الدُّكتور السَّيِّد عبد العلي الحسيني ـ رحمه الله ـ أمينُ ندوة العلماء ـ سابقاً ـ بقراءة « رسائل الإمام الرَّبانيِّ مجدِّد الألف الثَّاني الشَّيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي » وقد كنتُ ـ إذ ذاك ـ في الثَّانية والعشرين ، أو الثَّالثة والعشرين من عُمري ، وكنتُ انخرطتُ ـ حديثاً ـ في سِلك المدرِّسين بدار العُلوم ندوة العلماء ، ولم يكن لي آنذاك اتجاهٌ كبيرٌ إلى الأبحاث العميقة في الحقائق الدِّينيَّة ، وحقيقةِ الإحسان ، كما لم أكن على اطِّلاع على مُصطلحات القوم ، وتعبيراتهم ، بل كان يغلبُ عليَّ الذَّوقُ الأدبيُّ ، وغرامٌ بالكتابات الأدبيَّة العربيَّة ، والدِّراسات التَّاريخيَّة ، وكنت وَلوعاً بالكتب الَّتي كانت تَصْدرُ من دور النَّشر ، والمطابع الرَّئيسية في القاهرة ، وبيروتَ بطباعةٍ أنيقةٍ ، وفي مَظهرٍ جميلٍ جذَّابٍ ، وقد كان أخي الأكبر ـ الَّذي كنت تَربَّيتُ في حِجره ، ونشأت في عطفه ، وكَنَفه نشأةً علميَّةً ، وعقليَّةً ـ يعرف هذه النَّزعة الموجودة عندي معرفةً جيِّدةً ، ولكن لعلَّه بإشارته عليَّ بقراءة تلك المجموعةَ مِن الرَّسائل للإمام السَّرهندي كان يُريد أن يذكِّرني بما امتازت به أسرتي ، الَّتي أنتمي إليها ، من أصالةٍ في الفكر ، وعُمقٍ في البحث ، وتقديرٍ للقِيَم الرُّوحية ، والمُثل الخُلقيَّة .

وكانتْ أسرتي منذ ثلاثةِ قرون ـ على أقلِّ تقديرٍ ـ ذات اتِّصالٍ وثيقٍ ـ فكريّاً ، وروحيّاً ـ مع أسرة الإمام السَّرهندي ـ والإمام أحمد بن عبد الرَّحيم المشهور بوليِّ الله الدِّهلوي .

وكانتْ عِندَنا في مكتبة والدي نُسخةٌ عتيقةٌ من مجموعة « رسائل الإمام

السَّرهنديِّ » صدَرتْ من إحدى المطابع الهنديَّة ، وكانتْ هذه النُّسخة تشتمل على ثلاث مجلَّداتٍ ، فبدأتُ بمطالعتها نزولاً على رغبة أخي الأكبر ، وبدافع الطَّاعة له ، إلا أنَّني لم أستطع المُضيَّ في الطَّريق ، ولم أصْبر معها طويلاً ، حتَّى تركتُ الكتاب ، وقد كانت أكَبرُ مُعاناتي من الرَّسائل الَّتي كتبها الإمام إلى شيخه ، ومُربِّيه الرُّوحيِّ الشَّيخ الكبير عبد الباقي البَدخشي الدِّهلوي النَّقشبندي ، والَّتي شرح فيها تجاربه ، وخواطره الشَّخصيَّة في مجال التَّربية ، والسُّلوك إلى الله ، ولكنَّ إلحاح أخي الأكبر ، وتوجيهه - باستمرارٍ - إلى قراءة هذه الرَّسائل ، وقراءة : « إزالة الخَفاء » للإمام وليِّ الله الدِّهلوي ، و« الصِّراط المستقيم » للسَّيِّد الإمام أحمد بن عرفان الشَّهيد ، و« منصب الإمامة » للعلامة محمَّد إسماعيل الشَّهيد ؛ دَفعني إلى اجتياز هذه العَقبة ، مهما كلَّف ذلك من مَشقَّةٍ ، وعَنَتٍ ، وهاجَتِ الغِيَر في نفسي ، وتحمَّسْتُ ، وقلت : لا يتسنَّى لي إهمال وصيَّة أخي الأكبر ، وهو مَنْ هو في عَطْفه ، وحنانه ، ثمَّ يُسبِّب هذا الإهمالُ الحرمان من قراءة كتابٍ مباركٍ ، عُرِفَ كبارُ العلماء والمشايخ الأجلاء بإجلاله ، وتقديره ، والعناية به .

وحالَفني التَّوفيق ، فمضيتُ ، وكلَّما ازددْتُ قراءةً لهذه الرَّسائل ؛ ازددْتُ رغبةً فيها ، وتذوُّقاً لها ، وبدأت أسيغ الموضوع في حدود علمي ، وقُدرتي على الفهم ، حتَّى أخذ الكتابُ بمجامع قلبي ، وأصبحتُ له أسيراً ، أشعُر فيه بلذَّةٍ غريبةٍ ، وطعمٍ لذيذٍ ، لا أكاد أجده في الكتب الأدبيَّة الممتعة .

وكانتْ هذه الفترة الزَّمنية من أدقِّ فترات حياتي ، فقد كان الزَّمن زمَن المراهقة الفكريَّة ، وشَرْخ الشَّباب ، والصِّراع النَّفسيِّ والعقليِّ ، لأسبابٍ يطول ذكرها ، اعتورَتني فيها بعض الابتلاءات القاسية ، فكان الكتاب في كلِّ ذلك خيرَ مرشدٍ ، وموجِّهٍ ، فقد كنت أشعر أثناء قراءة الكتاب ، بِسَكينةٍ تغشاني ، وتملأ جوانحي ، وتَغْمُر قلبي ، لعلَّها كانت جديدةً عليَّ تماماً ، لم يَسْبقْ لها في حياتي مثيلٌ ، وقد انتهى هذا السَّير الَّذي كنت أسير في الكتاب لمجرَّد طاعةِ أخي الأكبر - والَّذي كان يَغلب عليه دافع الغيرة ، واتِّباع الأمر إلى سرورٍ ، ونَشوةٍ ، ومُتعةٍ روحيَّةٍ .

ثمَّ بعد مُدَّةٍ يسيرةٍ من الزَّمن بدأتُ بقراءة هذا الكتاب مرةً ثانيةً ، أقصدُ فيها جمع

ما تكرَّر ، وانتشر في مواضعَ مختلفةٍ من الكتاب في موضوعٍ واحدٍ ، وفي مقصدٍ من المقاصد الَّتي يتناولها الإمام ، ووضع العناوين لها ، وكانت الخطوة الأولى لهذا العمل إعداد فهرسٍ جامعٍ لموادِّ الكتاب ، ومحتوياته ، كالتَّوحيد الخالص ، وإبطال الشِّرك ، وغير ذلك ، فتتبَّعتُ ما جاء في كلِّ موضوعٍ من هذه المواضيع ، وأشرت إليه بذكر الأرقام المتسلسلة للرَّسائل وأرقام الصَّفحات ، فبحثتُ ـ مثلاً ـ عن المواضع التي طرق فيها الإمام موضوعَ النُّبوة ، والرَّسائل الَّتي جاء فيها الحديثُ عن السُّنَّة ، والبدعة : أين تعرَّض لإبطال البدعة الحسنة؟ وأنَّها ليس لها وجود ، وفي أيِّ الرَّسائل تناول البحث في « وحدة الوجود » و« وحدة الشهود »؟ وفي أيِّها وردت الأبحاث العميقة في موضوع « العقل المجرد » و« الكشف المجرد »؟ وبالجملة ، فبعد أن اشتغلت بالفحص ، والتَّتابع عدَّةَ أسابيع ؛ تَهيَّأ لديَّ كشفٌ جامعٌ لجميع المواضيع الَّتي تعرَّض لها الإمام ، ووضعتُ هذا الكشف في داخل هذه النُّسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه الموادِّ المنثورة في الكتاب تحت عناوين مختلفةٍ ، ثمَّ حدث : أنَّ هذا الكتاب استُعير من المكتبة ، ولم يُعَدْ إليها ، كما يَقعُ كثيراً ، وكان أسفي على ذهاب الفهرس الَّذي أجهدْتُ في وضعه نفسي ، أكثرَ بكثيرٍ ـ بطبيعة الحال ـ من ذهاب تلك النُّسخة من الكتاب الَّتي تُستبدل بها غيرها ، وكان أمر الله قدَراً مقدوراً .

ثمَّ خطرت فكرةٌ في بالي ، وذلك حوالي ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥هـ (١٩٤٥ ـ ١٩٤٦م) وهي أن أُرتِّب هذه الرَّسائل ترتيباً جديداً ، مُراعياً فيه المواضيع والأبحاث المختلفة ، وأقدِّمها بشرحٍ ، وتعريفٍ ، يتلاءم مع العقليَّة الجديدة للنَّشء الجديد ، بحيث تكون أنفع ، وأشوق للقارىء الجديد ، وتُلقى فيه الأضواء على المآثر التَّجديديَّة للإمام السَّرهنديِّ ، وما كان يَتبوَّؤه في تاريخ الإسلام من مكانةِ الإمامة ، والاجتهاد ، فشرعتُ في هذا العمل ، وأحببْتُ أن أُقدِّم لكلِّ فصلٍ بكلمةٍ تمهيديَّة ، تُلَخِّص الفكرة الأساسية ، ولُباب التَّحقيقات العلميَّة ، والأبحاث الدَّقيقة المبثوثة في مختلف رسائله في موضع واحد ، ثمَّ أُقدِّم مقتبسات الرَّسائل في تنسيقٍ علميٍّ ، وترتيبٍ موضوعيٍّ مفيدٍ ، فأكتب على جانبٍ من الصَّفحة متنَ الرَّسائل بالفارسيَّة وعلى الجانب الآخر ترجمَتها الأرديَّة ، وأذكر في الحاشية شرح الألفاظ الغريبة ،

والمصطلحات العلميَّة ، وأُخرِّج الأحاديث ، ثمَّ أسوق بعض ما كتب المتقدِّمون من كبار العلماء المحقِّقين ، ممَّا يؤيِّد ما ذهب إليه الإمام السَّرهنديُّ ، كشيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وتلاميذه ، وأئمَّة الإسلام عَبر القرون ، والأقطار .

وقد كان هذا العمل واسعَ النطاق يتطلب مراعاة دقيقة للجوانب الكثيرة ، وتوفراً كاملاً على دراسة العلوم المتنوعة ، ولم يكن إنجاز هذه المهمة الضخمة بميسور على شابٍّ مثلي في مقتبل العمر ، تتنازع فيه الأعمال التدريسية مع الأشغال التأليفية مع الدَّعوة الشعبية ، والجولات المتصلة .

ولأجل ذلك لم أستطع أن أنجزَ من هذا العمل إلا أبواب التَّوحيد ، والنُّبوَّة ، والرِّسالة ، ثمَّ شغلتني الشَّواغل ، وصرفتني عن هذا العمل الصَّوارف ، إلا أنَّ ما وفِّقتُ إليه من العمل في هذه المدَّة كان ذا قيمةٍ كبيرةٍ ، وفوائد كثيرةٍ ، ونشره الصَّديق الفاضل الشَّيخ محمد منظور النُّعمانيُّ في مجلَّته الإسلاميَّة الشَّهيرة : « الفرقان » في أربع حلقات ما بين ١٣٦٦ ـ ١٣٦٧هـ :

وبعد أن انقطعت عن هذا العمل بأعوامٍ ، حين بدأت بتأليف سلسلة « رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام » شعرتُ بضرورة الكتابة في ترجمة حياة الإمام السَّرْهندي بصورةٍ مستقلَّةٍ ، بدلَ أن أقوم بترتيبٍ جديدٍ لرسائله ، وعَمَلٍ مُرهقٍ في تنسيق محتوياتها ، وموضوعاتها ، ثمَّ لمَّا نشر المجلد الثَّاني من « رجال الفكر والدَّعوة » وكان يتضمن حياة شيخ الإسلام ابن تيميَّة ؛ تَحتَّم عليَّ أن أبدأ بترجمة حياة الإمام السَّرهندي ، وأصبح لزاماً أن يُحلَّى بهذه التَّرجمة العظيمة المجلَّد الثَّالث من : « رجال الفكر والدَّعوة » ؛ إذ إنَّ هذا العصر المضطرب بالفِتن ، والثَّورات ، أحوجُ إلى ذلك بالنَّظر إلى بعض الجوانب الخاصَّة ، وأنَّ تَنوير منهج الإمام السَّرهنديِّ ، وحكمته العمليَّة لأبناء هذا العصر ، وقادة الحركات ، والتَّنظيمات الإسلاميَّة ، الَّذين يُسرعون في تحدِّي الحكومات ، والقوى السِّياسية ، ويُعلنون الحرب عليها من غير هوادةٍ ، ومن غير استعدادٍ وتَريُّثٍ ، ويَجرُّونها إلى جبهةٍ معارضةٍ في بداية المرحلة ، وأوَّل الطَّريق ، وتَحدُث في طريق الدَّعوة ، والعمل البنَّاء عقباتٌ من دون ضرورةٍ شديدةٍ ، ومبرِّرٍ قويٍّ ، إنَّ عصرنا هذا يحتاج إلى هذه التَّجربة ، وإلى هذا

المثال العلميِّ أكثر من كلِّ عصرٍ مضى ، فكيف كان - يا ترى - ذاك المنهج الَّذي استطاع به إنسان أعزل ، لا يملك حَوْلاً ولا طولاً - وهو في زاوية من زواياه - أن يُغيِّر مجرى التَّاريخ ، ويُحوِّل وجهة الإمبراطورية المغوليَّة ؟.

لقد استرعى انتباهي - أوَّل مرَّةٍ - إلى هذه الحقيقة العظيمة أحاديثُ أخي الأكبر ، ومجالسُه العلميَّة ، ثمَّ عندما قرأت ذلك المقال العلميَّ المثير الَّذي دبَّجه يراع العلامة السَّيد مُناظر أحسن الكيلاني في مجلَّة : « الفرقان » الشَّهريَّة الغرَّاء ، العدد الخاص بالإمام المجدِّد السَّرهندي ؛ قَوي إيماني بهذه الحقيقة . وأنا بنفسي في كثيرٍ من مقالاتي ، وخُطبي ، ومحاضراتي[1] أوضحتُ هذه الحقيقة ، وأشرتُ إلى هذه النَّاحية التَّجديديَّة ، ولا يزالُ هذا المنهج الربَّانيُّ المؤثِّر هو المَنهجُ المُيسَّرُ الَّذي حقَّق من النجاح والتَّوفيق ما لم يُحقِّقه غيره ، وازددتُ ثقةً به ، واعتماداً عليه على مرِّ الأيام ، وطوال الدِّراسة ، والعناء ، والبحث .

ولكنِّي كلَّما فكرت في إفرادِ كتابٍ لترجمة هذا الإمام ؛ اعترضتْني عقبتان :

أولاهما : أنَّ أيَّ كتابٍ يتناول سيرة الإمام السَّرهنديِّ لا يمكن أن يخلو من إثارة قضية : « وحدة الوجود » و« وحدة الشُّهود » وشرحهما ، وإفهامهما للنَّشء الجديد ، والمقارنة بينهما ، وترجيح نظرية : « وحدة الشُّهود » مع الأدلَّة العلميَّة ، والمناقشة النَّاقدة الدَّقيقة ، فحين كانت تتمثَّل لي هذه المهمَّة الضَّخمة ؛ تَكِلُّ عنها قوايَ ، ويَنصرف عنها قلمي لأمورٍ ؛ منها : أنَّ هذا الموضوع قد تكوَّنت فيه مكتبةٌ واسعةٌ لا يَتيسَّر الاختيار منها ، وتلخيصُها ، واختصارها ، ثمَّ إن هذه القضية تحتاج إلى المباحث الفلسفيَّة الدَّقيقة ، وتفسير المصطلحات الفنيَّة الَّتي كثر فيها النِّزاع ، وثار حولها الجدال ، ولايُمكن دون ذلك الخوض في الموضوع ، أضِفْ إلى ذلك :

---

(١) كالمحاضرة التي ألقاها المؤلف في حفلة تكريم وترحيب ، عقدتها جمعية شبان المسلمين في ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ بالقاهرة ، حضرها عدد من علماء مصر ، وأساتذة الأزهر ، وأعضاء هيئة كبار العلماء وقادة الجماعات ، بعنوان « الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها » ، أو كالمحاضرة التي ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان « منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء » في شعبان سنة ١٣٨٩هـ .

أنَّ هذه القضية عمليَّةٌ ذوقيَّةٌ ، تجريبيَّةٌ أكثرَ منها نظريةٌ ، وعلميةٌ ، تعتمدُ على أحاسيس ، ومشاعرَ خاصَّةٍ ، وتجارب شخصيةٍ ، وليس المؤلِّف منها في عِيرٍ ، ولا نَفيرٍ ، كما أنَّ كثيراً من قرَّاء هذا الكتاب لا يَجهلون هذه العلوم فحسب ، بل يَنفُرون منها ، ويَستوحشون من ذِكرها ، فما كنت أعرف تجاه هذه المشاكل طريق التَّغلب عليها ، ومَن لي بالظَّفر في هذه المفازة الطَّويلة؟! وإذا تجرَّد الكتاب عن هذه الفصول المهمَّة ـ التي يعتبرها بعض العلماء مجالاً حقيقيّاً لتجديده ، ويتركَّز عندهم فيها سرُّ عظمته ، ومأثرته التجديديَّة ـ كيف يُعتبر الكتاب ترجمةً جامعةً لحياته ، وتعريفاً كاملاً بأعماله ؟!

كان يعترضني ، ويُمسك بعِنان قلمي عن الجريان في هذا المجال وجُود مكتبةٍ ضخمةٍ في هذا الموضوع ، وصُدور كتبٍ ، وبحوثٍ حدثت بين آونةٍ ، وأخرى ، لا يتيسَّر للمؤلف زيادةٌ ذات قيمةٍ فيها ، وقد غلبَ على ظنِّه : أنَّ كتابه لا يملأ فراغاً واقعاً في المكتبة الإسلاميَّة .

وبعد طول تفكيرٍ ، وتردُّدٍ ، ونظرٍ انحلَّت المُشكلة الأولى ، فقلت : ينبغي أن آخذ بمبدأ : « ما لا يُدرك كلُّه ؛ لا يُترك جلُّه » وأُقدم على جُلِّ هذه المصطلحات ، وشرحها مُستعيناً في ذلك بما جاء في كتب الشُّراح المحقِّقين من علماء المدرسة الفكريَّة للشَّيخ مُحيي الدِّين بن عربي ، وما جاء في هذه الرَّسائل نفسها من إشاراتٍ ، وتفسيراتٍ ، حتَّى يتيسَّر للقارىء الوُقوف على هذا العلم ـ بصورةٍ إجماليَّةٍ ـ وَمَنْ أحب أن يستزيد ، وساعده التَّوفيق يَرجعُ إلى المصادر الأساسية ، أو يُراجع العلماء المتخصِّصين في هذا الفنِّ ، والغوَّاصين في هذا البحر الزَّاخر ممَّن رسخوا في هذا العلم ، وتذوَّقوه ، وفقهوه . « وقليلٌ ماهم » .

أمَّا العقبة الثَّانية ؛ فهي النَّظر إلى المكتبة العظيمة الواسعة الَّتي تكوَّنت في سيرة الإمام السَّرهندي ، والتَّعريفُ برسائله العظيمة ، ومآثره الخالدة ، ومناقبه الجمة ، وقد كنتُ أقف حائراً متهيِّباً أمامها ، أستصغر نفسي ، وأستبعد الزِّيادة فيها ، أو الإضافة إليها بشيءٍ جديدٍ ، وقد هَداني لتذليل هذه العقبة المَثَلُ العربيُّ العلميُّ : « كم ترك الأوَّل للآخر ! لقد تناول تجديد الإمام السَّرهنديِّ وأعماله العظيمة الكثيرُ

من الكُتَّاب ، والمؤلِّفين ، وكَتبوا في هذا الموضوع الشيءَ الكثير ، ولكن لا يَزال هناك جوانبُ بحثٍ ، وتحقيقٍ تحتاج إلى رفع اللِّثام ، ومِسك الختام ، ومغامرةٍ جديدةٍ ، واقتحام .

ثمَّ إنَّ تغيُّر الأساليب ، وطرائق البيان ، وتَغيُّر الأوضاع ، والظُّروف ، والمُثُل ، والقِيم ، والمناهج في الإفهام والتَّعبير ؛ يَجعل الكتب الَّتي أُلِّفت قبل مدَّةٍ من الزَّمن ـ في بعض الأحيان ـ في حاجةٍ إلى نقلٍ وتعبيرٍ جديدٍ كأنَّها كانت مكتوبةً بلغةٍ أخرى ، كما أنَّ كلَّ مؤلِّف له طريقتُه ، ومنهجُه في الاستنتاج من الوقائع ، والاستنباطِ من الأحداث ، ورَبط النَّتائج العلميَّة بالأسباب المؤثِّرة .

ورأى المؤلِّف : أنَّه إذا تمَّ هذا العمل بإخلاصٍ ، وصفاءِ نيَّةٍ ، وجهودٍ مُوفَّقةٍ ؛ فإنَّه لا يكون عملاً نافعاً مستمرّاً فحسب ، بل سيكون ـ إذا قدَّر الله تعالى ـ هَديَّةً قيِّمةً ، ورسالةً حيَّةً للقرن الخامس عشر الهجريِّ ، ووثيقةً تاريخيَّةً لمنجزات عبدٍ صالحٍ من عباد الله المُخلصين ، قامَ بها في دأبٍ ، وصمتٍ ، وتواضُع ، وخُشوع ، ولم يقتصر تأثيرُها على قرنٍ واحدٍ ، بل امتدَّ ؛ حتَّى شَمِلَ الألف الثَّاني كُلَّه ، وهي تحمل لهذا القرن الَّذي نَفْتَتِحُه ، والَّذي تغيَّرت فيه الأوضاع تَغيُّراً كبيراً درساً للعظة ، والعِبرة ، والاستفادة .

وإنَّه يَلْهَج قلبُ المؤلِّف ، وقلمُهُ بشكر الله تعالى ، وبحمده ، والثَّناء عليه ؛ إذ وفَّقه بعد فترةٍ طويلةٍ دامت ربع قرن[1] لاستئناف سِلسلة « رجال الفكر والدَّعوة » ، وتأليفِ الجزء الثَّالث منها ، وقد طالتْ هذه الفترة ، حتَّى خاف المؤلِّف أن ينتهي الأجل دونَ استكمال هذه السِّلسلة الطيِّبة ؛ الَّتي باركها الله تعالى ، ونفع بها خلقاً كثيراً ، وكان هذا الجزء الثَّالث يبحث عن الشَّخصية الفريدة الَّتي حازت من القبول ، والعظَمة ، والصِّيت البعيد في جهوده الموفَّقة لتجديد الدِّين ، ما لمْ يحظَ به أيُّ

---

(١) كان صدور المجلد الثاني من « رجال الفكر والدَّعوة » ـ وهو خاصٌّ بسيرة شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، ودوره في الإصلاح والتَّجديد ـ سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) وقد تأخَّر صدور ترجمته بالعربيَّة إلى سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) فكان بين تأليف الجزء الثَّاني ، والثَّالث فترة ثلاثٍ وعشرين سنة .

مصلحٍ وداعٍ في تاريخ الإصلاح ، والتَّجديد في القرون الأخيرة ، حتَّى إنَّ اشتهاره بـ « مجدِّد الألف الثَّاني » طغى على اسمه ، وحلَّ محلَّه ، ولا يعرفه كثيرٌ من المثقَّفين إلا بهذا اللقب . هذا في جانبٍ ، وفي الجانب الآخر كُتب لجهوده التَّجديديَّة العظيمة من النَّجاح ، والتَّوفيق ، ومن النتائج الباهرة المستمرَّة ما يندرُ نظيرُه في تاريخ الدَّعوة ، والإصلاح ، والتَّجديد في الإسلام ، كان ذلك يَحُثُّني على وضع هذا الكتاب ، كما أنَّ إلحاح القرَّاء لسلسلة « رجال الفكر والدَّعوة » والمقدِّرين لفضلها بلغ من الجدِّ ، والصَّرامة ، حتَّى دفعني إلى التَّفكير في إكمال هذا الجزء بأسرع وقتٍ ممكنٍ ، بل إنَّ كثيراً من أصدقاء المؤلِّف المخلصين ممَّن يمتازون بدراسة هذا الموضوع ، والتعمُّق فيه ، كانوا يُشيرون عليَّ بأن أتفرَّغ لهذا الموضوع تفرُّغاً كاملاً ، وأقدِّمه على سائر الأعمال التَّأليفيَّة الأخرى .

ولكنَّ مُعالجة هذا الموضوع لم تَكُنْ بالأمر الميسورِ ، كما كان يبدو لكثيرٍ من النَّاس ، فما كان يُغني ـ نظراً إلى مُقتضيات العصر الحاضر والمقاييس الجديدة للبَحث والدِّراسة ، والتَّحقيق ـ أن يَقتصر على عرضٍ ، وتلخيصٍ ، واختيارٍ ممَّا جاء في كتب التَّاريخ ، والتَّراجم القديمة ، بل كان الموضوع يحتاج إلى دراسة العصر الَّذي عاش فيه الإمام السَّرهَندي وخلفيَّاته ، والبيئةِ الَّتي تربَّى فيها ، والأجواءِ الَّتي قام فيها بدوره التَّجديديِّ ، عِلميَّاً وتاريخيَّاً ، وسياسيَّاً ، وخلقيَّاً ، واجتماعيَّاً ، وعقائديَّاً دراسةً ناقدةً دقيقةً ، فما هي الحركاتُ الَّتي كانت تعمل آنذاك ؟ وكيف كان الاضطراب الفكري ، والقَلق الدِّيني سائداً في الهند ، وما يُجاورها من البلدان ؟ وكيف بدتْ طلائع الثَّورة على الشَّريعة ، والسُّنَّة في الأوساط العلميَّة والعقليَّة ؟ وماهي تلك المؤامرات ، والدَّسائس الَّتي كانت تُحاك حول الإسلام ؟ وماهي تلك الأماني اللَّذيذة ، والأحلام المعسولة الَّتي رَاودت كثيراً من المغامرين الطَّموحين لقُرب انتهاء الألف الأوَّل من التَّقويم الإسلاميِّ ، وغرستْ شكّاً ، وارتياباً في القلوب المريضة ، والنُّفوس القَلقَة ؟ فكانتْ فتنةُ الفلسفة ، والعلوم العقليَّة في جانبٍ ، وفتنة الإشراق ، والباطنيَّة الَّتي حاولت النَّيل من عظمة النُّبوَّة ، والرِّسالة المحمَّدية ، وادَّعت أنَّ العقل ، والفلسفَة ، والرِّياضات الشَّاقَّة ، والمُجاهدات الرَّهبانية ، وقَمْعَ الشَّهوات النَّفسانية كفيلٌ بمعرفة الله معرفةً صحيحةً ، والوصول

إليه ، ونَيل الحَظْوة عنده ، والنَّجاة من عذابه ، وما جَرَّتهُ عقيدة « وحدة الوجود » المُتطرِّفة من حُرِّيةٍ مطلقةٍ ، وإلحادٍ ، وزندقة .

زِدْ إلى ذلك : أنَّه لم تَعُد في هذا العصر للسُّنَّة النَّبويَّة ، والشَّريعة الإلٰهيَّة أهميةٌ ، ومكانة إلا عند القليل من العلماء الرَّاسخين ، والمشتغلين بعلوم السُّنَّة ، والحديث ، وسيطرت البدع ـ بصورةٍ علنيَّةٍ تارةً ، ومُستترةٍ بستار « البدعة الحسنة » أخرى ـ على المجتمع المسلم ، وسرت أدواؤُها في حياة المسلمين العمليَّة ، ولم يكن هناك مَنْ يَتشجَّع على مُقاومة فكرة « البدعة الحسنة » .

وأدهى من كلِّ ذلك ، وأمَرُّ : أنَّ الإمبراطوريَّة المغوليَّة العظيمة ـ الَّتي كانت تلي الإمبراطورية العثمانيَّة في السَّعة ، والقوَّة[1] والمجتمع الكبير الَّذي كان يعيش تحت ظلِّ هذه الإمبراطوريَّة ـ بدأت وجهتُها تتحوَّل ـ بتاثير بعض الأغراض الشَّخصية ، والميول، والاتِّجاهات الفرديَّة ، والتأثيرات الخارجيَّة ، والمصالح السِّياسيَّة المزعومة ـ من الارتباط بالدِّين الإسلاميِّ ، والتَّمسُّك بأهداب النُّبوَّة المحمَّديَّة ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وتمثيل الحضارة الإسلاميَّة ، إلى الفَلسفة البَرْهميَّة ، والحضارة الهنديَّة ، ونظرية « وحدة الدِّيانات »[2] . وكان في مُقدِّمة المخطِّطين لهذه السِّياسية ، والمدبِّرين لهذه المؤامرة ، مَنْ يُعتبر من نوابغ هذا العصر ذكاءً ، وعلماً ، وعبقرية أدبيَّةً ، وعقليَّةً ، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم : « قد أظلَّ العالَم الإنسانيَّ ـ بما فيه العالَم الإسلاميَّ ـ بدخول الألف الثَّاني ، عصرٌ جديدٌ ، يحتاج إلى دستورٍ جديدٍ للحياة ، وقيادةٍ جديدةٍ فَتيَّةٍ للمجتمع البشريِّ ، والإسلاميِّ » .

---

(١) كانت الإمبراطورية المغولَّية تلي الإمبراطورية العثمانيَّة في الرُّقعة ، والقوَّة العسكريَّة ، والوسائل ، والذَّخيرة ، وكانت حدودها تمتدُّ في بنغال الشَّرقية إلى حدود أفغانستان الغربيَّة .

(٢) يعني : أنَّ الأديان كلَّها سواءُ ، وكلُّها طرقٌ موصلة إلى الله ، تتحد في الغاية والصِّحَّة ، وتختلف في بعض المظاهر ، والشِّعارات ، وتسمِّي الله بأسماءٍ مختلفةٍ تتَّفق في الحقيقة ، والجوهر ، ولا تزال لها دعوةٌ قائمةٌ يدين بها ، ويدعو إليها بعض كبار المفكِّرين ، والزُّعماء السِّياسيِّين القوميِّين في الهند ، ولعلَّ الزعيم غاندي كان من أصحاب هذه الفكرة .

فكيف تغلَّب الإمام على هذا الوضع الشَّاذِّ ؟ وكيف غيَّر هذا التَّيار الجارف ؟ وكيف كانت عمليَّة « صناعة الرِّجال » وصُنع العبقريات في زاويةٍ بعيدةٍ عن صَخَب الحياة ؟ وما هي تلك التَّربية الخُلقيَّة ، والتَّزكية الرَّبَّانية الَّتي تخرَّج في مدرستها رجالٌ يتجمَّل بهم التَّاريخ ، والَّذين ألْقوا رحالهم في مختلف أقطار الهند ، واتَّخذوها مركزاً ، وقاعدةً لنشاطهم الدَّعوي ، وعملهم التَّربويِّ ، وانتشر كثيرٌ منهم في أفغانستان ، وتركستان ، وامتدُّوا إلى العراق ، والشَّام ، ورحلوا إلى الحجاز ، وتركيَّا ، فقاموا بجهودٍ جبارةٍ ، وحركةٍ قويَّةٍ مُنتجةٍ لإعلاء كلمة الله ، وإحياء السُّنن المماتة ، والذَّبِّ عن الشَّريعة الغرَّاء ، ومُقاومة البدع ، والمنكرات ، وإزالة الآثار الَّتي خَلَّفها دعاة « وحدة الوجود » المتطرِّفون ، والصُّوفية المتحرِّرون ، المنحرفون ؟!

وخلاصةُ جُهودهم : أنَّهم نفخوا روحاً جديدةً في المجتمع المسلم لعبادة الله وحدَه ، وابتغاء مرضاته ، وتعظيم شريعته ، وحُرماته ، ولم يزالوا على هذا الدَّرب ثلاثةَ قرونٍ متواليةٍ مواصلين جهادهم ، وجهودهم بقوَّةِ إرادةٍ ، وعُلُوِّ همَّةٍ ، وانصرافٍ تامٍّ ؛ حتَّى شمل تأثيرهم العالَمَ الإسلاميَّ كُلَّه ، فلا تجد بُقعةً من بقاع العالم الإسلاميِّ إلا وتشهد فيها آثارهم ، وثمراتِ جهودهم ، وحُقَّ لهم أن تُنسب هذه القرون الثَّلاثة إلى إمامتهم ، وقيادتهم ، وتربيتهم ، وعندما يشهد المؤرِّخ المُنْصِف هذا التأثير العالميَّ العظيم ، يَمتلىء قلبُه إعجاباً بهذه الشَّخصية الفريدة ؛ الَّتي غيَّرت مجرى التَّاريخ .

وقد كان ممَّا ينبغي ملاحظتُه بهذا الصَّدد ، والعناية به لمؤرِّخ حاذقٍ أمران آخران ، أوَّلهما : أنَّه لا ينبغي الاقتصار في إلقاء الضَّوء على عصر الإمام السَّرْهَنْدي ، وتصوير الفترة الَّتي تربَّع فيها الملك جلال الدِّين أكبر التَّيموري عرشَ المملكة الهنديَّة العظيمة في كتاب : « منتخب التَّواريخ » للعلامة عبد القادر البدايوني[1] ، وعلى تلك المراجع التَّاريخية التي وُصفت في الأيَّام الأخيرة بأنَّها

(١) كان العلامة عبد القادر بن ملوك شاه البدايوني (م١٠٠٤) مؤرِّخاً أميناً ، دقيق الملاحظة ، =

أُلِّفتْ تحت ضغط عواطف دينيَّةٍ حادَّةٍ ، أو من وجهة نظرٍ خاصَّةٍ ، وتواضعت على تصوير عهد الملك أكبرَ تصويراً قاتماً مظلماً ، بل ينبغي الاستفادة من كُتب أولئك المؤرِّخين المُحايدين ، أو من تقريرات أولئك المحرِّرين ، وأصحاب الأقلام في البلاط الملكيِّ ، الَّذين لم يكونوا ممَّن يخالفون الملك أكبر فحسب ، بل كانوا يُدَافعون عنه ، ويَدْعون إلى أفكاره ، وأهدافه ، وكانوا مُعجبين بدستور الدَّولة ، الذي وضعه ، كما أنَّهم يتغنَّون بفضله ، وعبقريَّته ، ومواهبه الفذَّة ، وينبغي أن نَدرس تلك التَّطورات ، والتَّغييرات ، الَّتي بدأت من عَهد الملك جهانكير ، وتكامَلَتْ في عهد السُّلطان أورنك زيب عالمكير دراسةً تاريخيَّة ناقدةً ، ويُستفاد في ذلك من كتب مؤرِّخي الهند المُحايدين ، ونُبرهن على هذه الدَّعوى في ضوء كتاباتهم ، لا في ضوء كتابات المؤلِّفين عن الأسرة المُجدِّدية ، والمؤرِّخين المتحمِّسين لهذه القضيَّة ، حتَّى تكون الدِّراسة محايدةً منصفةً للفريقين .

وكان من اللازم أيضاً أن تُستعرض تلك الكتب ، والمقالات الَّتي ظهرت في الخمسينات الأخيرة من هذا القرن عن الإمام السَّرهنديِّ باللُّغتين الأرديَّة ، والإنجليزيَّة في الهند ، وخارج الهند ، وفي بعض هذه الكتابات تحدَّى المؤلِّفون كثيراً من الحقائق المعروفة ، وأثاروا أسئلةً جديدةً ، وعَرضوا صورةً ـ لاستنتاجهم من الوقائع ، والأحداث على مَنهجهم الخاصِّ ـ تختلفُ كلَّ الاختلاف عن تلك

= والنَّظر ، مؤلِّفاً شجاعاً ، لا يحابي أحداً ، (اقرأ ترجمته في الجزء الخامس من « نزهة الخواطر » للعلامة السَّيد عبد الحي الحسني رحمه الله !) وقد انتقد الإمبراطور « أكبر » انتقاداً لاذعاً ، وصوَّره تصويراً لا يرضي متملِّقيه ، ومطريه ، من أنصار التَّسامح الدِّينيِّ المزعوم الَّذي اشتهر به « أكبر » والدَّعوة إلى الدِّين الإلٰهي (وبالأصح الأكبري) الَّتي قادها ، وتزعَّمها ، من المؤرِّخين « العلمانيِّين » الأحرار في هذا العصر ، وقد قاموا بحملةٍ هوجاء ضد البدايوني ، وكتاباته ، وقلَّلوا من قيمة الكتب الَّتي تعتمد على شهاداته ، ومعلوماته .
وقد رأى المؤلِّف من المصلحة أن لا يعتمد هذا الكتاب الجديد على ما جاء في كتاب « منتخب التَّواريخ » للبدايوني فحسب ، لئلا يتَّخذ ذلك المغرضون وسيلةً للحطِّ من قيمة كتابه العلميَّة ، والتَّاريخية ، فاستشهد في وصف « أكبر » وعرض عقائده واتِّجاهاته وتقنياته على بيان أصدقائه ، ورجال بلاطه الأوفياء المتشيِّعين له .

الصُّورة الوضَّاءة النَّيِّرة الَّتي دَأب أكثرُ المؤرِّخين على إبرازها ، وعرضها . ولا يستلزمُ ذلك أن يُسمَّى كلُّ واحدٍ من هؤلاء المؤلفين ، والكُتَّاب ، ويُردَّ على دعاويهم واحداً واحداً ، بل إنَّ هذه السيرةَ المعروضة للإمام السَّرْهندي عرضاً جديداً ، وهذه الدِّراسة لأعماله التَّجديديَّة ، وعصرِه ، وبيئته سوف تكونُ رداً حاسماً على شُبهاتهم ، وتفنيداً لدعاويهم .

وإنَّني ـ مع زَحمة الأشغال ، وكثرة الأسفار داخل البلاد ، وخارجها ، وقلَّة المساعدين في هذا العمل ـ حاولتُ جهدي أن يَظهر هذا الجزء من سلسلة « رجال الفكر والدَّعوة » الَّذي يشتمل على حياة الإمام السَّرهنديِّ ، ومُنجزاته ، وأعماله ، يحمل موادَّ جديدةً ، لم تُعرض بعدُ ، ونتائج جديدةً تدعو إلى التَّفكير والتَّأمُّل ، وتبعث على الأمل ، والتَّفاؤل ، لعلَّنا بذلك نقوم ببعض واجبنا نحو هذا العصر ، ونُحقِّق بعض متطلَّباته ، ونَستقبلُ به القرن الخامس عشر الهجريَّ .

وإلى القُرَّاء هذا الكتاب ـ الذي أُلِّف في لغة أردو ـ مَنقولاً إلى الُّلغة العربيَّة ، وقد قام بعملية التَّرجمة والتَّعريب ـ العسيرة الدَّقيقة لاختلاف نفسيَّتي الُّلغتين ومحيطهما ، ودِقَّة الموضوع ـ العزيزُ السَّيِّد سلمان الحُسيني النَّدوي ـ باركَ الله في حياته ، ونفعه ، ونفع به ـ خيرَ قيام ، وقد أنجزَ العمل ، وأتمَّه في مدَّةٍ قريبةٍ ، فله دُعاء المؤلِّف ، وشكر القرَّاء ، والأجرُ من الله الكريم .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكَّلت وإليه أنيب .

٢٦/ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ

١٣/ إبريل ١٩٨٠م

أبو الحسن علي الحسني ، النَّدوي

دائرة الشَّيخ علم الله الحسني ، رائي بريلي

رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام

الجزء الرَّابع

الخاص بـ « الشَّيخ ولي الله الدِّهلوي »

دار القلم ـ الكويت

دار ابن كثير ـ دمشق

كلمة المؤلِّف

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصَّلاةُ ، والسَّلام على سيِّد المُرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

أما بعد : فيسُرُّ المؤلِّف ويُسعده أن يقدِّم للقُرَّاء العرب الجزءَ الرَّابع من كتابه : « رجال الفكر ، والدَّعوة في الإسلام » ، وهو الجزءُ الخاصُّ بحياة حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرَّحيم المعروف بالشَّيخ وليِّ الله الدِّهْلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦) والتَّعريف بدوره الإصلاحيِّ التَّجديديِّ ، التَّربويِّ القياديِّ ، الَّذي قام به ، ووُفِّق له في شبه القارة الهنديَّة ، الَّتي كانت الجزءَ الحاسم الحسَّاس من العالم الإسلاميِّ في القرن الثَّاني عشر ، وما بعده ، وبدوره في إحياء الفهم للدِّين ، وإعادة الحياة ، والنَّشاط ، والحيويَّة والنُّموِّ إلى الفكر الإسلاميِّ ، وعرض الشَّريعة الإسلاميَّة في صورةٍ مُتناسقةٍ شاملةٍ ، والكشف عن أسرار الأحكام الشَّرعيَّة ، ومقاصدها ، وحكمها ، والتَّطبيق بين العقل ، والنَّقل ، وبين الفقه ، والحديث ، والتَّوفيق بين المذاهب الفقهيَّة الرَّئيسيَّة ، وذلك في مجال العالم الإسلاميِّ كلِّه ، والأجيال الآتية كلِّها ، فهو بذلك استحقَّ دراسةً اختصاصيَّةً من الباحثين في تاريخ الإصلاح الدِّينيِّ ، والفكر الإسلاميِّ ، ومن المعنيِّين بالصَّحوة الإسلاميَّة وربط المجتمع الإسلاميِّ بالأصول الإسلاميَّة السَّليمة ، والتَّعاليم الشَّرعيَّة القويمة في كلِّ بلدٍ من بلاد الإسلام ، وفي كلِّ طبقةٍ من طبقات المثقَّفين الإسلاميِّين ، والعاملين لرفع شأن الإسلام ، والمسلمين .

إنَّ العمل الضَّخم المتنوِّع الواسع الَّذي قام به الإمام الدِّهلوي ، اشتمل على إصلاح العقائد ، ونشر الكتابِ والسُّنَّة ، والردِّ على المذاهب الدَّخيلة على الإسلام ، النَّابتة الطُّفيليَّة في حَقْلِهِ ، وعلى المحاولة الحكيمة القائمة على الدِّراسات

العميقة ، لجمع شَمل الأمَّة المحمَّدية بتقصير الفجوة بين المذاهب الفقهيَّة السَّائدة ، وبين الفقه ، والحديث ، ورَفع الفجوة بين المذاهب الفقهيَّة السَّائدة ، وبين الفقه ، والحديث ، ورَفع الفجوة بين المنتمين إليها ، وعرض الشَّريعة الإسلاميَّة ، وشُعَبها ، وأبوابها في ترابطٍ ، ونظامٍ ، وفي تناسقٍ واتِّزانٍ ، يُخيَّل إلى القارىء كأنَّها لآلىءُ العقد المنظوم ، أو حلقاتُ سلسلةٍ مترابطةٍ ، وعلى رفع القناع عن فوائد الشَّريعة العمليَّة ، والاجتماعيَّة ، والمدنيَّة ، وشرح التَّعاليم الدِّينيَّة ، والهداية السَّماويَّة في محيط الحياة الواسع ، وفي سياق العلاقات المشتركة بين النَّاس ، وصلة الأسباب بالنَّتائج .

هذا هو الدَّور القياديُّ الَّذي قام به في عهد الفوضى السِّياسيَّة ، واحتضار الدَّولة الإسلاميَّة في الهند ، وبذل الجهود لإقامة مملكةٍ قويَّةٍ موطَّدةِ الأركان ، الدَّور القياديُّ الحكيم الَّذي يقوم به أكبر سياسيٍّ بصيرٍ لا يمتُّ إلى التَّأليف ، والتَّصنيف ، والبحث ، والتَّدريس بأيِّ صلةٍ ، مع عَدِم إهمال المجتمع المسلم الَّذي هو مصدر كلِّ انقلابٍ صالحٍ وغير صالحٍ ، والحاضنة للقادة والحكَّام ، والأرضيَّة الَّتي تقوم عليها الحكومات ، والمنظَّمات ، وقد وُفِّق لوضع الأصابع على أمراض طبقاته المختلفة ، ومواضع ضعفها ، وضرب على الوَتَر الحسَّاس ، ودلَّ على مكامن الضَّعف ، والانحراف ، وأنواع الغرور ، والخِداع ، مع توجيه النَّصائح ، والملاحظات ، إلى كلِّ طبقةٍ من هذه الطَّبقات .

ولم يكن كُلُّ ذلك نظرياً ، وعلميَّاً فحسب ، ومقصوراً على شخصه الخاصِّ ، فقد ضمَّ إلى كلِّ ذلك تربية الخلفاء ، والرِّجال الأكْفاء ، الَّذين قاموا بإكمال مُهمَّته حسب مقتضيات الزَّمن ، ومُتطلَّبات الدِّين ، ومدِّ دوره الإصلاحيِّ إلى مَساحةٍ مكانيَّة ، وزمنيَّة من أوسع المساحات الَّتي قُيِّضت لِمُصلح دينيٍّ ، وعالمٍ مؤلِّف ، مُدرِّسٍ ، مربٍّ ، مضافاً إلى ذلك كلِّه إحياءُ الجهاد في سبيل الله ، ومقاومةُ الخطر على حُرِّيَّة المسلمين وسُلطتهم .

وبهذا الشُّمول العجيب ، والتَّنوُّع النَّادر ، والفكر الإسلاميِّ الأصيل ، والعلم الدِّينيِّ الرَّاسخ ، وفَهْم روح العصر ، والتنبُّه للأخطار ، والتَّحديات الَّتي كان

يتمخَّص بها المستقبل ، ولا تزال في ضمير الزَّمان ، والتَّنبيه عليها ، والدَّعوة إلى إعداد العدَّة لها أصبح نموذجاً كاملاً للمُصلح الدِّينيِّ ، والمجدِّد الإسلاميِّ في كلِّ بيئةٍ من بيئات العالم الإسلاميِّ ، وفي أوضاعٍ دينيَّةٍ ، واجتماعيَّةٍ ، وسياسيَّةٍ ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً ، وأصبح مدرسةً علميَّةً ، فكريَّةً ، واسعةً ، جامعةً ، يتخرَّج فيها علماء مصلحون ، ومُفكِّرون إسلاميُّون ، على اختلافِ مستوياتهم ، وتَنوُّع اتِّجاهاتهم .

وفي الحقيقة : إنَّ هذا العصر هو عصرُ شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيميَّة الحَرَّاني (م٧٢٨هـ) ، وحكيم الإسلام أحمد بن الشَّيخ عبد الرَّحيم وليِّ الله الدِّهلويِّ (م ١١٧٦هـ) ، وذلك لاعتمادهما على الكتاب ، والسُّنَّة ـ اللَّذين كُتب لهما من الخلود وصلاحية البقاء ما لم يكتب لنتاجٍ علميٍّ ، ومدرسةٍ فكريَّةٍ ـ واعتبارهما الأصل ، والأساس ، والقائد ، والنِّبراس في حلِّ المعضلات ، والمشاكل في العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والاجتماع ، والمدنيَّة ، والسِّياسة ، وتربيةِ النُّفوس ، وتزكيتها ، وبما كانا يَدينان به من الحاجة إلى الاجتهاد في كلِّ عصرٍ ، وتجديد الفكر الإسلاميِّ ، وبما كانا يتَّصفان به من مُقاومة الجمود ، والتَّحجُّر العلميِّ ، والعصبية الشَّديدة للمذاهب الفقهيَّة ، ويمتازان به من دراسة الدِّيانات غير الإسلاميَّة ، والمذاهب المتزعِّمة للإسلام ، هذا مع ما لابدَّ منه مع اختلافٍ في المنهج ، والذَّوق ، وفي العناصر الَّتي تركَّبت بها شخصيَّة كلِّ واحدٍ منهما ، وتكوَّن بها مزاجٌ خاصٌّ ؛ اختلافٍ يقتضيه اختلافُ البيئات ، وأساليب التَّربية ، وطبيعةُ الزَّمان ، والمكان ، واتِّجاهُ الأسر ، والآباء ، لذلك كان نشرُ مؤلَّفات كلِّ واحدٍ منهما ، وتحقيقاته ، وتاريخ كفاحه ، ودوره الإصلاحيِّ في مكانه ، وأوانه .

وقد سَبق للمؤلِّف وَضْعُ كتابٍ خاصٍّ بحياة شيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيميَّة ، كوَّن الحلقة الثَّانية من « رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام »[1] ، وأتبعَ ذلك

---

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب من دار القلم (الكويت) سنة ١٣٩٥هـ والثَّالثة سنة (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣) وقد صدر الآن بطبعةٍ جديدة منقَّحة عن دار ابن كثير سنة (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) .

بإصدار كتابٍ خاصٍّ بالإمام السَّرهندي الشَّيخ أحمد بن عبد الأحد (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ) يُكوِّن الجزء الثَّالث من سلسلة « رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام » وقد صدر في سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)(١) ، وهو إمامٌ من كبار أئمَّة الإصلاح ، والتَّجديد في تاريخ الإسلام الطَّويل ، وقد كُتب له من النَّجاح في أهدافه الإصلاحيَّة والتجديديَّة ما قلَّ ما كُتب لمصلحٍ آخر في الماضي ، فقد قضى على بعض الفتن الَّتي كادت تقضي على الإسلام ـ لولا قضاءُ الله ببقائه ، وكفالته بحفظه ـ وجلَّى بعضَ الحقائق الدِّينيَّة الرَّئيسية ، والحاجة إلى النُّبوَّة ، وفضل الأنبياء ، وإعادةَ الثِّقة والإيمان بالنُّبوَّة المحمَّدية ، تجليةً لم تُؤْثَر عن مصلحٍ آخر ، وغيَّر مجرى التَّاريخ في شبه القارَّة الهنديَّة ، وحوَّل وُجهة الإمبراطورية المغولية ، من الكفر ، والإلحاد ، والبَرهميَّة ، ووحدة الأديان إلى الدِّين الحنيف ، والشَّريعة الإسلاميَّة السَّمحة ، ذلك كلُّه بطُرقٍ حكيمةٍ سلميَّةٍ ، وأساليب دعويَّةٍ تربويَّةٍ ، وربَّانيَّة صادقةٍ خالصةٍ .

وها هي الحلقة الرَّابعة من هذه السلسلة الذَّهبية ، يسنُدُ بعضها بعضاً ، وكلُّها مترابطةٌ متناسقةٌ ، تَدلُّ على أنَّ شجرة هذا الدِّين تُؤتي أُكُلها كلَّ حينٍ ، وعلى أنَّ خليَّته لا تنقطع عن التَّعسيل ، وكنانته لا تنفدُ ، ولا تخطىءُ سِهامُها .

وقد وضعَ المؤلِّف هذا الكتاب أصالة في الأردو ، لغة شبه القارَّة الهندية ، العلميَّة ، والتَّأليفية ، الَّتي يَفهمها أكثر من مئتي مليون إنسان في شبه القارة وخارجها ، والَّتي ابتدأ المؤلف وَضع هذه السِّلسلة التَّاريخية فيها ، وقد قام بنقل الجزأين : الثَّالث ، والرَّابع من هذه السِّلسلة(٢) العزيزُ الأستاذ السَّيد سلمان الحُسيني النَّدْوي من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء خيرَ قيام ، استحقَّ به دعوات المؤلِّف بطول حياته ، وحسنِ توفيقه ، وشكرَ القرَّاء ، وفوق كلِّ ذلك رضاً من الله ، وحسنَ ثوابه .

---

(١) صدر كسابقه عن دار ابن كثير أيضاً .

(٢) قام بنقل الجزء الثاني من هذه السلسلة وهو الجزء الخاصُّ بشيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيميَّة ، الأستاذ سعيد الأعظمي النَّدوي ، أحد أساتذة دار العلوم الكبار ، ورئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » جزاه الله خيراً !

أرجو أن ينال هذا الكتاب مكانُه اللاَّئق في المكتبة الإسلاميَّة الحديثة ، وفي أوساط الدَّارسين ، والباحثين ، والمعنيِّين باليقظة الإسلاميَّة والإصلاح الدِّينيِّ ، وعلى الله قصدُ السَّبيل .

دارة الشيخ علم الله الحسني　　　　**أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي**

رائي بريلي ، ١٣ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٥

إذا هبّت ريح الإيمان

دار ابن كثير
دمشق ـ بيروت

مقدّمة المؤلّف

الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى ، أمَّا بعد :

فإذا هبت ريح الإيمان ؛ جاءت بالأعاجيب في العقيدة ، والأعمال ، والأخلاق ، ورأى النَّاس روائع من الشَّجاعة ، واليقين ، والعفة ، والأمانة ، والإيثار ، وهضم النفس ، وروح التَّطوُّع ، والاحتساب ، والتَّواضع في المظاهر ، وكبر النفس ، وسموِّ النَّظر ، ورأوا آياتٍ من العدل ، والرَّحمة ، والمحبَّة ، والوفاء كادوا ينسونها ، ويقطعون منها الرجاء .

وقد هبَّت هذه الرِّيح المباركة في فتراتٍ تاريخيَّة ، قصرت أحياناً ، وطالت أحياناً ، وهي معلومةٌ مسجَّلةٌ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ، والتَّجديد الإسلاميِّ .

وقد هبَّت هذه الريح في الهند في فجر القرن الثَّالث عشر الهجريِّ ، وتجدَّدت ذكريات القرون الأولى يوم قام الإمام السَّيد أحمد بن عرفان الشَّهيد بدعوة التَّوحيد ، والتَّجديد ، والجهاد .

ودعا إلى الدِّين الخالص ، وأشعل في القلوب شعلة الإيمان ، والحماسة الإسلامية ، والجهاد في سبيل الله ، ونظَّم جماعةً كبيرةً ، وأحسن تربيتها الدِّينيَّة ، والحربيَّة ، وهاجر معها من طريق بلوجستان ، وأفغانستان إلى حدود الهند الشَّمالية ، واتَّخذها مركزاً لدعوته ، ليتقدَّم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز ، وتأسيس دولةٍ إسلاميَّةٍ على منهاج الكتاب والسُّنَّة ، وقد هزم هؤلاء المجاهدون السيخ (Sikhs) ، (الَّذين احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب) في معارك كثيرةٍ .

وأسَّس هؤلاء المجاهدون دولةً شرعيَّةً في الحدود الهندية الشَّمالية الغربيَّة تشتمل على « بشاور » ، وما جاورها من البلدان ، والقرى ، ونفَّذوا الحدود

الشَّرعية ، وطبقوا النِّظام الإسلاميَّ المالي ، والإداري تطبيقاً دقيقاً ، ولكن ثارت عليهم القبائل الَّتي تقطن الحدود لمصادمة هذا النِّظام لمآربهم الشَّخصية ، وعاداتهم الجاهلية ، فقلبوا هذا النِّظام ، ثمَّ اصطدم المجاهدون بجيش السِّيخ في وادي « بالاكوت » فاستشهد الإمام أحمد ، وصاحبه الشَّيخ إسماعيل ، وكبار أصحابهما في ٢٤/ من ذي القعدة/ عام ١٢٤٦هـ (٦/ من مايو/ عام ١٨٣١م) ، ولجأ الفَلُّ إلى الجبال ، ولم يزل هؤلاء وأصحابهم في الهند قائمين على الحقِّ ، باذلين في ذلك النَّفس ، والنَّفيس ، والإنجليز يطاردونهم ، ويطاردون أملاكهم ، وأموالهم ، ويحاكمونهم محاكماتٍ طويلةً عريضةً[1] ؛ وهم صابرون محتسبون ، لا يضطربون ، ولا يتزعزعون ، ولا يلينون ، ولا يستكينون ، حتى كانت ثورة ١٨٥٧م ؛ التي تزعمها المسلمون ، وأسهم فيها المواطنون ، وأخفقت لأسباب يطول ذكرها ، وقوبل زعماؤها بصفة خاصة ، والمسلمون بصفة عامة بوحشية نادرة[2] ، واستتب الأمر للإنجليز ، ودخلت الهند في الحكومة البريطانيَّة بصورةٍ عامَّةٍ ، وبقي هذا الوضع إلى ١٩٤٧م ، حين نالت الهند الاستقلال ، وكان التَّقسيم ، وقامت الجمهورية الهندية ، وقامت دولة باكستان الإسلاميَّة ، وهي تشتمل على أكثر المناطق الَّتي كانت مركز نشاط المجاهدين ، وكفاحهم ، وكانت في مقدِّمة مخطَّط هذه الحركة الإصلاحية الجهادية ، وهدفها الأول .

وقد شرح الله صدري في سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) لأن أختار رواياتٍ من هذا التَّاريخ العجيب ، فأصوغها في العربيَّة في أسلوبٍ أدبيٍّ ، قصصيٍّ شائق ، لا يشوبه شيءٌ من المبالغة فضلاً عن الكذب ، تدلُّ على مكانة قائد هذه الحركة العبقريِّ ، وما أوتي من مواهبَ عظيمةٍ ، وعناصر قويَّةٍ ، وعلى مدى نجاحه في تربية النُّفوس ، وتزكيتها ، وعلى إخلاصه ، وتجرُّده للغاية التي كان يسعى لها ، وتفانيه في دعوته ،

---

(١) اقرأ كتاب Indian Mudalmans وكتاب The Great Wahabi Case لويليم هنتر W.W.Hanter .

(٢) اقرأ كتاب المؤلف « المسلمون في الهند » فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » .

وتدلُّ على نفسيَّة هذا الجيل المؤمن المجاهد ، وخلقه ، ومبلغ تأثير الدَّعوة الإسلاميَّة والتربية الإيمانيَّة في نفوس تلاميذها ، ونُشرت هذه الرِّوايات في مجلة « المسلمون » الغرَّاء حين كانت تصدر من القاهرة في سنة ١٩٥٣م في عددي يناير ، وفبراير من هذه السَّنة ، ثمَّ شغلت عنها لأعمالي الكتابيَّة ، والتَّأليفية ، والدَّعوية الأخرى ، حتَّى مضى على ذلك عشرون سنة .

ثم لفت نظري بعض إخواني[1] الأعزَّاء إلى قيمة هذه السِّلسلة القصصيَّة ، وما لها من تأثيرٍ في نفوس القـرَّاء ، واستجابةٍ خفيَّةٍ لقبولها ، وتقليدهـا ، وإنَّني إذا لم تساعدني الظُّروف ، ولم يتَّسع وقتي لوضع تأليفٍ مستقلٍّ في سيرة هذا الإمام الكبير ، وفي تاريخ دعوته ، وجهاده ، وفي اللُّغة العربيَّة ، كما فعلت في أردو[2] ، فلا مانع من أن أكمل هذه السِّلسلة ، فقد تكون صورةً مصغَّرةً من هذا التَّاريخ الكبير ؛ الَّذي يشغل آلافاً من الصَّفحات[3] ، ويمتدُّ على مساحةٍ مكانيَّةٍ ، تتكوَّن من آلافٍ من الأميال ، وعلى مساحةٍ زمانيَّةٍ تستغرق قرناً كاملاً[4] ، ويستطيع القارىء الذَّكيُّ أن يكوِّن من هذه الشَّذرات الملتقطة من هنا وهناك فكرةً متناسقةً جامعةً عن هذا الجهاد الطَّويل ، وعن هذه المدرسة المنجبة المنتجة ، فيكون في ذلك سدٌّ إلى حدٍّ لهذا الفراغ الواقع في المكتبة الإسلاميَّة ، العربيَّة المعاصرة[5] وريٌّ لكثير من

---

(١) في مقدِّمتهم محمد الحسني ، وسعيد الأعظمي محررا مجلة « البعث الإسلامي » .

(٢) لكاتب هذه السطور كتاب « سيرة سيد أحمد شهيد » في جزأين يقع كل جزء في نحو خمسمئة صفحة بالقطع الكبير .

(٣) الكاتب الباكستاني الشَّهير ، والصَّحافي الكبير المرحوم غلام رسول مهر كتاب « سيد أحمد شهيد » في أربع مجلدات مجموع صفحاتها ١٩٢١ .

(٤) يبتدىء هذا التاريخ في الحقيقة من عام ١٢٢٥هـ حين بدأ السيد نشاطه ، ويدوم إلى سنة ١٣٢٠هـ العام الَّذي توفي فيه الشيخ عبد الله بن ولايت علي الصَّادقفوري أمير جماعة المجاهدين ، وهي مدَّة نشاط هذه الجماعة وقيادتها .

(٥) فات المؤلف هنا أن ينوِّه بفضل صديقه الفاضل الكاتب القدير ، وأديب العربيَّة الكبير الأستاذ علي الطنطاوي في تأليف أول كتاب يصدر من قلم أحد كتَّاب العرب ، وهو كتيِّب : « أحمد بن عرفان الشهيد » في ٤١ صفحة صدر سنة ١٣٨٠هـ في سلسلة « أعلام التاريخ » من دمشق .

النفوس المتعطشة إلى معرفة هذا الفصل الرَّائع من الجهاد الإسلاميِّ ، وتاريخ التَّجديد الدِّيني في الهند ، ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

وكنتُ إذا قرأت روايات « الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني » (م ٢٥٦هـ) وأنا في أيام الطَّلب ، وريعان الشَّباب ؛ أوخذ بسحر أدبها ، ولغتها العربيَّة الفصحى ، وتعبيرها الجميل ، وتصويرها البارع لخواطر النَّفس وأشكال الحياة ، وكنت أغار على هذه العربيَّة الفصحى ، الَّتي نزل بها القرآن ، وتكلَّم بها الرَّسول وأصحابه أن تُسخَّر للأغراض التَّافهة ـ إذا لم أقل الخسيسة ـ الَّتي ألف لها هذا الكتاب ، وأن تضيع في الألحان ، والأغاني ، ورنَّات المثالث ، والمثاني ، وتصوِّر جوانب الضَّعف ، ومواضع السَّقط ، ومكامن الرِّيب في المجتمع الإسلاميِّ الذي عاش في القرون المشهود لها بالخير ، وكنت أتمنَّى أن تستخدم هذه الملكة البيانيَّة ، وهذه الثروة اللُّغوية الفذَّة ، وهذا الأسلوب القصصي الخفيف الجميل ، في مقاصد شريفةٍ ، وأغراضٍ نبيلةٍ ، وفي تصوير جانبٍ مشرقٍ من تاريخٍ جميلٍ مشرقٍ .

وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أحاكي هذا الأسلوب في هذه القصص ؛ الَّتي اخترتها على عجلٍ من تاريخ الإصلاح والتَّجديد في الهند ، فإن لم يتحقَّق لي نجاح الأصبهاني وغيره ـ وأنى يدرك الضَّالع شأو الضَّليع ! ـ فلا تفوتني فائدة التَّقليد لأسلوبٍ ساحرٍ ، ولا تفوتني نيَّة القاصد ، وأجر العامل .

ولهذه الحكايات التَّاريخية ، والرَّوائع الإيمانيَّة والخلقيَّة فائدةٌ ، لا يستهان بقيمتها ، وأهمِّيتها ، وهي أنَّه يستطيع القارىء الذَّكيُّ أن يقيس بها عظمة الشَّخصية التي هي مصدر كلِّ هذا الفضل ، ومصدر كلِّ انقلاب ، وكلِّ دعوةٍ وجهادٍ ، والتي منها انبثق هذا التَّاريخ ، وانتشر هذا النُّور ، وعم هذا البرُّ ، وهي شخصية الرَّسول الأعظم ﷺ ، ولم يكن المجدِّدون في كلِّ دورٍ ، والمربُّون في كلِّ جيلٍ ، والمصلحون في كلِّ بلدٍ إلا رشحاً من رشحات هذه التَّربية ، والدَّعوة ، وظلاًّ من ظلالها الفيحاء ، فإذا كان هؤلاء المجدِّدون ، وأولئك الدُّعاة والمربُّون ، وهم تلاميذ هذه المدرسة المحمَّديَّة ، وأتباع أتباع المتخرِّجين فيها بهذه المكانة من الإيمان والإخلاص ، وعلى هذه القدرة من التَّأثير ، والإنتاج ؛ فكيف بالرَّسول

الذي أرسله الله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدِّين كلِّه ، وليخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور ، وأكرمه بالوحي ، والكتاب المعجز الخالد ، وأيَّده بروح القدس ؟! وكيف بالنَّاس الَّذين نشؤوا في أحضانه ، وتربَّوا بين سمعه ، وبصره ؟! وكان وجود هؤلاء المجدِّدين ، والمربِّين في القرون المتأخِّرة ، وفي بلادٍ بعيدةٍ عن مهد الإسلام ، ومركز الدَّعوة الإسلاميَّة دليلاً على خلود هذا الدِّين ، وتدفُّقه بالحيوية ، والتَّوليد ، وعلى أنَّ شجرة الإسلام لا تزال تثمر ، وخليته لا تزال تعسل ، وهي فائدةٌ ليست ضئيلة القيمة ، ولا قليلة الأهميَّة .

ومن خصائص هذه الجماعة الَّتي تلفت النَّظر : أنَّها كانت تجمع بين جهاد النفس ، وجهاد العدوِّ ، وبين الحبِّ لله ، والخشية له ، والحبِّ لله ، والبغض لله ، وبين الزُّهد ، والعبادة ، والحميَّة الدِّينية ، والغيرة الإسلامية ، وبين السَّيف ، والمصحف ، والعقل ، والعاطفة ، وبين التَّسبيح في المسجد ، والبيت في ظلام اللَّيل ، والتَّكبير في ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، صفاتٌ وجوانب خُيِّل لكثير من المطَّلعين على التَّاريخ ، المختبرين لحركات الإصلاح : أنَّها متناقضةٌ متضادَّةٌ ، وذلك بفضل التَّربية الدَّقيقة الَّتي أخذ بها قائدها ومربِّيها ، والوعي الدِّيني الصَّحيح الَّذي نضج ، ورسخ ، واستوعب الحياة كلَّها ، وبسبب أنها لم تمرَّ بمرحلة التَّربية الدِّينية مرّاً عابراً سريعاً ، ولم تخض المعركة من غير استعدادٍ ، بل أخذت الأمور بنصابها ، وأتت البيوت من أبوابها ، وذلك هو المثل الكامل لجيلٍ مؤمنٍ مجاهدٍ ، والنموذج الرَّائع للربَّانيَّة الصَّحيحة المطلوبة في كلِّ عصرٍ .

ورأيت من المناسب أن أضمَّ إلى هذه الشَّذرات التَّاريخية تعريفاً موجزاً بإمام هذه الجماعة ، وقائد الحركة ، حتَّى يكون القارىء على بيِّنة من أمره ، وإلمام بسيرته وحياته ، ووقع اختياري على ما جاء في المجلَّد السَّابع لنزهة الخواطر ، لوالدنا العلامة السَّيِّد عبد الحي الحسني لاختصاره ، واحتوائه على المعلومات الأساسية ، وجعلته مقدِّمةً لهذا الكتاب .

وقد بدا للمؤلف أن يتناول بعض الكلمات الغريبة ، أو التي يلتوي فهمها على الطَّالب المتوسِّط في مدارسنا بالشَّرح ، والإيضاح ، فعلَّق على بعض الكلمات

عسى أن يُنتفع بالكتاب في الأوساط الدِّراسيَّة ، وتربية الناشئة الإسلاميَّة .

والحمد لله أولاً ، وآخراً ، وصلَّى الله على خير خلقه سيدنا ، ومولانا محمدٍ ، وآله وصحبه ، والتَّابعين لهم بإحسانٍ .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

(يوم الخميس) بهوبال ـ ٤ محرم الحرام ١٣٩٣هـ

الإمام الَّذي لم يُوفَّ حقَّه
من الإنصاف والاعتراف

المجمع الإسلامي العلمي
لكهنؤ - (الهند)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لماذا كتبتُ هذه السُّطور ؟

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد : فإنَّ شهداء الإسلام ، وقادة الجهاد والدَّعوة الإسلاميَّة ؛ الَّذين وهبوا نفوسهم ، وأرواحهم لله تعالى ، ونفضوا أيديهم من هذه الحياة ، وما يتبعها ؛ ليسوا في حاجة إلى أن يعترف بجهودهم مَنْ جاء بعدهم ، ويسجِّل المؤرِّخون ، والمؤلِّفون مآثرهم ، ويتغنَّى الشُّعراء ، والأدباء ببطولاتهم ، وأمجادهم ، أو ينصب الملوك ، والأمراء تذكاراً لهم ، فإنَّهم عند الله في دار كرامةٍ ، وقد لقوا ربّاً شكوراً ، يجزيهم على عملهم أفضلَ الجزاء ، وقد قال في كتابه العزيز : ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

ولو خُيِّر هؤلاء المخلصون بين الاشتهار، والاستتار، وبين الظُّهور، والخمول؛ لآثروا الثَّاني على الأوَّل ، ولدعوا الله جاهدين مخلصين أن يجعل عملهم خالصاً لوجهه الكريم ، وألا يطلع عليه أحدٌ ، وقد كان بعضهم يحزن إذا تحدَّث به النَّاس ، ويندم إذا تحدَّث به اضطراراً، أو استطراداً كأنَّه أفشى سرّاً كان يجب كتمه ، وقد روى الإمامُ البخاريُّ بسنده عن أبي بردة عن أبي موسى (الأشعريِّ) رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع النبيِّ ﷺ في غزاة ، ونحن ستَّة نفرٍ بيننا بعيرٌ نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، وكنَّا نلفُّ على أرجلنا الخِرق ، فسمِّيت غزوة ذات الرِّقاع ، لما كنَّا نعصب من الخِرق على أرجلنا . وحدث أبو موسى بهذا ثمَّ كره ذاك ، قال : ما كنت أصنع بأن أذكره ؟! كأنَّه كره أن يكون شيءٌ من عمله أفشاه[1] .

---

(١) الجامع الصَّحيح للبخاري كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرِّقاع رقم (٤١٢٨) .

وما ضرَّهم ألا يعرفهم الناس ، أو ألا يعترف بهم الأعقاب ، أو يسحب الزَّمان عليهم ذيل النِّسيان والنُّكران ، فقد عرفهم الَّذي جاهدوا في سبيله ، وبذلوا له النَّفس ، والنَّفيس . يعجبني في ذلك ما حكاه المؤرِّخون في قصَّة « نهاوند » قالوا : « لمَّا كانت وقعة » « نهاوند »[1] وفتح الله على المسلمين بعد أيامِ شِداد ، بعث أميرُ المسلمين إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ فبشَّره بالفتح ، وأخبره بشهادة نعمان بن مُقَرِّنٍ ـ قائد جيش المسلمين في هذه الوقعة ـ فبكى عمر ، واسترجع ، وقال : ومَنْ ويحك ؟! قال : فلانٌ وفلانٌ ، حتَّى عدَّ له ناساً كثيراً ، ثمَّ قال : وآخرين يا أمير المؤمنين ! لا تعرفهم ، قال عمر : وهو يبكي : لا يضرُّهم ألا يعرفهم عمرُ ، ولكنَّ الله يعرفهم[2] » .

ولكن قد تواضعت الطَّبائع السَّليمة ، والأذواق الصَّحيحة على معرفة الفضل لأهله ، والاعتراف بالجميل ، وشكر مَنْ أسدى إحساناً ، أو دافع عن بلادٍ ، أو أمَّةٍ ، وقُتل دون عِرْضها ، وكرامتها ، أو دينها ، وعقيدتها ، وقد أطبقت الأمم الَّتي اعتدلت فطرتُها ، وصلُح مزاجُها على تخليد ذكر هؤلاء الأبطال اعترافاً بالجميل ، وتشجيعاً لأبناء الأمَّة على تقليدهم ، حتَّى كان « الجنديُّ المجهول » موضع عناية الأمم الغربيَّة ، واهتمامها .

أمَّا المؤمنون ، وأتباع الرُّسل ـ صلوات الله ، وسلامه عليهم ـ فحظُّهم من الاعتراف بالجميل ، والشُّكر على الإحسان ، والنِّعمة أوفر من كلِّ أمَّةٍ ، وطائفةٍ ، وقد وصف الله المؤمنين بالعرفان للجميل ، والدُّعاء لمن سبق ، والإقرار بالتقدُّم ، والفضل ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] ، ووصف الكفَّار ، وأهل النَّار بالكُنود ، والجحود ، ونكران الجميل ، ولَعْنِ اللاَّحق للسَّابق ، وكرهه له ، والتَّبرؤ منه ، فقال : عن جهنَّم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ ﴾ [الأعراف : ٣٨] وامتازت الأمَّة الإسلاميَّة من بين الأمم برحابة الصَّدر ، والاعتراف

---

(١) مدينةٌ في إيران كانت بها الوقعة هذه المهشورة سنة ٢١هـ (٦٤٢م) .

(٢) الطبري ج٤ ص٢٣٥ .

بالفضل ، وإقامة الموازين القسط بين النَّاس ، وتخليد مآثر السَّلف ، وكثرة الدُّعاء لهم والتَّرحيم عليهم تشهد بذلك كتب التَّراجم ، والسِّير الَّتي لا يوجد لها نظيرٌ - في الكمِّيَّة ، والكيفيَّة - في أمَّةٍ ، أو بلادٍ ، وهي تشكِّل مكتبةً من أغنى مكتبات العالم في هذا الموضوع .

لكن رغم هذه العناية الفائقة ، والإحصاء الدَّقيق ، ورقَّة الشُّعور بالجمال ، والكمال ، والقدر الوافي لنوابغ الرِّجال بقيت شخصياتٌ إمَّا مغمورةٌ ، مطمورةٌ ، لم يُرفع اللِّثام عن وجهها ، ولم يُنفض الغبار عن مآثرها وجلائل أعمالها ، وإمَّا مهضومةٌ لم يوفَّ حقُّها من الإنصاف ، والاعتراف ، تحيط بها هالاتٌ من الشَّائعات ، والأساطير ، وتمنع من دراستها مِنْ جديدٍ والكشف عن أغوارها ، وأبعادها أنصافُ بحوثٍ ، وتحقيقاتٌ ، ونصف العلم أضرُّ لصاحبه من جهل كلِّيٍّ ، فذلك يعوق ، وهذا يشوق ، وقد كانت المعرفة النَّاقصة حجاباً من قديم الزَّمان عن التَّثبُّت ، والاستيثاق ، والدِّراسة الوافية الكافية .

وقد كان السَّيِّد الإمام أحمد بن عرفان الشَّهيد من الأفذاذ الَّذين أخلصهم الله بخالصةٍ هي الإيمان ، والاحتساب وابتغاء الرِّضا ، والثَّواب ، وطهَّر قلوبهم عن الرِّياء ، والسُّمعة ، وهانت في عيونهم الدُّنيا ، ومطامحها ، ومناصبها ؛ حتَّى كانت كالذُّباب ، أو كومةٍ من تراب ، وقد روي عنه : أنَّه قال في مناسبةٍ ؛ وقد أشار عليه أحد كبار التُّجار في « كُلْكُتَه » بأن يختار لسفره إلى الحجاز سفينةً من السُّفن الشِّراعية كانت لها مكانةٌ مرموقةٌ لكثرة ما فيها من المدافع ، ولأنَّها من المراكب الحكوميَّة ، وأنَّ ذلك يلفت إليه الأنظار ، ويزيد في شرفه ، وانتشار صيته ، فاحمَّر وجهُه غضباً ، وقال : (يا هذا ! إنَّ العزَّة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، وإنَّنا لا نعتبر ما يسمِّيه النَّاس الشَّرفَ ، وعلوَّ المكانة ، والشُّهرة في النَّاس إلا جيفةً قد انتفخت ، وتعفَّنت) وغشيت النَّاس المهابة ، وانقطعت الألسن وانحنت الرؤوس . وقد كان لشدَّة إخلاصه ، وكراهته للتَّعظُّم ، وافتتان النَّاس به بعد الموت ، قد دعا الله أن يعفي أثر قبره ، فلا يبقى له عينٌ ، ولا أثرٌ . وهكذا كان .

إذاً فليس مِنْ حاجته أن يعترف الجيل المعاصر ، والمثَّقفون ، والكتَّاب بمكانته

في صفِّ المصلحين ، والمجاهدين ، ويعرفوا قيمة دعوته ، وجهاده ، وأهمِّية الدَّور ؛ الَّذي قام به في النَّشأة الدِّينيَّة الحديثة ، والتَّجديد الإسلامي الأخير ، وماكان لدعوته ، وجهاده من أثرٍ عميق على عصره ، وبيئته ، وعلى جميع الحركات ، والنَّشاطات الَّتي قامت في شبه القارة الهنديَّة وما جاورها من بلادٍ ، وأقطار ، ولكنَّه من حاجة هذا الجيل ، والأجيال الَّتي تأتي بعده ، وحاجة تاريخ الإسلام والمسلمين الَّذي يجب أن يُكتب بإنصافٍ ، وتحقيقٍ ، وأن يُنزل النَّاسُ فيه منازلهم ، ويوفَّوا حقَّهم .

وكان كاتب هذه السَّطور يرى أمانةً في عنقه منذ زمنٍ طويلٍ أن يُعرِّف هذه الشَّخصية إلى قرَّاء العربيَّة ، ويؤدي الشَّهادة لله ، فقد مكَّنته ظروفه الخاصَّة مِنْ دراسة سيرته ، وحياته ، والاطِّلاع على جوانب عظمته ، ظروفٌ لم تتهيَّأ لكثيرٍ من زملائه ، ومعاصريه ـ على فضل علمهم ، وعلوِّ مكانتهم ـ وما شبَّ عن الطَّوق إلا وتناول هذا الموضوع دراسةً ، وكتابةً ، وتأليفاً ، وترجمةً ، ومكَّنه الاشتغال بمطالعة تاريخ الإصلاح ، والتَّجديد ، وترجمة رجال الفكر ، والدَّعوة في الإسلام من معرفة طبقات الرِّجال ، ودرجاتهم ، وخصائصهم ، ومكانتهم في تاريخ الفكر الإسلاميِّ ، والجهاد الإصلاحيِّ .

فحتَّم كلُّ ذلك عليه أن يقدِّم إلى قراء العربيَّة موجزاً عن جهاد هذا الإمام تكون مقدِّمةً ، وتمهيداً لكتابٍ كبيرٍ يوفَّق له مَنْ يكتب له هذه السَّعادة ، وماهذه الصَّفحات التَّي تطالع القرَّاء إلا محاولةً متواضعةً في هذا الاتِّجاه ، ولفتةً تاريخيَّةً للدَّارسين لهذا الموضوع والمؤلِّفين ، المؤرِّخين ، والعاملين لمجد الإسلام ، ونهضته ، وإدالته من الجاهليَّات التي تداعت عليه ، وأحاطت به .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

دارة الشَّيخ علم الله الحسني ٢٩/ ٣/ ١٣٩٨هـ

رائي بريلي ـ الهند ١٠/ ٣/ ١٩٧٨م

رَوائِعُ إقبال

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بين يدي الكتاب

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله .

وبعد :

فقد ظهرت الطَّبعة الأولى لكتابنا « روائع إقبال » سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م ، أصدرتها دار الفكر بدمشق ، وقد تُلقِّي هذا الكتاب بقبولٍ عظيمٍ ، وكان مِنْ كتب الشَّباب المسلمين المثقَّفين الحبيبة الأثيرة المفضَّلة ، فكثرت قراءتُهم له ، وعنايتُهم به ؛ حتَّى وعته ذاكرتُهم ، وذلَّت به ألسنتهم ، وأقلامهم ، وحفظ كثيرٌ منهم قطعاً وصفحاتٍ من الكتاب ، وكثر اقتباسهم منه ، واستشهادُهم به في أحاديثهم ، ومقالاتهم .

وزدت فيه فصولاً مهمَّةً ، زادته قوَّةً ، وقيمةً ، ونشرته دار الفتح في بيروت سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م ، وحظي بالقبول وانتشر في المدَّة القريبة في العواصم العربيَّة ، والأوساط العلميَّة ، والأدبيَّة ، وكان من المتوقَّع المضمون أن تصدر عدَّة طبعات في مدَّة قليلةٍ ، ولكن منع عن ذلك أسبابٌ ، ترجع إلى بُعْد المؤلف عن مركز حركة الطَّبع ، والنَّشر في الشَّرق العربيِّ ، واشتغاله بأعمالٍ تأليفيَّةٍ أخرى ، وعدم نشاط كثيرٍ من المكتبات العربيَّة في نشر الفكرة الإسلاميَّة الصَّحيحة ، وخضوعها للنَّزعة التِّجارية ، وتأخَّرت الطَّبعة الثَّالثة ؛ حتَّى وفَّق الله المؤلِّف لتصحيحه ، وتنقيحه ، ووفَّق دار القلم في الكويت لإصدار هذه الطَّبعة المزيدة المنقَّحة .

إنَّ موضوع شعر إقبال ، وفلسفته من الموضوعات الَّتي نضجت ، واحترقت ، ولا أعرف شخصيَّةً ، ولا مدرسةً فكريَّةً في العصر الحديث تناولها الكتَّاب ، والمؤلِّفون ، والباحثون ، والمحقِّقون بالتَّأليف ، والتَّحقيق مثل ما تناولوا هذا الشَّاعر العظيم ، فبحثوا عن كلِّ جانبٍ من جوانب حياته ، وشعره ، وفكره ، وفلسفته ، حتَّى تكوَّنت في هذا الموضوع مكتبةٌ زخرت بالكتب والرَّسائل ، والبحوث ، وبمؤلَّفاتٍ في كبرى لغات العالم ، وأرقاها ، وقد جاء في مقالٍ قرىء في مهرجان إقبال المئويِّ المنعقد في مدينة « لاهور » تحت إشراف حكومة باكستان

في ديسمبر سنة ١٩٧٧م أنَّ عدد ما صدر عن « إقبال » من الكُتب ، والرَّسائل في لغات العالم المُختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠)[١] ، ما بين كتابٍ ورسالةٍ ، هذا عدا ما نُشر عنه من البحوث ، والمقالات ، وما ألقي من أحاديث ، ومحاضراتٍ في مجلاتٍ ، وحفلاتٍ مختلفةٍ ، وبذلك فاق « إقبال » على « شكسبير » الإنجليزيِّ ، و« دانتي » الإيطاليِّ و« طاغور » الهنديِّ ، فلم يكتب عن أحدٍ معشار ما كُتب عنه ، وفي كلِّ سنةٍ فيضٌ من البحوث ، والمقالات في الجامعات العصريَّة ، والمجامع العلميَّة ، والنَّوادي الأدبيَّة ، ولا يزال في مدٍّ ، وزيادةٍ .

لذلك كان عندي شكٌّ كبيرٌ حين شرح الله صدري لنشر « روائع إقبال » أن يسترعي هذا الكتاب اهتمامَ المشغوفين بهذا الموضوع فضلاً عن أصحاب الاختصاص والباحثين فيه ، فإنَّني لم أكن في عهدٍ من العهود كاتباً مرموقاً ، أو باحثاً صاحب اختصاصٍ في هذا الموضوع يُشار إليه بالبنان ، وكانت كتابتي في هذا الموضوع شبه مغامرةٍ علميَّةٍ ، أو جرأةٍ أدبيَّةٍ ، وكانت أكثر مؤلَّفاتي في موضوعاتٍ تاريخيَّةٍ وعلميَّةٍ ودينيَّةٍ ، وكانت محاولة نقل هذا الشِّعر إلى اللُّغة العربيَّة تزيد المهمَّة دقَّةً ، وخطورةً ، لذلك حين طلب بعضُ الزُّملاء الفضلاء أن ينقلوا كتاب : « روائع إقبال » إلى اللُّغة الأردية ـ أغنى لغات العالم في حركة التَّأليف عن إقبال ـ عارضتُ هذه الفكرة ، وشعرتُ بأنَّه إذا نقل إلى أردو ظهرت تفاهة الكتاب ، وافتضح مؤلِّفه ، وأقلُّ ما كنت أتوقَّعه أن يقول النَّاس في شبه القارة الهنديَّة « بضاعتُنا رُدَّت إلينا » وأيُّ حاجةٍ دعت إلى ترجمة هذا الكتاب في الأرديَّة ، وقد أتخمت بالمؤلَّفات بين صغيرٍ ، وكبيرٍ في هذا الموضوع !

ولكنِّي فوجئت بما رأيته من تقديرٍ كبيرٍ ، وثناءٍ عاطرٍ من كبار الأساتذة في شبه القارة الهنديَّة ، الذين يعتبرون حجَّةً في فهم شعر إقبال ، وتفسيره ، والكشف عن دقائقه ، كالأستاذ الكبير صاحب مدرسةٍ أدبيَّةٍ خاصَّةٍ في « أردو » البروفسور رشيد أحمد الصِّدِّيقي ، رئيس قسم « أردو » في جامعة علي كره الإسلاميَّة ، فقد قدَّم

---

(١) نقلاً عن مقال للأستاذ صباح الدِّين عبد الرحمن مدير دار المصنِّفين : « أعظم كره الهند » على إثر عودته من المؤتمر في مجلَّة « معارف » الشَّهريَّة ، شهر فبراير ١٩٧٨م .

الطبعة الثَّانية لكتاب : « نقوش إقبال » (ترجمة روائع إقبال) واعترف في مقدِّمته بأنَّ هذا الكتاب له مكانةٌ خاصةٌ فيما كتب عن إقبال ، وأن مؤلِّفه قد أنصف الموضوع ، وأخلص له ، وطلب منه أن يستمرَّ في الكتابة عن إقبال ، ويُتحف العالم العربيَّ ، والإسلاميَّ بالمزيد الجديد .

وقال الأستاذ النَّاقد ماهر القادري شاعر باكستان الكبير ، ومنشىء مجلَّة « فاران » الصَّادرة من كراتشي ، في كلمته عن هذا الكتاب . « إنَّ فكر إقبال ، وروحه قد امتزجا بما جاء في هذا الكتاب ، وسريا فيه ، كالرَّائحة في الرَّياحين ، والنُّور في الكواكب النَّيِّرة » .

وكانت أكبر شهادةٍ بأنَّ المؤلَّف كان التَّوفيق حليفه في فهم شعر إقبال ، والإنصاف له في شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل المرحوم العلامة محمَّد إقبال) الفاضل الَّذي أسمى محمَّد إقبال أحد دواوينه الكبار ، وهو « جاويد نامه » باسمه ، فقد قال بعد اطِّلاعه على « نقوش إقبال » في كلمته الَّتي كتبها عن هذا الكتاب :

« ولقد عرض مؤلِّف هذا الكتاب جوانبَ مختلفةً من فكر محمَّد إقبال في أسلوبٍ أكبر ظنِّي : أنَّه يوافق محمَّد إقبال نفسه ، أو كان يُؤْثره لشرح أفكاره » .

إنَّ هذه الاعترافات الَّتي لم يكن المؤلف يتوقَّعها من أصحاب الاختصاص ، والزَّعامة في فهم شعر إقبال ، وعرضه شجَّعت المؤلف على مواصلة هذه الرِّحلة ، وعرض مجهوده العلميِّ والأدبيِّ على العالَمَيْن العربيِّ ، والإسلاميِّ ، وقد ظهرت أربع طبعات لـ « نقوش إقبال » في مدَّةٍ قصيرة ، والطَّبعة الخامسة على وشك الصُّدور ، وظهرت التَّرجمة الإنكليزيَّة باسم « Glory of Iqbal » بقلم كاتب الإنجليزيَّة الكبير الدُّكتور محمد آصف القدوائي .

وها هي الطَّبعة الثَّالثة لـ« روائع إقبال » في أيدي القرَّاء ، نرجو أن تأخذ مكانها في المكتبة العربية ، وفي نفوس الشَّباب ، والمثقَّفين ، والعلماء ، والدَّارسين .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

المجمع الإسلامي العلميّ

ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

١٢ ربيع الأول ١٣٩٨هـ

٢٠ فبراير ١٩٧٨م

شخصيَّاتٌ وكتبٌ

دار القلم ـ دمشق
دار الصَّحوة ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بَين يَدي الكتاب
كلمةٌ عن أدب التَّراجم
وحديثٌ عن الكتب الأثيرة المؤثرة

الحمدُ لله وحده ، والصَّلاةُ ، والسَّلامُ على مَن لا نبيَّ بعده .

وبعد : فإنَّ كثيراً من الكُتَّاب ، والأدباء ، فضلاً عن الشَّابين في اللُّغات ، والمتطفِّلين على الآداب يعتبرون موضوع التَّعريف برجلٍ من ذوي الشأن ، والخطر ، وترجمة حياته ، ووصفه من أسهل الأغراض الأدبيَّة ، والموادِّ الكتابيَّة ، فيكيلون لمن يترجمون له ، أو يعرِّفون به ألقاباً ، ونعوتاً بسخاءٍ ، ويكون أكثرها كلماتَ مدحٍ ، وإطراءٍ مشتركةٍ ، يمكن أن تقال عن كلِّ عالمٍ ، وأديبٍ ، أو عظيمٍ ، وجليلٍ ، أو صالحٍ ، وتقيٍّ ، أو حاكم حكومةٍ ، أو قائد جيشٍ ، لا تفيد تحديدَ الشَّخصية ، وتعيينها ، ولا تصويرَ القسَمَات ، والمخايل ، ولا التَّجاعيد الَّتي يمتاز بها وجهٌ عن وجهٍ ، وجسمٌ عن جسمٍ ، واللُّغة العربيَّة من أغنى اللُّغات في كلمات الوصف ، والمدح ، والحلية ، والزِّينة ، ويكفي الكاتب أن يعتمد في ذلك على كتاب « الألفاظ الكتابيَّة » لعبد الرحمن بن عيسى الهَمَداني (المتوفَّى سنة ٣٢٠هـ ـ ٩٣٣م) ، فيأخذ منه ما يشاء من كلمات الوصف ، والمدح ، فيجود بها على صاحبه ، أو يرجع إلى كتب التَّراجم ، والسِّير ـ والمكتبة العربيَّة من أغنى مكتبات العالم فيها ـ فيختار منها جملاً ، وكلماتٍ ، ويصف بها المترجَم له ، أو الممدوح ، ومن يكتب عنه ، فيتشابه الرِّجال ويتماثلون ، ولا يخرج منها القارىء بمعرفةٍ شخصيَّة دقيقةٍ معيَّنةٍ ، ولا يشعر بالحيوية ، والحرارة ، ولا بالرِّقَّة ، والنُّعومة ، ولا

بالمرونة ، والحركيَّة ، ولا بالعواطف ، والمشاعر ، ولا بالأحاسيس ، والانعكاسات ، وردود الفعل ؛ الَّتي تمتاز بها الأجسام الحيَّة عن التَّماثيل ، والنُّصب ، والصُّور ، والدُّمى ، ويمتاز بها الإنسان عن الحيوان ؛ فضلاً عن الجمادات ، والنباتات .

ولكنَّ وصف شخصيةٍ ، أو ترجمةَ إنسانٍ ليست من السُّهولة ، والعموم بالدَّرجة الَّتي يتصوَّرها كثيرٌ من النَّاس ، فإنَّ ذلك يحتاج إلى عدَّة مؤهِّلات :

أولاها : المعرفة الشَّخصية الواعية النَّاقدة ، وإذا كانت عن طريق المعاشرة ، والصُّحبة ؛ فهي من أفضل المؤهِّلات ، وأقواها ، وإلا فعن طريق الدِّراسة الأمينة ، وتتبُّع الأخبار ، وأن تقوم بينهما صلةٌ من الصِّلات الَّتي تحثُّ على تتبُّع الأخبار ، والتَّعرُّف على الخصائص .

ويليها : الاقتدار على البيان ، والتَّعبير ، وتملُّك ثروةٍ لغويَّةٍ ، وكلماتٍ مميَّزةٍ ، فاصلةٍ .

ثمَّ يأتي دور الدِّقة ، والأمانة ، والشعور بالمسؤوليَّة ، والقدرة على تفصيل اللِّباس على قامة المترجَم له ، والمعرَّف به ، فلا يكسوه لباساً سابغاً فضفاضاً يبدو فيه قزماً حقيراً ، وينمُّ هذا اللباس عن أنَّه لباسٌ لغير هذا الإنسان ،و لقامةٍ أطول من قامته ، وللرِّجال قاماتٌ وقِيَمٌ ، وقد تكون الجناية على القيمة أشنع من الجناية على القامة .

ومهمٌّ كذلك أن يتوفَّر عند الكتابة في ترجمةِ حياةٍ ، أو تعريفٍ بشخصيَّةٍ ، دافعٌ نبيلٌ ، ورغبةٌ ملحَّةٌ تنبع من القلب : مِنْ تجاوبٍ مع فكرةٍ ، أو استجابةٍ لنداء الضَّمير ، أو دفاعٍ عن كرامةٍ مهضومةٍ ، وحقٍّ سليبٍ ، أو ردٍّ لاعتبارٍ ، أو وفاءٍ بفضلٍ ، أو إعجابٍ بجمالٍ ، أو كمالٍ ، فإنَّ الكتابة إذا تجرَّدت عن هذه العوامل كلِّها ؛ كانت أشبه برسمٍ خشيبٍ جامدٍ ، أو وشيءٍ ، وتطريزٍ لمجرد الرِّبح الماديِّ ، والغرض التِّجاريِّ ، ويكون الكاتب ، أو الشَّاعر في ذلك كالمطرب المحترف ، أو النَّائحة المأجورة .

ويجب أن يعرف : أنَّ للكلمات درجةَ حرارةٍ ، وبرودةٍ (Temperature) ، فلا توضع كلمةٌ ذات حرارةٍ متصاعدةٍ مكانَ كلمةٍ ذاتِ حرارةٍ منخفضةٍ ؛ فضلاً عن أن

توضع كلمةٌ ذات حرارةٍ مكان كلمةٍ ذاتِ برودةٍ ، ولا يسخى بكلمة تعطي صورةً هائلةً من العظمة ، والكمال ، أو النبوغ ، والذكاء ، أو الخُلق الحسن ، والسِّيرة العالية ، أو العلم الغزير ، والذكاء الألمعيِّ لشخصيةٍ لا تستحقُّ إلا كلماتٍ فيها التوسُّط ، والاقتصاد ، ثمَّ يضعه في طبقته ، ويحدِّد اختصاصه ، وتميُّزه في فنٍّ من الفنون ، أو موضوعٍ من الموضوعات .

والمشكلة حين يكون المُتَرْجَم له جامعاً بين أصناف العلم ، وضروب الكمال ، وأشتات الفضائل ، كما كان الشَّأن مع العلماء الأقدمين بصفةٍ عامَّةٍ ، فلا يقدر على تحديد اختصاصه إلا من اطَّلع على مؤلَّفاته جميعاً ، واطَّلع على آراء معاصريه فيه ، وحكمهم عليه .

وبهذه الخصِّيصة امتاز العلامة شمس الدِّين أحمد بن خِلِّكان (م٦٨١هـ) في كتابه : « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان » من بين مؤلفي كتب التَّراجم ، والسِّيَر ، فإنَّه إذا وصف أحداً من المترجم لهم بقوله : النحويُّ ، أو الفقيه ، أو الأديب ، أو المفسِّر ، أو اللغويُّ ، أو الواعظ ، فليس من الميسور زحزحته عن مكانه الرَّئيسي ، والاختصاصي ، ووضعه في طبقةٍ أخرى ، وهذا قلَّما تيسَّر لمؤلفي كتب التَّراجم ، والسِّير ، ولا يقدر عليه إلا صاحب سليقة في فنِّ التَّراجم ، ومن أعطاه الله الدِّقَّة في الحكم ، ورقَّة الشُّعور ، وحسنَ الذَّوق ، والاطلاعَ الواسعَ الدَّقيق .

لقد أراد الله أن أنشأ في بيئة كانت هوايتها التَّاريخ ، وكتابة التراجم ، والسِّيَر ، وأن أولد في أسرةٍ كان فيها مؤرِّخون ، ومؤلِّفون ، وكان أكثر اشتغالهم بالتَّأليف في تراجم الرِّجال ، وطبقات الشُّعراء ، والأدباء ، وسير العظماء من المصلحين ، والعلماء ، والملوك ، والأمراء ، فكان جدِّي العلامة السَّيِّد فخر الدين الحسني (م١٣٢٦هـ) من السَّابقين إلى فكرة وضع موسوعةٍ باللُّغة الفارسيَّة حين لم يخطر هذا ببال كثيرٍ من العلماء ، والمؤلِّفين في شبه القارة الهنديَّة ، وذلك قبل ثمانين سنةً ، أو أكثر حين لم تُعرف الموسوعات ، ودوائر المعارف في الهند ، حتَّى في اللُّغات الأجنبيَّة ، فوضع كتابه « مهرجهانتاب »[1] في مجلَّدين ضخمين ، يحتوي

---

(١) معناه : الشَّمس المضيئة للعالم .

المجلَّد الأوَّل بخطِّ مؤلفه على ثلاثمئةٍ وألف (١٣٠٠) صفحة بالقطع الكبير ، وأكثرها تراجم الطَّبقات للصُّوفية ، والعلماء ، والشُّعراء ، ووفِّق والدي العلامة السَّيِّد عبد الحي الحسني (م١٣٤١هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ لوضع أكبر كتابٍ يعرِّف في شبه القارة الهندية بتراجم الرِّجال الَّذين نبغوا في الهند من القرن الإسلاميِّ الأوَّل إلى سنة وفاة المؤلِّف سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطِّي المساحةَ الزَّمنيَّة من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، والمساحة المكانيَّة من ممرِّ خيبر في الشَّمال الغربيِّ من الهند إلى خليج بنغال في الشَّرق ، ومن قُلَلِ كشمير إلى « مالابار » و« كالي كوت » في الجنوب ، والأعيان من كلِّ طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهيَّة ، واتجاهاتهم العلميَّة ، واختصاصاتهم الفنيَّة ، فجاء في ثماني مجلَّدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة (٤٥٠٠) من التَّراجم[١] ، وهو أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بابن خِلِّكان في الدِّقة ، والأمانة ، وتحرِّي الصِّدق ، والقياسات اللاَّئقة ، والدَّقيقة في تخيُّر الأوصاف ، والنُّعوت ، هذا إلى جانب كتابٍ آخر اسمُه : « كل رعنا »[٢] في طبقات شعراء الهند في « أردو » ، اعتُبِر من المراجع الرئيسيَّة في تاريخ الشُّعراء ، ونقد الشعر ، وقُرِّر تدريسه في عِدَّة جامعات في القارة الهنديَّة ، يضاف إليهما كتابه الثَّالث : « ياد أيام »[٣] ، في تاريخ ولاية كُجرات ، وعلمائها ، وعظمائها ، وحكوماتها ، وهو النموذج العالي لتاريخ بلاد ، وولايات ، يجب أن يُحتذى ، ويقلَّد ، وقد قرأت هذه الكتب في سنٍّ مبكرةٍ ؛ لأنَّها كتب كانت في متناول اليد ، وكانت الدَّوافع إلى قراءتها قويةً وطبعيَّةً ، فحفظت منها الكثير ، وقلَّدت أسلوب المؤلِّف حين بدأت أشدو في اللُّغة ، والأدب ، وأمسكت القلم للكتابة والإنشاء .

لذلك كلِّه كان أدب التَّراجم والسِّيَر من أحبِّ الآداب ، وأخفِّها ، وأسهلها لي ،

---

(١) صدرت طبعتان للكتاب من دائرة المعارف العثمانيَّة بحيدر آباد « الهند » .
(٢) معناه بالعربيَّة : « الوردة الرَّشيقة » ، صدر أربع طبعات للكتاب من المجمع العلميِّ الكبير « دار المصنِّفين » في أعظم كره « الهند » .
(٣) معناه : « ذكرى الأيام الماضية » وصدرت له طبعتان .

وكانت هوايتي ، وشغلي الشَّاغل في سنٍّ قلَّما يتيسَّر فيها الكتابة لكثيرٍ من هواة الأدب ، والإنشاء ، فبدأت أؤلِّف في تراجم الرِّجال وسيَر النَّابهين من العلماء ، والمصلحين بالعربيَّة قليلاً ، وبالأردية أكثر[1] . وتكوَّن من هذه التَّراجم والسِّيَر مكتبةٌ لا بأس بها في كتب التَّراجم وسير المصلحين ، والمجدِّدين في الإسلام ، والدُّعاة ، والمربِّين الَّذين نفع الله بهم الأمَّة ونهضوا بها في مختلف الأدوار والأمصار .

وكذلك تقديم كتاب لمؤلِّفٍ معاصرٍ ، أو عالمٍ كبيرٍ ، أو صديقٍ عزيزٍ ليس عملاً تقليديّاً يقوم به الكاتب مجاملةً ، أو تحقيقاً لرغبة المؤلِّف ، أو النَّاشر ، أو إرضائه ، إنَّه شهادةٌ ، وتزكيةٌ ، ولهما أحكامُهما ، وآدابُهما ، ومسؤوليتهما ، وقد يتحوَّل من شهادةٍ بالحقِّ ، وتقويمٍ للكتاب تقويماً علميّاً ، وبيان مكانته فيما كتب ، وألِّف في موضوعه ، ومدى مجهود المؤلِّف في إخراج هذا الكتاب ونجاحه في عمله التَّأليفي ، أو التَّحقيقيِّ إلى سمسرةٍ تجاريةٍ ، أو قصيدة مدح ، وإطراءٍ من شاعر من شعراء المديح ، فيفقد قيمته العلميَّة ، والأدبيَّة ، ويتجرَّد من الحياة والرُّوح ، ولابدَّ في التَّقديم من زيادة معلوماتٍ ، وإلقاء أضواءٍ على موضوع الكتاب ، ومقاصده ، وعلى حياةِ المؤلِّف ، ومكانته بين العلماء المعاصرين في عصره ، ومصره ، وعلى تكوينه العقليِّ ، ونشوئه العلميِّ ، والدَّوافع الَّتي دفعته إلى التَّأليف في هذا الموضوع رغم وجود مكتبةٍ واسعةٍ في موضوعه ، أو مجموعةٍ من الكتب الَّتي أُلِّفت في هذا الموضوع ، ولا يكون التَّقديم مجموع كلماتِ تقريظٍ ، ومدحٍ يمكن أن يُحَلَّى به جيدُ أيِّ كتابٍ إذا غُيِّر اسمه ، واسمُ مؤلفه .

ولا بدَّ من أن تكون بين المقدِّم للكتاب وبين موضوعه صلةٌ علميَّةٌ ، أو ذوقيَّةٌ ، أو دراسةٌ وافيةٌ للموضوع وما أُلِّف فيه ، وارتباطٌ وثيقٌ كذلك بينه وبين المؤلِّف ، يمكِّنه من الاطلاع على تركيبه العقليِّ ، والعلميِّ ، والعاطفيِّ إذا كان الكتاب في موضوعٍ علميٍّ ، أو أدبيٍّ ، أو فكريٍّ ، أو دعويٍّ . وعلى مدى إخلاصه

(١) صدرت للمؤلِّف مجموعة مقالات في أردو عن المعاصرين الكبار الرَّاحلين اسمها : « المصابيح القديمة » عدد التَّراجم فيها (٤٢) وهي في جزأين .

لموضوعه ، واختصاصه ، وتفانيه فيه ، ورسوخه في العلم ، والدِّين ، وأخذهما من أصحاب الاختصاص فيه المعترَف بفضلهم ، وإذا كان الكتاب في موضوع دينيٍّ كالتَّفسير ، والحديث ، والفقه ، وما إلى ذلك .

ويجب أن يكون هذا التَّقديم عن اندفاعٍ ، وتجاوبٍ ، وتحقيقٍ لرغبةٍ نشأت في نفس المقدِّم بعد قراءة هذا الكتاب ، تحثُّه على كتابة هذا التَّقديم ، وتحبِّبُ إليه المهمَّة ، وتُيَسِّرها له بحيث إذا امتنع عنها ؛ اعتبر نفسه مقصِّراً في أداء حقٍّ وإبداء مشاعر ، وانطباعاتٍ ، وأخفى حاجة في نفس يعقوب ما قضاها ، وذلك هو التَّقديم الطَّبيعيُّ المنصف ؛ الَّذي له أثره ، وفائدته .

ووقع بصري أخيراً على مقالاتٍ بالعربيَّة كتبتها في إبداء مشاعري ، وانطباعاتي عن شخصياتٍ عاشرتُها ، وعشت معها ، أو عرفتُها عن كثبٍ لا عن كُتُبٍ ، وعن خبرةٍ ، وتجربةٍ ، لا عن سماعٍ ، وحكايةٍ ، وقد كتبتُها في مناسباتٍ مختلفةٍ غالباً على إثر وفاتها ، لبعض كبار العلماء ، أو المؤلِّفين الأصدقاء ، وقد نُشِر أكثرها في مجلَّة « حضارة الإسلام » الَّتي كان يرأس تحريرها فقيد الإسلام والعلم الدُّكتور مصطفى السِّباعي ، أو مجلَّة « البعث الإسلامي » أو صحيفة « الرائد » الصَّادرتين من ندوة العلماء .

واطَّلعت كذلك على سلسلة مقالاتٍ لي عنوانُها : « الكتب الَّتي عشت فيها » ذكرت فيها الكتب الَّتي كان لها دورٌ خاصٌّ في تكوين ذوقي ، وعقليَّتي ، وأسلوب تفكيري ، ورأيت : أنَّها إذا جُمع بعضها مع بعضٍ كانت مجموعةً يتعرَّف بها القرَّاء على تراجم هؤلاء الفضلاء ، والعاملين لرفع شأن الإسلام ، والمسلمين ، والمربِّين الكبار ، وقادة أكبر الحركات الإسلاميَّة في عصرهم ، ويترحَّمون عليهم ، ويدعون لهم ، ويتعلَّمون منهم الكثير من الإخلاص ، والأخلاق وعلوِّ الهمة ، والاهتمام بالأمَّة ، والجمع بين الفضائل المشتَّتة .

وكذلك يطَّلعون على بعض الكتب المهمَّة المفيدة في موضوعها ، فيحملهم ذلك على مطالعتها ، والإفادة منها ، ويصبح الكتاب حديقةً واسعةً زاهرةً يتنقل فيها القارىء من داعيةٍ قائدٍ إلى عالمٍ مُرَبٍّ ، ومن مخلصٍ ربانيٍّ إلى نموذج إنسانيٍّ عالٍ ،

ومن مجاهدٍ مناضلٍ إلى مؤلِّف ومحقِّقٍ ، ومن كتاب في الملحمة الإسلاميَّة ، وغزوات الصَّحابة ، وفتوحهم إلى كتابٍ في السِّيرة النبويَّة ، إلى كتاب في وصف وضع المسلمين الحاليِّ ، وإثارة الشُّعور ، والغيرة فيهم ، والإشادة بماضي المسلمين ، إلى كتاب في سير الرَّبانيِّين من العلماء ، والمربِّين ، إلى كتاب في سيرة شخصيَّةٍ إسلاميَّةٍ مثاليَّةٍ كسيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إلى كتبٍ في الأدب الرَّفيع ، والشِّعر الرَّقيق ، والتَّاريخ الزَّاخر بالمعلومات والعبر ، إلى مقالاتٍ ، ورسائل مثيرةٍ للفكر ، ومغذِّيةٍ للعلم ، وحاملةٍ على الدَّعوة ، والكفاح ، وكانت نهاية المطاف دراسة القرآن الكريم دراسة تأمُّلٍ ، واعتبارٍ وتطبيق ، فلا يملُّ ، ولا يسأم ، ولا يملأ وعاءه من نوعٍ خاصٍّ من علمٍ ، أو أدبٍ ، أو كفاحٍ ، أو عملٍ إسلاميٍّ ، أو بحثٍ علميٍّ ، وتحقيق موضوعيٍّ .

وإلى القرَّاء هذه المجموعة الَّتي كُتبت في أوقاتٍ مختلفةٍ ، والَّتي قد تطول بينها الفجوة ، ولكن تربطها وحدةٌ ، وهي وحدة الشَّهادة بالحقِّ ، وأداء الأمانة ، والوفاء لصاحب الفضل ، والحثِّ على الانتفاع ، والاتِّباع ، وبالله التَّوفيق .

أبو الحَسَن علي الحَسني النَّدْوي

ندوة العلماء

لكهنؤ (الهند)

١٢ من ربيع الآخر ١٤٠٦هـ

٢٥ من ديسمبر ١٩٨٥م

مقدّماته

لكتبه الدعوية والفكرية

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟!
٢ ـ الصِّراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .
٣ ـ العرب والإسلام .
٤ ـ المسلمون وقضية فلسطين .
٥ ـ كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية .
٦ ـ أكبر خطر على العالم العربي .
٧ ـ إلى الإسلام من جديد .
٨ ـ أحاديث صريحة في أمريكا .
٩ ـ أريد أن أتحدّث إلى الإخوان .
١٠ ـ المجتمع الإسلامي المعاصر . . .
١١ ـ التفسير السياسي للإسلام . . .

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين !!؟

المجمع الإسلامي العلمي ، لكهنؤ (الهند)
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قِصَّةُ كِتابٍ يَحْكيها مُؤَلِّفُهُ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسوله الأمين ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أما بعد : فلعلَّ كثيراً من القرَّاء الفُضَلاء لا يعلمون : أنَّ هذا الكتاب كان باكورة مؤلَّفاتي ، وكان بداية تاريخ التَّأليف ، وقد ألَّفتُ هذا الكتاب ؛ وأنا قد جاوزت الثَّلاثين من عمري تقريباً[1] ، وكان أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السِّنِّ المبكِّرة ، وفي بلدٍ بعيد عن مركز اللُّغة العربيَّة ، وآدابها ، وثقافتها ، وقد وُلدتُ في الهند ، ونشأتُ ، وتعلَّمتُ فيها ، ولم يُقدَّر لي أيُّ سفرٍ خارج الهند ، وكانت الرِّحلة الأولى المباركة الَّتي وفَّقني الله لها هي الرِّحلة التي قمتُ بها لأداء فريضة الحجِّ سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) ، يعني بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات ، فكانت في الحقيقة مغامرةً علميَّةً لم أكن متهيئاً ، ولا مرشحاً لها ، وكان من الجسارة أن أتناول هذا الموضوع الَّذي كان جديراً بقلم أكبر من قلمي ، وبعقلٍ أوسع من عقلي ، وبتجربةٍ أطول ، وأوسع من تجربتي كمؤلف ، ولكنَّ الله يفعل ما يشاء .

لقد كنت أشعر برغبةٍ غامضةٍ ملحَّةٍ لم أستطع أن أغالبها ، كأنَّ سائقاً يسوقني إلى الكتابة في هذا الموضوع ، ولو استشرتُ العقل ، واعتمدتُ على تجارب المؤلِّفين ، وعلى مقاديرهم ، ومكانتهم العلميَّة ؛ لأحجمتُ ، ولعدلْتُ عن هذه الفكرة ، ولو ذكرتُ ذلك لأحدٍ من العقلاء العلماء ، والكتَّاب الفضلاء ؛ لأشاروا

---

(١) كان تأليفه بين ١٣٦٣ ـ ١٣٦٤هـ (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥م) .

عليَّ بالعدول عن خوض هذه المعركة العلميَّة العقليَّة ، ولكنَّه كان من الخير : أنَّني لم أستشر أحداً ، كما يقول الدُّكتور محمد إقبال : « ليس من الخير أن تستشير عقلك دائماً ، فنحِّ عقلك جانباً في بعض الأمور ، فإنَّ العقل يصوِّر لك الخوف في معارك خطيرة ، ويشير عليك الابتعاد عن مثل هذه التَّجارب المريرة » .

وكانت المراجع العربيَّة الَّتي كان لا بدَّ من أن أستشيرها في هذا الموضوع قليلةً ؛ لأنَّ ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالميَّة الثَّانية ، وكانت الصِّلات تكاد تكون منقطعةً بين الهند ، والبلاد العربيَّة ، فكانت الهند تستورد قليلاً من البضاعة العلميَّة ، والمراجع التَّاريخيَّة ، والثَّقافيَّة باللُّغة العربيَّة ، الَّتي كان تزخر بها البلاد العربيَّة بصفةٍ عامَّةٍ ، ومصر بصفةٍ خاصَّةٍ ، أمَّا المراجع العلميَّة باللُّغة الإنجليزيَّة والأورديَّة فكانت متوفرةً ، وكانت بمتناول يدي ، وكان في لكهنؤ ـ مدينة العلم والثَّقافة ـ مكتباتٌ غنيَّةٌ فيها أحدث المطبوعات الإنجليزيَّة ، والموسوعات العلميَّة ، وكنت على اتِّصال بها ، أستعير منها الكتب ، وأطالعها ، وأستفيد من بعض المكتبات الشَّخصية ، وكان من تيسير الله تعالى ، والإرهاص لتأليف هذا الكتاب ؛ أنِّي كنت طالعتُ قريباً تاريخ أوروبا سياسةً، واجتماعاً، وديانةً ، وخُلُقاً ، وحضارةً، وثقافةً بنهامةٍ ، وفي توسُّعٍ ، وعمق ، وعنيتُ بموضوع الصِّراع بين الدِّيانة ، والعلم، والبلاط ، والكنيسة ؛ دراسةً اختصاصيَّةً ، وتاريخ الأخلاق في أوروبا وتطوُّرها ، والعوامل الَّتي صاغتها صياغةً خاصَّةً ، انتهت بها إلى هذا المصير المادِّيِّ ، الَّذي أثَّر في مسيرة الشُّعوب الغربيَّة ، والشَّرقيَّة ، واتجاهاتها تأثيراً عاماً ، وحاسماً .

هذا عدا تاريخ الأقطار الشَّرقية الإسلاميَّة ، ودياناتها ، وحركاتها ، وفلسفاتها ، وتاريخ الإسلام والمسلمين ، وتاريخ العرب في الجاهليَّة ، والإسلام ، من خلال الكتب المختصَّة بهذا الموضوع ، ومن خلال الشِّعر ، والأدب ، فكان أيسر لي نسبياً بفضل ثقافتي الدِّينيَّة ، والأدبيَّة ، والتَّاريخيَّة ، ولأنَّ موادَّها كانت متوفِّرةً في مكتبة ندوة العلماء الكبيرة ، ومكتباتٍ شخصيَّةٍ ، وبفضل الاتِّصال الدَّائم بحركة التَّرجمة ، والنَّشر في شبه القارة الهنديَّة ، ومطالعة المجلات والصُّحف العلميَّة الرَّاقية ، وما تنشره من بحوثٍ ، ودراساتٍ علميَّة .

زد إلى ذلك التّكوين العقليّ ، والنّفسيّ الممتاز ، المؤمن بخلود رسالة الإسلام ، وقيادة محمّدٍ عليه الصّلاة ، والسلام ، وإمامته للأجيال البشريّة عبر العصور ، وبالنّقص الواقع في طبيعة الحضارة الغربيّة ، ومزاج الأمم الغربيّة ، الّذي لا يفارقها في حالٍ من الأحوال ، وظهوره ـ في شكل مجسّم ـ في قيادتها ، وذلك نتيجة تربية أخي الأكبر الدُّكتور السّيد عبد العلي الحسني أمين ندوة العلماء العام ، الّذي كان مثالاً فريداً في الجمع بين الثّقافتين الإسلاميّة ، والغربيّة العصريّة ، وعمق فهمه للإسلام ، واتّزانه الفكريّ البعيد عن كل غلوٍّ ، وتطرُّفٍ ، وقد جعلني كلُّ ذلك أنتفع من دراساتي المتنوّعة ـ المتناقضة أحياناً المشوّشة لكثير من القرّاء الّذين لا يزالون في سن المراهقة الفكرية ـ وأستخرج منها نتائج إيجابيّةً معيّنةً ، و﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] ، وتزداد بها ثقتي بصلاح الإسلام للقيادة ، والسّيادة في كلِّ عصر ، وإيماني بأنَّ محمَّداً ﷺ ، هو « خاتم الرُّسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السُّبل » .

وكنت أشعر بخطر الموضوع ، وأهمِّيته ، وبقلّة بضاعتي ، وحداثة سنّي ، وقلّة أعواني ، وجدَّة موضوع الكتاب ، وطرافته ، ولكن لم أكن في الحقيقة مخيّراً ، بل كنت مسيَّراً ، كأنَّ هاجساً يهجس في ضميري ، ويقول لي : لا بدَّ من وضع كتاب في هذا الموضوع .

كان من أسباب استرعاءِ هذا الكتاب انتباهَ كثيرٍ من النَّاس ، وإثارته لدهشة الكثير منهم : أنَّ الموضوع كان طريفاً مبتكراً ، « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، هل للمسلمين صلةٌ وثيقةٌ بالمصير الإنسانيّ ، وبالأوضاع العالميّة ، حتّى يجوز أن يقال : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أو : ماذا سيربح العالم ، ويجنيه من الفوائد بتقدُّم المسلمين ، وتسلُّمهم لقيادة البشريّة ؟ .

كان الناس قد اعتادوا في ذلك العصر ، وقبل العصر الّذي أُلِّف فيه هذا الكتاب أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التّاريخ العالميّ ، أو ينظروا إلى المسلمين كشعبٍ عاديٍّ ، وكأمّةٍ من أممٍ كثيرةٍ ، ولكن تشجّع مؤلف هذا الكتاب وتخطّى هذه الحدود المرسومة ، وخرَجَ من الإطار التقليديّ الّذي فرض على المؤلّفين ، والكتّاب

العرب ، والعجم ، فأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين ، وشتَّان بين النَّظرتين ؛ نظرة ينظر بها إلى المسلمين من خلال العالم ، ومن خلال الحوادث الَّتي جرت في العالم ، ومن خلال التَّطورات الَّتي حدثت في التاريخ ، المسلمون شعب من الشُّعوب ، يخضعون لما يجري في العالم في إطار عامٍّ واسعٍ ، فكان المنهج الفكريُّ العامُّ ، وأسلوب البحث الدَّائم : ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلانيِّ ؟ وبسبب انقراض الحكومة الفلانيَّة ؟ وماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة ؟ وماذا خسر المسلمون بسبب الثَّورة الصِّناعيَّة الكبرى ؛ الَّتي حدثت في الغرب ؟ وماذا خسر المسلمون بانقراض الخلافة العثمانيَّة ؟ وماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثيرٍ من قلاع الإسلام ، والمسلمين ؟ وماذا خسر المسلمون بفقرهم في الاقتصاد ، وفي السِّياسة ، وفي القوَّة الحربيَّة ؟ .

كان ذلك الطريق المرسوم التقليديُّ الَّذي اعتاده النَّاس ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى ألهمني ، وشرح صدري لأن أكتب في موضوع : (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ، كأنَّ المسلمين هم العامل العالميُّ المؤثِّر في مجاري الأمور في العالم كلِّه ، ليس في بقعةٍ جغرافيَّةٍ محدودةٍ ، أو منطقة سياسيَّةٍ خاصَّةٍ . هل المسلمون حقّاً في وضعٍ يمكن أن يُقال : إنَّ العالم قد خسر شيئاً بانحطاطهم ؟ هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال : إنَّ العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم ، وبتخلُّفهم عن مجال القيادة العالميَّة ؟ إنَّني أخاف ، وأخشى أنَّ كثيراً من الكتَّاب الإسلاميِّين الَّذين كانت لهم مواقف جليلةٌ ، وكانت لهم سوابق عديدةٌ ، لم يفكِّروا هذا التَّفكير . إنَّ تشويه التَّاريخ الإسلاميِّ ، والنَّظر إليه من زاويةٍ ضيقةٍ ، ومركَّب النَّقص الَّذي أصيب به الجيل الجديد المثقَّف ، كان يعوق كثيراً من الباحثين عن أن يربطوا قضيَّة المسلمين بقضيَّة العالم ، وبقضيَّة الإنسانية ، أين المسلمون من القيادة العالميَّة ؟ المسلمون فقراء ، المسلمون ضعفاء ، المسلمون محكومون من الغرب ، المسلمون خاضعون للثَّورات الحديثة ، فهل يصحُّ أن يُربط مصير العالم ، أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين ، وواقعهم ؟ لا ! إنَّ كثيراً من النَّاس لم يكونوا يصدِّقون في ذلك الحين : أنَّ المسلمين لهم من الأهمِّيَّة ، والخطر ، والتأثير ، ومن المكانة ما يؤهِّلهم لهذا البحث ، ويسوِّغ لمؤلِّفٍ أن يؤلِّف كتاباً ، فيبحث عن مدى خسارة العالم الإنسانيِّ ،

والعالم المعاصر بانحطاط المسلمين ، إنَّ الموضوع كان خطيراً ، وكان البحث فيه شبه مجازفةٍ ومغامرةٍ علميَّةٍ ، ولكن الله سبحانه وتعالى أعان على ذلك .

ألَّفتُ هذا الكتاب على تردُّدٍ وتخوُّفٍ ؛ لأنَّني كنت جديداً في مجال التَّأليف ، خصوصاً في اللُّغة العربيَّة[1] ، فقد كانت صلتي بها صلة دارسٍ يولد بعيداً ، ويعيش بعيداً عن مركز الثَّقافة العربيَّة ، وعن مركز العلوم الإسلاميَّة الأصيل ، وكان يساورني شكٌّ : هل ينال هذا الكتاب تقديراً في البيئات العربيَّة ، والإسلاميَّة البعيدة ؟ فأرسلتُ قائمة محتوياته إلى الدُّكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التَّأليف ، والتَّرجمة ، والنَّشر في مصر ، ورئيس الإدارة الثَّقافية في جامعة الدُّول العربيَّة ، وقد نالت كتبه ـ خصوصاً سلسلة : « فجر الإسلام » و« ضحى الإسلام » ـ إعجاب القرَّاء الباحثين ، كان لها دويٌّ في الأوساط العلميَّة ، وكنت معجباً بها ، وقد درستها دراسةً عميقةً ، وعلَّقت على آرائه بالموافقة في الغالب ، وبالنَّقد ، والاختلاف في بعض الأمكنة ، وأعجبتُ بأسلوبه المركَّز ، الَّذي يجري مع الطَّبع ، وآثرت أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسَّسة العلمية التي كانت لها ، ولما يصدر منها قيمةٌ علميَّةٌ كبيرةٌ في الشَّرق العربيِّ ، فيُقبل على قراءته الشَّباب المثقَّف ، والمعنيُّون بالأبحاث العلميَّة ، والدِّراسات الموضوعيَّة ، وأنا لا أعلم مصير هذه الأوراق الَّتي تعطي فكرةً إجماليَّةً عن الكتاب ، ومؤلفه مجهولٌ ، ليس له أثرٌ علميٌّ ، ولا شافعٌ ، ولا مُزَكٍّ .

وفوجئتُ بكتاب تلقَّيته منه يطلب مني فيه نموذجاً من هذا الكتاب ، فأرسلتُ إليه قطعةً من الكتاب .

وقعتْ موضوعات الكتاب ، والعناوين الجانبيَّة الَّتي كانت تدلُّ على محتويات الكتاب ، وما حوته من مادَّةٍ ؛ وبحوثٍ من الدكتور مَوْقعاً حسناً ، ولكنَّه تخوَّف أن يكون هذا الكتاب الَّذي صدر من قلم عالم دينيٍّ ، نشأ ، وتثقَّف بعيداً عن العالم الغربيِّ ، يغلب عليه الطَّابع الدِّينيُّ ، واللُّغوي ـ شأن علماء الأزهر ، والمعاهد

---

(١) سبق للمؤلف تأليف سلسلة « قصص النبيين للأطفال » (١ ـ ٣) و« القراءة الرَّاشدة » (١ ـ ٣) و« مختارات من أدب العرب » . وكلُّها كتبٌ دراسيةٌ ألِّفت لأبناء المسلمين الَّذين يدرسون اللُّغة العربيَّة في المعاهد الدِّينيَّة في الهند .

الدِّينيَّة القديمة ـ فسأل : هل استفاد المؤلف من المراجع الأجنبيَّة ؟ فلمَّا كان الجواب بالإيجاب ، وأرسل المؤلِّف ثبت المراجع الإنجليزيَّة ؛ اطمأن قلب الدُّكتور ، وأخبر بأنَّ اللجنة قرَّرت طبع هذا الكتاب ، وأبدى إعجابه بالكتاب سواءٌ من النَّاحية الأدبيَّة ، أو الناحية المعنويَّة ، وكان اليوم الذي تلقَّى فيه المؤلِّف هذه الرِّسالة من الدُّكتور من أعظم أيَّام العمر فرحاً ، وسروراً ، لا ينساه المؤلِّف حتَّى اليوم .

ومضت على ذلك شهورٌ ، وأنا لا أعلم مصير هذا الكتاب ، وقد سافرتُ في أثناء هذه المدَّة إلى الحجاز للمرَّة الثَّانية ، وذلك في سنة ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) ، وفوجئتُ بنسخةٍ مطبوعةٍ عند سفير سورية الأستاذ جواد المرابط عضو المجمع العلميِّ بدمشق ، كان قد استصحبها من القاهرة ، وكان يبدي إعجابه بعمق فكر علماء الهند ، وأصالته ، مستشهداً بهذا الكتاب ، الَّذي وقع في يده في زيارته القريبة لمصر ، وهو لا يعرف : أنَّه يتحدَّث إلى مؤلِّفه ، ومن السَّهل الميسور تقدير فرح المؤلِّف الشَّابِّ المغمور ، الَّذي يفاجأ بأثره العلميِّ التأليفيِّ الأوَّل ، الصَّادر من أكبر دور النَّشر ، فاستعاره من سعادة السَّفير ليردَّه إليه بعد مطالعته ، ولكنَّه فوجيء كذلك بأن المقدِّمة الصَّغيرة ، الَّتي قدَّم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب ، لم تكن فيها تلك القوَّة الَّتي كان يتوقَّعها المؤلِّف من كاتبٍ إسلاميٍّ كبيرٍ كالدُّكتور أحمد أمين ، وكان متحفِّظاً شديد التَّحفُّظ في إبداء انطباعه عن الكتاب ، ومؤلِّفه .

ولم يكن الأمر غريباً ـ وإن كان ثقيلاً على المؤلِّف ـ فليس كلُّ منْ يقدِّم كتاباً يتحمَّس للموضوع الَّذي كتب فيه ، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدِّم يتجاوب مع فكرته ، ويؤمن بها إيماناً عميقاً ، وليس كلُّ باحثٍ علميٍّ ، وكاتبٍ كبيرٍ ـ وإن كان في درجة الدُّكتور أحمد أمين بك ـ يرى : أنَّ العالم قد خسر حقّاً ، والإنسانيَّة قد نُكبت نكبةً كبيرة بانحطاط المسلمين ، وانسحابهم عن ميدان القيادة والتَّوجيه العالميِّ ، فذلك نمطٌ خاصٌّ للتَّفكير ، والتَّفسير للتَّاريخ ، ليس من اللازم أن يقتنع به كلُّ مؤلِّفٍ ، ودارسٍ ، وليست التَّبعة على الدُّكتور أحمد أمين ـ وفضله لا ينكر في نشر هذا الكتاب من لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر الموقَّرة ـ ولكن التَّبعة على مؤلِّف

الكتاب الَّذي أمَّل فيه الآمال البعيدة ، وحمَّله ما لم يتهيّأ له فكرياً ، وعلميّاً ، ولم تساعد ظروفه التَّربويّة ، والدراسيَّة الخاصَّة على انتهاج هذا المنهج ، ثمَّ لعلَّ الدُّكتور أحمد أمين الَّذي كان يُعتبر من أساتذة الجيل الجديد ، ومن كبار المؤلِّفين ، والأدباء ؛ خاف ـ وله الحقُّ ـ أن يُعطي المؤلف ـ الذي لا يعرفه معرفة شخصيَّةً ، ولم يتحقَّق من مستواه العلميِّ ، والنَّظرة الّتي ينظر بها إليه مواطنوه ، وعلماء بلاده ـ أكثر ممَّا يستحقُّ ، فيقال : إنَّه كساه ثوباً سابغاً فضفاضاً أكبر من قامته ، وقيمته ، وسامحه الله ، وجزاه عن المؤلِّف ، والقرّاء أحسن الجزاء ، فقط كان السَّبب في وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلميَّة المتنوّرة الَّتي لا تعير كتاباً يصدر عن مؤسَّسة دينيَّةٍ شيئاً من العناية ، والاهتمام .

واتَّفقتْ رحلة المؤلِّف إلى مصر في يناير ١٩٥١م بعدما مضى على صدور هذا الكتاب شهران ، أو أكثر ، فوجد : أن الكتاب قد شقَّ طريقه إلى الأوساط العلميَّة ، والدِّينية ، وحلَّ منها محلاً لم يكن يتوقعه المؤلِّف ، بل يحلم به ، وقد قرىء في نطاقٍ واسعٍ من المثقَّفين ، والمعنيِّين بقضيَّة الإسلام ، وانتفاضته ، وصَحْوة المسلمين ، وكان نشاط « الإخوان المسلمون » قد بدأ يدبُّ ، وخُفِّف الخناق عليهم بعض التَّخفيف ، وكأنَّ هذا الكتاب قد جاء في أوانه ، ومكانه ، وتناغَمَ مع شعورهم ، وما يَدْعون إليه ، وكان الجرح عميقاً ، ودامياً : شهادة الإمام الشَّهيد حسن البنَّا ، وحلُّ حركة الإخوان ، فجاء هذا الكتاب مسلِّياً معزِّياً ، بل كسلاح علميٍّ يدافعون به عن فكرتهم ، وشحنةً جديدةً وزاداً ، ومدداً (لبطاريَّتهم) ، فقرؤوه في المعتقلات ، وقرَّروه في منهج الدِّراسة ، والمطالعة ، واستشهدوا ببعض عباراته في المحاكم ، واستقبلوا ـ بطبيعة الحال ـ مؤلِّفه بحماسٍ ، وحبٍّ ، وكان الكتاب خير معرِّف للمؤلِّف الزَّائر الجديد ، وممهِّداً للثِّقة به ، والحديث معه .

وكان الكاتب الإسلاميُّ الكبير الأستاذ سيِّد قطب في مقدِّمة مَنْ رحَّب بهذا الكتاب ، وعُني به ، وشجَّع تلاميذه ، وإخوانه على مطالعته ، وفي يومٍ من الأيَّام[1]

(١) كان ذلك في ١٩/٨/ ١٣٧٠هـ (٢٥ نيسان ١٩٥١م) ، (مذكِّرات سائحٍ في الشَّرق العربيِّ) .

تلقّى المؤلِّف دعوةً من الأستاذ سيِّد قطب لحضور ندوةٍ تجتمع في منزله بحلوان كلَّ جمعة ، وتبحث في موضوع إسلاميٍّ ، أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين ، وتتناول البحث فيه ، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب (ماذا خسر العالم) ، وقد لخَّصه أحد تلاميذه من خرِّيجي جامعة فؤاد الأوَّل ، فلبَّى المؤلِّف هذه الدَّعوة الكريمة الحبيبة ، الَّتي هي رمزٌ لتقدير مجهوده العلميِّ الكتابيِّ المتواضع ، وتشريفٌ له ، فحضر هذه النَّدوة ، وساهم في البحث ، وأجاب عن بعض الأسئلة الموجَّهة إليه كمؤلِّفٍ .

وهناك بَدَت له فكرة الطَّلب من الأستاذ سيِّد قطب ليقدِّم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القويِّ ، وأسلوبه العلميِّ الهادف ، وقبل الأستاذ سيِّد قطب هذه الدَّعوة بسرورٍ ، وحماسٍ ، وكتب تلك المقدِّمة القويَّة ؛ الَّتي زادت في قيمة الكتاب ، وقوَّته .

وصادف ذلك طَلَبُ الأستاذ الفاضل والعالم المؤمن الدُّكتور محمد يوسف موسى ، أستاذ كلِّيَّة أصول الدِّين في الأزهر ، ورئيس جماعة الأزهر للتَّأليف ، والتَّرجمة والنَّشر ـ الَّذي كان من كبار المُعجبين بهذا الكتاب المنوِّهين به ، والحافزين على قراءته ـ إصدارَ الطَّبعة الثَّانية المنقَّحة من جماعة الأزهر(١) ، فسمح له المؤلِّف شاكراً مسروراً ، وأخذ الدُّكتور التَّصريح ، والموافقة من الدُّكتور أحمد أمين ، وكتب مقدِّمة يتجلَّى فيها إخلاصه ، وحبُّه ، واستجابته للفكرة ، حلَّى بها جِيد الكتاب . وفاجأ المؤلِّفَ صديقُه الدكتور أحمد الشِّرباصيُّ ـ أحد علماء الأزهر وأساتذته ـ في إحدى زياراته ، فاختلس منه معلومـاتٍ عن أسرته ، وبيئته ، ونشأته ، ودراسته ، وحياته ، لا يعلم المؤلِّف ماذا سيصنع بها ، فكوَّن بها مقالاً عن المؤلِّف عنونه بـ « أخي أبو الحسن » (صورةٌ وَصْفِيَّةٌ) ، وضمَّه إلى الكتاب ، ولم يعلم به المؤلِّف إلا حين صدرت الطَّبعة الثانية سنة ١٩٥٣م ، وتَلَت هذه الطبعة طبعاتٌ ، وترجماتٌ في لغات الشَّرق ، والغرب ، وها هي ذي الطَّبعة الثالثة عشرة القانونيَّة .

---

(١) وذلك في ٣ حزيران ١٩٥١م .

وهذه قصَّة الكتاب في إيجازٍ ، وصدقٍ ، وصراحةٍ ، ولله المنُّ والفضل أوَّلاً ، وآخراً !

٢٠ رجب ١٤٠١هـ

٢٥ مايو ١٩٨١م

أبو الحسن علي الحَسني النَّدْوي

ندوة العلماء ـ لكهنؤ

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَة الثَّامِنَة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتَم النَّبيِّين محمدٍ ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد :

فيسرُّني ، ويُسعدني ـ كأيِّ مؤلِّفٍ ، وكاتبٍ ، وداعٍ إلى فكرةٍ ، وعاملٍ لدعوةٍ ـ أن أكتب مقدِّمةً للطَّبعة الثَّامنة لهذا الكتاب الَّذي لم أكن أتوقَّع حين صدرت له الطَّبعة الأولى أن تتلوها هذه الطَّبعات المتكرِّرة الكثيرة ، وأن ينال هذا القبول ، والانتشار في العالَمين : العربيِّ ، والإسلاميِّ ، وأن تتخطَّفه الأيدي ، وتتنافس في نشره المكتبات الكثيرة الَّتي تعنى بالكتاب الإسلاميِّ ، وأن يُنقل إلى عدَّة لغاتٍ ، وتُكرَّر فيها الطَّبعات[1] ، ولم يكن ذلك إلا بنصر الله ، وتأييده ، وهو دليلٌ على وجود القبول الطَّيِّب ، والتَّجاوب الرُّوحي مع الفكرة الَّتي يحملها هذا الكتاب ، والغاية الَّتي يدعو إليها .

ومن غريب المصادفات : أنَّ هذا الكتاب ـ الَّذي كان أوَّل مؤلَّف عربيٍّ للمؤلف ـ لم ينل حظَّه من التنقيح ، والزِّيادة ، رغم طبعاته المتكرِّرة[2] ، كما نالت مؤلَّفاته الأخرى ؛ إلا ما كان من زيادةٍ يسيرةٍ في الطَّبعة الثَّالثة ، وبقي هذا الكتاب يعاد طبعه من غير تنقيحٍ ، وزيادةٍ ، وينفد سريعاً ، ولا يجد المؤلِّف فرصةً للنَّظر

---

(١) صدرت للترجمة الإنكليزية ثلاث طبعات إلى حين كتابة هذه السُّطور ، وطبعتان للترجمة الفارسية في (قم) إيران ، وطبعة على الأقل في التركية ، وظهرت الطبعة السَّادسة للترجمة الأردية في عام ١٩٦٨م .

(٢) مما يؤسف المؤلف ذكره : أنَّ بعض المكتبات طبعت هذا الكتاب من غير استئذانٍ ، ولا علم المؤلف ، ولم تعنَ بالضَّبط والتَّصحيح ، بل وقع في بعض الطَّبعات قلبٌ في المواد المطبوعة ، وخبط في الصفحات .

فيه ، وضمِّ بعض ما سنح له من آراءٍ أو معلوماتٍ ، ولا ينتظر الناشرون ـ لسرعة نفاد النُّسخ المطبوعة ، وكثرة طلبها ـ أن يتناوله المؤلِّف بالتَّنقيح والزِّيادة ، فكانت الطبعات كلُّها صورةً واحدةً ، ونسخةً صادقةً للطَّبعة الثَّالثة ، حتَّى هيَّأ الله هذه الفرصة في شهر الله المحرَّم سنة ١٣٨٩هـ (مارس ـ إبريل ١٩٦٩م) ، حين أرادت دار القلم ـ الكويت طبع هذا الكتاب من جديدٍ ، فانقطع المؤلِّف إلى قراءته ، ومقابلته بالنُّصوص ، والمراجع : فصحَّح بعض الأخطاء ، وخرَّج الأحاديث الواردة فيه ، وأحال الآيات إلى مواضعها في المصحف الشَّريف ، وزاد زياداتٍ لا يكثر عددُها ، ولكنَّها تزيد في قوَّة الكتاب ، وقيمته ، وتملأ فراغاً كان يشعر به المؤلِّف .

وبذلك كلِّه تصدر هذه الطَّبعة أكثر ضبطاً ، وإتقاناً ، وأحسن تنقيحاً ، وتهذيباً ، وأغنى مادةً ، ولله الأمر من قبلُ ومن بعد ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

٢٨ محرم الحرام ١٣٨٩هـ
يوم الأربعاء ١٦/ ٤/ ١٩٦٩م

أبو الحسن علي الحَسني النَّدْوي
ندوة العلماء ـ لكهنؤ

مُقدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَةِ

الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى .

أمَّا بعد ، فقد ظهرت الطَّبعة الأولى لكتاب : (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م ، فكان الإقبال عليه عظيماً ، تخطَّى قياس المؤلِّف ، ورجاءه ، فقد كان كتاباً لا يسترعي اهتمام القرَّاء إلا موضوعه ـ الَّذي يكاد يكون طريفاً ـ وما يحتوي عليه من مادَّةٍ ، ومعنىً ، ولم يكن من ورائه شخصية المؤلِّف ، وشهرتُه ، فلم يكن قد ظهر لمؤلِّفه كتابٌ آخر قبل هذا الكتاب في العالم العربيِّ ، ولم يعرفه النَّاس في هذه الأقطار ، فكانت العناية بهذا الكتاب عنايةً خالصةً مجرَّدةً للكتاب ، وللموضوع ، ليس فيها نصيبٌ لشخصية المؤلِّف وشهرته .

ولا يُعلَّل هذا الإقبال النَّادر الَّذي حظي به الكتاب إلا بفضل الله تعالى ، ولطفه ، وبعد ذلك بأنَّ هذا الكتاب قد جاء في أوانه ، وصادف رغبةً غامضةً ، واتِّجاهاً مُبهَماً في النُّفوس ، وبأنَّه يتجاوب مع شعور كثيرٍ من المفكِّرين ، والمثقَّفين في العالم العربيِّ ، ويلتقي مع أفكارهم ، وآرائهم ، ودراستهم .

وعلى كُلٍّ فقد كان الكتاب واسع الانتشار في العواصم العربيَّة ، والأوساط العلميَّة ، وتناولته طبقات الأمَّة ، وبعض قادة الفكر بالدِّراسة ، والبحث ، وأشار المربُّون ، والمعلِّمون على الشَّباب بمطالعة هذا الكتاب ، والحمد لله الذي بعزته وجلاله تتمُّ الصَّالحات .

وقد قامت لجنة التَّأليف ، والتَّرجمة ، والنَّشر في القاهرة بالطَّبعة الأولى ، وكان لها ـ ولاشكَّ ـ فضلٌ في ظهور هذا الكتاب في مظهرٍ جميلٍ لائقٍ ، وفي نفوذه في الأوساط العلميَّة والأدبيَّة ، وحرصت جماعة الأزهر للنَّشر والتَّأليف ـ وفيها أصدقاء المؤلِّف ـ على إعادة طبع الكتاب ، فصرَّحتُ لها بذلك ، ووافق عليه المرحوم الأستاذ الكبير الدُّكتور أحمد أمين (بك) رئيس اللجنة ، فظهرت الطَّبعة

الثانية سنة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م ، وفيها مقدِّمات للدُّكتور محمد يوسف موسى ، والكاتب الإسلاميِّ الأستاذ سيد قطب ، وصديق المؤلِّف الشيخ أحمد الشرباصي ، زادت في قيمة الكتاب .

ظهرت الطَّبعة الثانية ، وأنا في جولتي في الشَّرق الأوسط ، فلم أتمكَّن من أن أضمَّ إليها زياداتٍ كنت أفكِّر فيها ، وأشعر بالحاجة إليها ، وهيَّأ الله أسباب الطبعة الثَّالثة ، ووقعت إليَّ مصادر جديدة ، وجدَّ عندي بعض الآراء ونواحٍ جديدةٌ فألحقتها بالكتاب ، وتأخَّرت هذه الطَّبعة لبعض الأسباب إلى سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م ، ونفدت في مدَّة قريبةٍ ، وهاهي الطَّبعة الرابعة مزيدةٌ منقَّحةٌ .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذه الطَّبعة ـ وما يليها من طبعات إن شاء الله ـ كما نفع بالطَّبعات الأولى ، وأن يجعل هذا الكتاب وسيلةً للوعي الجديد ، والإيمان الجديد الَّذي تشتدُّ حاجة العالم الإسلاميِّ إليه ، إنَّه على كل شيء قدير .

أبو الحسن علي الحسَني النَّدْوي
لكهنؤ (الهند)

الصّراع
بين الفكرة الإسلاميّة والفكرة الغربيّة
في الأقطار الإسلاميّة

دار القلم
الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةٌ بين يدي الكتاب

إن هناك صراعاً فكرياً ، بل معركةً فكريَّةً في عبارةٍ أصحَّ في جميع الأقطار الإسلاميَّة في هذا الوقت ، نحن نستطيع أن نسمِّيها صراعاً ، ومعركةً بين الأفكار والقيم الإسلاميَّة والأفكار والقيم الغربيَّة ، وهي المعركة الحامية ، الحاسمة ، الحقيقيَّة ؛ التي يخوضها العالم الإسلاميُّ اليوم ، وهي الَّتي ستقرِّر مصيره ، وهي معركةٌ تتضاءل أمامها جميع المعارك الَّتي يغالي في تصويرها ، أو تهويلها الكتَّاب ، والمؤلِّفون ، فكلُّ معركة ـ غير المعركة الكبرى الَّتي ننوه بها ـ إمَّا معركةٌ محلِّيةٌ ، أو معركةٌ فرعيةٌ ، أو معركةٌ وهميةٌ . إنَّ تاريخ هذه الأقطار القديم ، وحبَّ الشُّعوب المسلمة للإسلام ، وصلتها القوية العميقة به ، والاسم الَّذي قاتل دونه المقاتلون ، وتيسَّر به الظفر بالحريَّة ، أو المحافظة عليها إذا كانت من قبلُ ؛ كلُّ هذه الحقائق تثبت : أنَّ هذه الأرض التي نشبت فيها هذه المعركة لا مكان فيها إلا للأفكار الإسلاميَّة ، والقيم الإسلاميَّة ، ولا يُسمح فيها إلا لمنهجٍ ، ونظامٍ دعا إليهما الإسلام .

لكنَّ الطَّبقة التي تملك زمام هذه البلاد إنَّ عقليتها ، وثقافتها ، وتربيتها ، ومصالحها الشَّخصية والسِّياسيَّة كلُّ ذلك يقضي أن تزدهر فيها القيم الغربيَّة ، والأفكار الغربيَّة ، وأن تتَّبِع هذه البلاد الدُّول الغربيَّة شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وهي تغيِّر مفاهيمها الدِّينيَّة ، وتقاليدها القوميَّة ، وقوانينها الإسلاميَّة بالأوضاع الغربيَّة ، أو تطوِّرها إذا عاكست هذا الهدف ، وحالت دون الوصول إلى هذه الغاية ، وفي عبارةٍ وجيزةٍ : تصهر هذه البلاد بتؤدة ، وأناةٍ ، ولكن بوعي وإلحاح في بوتقة الحضارة الغربيَّة .

ومن هذه الأقطار ما قد قطع أشواطاً بعيدةً في هذه الرِّحلة ، ووصل إلى هدفه المنشود ، أو كاد ، ومنها ما وقف حائراً على مفترق الطُّرق ، ولكن يبدو أنَّ موعده قريب .

إنَّني أعتقد : أنَّ ذلك أضخم مشكلةٍ للأقطار الإسلاميَّة ، وهي مشكلةٌ حقيقيَّةٌ لا صلة لها بالأوهام ، والأحلام . إنَّ ضعف الأقطار الإسلاميَّة الدَّاخليَّ ، ونفوذ الحضارة الغربيَّة ، واحتلالها ، واستيلاء الأفكار الغربيَّة الماديِّ والسِّياسيِّ يرسم في الأفق علامة استفهامٍ واضحةً ضخمةً أمام الأقطار الإسلاميَّة كلِّها ، ولا تستطيع أن تتقدَّم خطوةً واحدةً بدون أن تجيب عليها جواباً حاسماً .

أيُّ موقفٍ تتَّخذه هذه البلاد نحو هذه الحضارة ؟

أيُّ منهجٍ تسير عليه لتوثيق مجتمعها بالحياة العصريَّة وتحقيق مطالب العصر الحديث ؟

وإلى أي مدىً تثبت ذكاءها ، وشجاعتها الخلقيَّة لمواجهة هذه المعضلة ؟

إنَّ وضع الجواب على هذا السُّؤال هو الذي يحدِّد مكانة هذه الشعوب في خريطة العالم ، ويُعرف به مستقبل الإسلام في هذه البلاد ، ومدى وفائها لرسالة الإسلام الخالدة العامَّة .

كنَّا نشعر بحاجةٍ شديدةٍ إلى استعراض هذه المسألة وما قام به العاملون الموجِّهون من جهودٍ في اتِّجاهات مختلفةٍ، ودراستها دراسة مؤرخ محايدٍ وباحثٍ نزيهٍ، وتحليلها من غير بخلٍ، وإسرافٍ، والتَّنبيه إلى طريق سويٍّ لنهضة المجتمع الإسلامي الذي لا يتحتَّم عليه التمسُّك بالعقائد ، والأخلاق ، ومنهج الحياة الإسلاميَّة فحسب، بل عليه تقع مسؤولية الدَّعوة ، والتَّوجيه ، والقيادة ، والوصاية على العالم أيضاً ، ولا تتحتَّم عليه المسايرة لركب الحياة السَّريع فحسب ، بل قيادته كذلك .

إنَّ جميع الأقطار الإسلاميَّة ـ وأخصُّ منها ما تحرَّرت حديثاً ـ في حاجةٍ إلى بحثٍ عميقٍ في هذا الموضوع ؛ لأنَّ أدنى انحرافٍ أو زلة قدمٍ سوف تهوي بها إلى مكانٍ سحيقٍ ، وتبعدها عن هدفها الصَّحيح بعدَّة قرونٍ ، وأجيالٍ .

وبهذا الدَّافع كتبتُ مقالاً مسهباً في أوائل سنة ١٣٨٢هـ لم يلبث أن تحوَّل إلى كتابٍ نُشر في شعبان سنة ١٣٨٢هـ ـ فبراير ١٩٦٣م باسم « موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربيَّة »[١] واعتنت به الأوساط العلميَّة والدينية في العالم العربيِّ .

وقد أتيح لي السَّفر إلى أوربا بعد نشر الكتاب ، ورأيت مركز هذه الحضارة ، ومعقلها عن كثبٍ ، وشاهدتها في بيتها ، وعقر دارها ، واستفدت من هذه الرِّحلة في الاطلاع على بعض المصادر العلميَّة الحديثة . وزدت فيه زياداتٍ قيمةً مهمَّةً جاءت ضعف ما كان عليه الكتاب حتَّى أصبح بذلك كتاباً جديداً ، وهو ينشر الآن تحت عنوان « الصِّراع بين الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربيَّة في الأقطار الإسلاميَّة » .

وأدعو الله أخيراً أن يوفِّق قادتنا ، وزعماءنا إلى فهم مسؤوليتهم الدقيقة الضخمة وأداء هذه المسؤولية بحول الله وقوَّته بأحسن ما يمكن .

وقد ساعد المؤلِّف في تأليف هذا الكتاب ، ونقل بعض الموادِّ إلى العربيَّة الأساتذة : سعيد الأعظمى ، ومحمد اجتباء النَّدوي ، ومحمَّد الحسني مساعدةً غاليةً ، فلهم شكر المؤلِّف ، وتقديره ، ودعواته .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
بستان نورولي ـ المدينة المنورة

٩/ ١/ ١٣٨٥هـ ـ ١٠/ ٥/ ١٩٦٥م

---

(١) انظر هذا المقال بكامله في « مقالات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي » طبع في دار ابن كثير بدمشق ، وبيروت .

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ﷺ ، وبعد فقد صدرت الطَّبعة الثَّالثة لكتاب : « الصراع بين الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربيَّة في الأقطار الإسلاميَّة » مزيدةً ومنقَّحةً من دار القلم للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع الكويت سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ، ونال قبولاً ، وحظوةً في الأوساط المعنيَّة باتِّجاهات الأقطار الإسلاميَّة ، وواقعها ، وموقفها من الفكرة الغربيَّة ، وكان كتاب السَّاعة ؛ لأنَّه يبحث عن قضيَّةٍ مصيريَّةٍ للأقطار الإسلاميَّة ، ويعيِّن مكانتها في خارطة الإسلام المعنويَّة ، والمبدئيَّة في جانبٍ ، وفي خارطة العالم الحضاريَّة ، والاجتماعية في جانبٍ آخر ، ويحدِّد قيمتها الحقيقيَّة من وجهة نظر الإسلام ، ورسالته ، وأهدافه ، وكان من أهمِّ كتب المؤلِّف في نظر كثيرٍ من أصدقائه ، وقرَّاء كتبه ، ويعتقد بعض القرَّاء : أنَّه يكوِّن الحلقة الثَّانية من كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

وقد جعل هذا الكتاب كونه كتاب السَّاعة والكتاب الذي يحكي عن واقع الأقطار الإسلاميَّة ، وموقفها من الفكرة الغربيَّة التي هي خاضعةٌ للنُّمو ، والتَّطوُّر ، والأحداث العالمية ، مفتقراً إلى الزيادة والتَّنقيح ، والتَّغيير ، والتَّطوير ، أكثر من أي كتابٍ آخر ؛ لأنَّ هذه الأقطار لا تعيش في عزلةٍ عمَّا يقع في العالم الخارجيِّ ، وفي البلاد المجاورة من أحداثٍ ، وثوراتٍ ، وتقلُّباتٍ ، فضلاً عمَّا يقع في داخلها من تحوُّلات ، وتقلُّباتٍ ، وثوراتٍ عسكريَّةٍ ، ومدنيَّةٍ ، ومبدئيَّةٍ ، ومعنويَّةٍ ، لذلك كان في حاجةٍ دائماً إلى استعراضٍ جديدٍ للواقع ، وتسجيلٍ للتَّطوُّرات الجديدة .

وقد انقضت فترةٌ طويلةٌ لم يتمكَّن المؤلِّف ـ لكثرة أشغاله وأسفاره ـ من تناول هذا الكتاب بالزِّيادة والتَّنقيح مع شدَّة الحاجة إليه ، وقد تمكَّن من ذلك في طبعته الأردنيَّة الصَّادرة في صفر ١٤٠١هـ ـ ديسمبر ١٩٨٠م ، وقد كانت لمصر ، واليمن

وليبيا ، والجزائر ، وأفغانستان ، وإيران النَّصيب الأكبر من هذه التطوُّرات ، والأحداث ، وقد أعانه في هذا الاستعراض الجديد ، وفي هذه الزِّيادات ذات القيمة الأعزَّاء : محمد الحسني رئيس تحرير مجلَّة « البعث الإسلامي » ، والأستاذ محمَّد رابع الحسني النَّدوي عميد كلية اللُّغة في جامعة ندوة العلماء ، والأستاذ واضح رشيد الحسني النَّدوي رئيس تحرير صحيفة « الرائد » العربيَّة ، وكان للأخير أكبر قسطٍ في هذه الزِّيادات تدلُّ على عمق نظره ، وسلامة فكره ، بارك الله في حياتهما ، وآثارهما .

وبذلك أصبحت هذه الطَّبعة هي الطَّبعة الجديدة بمعنى الكلمة ، ومطابقةً لواقع الأقطار الإسلاميَّة ، ونرجو الله أن ينفع بها ، وأن تكون منيرةً للأبصار ، والبصائر ، مثيرةً للعزائم ، والهمم .

والحمد لله أوّلاً ، وآخراً .

١٤/ شعبان ١٤٠١هـ

١٧/ يونيو ١٩٨١م

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
دارالعلوم ندوة العلماء

العرب والإسلام

المجمع الإسلاميُّ العلميُّ
لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين يَدي الكتاب

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله :

أمَّا بعد : فهذه محاضراتٌ ومقالاتٌ كُتِبت ، وأُلقيت في مناسباتٍ مختلفةٍ ، وفي أمكنةٍ ، وأزمنةٍ مختلفةٍ ، تجمع بينها وحدةٌ معنويَّةٌ ، وغايةٌ مشتركةٌ ؛ تتغلَّب على اختلاف الزَّمان ، والمكان ، وتنوُّع أساليب البيان ، وهي إثارة الشُّعور الإسلاميِّ ، أو إيقاظ الرُّوح الإسلاميَّة في نفوس العرب الَّذين أصبح كثيرٌ منهم بفعل عواملَ كثيرةٍ في حاجةٍ إلى ذلك من مدَّة قصيرةٍ ، وهو إثارة كريم عريقٍ في الكرم ، وتحريك أريحيَّته للمكارم ، والبطولات ، وهو إيقاظ أسدٍ غلبه النُّعاس أخيراً ليحتلَّ مكانه الطَّبيعي في الغابة ، وحاشا أن يكون تعليم جاهلٍ ، أو إقناع جاحدٍ .

اختار الله العرب للإسلام لخصائصَ طبعيةٍ ، ومزايا خُلقيَّة ؛ ينفردون بها ، وقد قال عن بني إسرائيل أوَّلاً : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] .

وقال عن النبيِّ العربي ﷺ آخراً : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وقد بحث في هذه الخصائص الباحثون ، وكتب في موضوعها المؤلِّفون ، وقد أثبت العرب الأوَّلون حكمة هذا الاختيار بفهمهم العميق لطبيعة الإسلام ، وإساغتهم الكاملة لتعاليمه ، وتجرُّدهم النَّادر عن كلِّ ما ينافيها ، وحماستهم ـ المنقطعة النَّظير ـ في نشر الإسلام ، وتفانيهم الغريب في إعلاء كلمته ، ورفع شأنه ، وأمانتهم الدَّقيقة في حفظ روحه ، ونفسيَّته ، ونجاحهم المدهش في تسخير القلوب ،

والعقول لقبول عقيدته ، وثقافته ، فكانت القيادة الإسلاميَّة كما قال الشاعر العربيُّ أبو العتاهية عن الخليفة المهديِّ :

أَتَتْـهُ الخِـلافَـةُ مُنْقـادَةً إِلَيْـهِ تُجَـرِّرُ أَذْيـالَهـا
فَلَـم تَـك تَصْلـحُ إلا لَـهُ ولَمْ يَكُ يَصْلُح إلا لها[١]

عقد الله بين العرب ، والإسلام للأبد ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، فلا عزَّ للعرب إلا بالإسلام ، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصَّحيح إلا إذا قاد العرب ركبه ، وحملوا مشعله ، وقد حرص رسولُ الله ﷺ على بقاء هذا الرِّباط الوثيق المقدَّس بين العرب والإسلام ، فجعل جزيرة العرب[٢] مركز الإسلام الدَّائم ، وعاصمته الخالدة ، وحرَص على سلامة هذا المركز ، وهدوئه ، وشدَّة تمسُّكه بالإسلام ؛ لأنَّ العاصمة يجب أن تكون بعيدةً عن كلِّ تشويش ، وعن كلِّ فوضى ، وعن كلِّ صراعٍ ، فشرع لذلك أحكاماً بعيدة النتائج ، واسعة المدى ، وأوصى لذلك وصايا حكيمةً ، دقيقةً ، وأخذ لذلك من أصحابه وأمَّته عهوداً ، ومواثيق ، وقد ذكرت ذلك عائشة أمُّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فقالت : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : « لا يُتْرَك بجزيرة العرب دينان »[٣] وعن أبي رافع : « أنَّ النبيَّ ﷺ أمر ألا ندع في المدينة ديناً غير الإسلام إلا أخرج »[٤] وعن جابر بن عبد الله يقول : أخبرني عمرُ بن الخطَّاب : أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجنَّ اليهود ، والنَّصارى من جزيرة العرب حتَّى لا أدع فيها إلا مسلماً »[٥] .

وأخذ بذلك الخلفاء الرَّاشدون المهديون ، فكانوا ينظرون دائماً إلى الجزيرة العربيَّة كمعقلٍ للإسلام ، ورأس مالٍ للدَّعوة الإسلاميَّة ، وقد جاء في وصية أمير

---

(١) ديوانه : ص٦١٣ طبع جامعة دمشق بتحقيق الدُّكتور شكري فيصل .
(٢) في القاموس : وجزيرة العرب ما أحاط بها بحر الهند ، وبحر الشام ، ثم دجلة ، والفرات ، أو ما بين عدن إلى أطراف الشَّام طولاً ، ومن جدَّة إلى ريف العراق عرضاً .
(٣) رواه أحمد في « المسند » والطَّبرانيُّ في « الأوسط » .
(٤) رواه الطَّبراني .
(٥) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذيُّ ، وصحَّحه .

المؤمنين عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ لخليفته : « أوصيه بالأعراب خيراً ، فإنَّهم أصل العرب ، ومادَّة الإسلام »[1] .

وظلَّ العرب ، والإسلام زميلين مترافقين ، وأخلص كلُّ منهما للآخر ، وأقسم ألا يفارقه ، وكانا كما قال الشاعر العربيُّ الأعشى بن ميمون الأسديُّ :

رَضِيْعي لِبَانِ ثَدْيٍ أمٍّ تَحَالَفا　　بأسحمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ

وعاش العرب وعزُّوا بالإسلام ، وسادوا الدُّنيا ، وانتشرت لغتُهم ، وثقافتُهم في بلادٍ ، وأقطارٍ ، وبيئاتٍ لم تكن تنتشرُ فيها ، وتُرسِّخُ قدميها لولا الإسلام ولولا القرآن ، واتخذها العلماء ، والأذكياء لغة دينٍ ، وعلمٍ ، وتأليفٍ ، لم يكونوا فاعلين ذلك لولا أنَّها لغة الإسلام الرَّسميَّة ، ومفتاح المكتبة الإسلاميَّة ، وقد حمل كثيراً من علماء بلاد العجم وأئمتها مِمَّن وُلِدوا ونشؤوا في هذه الديار حبُّهم للعرب ، وفقهُهم للدِّين على أن يتعرَّبوا في كثيرٍ من عاداتهم ، وشاراتهم ، ويحافظوا على اللُّغة العربيَّة ، وآدابها ، ويتواصوا بذلك ، ويجعلوها كلمةً باقيةً في أعقابهم ، ويحذروا من تقليد العجم ، والتخلُّق بأخلاقهم ، وما ذاك إلا للحبِّ العميق الرَّاسخ للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه ، ولأنَّه ظهر في العرب ، وارتضى الله لهذا الدين المظهر الإبراهيميَّ العربيَّ في الأخلاق ، والآداب ، والميول .

وقد جاء في وصيَّة أحد كبار أئمَّة الإسلام في بلاد العجم ما يدلُّ على ذلك دلالةً واضحةً . قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرَّحيم الدِّهلويُّ المتوفَّى سنة ١١٧٦هـ في رسالته التي أسماها : « المقالة الوضيَّة في النَّصيحة والوصيَّة » .

(نحن رجال غرباء ، هاجر آباؤنا إلى الهند ، وإنَّ عربية النَّسب وعربيَّة اللسان مفخرتان لنا ، وهي الَّتي تقرِّبنا إلى سيِّد الأوَّلين ، والآخرين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرة الوجود ﷺ ، ومِنْ شُكْرِ هذه النعمة العظمى ألا نتخلى بقدر الإمكان عن عادات العرب الأوَّلين وتقاليدهم ؛ الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ ، ولا نسمح لتقاليد العجم وعادات الهنادك أن تنتشر بيننا) .

ثمَّ قال: « السَّعيد منَّا مَنْ حصلت له مشاركةٌ في لسان العرب والصَّرف، والنَّحو،

---

(١) الجامع الصَّحيح للإمام البخاريُّ ، كتاب المناقب .

وكتب الأدب ، واطَّلع على الحديث ، والقرآن ، ولابدَّ لنا من حضور الحرمين الشَّريفين، وتعلُّق القلب بهما، وفي ذلك سرُّ سعادتنا، والشَّقيُّ مَنْ أعرض عنهما »[1].

وعاش الإسلام ، وشقَّ طريقه إلى الأمام ، وتغلَّب على الصُّعوبات ، وانتشر بسرعةٍ غريبةٍ ـ لا تزال موضع الدَّهشة ، والاستغراب ـ لجهاد العرب ، وحماستهم لنشره ، وحسن معاملتهم للمفتوحين ، فكان كلٌّ عوناً لصاحبه ، ومصدر قوَّته ، وعنوان مجده .

ولم يشوش هذا الصَّفاء ، والوفاء إلا حوادثُ كان مصدرَها أشخاصٌ ، وأغراضٌ ، ولكنَّها جنت على هذه الوحدة الميمونة ، منها الحركة الشُّعوبية الغالية الخرقاء الَّتي قام بها بعض علماء العجم في القرن الثَّالث الهجريِّ ، الَّذين لم تنشرح صدورهم للإسلام . ومنها غطرسة بعض العناصر غير العربيَّة ، وإساءتهم إلى مركز العرب ، وبخسهم لنصيبهم الشَّرعيِّ . وقد ثارت لهما النَّخوة العربيَّة بطبيعة الحال كردِّ فعلٍ طبيعيٍّ لهذا الظُّلم ، ولكن ما لبث الإيمان الرَّاسب في أعماق نفوس العرب ، وحبُّ الإسلام المتغلغل في أحشائهم أن تغلَّبا على هذه النَّزعة الطَّارئة ، ولم نقرأ في التَّاريخ حركةً منظمةً ، أو فلسفةً مدوَّنة نستطيع أن نسمِّيها : « فكرة القوميَّة العربية » وبقي العرب يعيشون بالإسلام ، وللإسلام ، وبقي تاريخ كلٍّ منهما متَّصلاً بتاريخ الآخر ، متداخلاً بعضُه في بعضٍ .

وبقي الوضع هكذا إلى أواخر القرن التَّاسع عشر الميلاديِّ ، وقد بدت في الأتراك ـ الَّذين كانوا يحكمون الشَّام[2] والعراق ـ والحجاز ـ الكبرياءُ القوميَّة ، وبدأ كثيرٌ من حكَّامهم يعاملون الشُّعوب العربيَّة ، واللُّغة العربيَّة معاملةً تشبه أحياناً كثيرةً معاملة المُسْتعمِرِ للمُستعمَر ، وبدت منهم القسوة ، والجفاف ، والغطرسة في مناسباتٍ كثيرةٍ ؛ رغم إغداقهم الأموال الكثيرة على الحجاز ، وتقديس الحرمين الشَّريفين ، ومن يسكنهما ، ورغم النَّظر إلى الشَّعب العربيِّ نظر إجلالٍ دينيٍّ ،

---

(١) « المقالة الوضيَّة في النَّصيحة والوصيَّة » بالفارسية طبع دهلي عام ١٢٦٧هـ .

(٢) الشَّام بجميع أقسامه ، أو سورية الطَّبيعية ، وهي تضم ما يسمَّى اليوم : سورية ـ فلسطين ـ الأردن ـ لبنان ـ اسكندرون ـ الموصل .

وروحيٍّ ، ولم يظهر منهم من التَّسامح وسعة النَّظر ، ورقَّة الذوق ، واحترام حرية الرَّأي ، وتشجيع الثَّقافة ، والميول ، والرَّغبات البريئة في الشُّعوب العربيَّة ما كان يُتوقَّع من شعبٍ حاكمٍ يعيش في هذا العصر القلق المتطوِّر ، وماكان يستحقُّه العرب بصفة خاصَّةٍ كشعبٍ ممتازٍ ، وكشعب كان مصدر الدَّعوة الإسلاميَّة ، وحاول بعض حكَّامهم ـ السُّفهاء الغلاظ ـ القضاء على الشَّخصيَّة العربيَّة ، كلُّ ذلك أثار في العرب النِّقمة ، والنَّخوة العربيَّة ، وفي لفظ مؤلفٍ قوميٍّ عربيٍّ :

« الوجدان القومي العربي بدأ يستيقظ في نفوس أفرادٍ من العرب في أواخر القرن التَّاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، وأوَّل ما بدأ ذلك في ديار الشَّام ، مهَّدوا بالقضاء على الحكم الأجنبيِّ ـ التُّركيِّ ـ يومئذٍ ، وعلى الإقليميَّة[1] » .

« وقد تزعَّم هذه الحركة وقادها بعض المسيحيِّين ، الَّذين لم تكن تربطهم بالأتراك رابطةُ العقيدة ، والدِّين المتينة ، ورابطة الإخاء الإسلاميِّ ، وكانوا مثقَّفين الثَّقافة الغربيَّة الَّتي تقوم على تمجيد القوميَّة ، وكان من زعمائها الأوَّلين الدُّكتور فارس نمر ، والشيخ إبراهيم اليازجي ، والأستاذ نجيب العازوري اللُّبناني »[2] .

ثمَّ نَشِبت الحرب الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨م وسنحت للأقطار العربيَّة فرصةُ الانشقاق على الامبراطورية العثمانيَّة ، وانتهز الحلفاء هذه الفرصة الذَّهبيَّة ، فنفخوا في قربة القوميَّة ، وقام لورانس الدَّاهية بدوره[3] ، فأشعل الحماس القوميَّ ، وأثار العرب على الأتراك ، وثار الشَّريف حسين في الحجاز ، وأهل الشَّام في الشَّام وفضَّلوا الانضمام إلى راية الحلفاء ، الَّذين لا يرقبون في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمَّةً ، ولا يراعون في مسلم عهداً ، ولا حرمةً والَّذين كان يقودهم الإنجليز المجرمون الَّذين تلطَّخت أيديهم ، وتلوَّث تاريخهم بأبشع الإجرامات ضدَّ الإسلام ، والمسلمين ، فضَّلوا كلَّ ذلك على البقاء في جوار الأتراك المسلمين الَّذين رفعوا راية الإسلام في أوروبا خمسة قرونٍ ، وأرهبوا أعداء الإسلام ، وكانوا ـ على علاتهم ـ رمز قوَّة

---

(١) « قضية العرب » لمؤلفه علي ناصر الدِّين ص : ٧٣ .

(٢) « قضية العرب » لمؤلفه علي ناصر الدِّين ص : ٧٣ .

(٣) انظر لمزيد التفصيل : Lawrence of Arabia By: Erik Lonnroth .

الإسلام ، وشوكته . وتناسوا نصوص القرآن والسُّنَّة القطعيَّة : الَّتي تحرِّم موالاة أعداء الإسلام ضدَّ المسلمين ، والقتال في صفِّهم ، واعتمدوا على الوعود الخلابة ، والسِّياسة المتقلِّبة ؛ التي لا تعرف إلا المصلحة ، ولا تعبد إلا القوَّة . وكان من قيام الحكومة العربيَّة الهاشميَّة في سورية ، ثمَّ نقض الحلفاء للعهود ، وتجاهلهم لها بتاتاً ، وانهيار هذه الحكومة السَّريع ما علمه الجميع .

ثمَّ جاء دور مفهوم القوميَّة العربيَّة الَّتي هي فكرةٌ مستقلَّةٌ ، وفلسفةٌ بذاتها ، لها كلُّ ما للدِّين من حميَّةٍ ، وحرارةٍ ، وشعائر ، ومقدَّسات ، فخضع لها العرب المثَّقفون ـ خصوصاً الشَّباب ـ الَّذين ضعفت صلتهم بالدِّين لأسبابٍ كثيرة ، ونشأت فيهم الرَّغبة الشَّديدة لنيل المجد ، والعظمة في أقرب وقتٍ ، ومجارات الشُّعوب الحرَّة الرَّاقية في مضمار المدنيَّة ، والتقدُّم ، ولم يجدوا لذلك سبيلاً ـ بزعمهم ـ إلا « القوميَّة العربيَّة » ونشأ فيهم اليأس ، والتذمُّر من الأوضاع القائمة ، واليأس من الأمم الغربيَّـة التي خلقت إسرائيل ، ولا تزال تعطف عليها ، وتتبنَّاها أكثر ممَّا تعطف على قضيَّة العرب ، فالتجؤوا إلى القوميَّة العربيَّة كردٍّ فعلٍ عنيفٍ ، وثورةٍ فكريَّةٍ .

ولم يقفوا عند هذا الحدِّ ، ولم يقتصروا على استخدام القوميَّة للدِّفاع ، والتَّنظيم ، كما زعم كثيرٌ من دعاتها ، بل غلوا في تقديس القوميَّة العربيَّة ، والتَّغنِّي بها ، وإنكار كلِّ ما عداها ، وجعلوها عقيدةً ، وديانةً يتغنَّون بها ، ويحاربون كلَّ ما سواها ، ويحتقرون شأن الدِّين ، ويقلِّلون قيمته ، يمثِّله خير تمثيلٍ ما قاله أحدُ مفسِّري الفكرة القوميَّة ، وبعض مَنْ كتب في قضية العرب في العصر الحديث ، يقول الكاتب ، وهو يعبِّر عن أفكار كثيرٍ من زملائه :

(القضيَّة العربيَّة لن تكون أبداً عند العربيِّ المؤمن الحرِّ العاقل ، الشَّريفِ ، الصَّالحِ ، الخيِّرِ ، الأبيِّ ، المترفِّع إلا قضية إيمانٍ ، إيمانٍ بالوطن للوطن ، كقضية الإيمان بالله لله ليس غير)(١) .

---

(١) مقدِّمة الطبعة الثالثة لكتاب « قضية العرب » للأستاذ علي ناصر الدِّين ، بيروت ١٩٦٣م ص(١٩) .

ويتكلَّم عن مهمَّة قضيَّة العرب ، وأهدافها ، فيقول :

(وتحارب الجهل ، والفقر ، والمرض ، والظُّلم ، وكلَّ عصبيَّةٍ إلا العصبيَّة القوميَّة ، وتفصل الدِّين عن السِّياسة ، وتحرِّم على رجال الدِّين الاشتغال بها ، وتعلِّم العربيَّ أينما كان أن يتعصب بعنفٍ لأمرين : قوميَّته ، والحق)[1] .

ويشرح الكاتب « العروبة » في بيانٍ ، واضحٍ ، ولفظٍ صريحٍ ، فيقول : (العروبة نفسها دينٌ عندنا نحن القوميِّين العرب ، المؤمنين ، العريقين من مسلمين ، ومسيحيِّين ؛ لأنَّها وُجدت قبل الإسلام ، وقبل المسيحيَّة في هذه الحياة الدُّنيا مع دعوتها ـ أي : العروبة ـ إلى أسمى ما في الأديان السَّماوية من أخلاقٍ ، ومعاملاتٍ ، وفضائل ، وحسناتٍ)[2] .

وممَّا يدلُّ على أنَّ « القوميَّة العربيَّة » قد أصبحت في نظر كثيرٍ من دعاتها ، والمؤمنين بها ديانةً إزاء ديانةٍ ، وعقيدةً مقابل عقيدةٍ مقالٌ لكاتبٍ قوميٍّ آخر ، جاء في « مجلة العربيِّ » عدد يناير ١٩٥٩م .

(ومن معانيه الأولى وحدةٌ لكلِّ من تسمَّى به من أهل هذه الأرض ، والوحدة العربيَّة يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قومٍ مؤمنين » .

ويقول الكاتب الأديب المصري المشهور الأستاذ محمود تيمور : (لئن كان لكلِّ عصرٍ نبوَّته المقدَّسة . . إنَّ القومية العربيَّة لهي نبوَّة هذا العصر في مجتمعنا العربيِّ ، ورسالة هذه النبوَّة هي تجميع القوَّة ، وتكتيل الجبهة ، والانطلاقة بالطَّاقة البشريَّة في كيان المجتمع العربيِّ نحو كسب الحياة وإن كتَّاب العرب في أعناقهم أمانةٌ ؛ هي أن يكونوا حَوَاريِّين لتلك النبوَّة الصَّادقة ، يزكُّونها بأقلامهم ، وينفخون فيها مِنْ أرواحهم ، ويعملون على أن تتكتَّل لها أسباب النمَّاء ، والازدهار)[3] .

---

(١) مجلة العربي أيضاً ص : ٢٥ .

(٢) أيضاً هامش ص : ١٣٨ .

(٣) مقال الأستاذ محمود تيمور في مجلة « العالم العربي » عدد ٢٧١ بعنوان « النشر والقوميَّة العربيَّة » . .

ويؤثرونها ، ويفضِّلونها على الوحدة الإسلاميَّة ، ويرونها أسهل تحقيقاً ، وأقرب منالاً ، وأعظم قوَّةً ، وأكثر انتشاراً . يقول الدُّكتور محمد أحمد خلف الله في مقاله : « القومية العربيَّة كما ينبغي أن نفهمها » :

(إنَّ الساسة اليوم ينادون بالقوميَّة العربيَّة ، وتحقيق الوحدة العربيَّة أقربُ منالاً من تحقيق الوحدة الإسلاميَّة . إن مصلحتنا اليوم في تحقيق هذا الهدف القريب ، ثمَّ إن الفكرة العربية أكثر انتشاراً ، وأوسع نفوذاً من الفكرة الإسلاميَّة « إنَّها تشمل سكان العالم العربيِّ جميعاً ، أمَّا الإسلام ؛ فلا يشمل كلَّ هؤلاء السُّكان ، لقد تعرَّب سكان هذه البلدة أجمعين ، ولم يسلموا أجمعين ، إنَّه لا يزال منهم النَّصارى ، ولا يزال منهم اليهود »[١] .

ويبالغ بعض الكتاب في تمجيد العروبة ، ولزومها حتى يشكُّون في إسلام من تجرَّد عنها ، ويعتقدون : أنَّه نقص في الإسلام ، يقول الأستاذ علي ناصر الدين :

« في رأينا : أنَّه يصعب جدّاً أن يكون مسلمٌ غير عربيٍّ مسلماً كما أراد الإسلام ، ورسولُه أن يكون بمجرَّد أنَّه وُلد من أبوين مسلمين ، بل ينبغي له ليكون كذلك ما ينبغي أن يصير عربيّاً بلسانه ، وثقافته ، وميوله »[٢] .

هذا الأسلوب من التَّفكير ، الَّذي لا يرشح إلا عن عقيدةٍ ، وفكرةٍ ، قد رسخت ، واختمرت ، ليس إلا صدى القوميَّة الغربيَّة اللاَّدينيَّة ، وهي التي نخاف منها على الإسلام ، ونعتقد أنَّها تنافس الإسلام في مركزه وقوَّته عند العرب ، وتزدهر ، وتقوى ، وتستفحل على حسابه ، وتحبط مساعي دعاة الإسلام الأوَّلين ، وتقطع صلة العرب عن مصدر عزِّهم ، وقوَّتهم محمَّدٍ ﷺ ، ودعوته ، ورسالته أوَّلاً ، ثم عن العالم الإسلاميِّ ، والشُّعوب الإسلاميَّة ثانياً ، وتصرفهم عن التَّفكير في مصير العالم الإنسانيِّ ، وتولِّي قيادته برسالة الإسلام أخيراً[٣] ، وتجعل من

---

(١) « مجلَّة العربي » الكويتية العدد الأول ديسمبر ١٩٥٨م ص : ٢٤ .

(٢) هامش « قضية العرب » ص : ٣٩ .

(٣) من المؤسف الغريب أن يفكر العرب القوميُّون في دائرة القوميَّة العربيَّة ، ويحصروا =

العرب ـ الأمَّة العالميَّة التي أُخرجت للناس ـ شعباً محدوداً ، ضيِّقَ التَّفكير ، يعيش في نفسه لنفسه ، وينشر فيهم الإلحاد ، واللادينيَّة .

وقد ظهرت طلائعه في مقالات الكتَّاب القوميِّين ، والأدباء القوميِّين ، ومن نماذجه الرَّائعة ما كتبه الكاتب القوميُّ المعروف الدُّكتور أحمد زكي في « مجلَّة العربي » الشَّهيرة ، وصدر به أوَّل عددٍ لمجلَّته يقول الدُّكتور :

(والمجلَّة « العربي » لا تصل معنى العروبة بدينٍ ، فكلُّ الناس عبادُ الله ، وكلٌّ سالكٌ إليه سبيلاً ، والسُّبل اختلفت ، والغاية واحدةٌ ، والحيُّ يسعى لتأمين الحياة ، وبالدِّين هو يسعى لتأمين ما بعد الحياة . والتَّجربة الإنسانيَّة عبر القرون الدَّامية دلَّت على أن الدِّين ـ وهو سبيل النَّاس لتأمين ما بعد الحياة ـ ذهب بأمن الحياة ذاتها ، فلم يبق عاقلٌ مفكِّر ، يتمسَّك بحريَّة الفكر الَّتي هي هبةٌ من هبات الله ، إلا أن يقول : دعوا النَّاس لتسلك إلى الله أيَّ طريقٍ تشاء ، وحتَّى غير السَّالك « أي اللاَّديني » عليه وحده تبعة أنَّه لا يسلك ، لا على النَّاس[1]) .

وهكذا قال عمر الفاخوري قديماً في كتابٍ له سمَّاه : « كيف ينهض العرب ؟ » :

= نشاطهم ، وكفاحهم في دائرة الشُّعوب العربية ، وأكثرهم قادتهم مسلمون ديناً وعقيدةً ، ويفكر الشُّيوعيُّون الملحدون في دائرة الإنسانيَّة ، ويعتنون بطبقاتها الكادحة ، وبالعمال ، والفلاحين في كلِّ بلدٍ ، وصقع ، وقد تجلَّى هذا الاختلاف في أسلوب التفكير في حفلة اتحاد نقابات العمال العرب في القاهرة ١٦ من مايو (مايس) عام ١٩٦٤ حيث قال ضيف مصر « خروتشوف » رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي وزعيم الشُّيوعية العالمي معلِّقاً على كلمة الرئيس جمال عبد الناصر : (إن سيادة الرئيس يلحُّ على الوحدة العربيَّة ، ونحن الرُّوسيُّون بالعكس ، نفكر في قضية الوحدة في معانٍ أوسع ، إنَّنا لا نؤسس الوحدة على تصور القوميَّة ، إنَّنا نؤسِّسها على قوَّة الطَّبقة الكادحة) .

إنَّ العرب المسلمين كانوا أولى ، وأجدر بالتَّفكير العالمي ، وعنايته بصالح الإنسانيَّة وسعادتها على أساس العقائد والقيم الإسلاميَّة ، وكانوا أحقَّ أن يكونوا « عالميين » و« إنسانيين » ولكنَّها طبيعة « الفكرة القوميَّة » لا تسمح بالخروج عن دائرتها الضَّيقة ، ولا تدع مجالاً للنَّشاط ، أو الحماسة لمصلحةٍ عالميةٍ واسعةٍ .

(١) أوَّل عددٍ من مجلة « العربي » .

(لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربيَّة ، أو المبدأ العربيِّ ديانةً لهم يغارون عليها ، كما يغار المسلمون على قرآن النَّبيِّ الكريم ، والمسيحيُّون ، والكاثوليك على إنجيل المسيح الرَّحيم ، والبروتستانت على تعاليم لوثر الإصلاحيَّة ، وثَوْريُّو فرانسا في عهد الرُّعب على مبادىء روسُّو الديموقراطية ، ويتعصَّبون لها تعصُّب الصَّليبيِّين لدعوة بطرس النَّاسك »[1] .

وقد أصبح العرب المسلمون في ذلك فريسةً سهلةً لدهاء الأقليَّة غير المسلمة في الشرق العربيِّ ؛ التي يتوقَّف مصيرها على انتشار فكرة القوميَّة العربيَّة ، وحلولها محل الدِّين الإسلاميِّ ، والَّتي تستطيع أن تصل عن طريقها إلى مركز الزَّعامة ، والقيادة ، والتوجيه في العالم العربيِّ ، وتستطيع أن تفصل بها العرب عن بقيَّة العالم الإسلاميِّ ؛ الَّذي لا ترتبط به هذه الأقليَّة عقيدةً ، وعاطفةً ، وتاريخاً ، ولا يزال ميشيل عفلق (المسيحي ولادةً) مؤسِّس حزب البعث العربي ، ورئيسه فيلسوفها الأكبر في الشَّرق العربيِّ[2] .

أعتقد : أنَّ طبيعة العرب اختمرت مع الدِّين الإسلاميِّ ، وامتزجت به امتزاجاً لا يسهل فصلهم ، وتجريدهم عنه ، وبالرَّغم مِنْ أنَّه خضع لفكرة القوميَّة عددٌ كبيرٌ من الشباب المثقَّفين ، واحتضنوها ، وحملوا رايتها ؛ فإنَّ الجمهور من العرب لا يزالون شديدي الحبِّ للإسلام ، لا يعرفون ما عداه ، ولا يهتزُّون لسواه ، وهو الَّذي حملهم على أعظم التَّضحيات في الرِّيف ، وفي الجزائر ، وفي معركة السُّويس ، وأشعل فيهم الحماس ، وأكسبهم النَّصر في قضاياهم .

وإن الطَّبيعة العربيَّة الإسلاميَّة ستثور ، وتتمرَّد ، وتنفض الغبار ؛ الَّذي تراكم عليها ، والتُّراب ؛ الَّذي التصق بها ، وتنفي الطَّارىء الجديد ؛ الَّذي تطفَّل عليها ، وإنَّ الجذوة الإيمانيَّة لا تزال كامنةً تحت الرَّماد ، متهيَّأة للالتهاب ، والاتِّقاد بأدنى

---

(١) نقلاً عن كتاب « الأمة العربية في معركة تحقيق الذات » للأستاذ محمد المبارك ، هامش ص٤٠٧ .

(٢) اقرأ كتابه « في سبيل البعث » .

إثارةٍ ، وأقلِّ تحريك ، وإن الإيمان فيهم أصيلٌ عميق الجذور ، لا يستطيع أحدٌ أن يجتثها أو يقتلعها ، وإنَّهم في طريق انتفاضةٍ إيمانيَّة إسلاميَّة ، ووثبةٍ قد آن أوانُها ، وحان زمانُها .

وبهذا الأمل الوطيد ، وبهذه الثِّقة نقدِّم هذه المجموعةَ إلى إخواننا العرب .

المجمع الإسلاميُّ العلميُّ
ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

المُسْلمونَ وقَضِيَّةُ فِلسْطِين

دار ابن كثير
دمشق ـ بيروت

مقدِّمة الكتاب

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله .

أمَّا بعد : فليست النكباتُ ، والكوارثُ العظيمةُ ؛ التي تُصابُ بها الأمم والبلاد مفاجآت ، أو مجرَّد مصادفاتٍ ـ في نظر المطَّلع على سَنن الله في خلقه ، ونواميس الفطرة ، الَّتي خلقها الله ، والمتدبِّرِ للقرآن ـ الكتاب المعجز الخالد ـ والمتدبِّرِ لتاريخ الأمم ـ بل هي الحلقةُ الأخيرةُ الواضحةُ ، والنِّهايةُ الطَّبيعيةُ الحتميَّةُ لسلسلةٍ طويلةٍ من الحوادث ؛ الَّتي لم ينتبه لها في أوانها إلا القليلُ النادِرُ ، الَّذين رزقهم الله الفطنة الدَّقيقة ، والفراسة الصَّادقة ، وهم الَّذين قال عنهم : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] .

وليست هذه النَّكباتُ ، والكوارثُ إلا نتيجةَ عواملَ كثيرةٍ ؛ أكثرُها داخليةٌ نفسيَّةٌ ، كانت تتفاعل ، وتعمل عملها الطَّبيعي في حياة الأمَّة ، والمجتمع منذ زمنٍ طويلٍ ، وكان الذي قد عرف طبيعة هذه العوامل ، وقوَّةَ تأثيرها يستطيعُ أن يتكهَّن مصير هذه الأمَّة ، والمجتمع ، تحت ضغطِ هذه العوامل ، من غير نبوءةٍ ، أو كهانةٍ ، أو عبقريَّةٍ ، أو ألمعيَّةٍ ، كأنَّه يقرأ في كتاب ، أو يطالعُ في صورة ، أو يحكي قصَّةً ماضيةً ، كالَّذي عرف أوان المطر ، ورأى مقدِّماته (طلائعَه) فتنبَّأ بنزولِ المطرِ ، وقد يحدِّد له وقتاً لا يتخلَّف إلا في النَّادر ، وما ذاك إلا بمعرفته لتغيُّرات الفصولِ ، وأحكامها ، وطبيعةِ الإقليم ، وعلم الجو ، وبتجاربه الواسعة ، كما كان يفعلُ ذلك البدويُّ المحنَّكُ في بادية العرب قديماً ، والعالِمُ الفلكيُّ في المراصد الحديثة في هذا العصر .

فلم تكن كارثةُ استيلاء الصَّليبيين على القدس في القرن الخامس الهجريِّ ، ولم تكن حادثةُ استيلاءِ التَّتر ، والمغول على بغداد ، ثم على العالم الإسلاميِّ في القرن

السَّابع من فلتات الدَّهر ، أو عثرات الجُدود[1] لا أوَّل لها ، ولا آخر ؛ كصاعقةٍ تنزلُ على قوم من غير أن يسبقَها نذيرٌ ، أو كحوادثِ الحريقِ المفاجئة ؛ الَّتي تحدث في بيتٍ كبيرٍ ، أو حيٍّ من الأحياء .

بل بالعكس ، كانت هاتان الحادثتان الحلقةَ الأخيرةَ الَّتي انتهت إليها سلسلةٌ طويلةٌ من الأمراض الخُلُقيَّة ، والانحرافاتِ الطَّائشة ، والتَّصرّفاتِ الأثيمة ، والمغالطاتِ المتَّصلة ، والأوضاعِ غير الصَّالحة للبقاء في كلِّ مكانٍ ، وزمانٍ ، وفوق كلِّ ذلك حياة لا يرضاها الله ورسوله ﷺ ، ولا يوافق عليها الدِّين الصَّحيح ، والعقل السَّليم .

ومن قرأ كُتبَ التَّاريخ ، والسِّيَر ، والتراجم ، والشِّعر ، والأدب ، وما يُلقي الضَّوء على أخبار ذلك المجتمع الَّذي وقعت فيه هذه الكارثةُ ، واتجاهاته وميوله ، ككتب التَّاريخ ، التي قُيِّدت فيها أخبارُ كلِّ سنةٍ ، وحوادثها الكبيرة ، وقرأ التَّاريخ الاجتماعيَّ لبغدادَ في عصرِ سقوطها ؛ عرفَ : أنَّ زحفَ التَّتر الوحوش على بغداد ، وتخريبَهم لها لم يكن خبطَ عشواء ، إنَّما هو تقدير العزيز العليم .

وحسبك أن تقرأ ما يقوله أبو الحسن الخزرجيُّ في أهل بغداد قبل أن يستوليَ عليهم التَّتر :

« واهتمُّوا بالاقطاعات ، والمكاسب ، وأهملوا النَّظر في المصالح الكلِّيَّة ، واشتغلوا بما لا يجوزُ من الأمور الدُّنيويَّة ، واشتدَّ ظلمُ العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأمول ، والمُلك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظُّلم »[2] .

وما يقوله قطبُ الدِّين الحنفيُّ الهنديُّ المكيُّ يصفُ أهلَ بغداد في زمن المستعصم :

« . . . مرفَّهون بلين المهاد ، ساكنون على شطِّ بغداد ، في ظلٍّ ثخين ، وماءٍ

---

(١) جمع جَدّ : وهو الحظ .
(٢) العسجد المسبوك .

معين ، وفاكهةٍ وشراب ، واجتماع أحبابٍ ، وأصحابٍ ، فما كابدوا حرباً ، ولا دافعوا طعناً ، ولا ضرباً »[1] .

وكذلك من عرفَ الشَّرق العربيَّ الإسلاميَّ ؛ الَّذي يسمِّيه الأوروبيون : (الشرق الأوسط) أو (الشرق الأدنى) عن كَثَب[2] لا عن كُتبٍ ، وعاشَ فيه كأحدِ أبنائه ، وتقلَّب في عواصمه وبيئاته وطبقاته بين سنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٦٧م :

* ورأى تردُّدَ الحكومات العربيَّة في سياستها ، وضعفَ إرادتها ، وخضوعها للدُّول الأوروبيَّة الكبرى ، وارتباطها بإشاراتها .

* ورأى أخلاق الرُّؤساء ، والقادة ، ومن بيدهم الحلُّ ، والعقد ، ورأى إخلادهم إلى الرَّاحة ، وإيثارَهم للذَّة ، والمنفعة .

* ورأى بصفةٍ خاصَّةٍ في مصر ـ التي كانت تتزعم العالم العربيَّ ، وتقود الحركةَ الفكريَّةَ ، والأدبيَّةَ ، والعلميَّةَ ، والدِّينيَّةَ ـ عبثَ الأدباء ، والكتَّاب ، والموجِّهين بالأسس الدِّينية ، والقيم الخُلقية ، والاجتماعيَّة ، والمقرَّرات التَّاريخيَّة ، وتسخيرهم لطاقة الأدب ، والأقلام لتقويضِ دعائم الحياة الصَّالحة ، والأخلاق الفاضلة ، وبعث فوضى فكريةٍ لا معروفَ فيها ، ولا منكر ، ولا حقَّ فيها ، ولا باطل ، إنَّما هي انتهازيةٌ ، وأبيقوريةٌ ، وإقليميَّةٌ ، وفرعونيَّةٌ ، وعاميَّةٌ ، وفرنجيَّةٌ ، وترويجَهم لأدبٍ يسمّيه القرآن : ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] . وحملتهم المنظّمة لغرسِ الشَّكِّ ، والاضطرابِ في العقائد ، والشُّذوذِ في الأخلاق ، والميول ، والانحرافِ في الأذواق ، والطبائع ، والجبنِ في النفوس ، والقلوب ، والانفعاليَّةِ في الإرادات ، والتُّصرُّفات ، والغرامِ بالتَّسلية ، والمتعة الرَّخيصة في أدقِّ السَّاعات ، وأحلكِ الأيام .

* ورأى إحجامَ العلماءِ وقادةِ الدِّين عن قول الحق ، ونقد الباطل ، والشَّهادة بالقِسط .

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ١٨٠ الطَّبعة الأوروبية .
(٢) عن كثب : عن قرب .

ورأى خضوعهم للمُثل العليا الزَّائفة الَّتي خضع لها عُبَّادُ المِعَد ، والبطون ؛ من وجوب ارتفاع مستوى المعيشة ، وإرضاء الأهل ، والأسرة ، وتحقيق مطالبها ، ولو من غير حلٍّ .

* ورأى افتتان العامَّة ، والطَّبقات الكادحة بالملاهي ، والمعازف ، والأغاني ، وبكل ما تتمتع به الأذن ، والعين ، والخيال . والتقاء هذه الطَّبقات كلِّها ـ على اختلاف مستوياتها ، وثقافاتها ـ على حُبِّ الحياة ، وكراهية الموت ، وبُعدَها عن كلِّ مغامرةٍ ، وإقدام .

* من رأى ذلك كلَّه ، وتحقَّقه ، وعاش فيه ؛ جزم بأنَّ هذه الشعوب لا تستطيع أن تحتمل أقلَّ صدمةٍ تأتيها من الخارج ، ولا تستطيع أن تدافع عن دينها ، وشرفها ، ومقدَّساتها ، وكيانها .

وقد فاض ذلك على قلم بعض الكتّاب الَّذين رزقهم الله حظّاً من تدبُّر القرآن ، ومعرفة سنن الله ، ونواميسه ، وتجارب الأمم ، وعلى ألسنة بعض الخطباء الَّذين أنطقهم الله الذي أنطق كلَّ شيءٍ ، فتنبؤوا بالنَّتيجة المحتومة لهذه الأوضاع ، وأنذروا قومهم بدنوِّ الكارثة . ولم تكن نبوءةً ، ولا كهانةً ، ولم تكن عبقريةً ولا ألمعية فائقةً ؛ إنَّما هو استنتاجٌ سليمٌ ، وتوصُّلٌ من الأسباب إلى المسبَّبات ، ومن المبادىء والمقدِّمات إلى النَّتائج ، والغايات .

وقد كانت نكبة الخامس من حزيران ١٩٦٧م قمَّةَ ما وصل إليه هذا الفسادُ الَّذي أشرنا إليه . فتنبَّه لها كلُّ أحدٍ ، ورفعت الغشاوة عن كلِّ عينٍ ، وفزع لها العالم العربيُّ ، والعالم الإسلاميُّ فزعاً لم يفزع مثلَه لحادثٍ منذ زمنٍ طويلٍ .

وقام عددٌ كبيرٌ من الكتَّاب ، والمؤلِّفين ، والمعنيِّين بالقضايا الإسلاميَّة ، وواقع العالم الإسلاميِّ يبحثون عن أسبابها ، والعوامل الَّتي أدَّت إلى هذه النَّتيجة المشؤومة ، وسلكوا فيها طرائقَ قِدَداً(١) ، ومناهجَ مختلفةً ، وكادت تكوِّن هذه البحوثُ ، والكتاباتُ مكتبةً جديدةً يصعبُ استعراضها ، والإحاطة بها .

---

(١) قدداً : مذاهب متفرقة .

وقد سبق لمؤلِّف هذا الكتاب أنْ بحثَ في هذا الموضوع قبلَ وقوع هذه المأساة في شكلها النِّهائيِّ بعدةِ سنين ، وجرت على قلمه ، وعلى لسانه بعضُ الحقائق ؛ التي تحقَّقت فيما بعدُ ؛ لأنَّ القضيةَ لم تكن غامضةً ، ولا ملتويةً ، وإنّما كانت تحتاج إلى شيءٍ من التَّذوُّق للقرآن ، وشيءٍ من معرفة طائع الأشياء ، والاطلاع على ما يجري في هذه المنطقة الَّتي تقع عليها مسؤولية الدِّفاع عن هذه القضية .

ثم وقعت الواقعة ، فجعلها موضوع تفكيره ، وبحثه ، وكتاباته ، وقد صدرت عن قلمه ولسانه عدَّةُ مقالاتٍ ، ومحاضراتٍ ، نُشرت في وقتها ، وتداولتها الأيدي ، والتزم أن يكون كلُّ ذلك في ضوء القرآن ، والنَّواميس الإلهيَّة ، والسَّنن الأزليَّة ؛ التي بيَّنها القرآن ، وشهد بها تاريخ الأمم ، وأن يكون كلُّ ذلك تصويراً للواقع الَّذي تعيش فيه هذه الأمَّة من غير مبالغةٍ ، وصناعة ، ومن غير تفاؤلٍ ، وتشاؤمٍ ، ويضع أصابع الفكر ، والرأي على الأمراض الحقيقيَّة ، ومواضع الضَّعف ، والعلَّة الأصيلة في الشُّعوب ، والمجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة ، وعلى علاجها الحاسم .

وهي تختلف في الزَّمان ، والمكان ، وتنقسم إلى مقالٍ بالقلم ، وحديثٍ باللِّسان ، وتربط بينها وحدةٌ جامعةٌ ، وهي محاولة الاهتداء إلى الأسباب الحقيقيَّة ، والإشارة إليها ، والتَّحذير منها بصراحةٍ ، لا غموض فيها ، ولا التباس ، ولا مداهنة فيها ، ولا نفاق .

وقد بدا للمؤلِّف أن يجمع هذه المقالات ، والمحاضرات كلَّها في مجموعٍ واحدٍ ، يسمِّيه (المسلمون وقضية فلسطين) وينشره للقارىء العربيِّ الكريم ، عسى أن تكون فيه إنارةُ سبيلٍ ، أو إثارةُ جانبٍ من جوانب التفكير ، وحملٌ على استئنافِ السَّفر من جديد ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

ومعذرةٌ إلى القارىء الكريم إذا وجدَ بعضَ المعاني واللَّفتات مُعادةً مكرَّرةً في عددٍ من المحاضرات ، وقد كانت البيئات الَّتي تُلقى فيها هذه المحاضرات تختلفُ ، وتتنوّعُ ، فيقتضي المقام والزَّمان أن تتكرّر هذه المعاني ، وأن تعاد هذه اللَّفتات من جديد ، وفي ذلك تقليدٌ لأسلوبِ القرآن الكريم ، وتطبيقٌ لأساليب الدَّعوةِ ،

والإرشاد ، الَّتي جرى عليها الدُّعاة ، والخطباء من الزَّمن القديم ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] .

يوم الخميس ١٨/ ١١/ ١٣٨٨هـ

٦ / ٢/ ١٩٦٩م

أبو الحَسَن علي الحَسَني النَّدْوي

دار عرفات

دائرة الشَّيخ علم الله الحسني

رَايْ بريْلي (الهِنْد)

كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربيَّة

دار الاعتصام ـ القاهرة
المجمع الإسلاميُّ العلميُّ ، لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على أشرف النَّبيِّين وخاتم المرسلين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد : فمن المعلوم المقرَّر : أنَّ مركز الحجاز ـ الَّذي فيه الحَرَمان الشَّريفان ـ ومركز الجزيرة العربية ـ الَّتي فيها الحجاز ـ في العالم الإسلاميِّ مركزُ القلب في الجسم الإنسانيِّ ، الَّذي إذا عاش ، وقوي ، وأدَّى رسالته في الجهاز الجسميِّ والنِّظام الحيويِّ الصِّحيِّ ؛ عاش الجسم ، وقوي ، وإذا دبَّ الوهن إلى هذا القلب ، أو اعتلَّ ، وتخلَّى عن وظيفته ، ودوره ، أسرع إليه الموت . واستولت عليه الأمراض ، والعِلَل ، وعجز الأطباء الحاذقون عن إعادة الحياة إليه بالطُّرق الصِّناعيَّة ، وقد أشار إلى هذه الصِّلة الدَّقيقة العميقة بين القلب ، والجسد الحديث الصَّحيح ، المشهور ؛ الذي جاء فيه : « ألا إنَّ في الجسد مضغةً ، إذا صلحت ؛ صلُح الجسد كلُّه وإذا فسدت ؛ فسدَ الجسد كلُّه ، ألا وهي القَلب »[1] .

وذلك لأنَّ الحجاز مهبط الوحي ، ومبعث الإسلام ، ومصدر الدَّعوة الإسلاميَّة ، ومركز الإسلام الدَّائم ، وعاصمته الخالدة ، وهو البلد المثاليُّ ، والمقياس الصَّحيح الدَّائم للحياة الإسلاميَّة ، وتعاليم الإسلام العالميَّة ، وصلاحيَّتها للبقاء ، والتَّطبيق ، وظهور المجتمع الإسلاميِّ في حيويَّته ، وأصالته ، وجماله ، وقوَّته ، فالرِّسالة الإسلاميَّة مهما كانت عالميَّةً آفاقيَّةً لا بدَّ لها من مركزٍ يعتبر

---

(١) جزءٌ من حديث رواه البخاريُّ (٢٠٥١) ، ومسلم (١٥٩٩) (١٠٧) .

مقياساً ، وميزاناً لعمليّتها ، وواقعيّتها ، وأسوةً ، وقدوةً لجميع المدن ، والقرى ، والمجتمعات التي تؤمن بهذه الرِّسالة ، وتحتضن هذه العقيدة ، والدَّعوة .

والإنسان مفطورٌ على البحث عن المقياس الصَّحيح ، والبلد المثاليِّ ، والموئل الَّذي يأوي إليه ، والمصدر الَّذي يستمدُّ منه القوَّة ، والثِّقة ، والحماسة ، والاندفاع ، سواءٌ في الأديان ، والشَّرائع ، والنُّظم ، والفلسفات ، والحضارات ، والمدنيّات ، والآداب ، والعادات ، واللُّغات ، واللَّهجات ، والأناقة ، والثَّقافة ، وسلامة الذَّوق، ورقَّة الشُّعور ، فكان لكلِّ دينٍ مركزٌ يُحتجُّ بعمله ، وأعرافه . وكان لكلِّ حضارةٍ بلدٌ مثاليٌّ، أو عاصمةٌ ، أو قاعدةٌ يُستدلُّ بأساليب الحياة فيها ، والأنماط المدنيَّة ، والمثل الاجتماعيَّة في نواحيها . ولكلِّ لغةٍ، وأدبٍ مركزٍ يُستند إليه في معرفة الصَّحيح الفصيح من التَّعبير ، والبيان ، ومناهج اللُّغة ، والكلام ، والحكم على المفردات ، واللُّغات بالصَّحة ، والخطأ . ولكلِّ عصرٍ ، وإقليم بلدٌ مثاليٌّ يتظَّرفه الناس ، ويتنبَّلون بتقليد عاداته، وتقاليده، واتخاذه مثله، وقيمه أمثلةً كاملةً للحياة الرَّاقية، والأخلاق الفاضلة .

وقد عقد الله بين العرب ، والإسلام . ثمَّ بين الحجاز والأمَّة الإسلاميَّة ، ثمَّ بين الحرمين الشَّريفين وقلوب المسلمين للأبد ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وقد حرَص رسولُ الله ﷺ ـ وكان في ذلك نبيّاً ملهماً ، وحكيماً كلَّ الحكمة ـ على بقاءِ هذا الرِّباط الوثيق المقدَّس بين جزيرة العرب ، والإسلام ، فضلاً عن الحجاز ، والحرمين الشَّريفين ، وحرَص على سلامة هذا المركز ، وهدوئه ، وشدَّة تمسُّكه بهذا الدِّين ، وعضِّه عليه بالنَّواجذ ؛ لأنَّ العاصمة يجب أن تكون بعيدةً عن كلِّ تشويشٍ وعن كلِّ فوضى ، وعن كلِّ صراعٍ عقائديٍّ ، أو مبدئيٍّ ، فشرع لذلك أحكاماً بعيدة النَّتائج ، واسعة المدى ، وأوصى لذلك وصايا دقيقةً ، حكيمةً ، وأخذ لذلك من أصحابه وأمَّته عهوداً ، ومواثيق ، وقد ذكرت عائشةُ أمُّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ فقالت : « كان آخر ما عهد رسولُ الله ﷺ أن قال : « لايترك بجزيرة العرب دينان »[1] . وعن رافعٍ : « أنَّ النَّبيَّ ﷺ أ مر ألا ندع في المدينة ديناً

---

(١) رواه أحمد في المسند ، والطَّبرانيُّ في الأوسط .

غير الإسلام إلا أخرج »[1] . وعن جابر بن عبد الله يقول : أخبرني عمر بن الخطَّاب : أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجنَّ اليهود ، والنَّصارى من جزيرة العرب ؛ حتَّى لا أدع فيهم إلا مسلماً »[2] .

وأخذ بذلك الخلفاء الرَّاشدون المهديُّون ، فكانوا ينظرون دائماً إلى جزيرة العرب مَهْداً للإسلام ، ورأس مال الدَّعوة الإسلاميَّة ، وقد جاء في وصيَّة أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ لخليفته (أوصيه با ـ عراب خيراً ؛ فإنَّهم أصل العرب ومادَّة الإسلام)[3] .

وقد حمل كثيراً من علماء بلاد العجم ، وأئمَّتها ممَّن وُلدوا ، ونشؤوا في هذه الدِّيار نظرُهم إلى العرب كالرَّائد الأوَّل للإسلام والواعي الأمين لروحه ، وجوهره ، وإلى اللُّغة العربيَّة كاللُّغة التي نزل بها القرآن ، ونطق بها الرَّسول ﷺ ، ولا يمكن التضلع من الثَّقافة الإسلاميَّة ، وفهم القرآن فهماً عميقاً دقيقاً إلا بمعرفتها والرُّسوخ فيها ، حملهم كلُّ ذلك على أن يتعرَّبوا في كثيرٍ من عاداتهم ، وشاراتهم ، ويحافظوا على اللُّغة العربيَّة ، وآدابها ، ويتواصوا بذلك ، ويجعلوها كلمةً باقيةً في أعقابهم ، ويحذروا من تقليد العجم ، والتخلُّق بأخلاقهم ، وما ذاك إلا للحبِّ العميق الرَّاسخ للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه ، ولأنَّه ظهر في العرب ، وارتضى الله لهذا الدِّين المظهر الإبراهيميَّ العربيَّ في الأخلاق ، والآداب ، والميول .

وقد جاء في وصيَّة أحد كبار أئمَّة الإسلام في بلاد العجم ما يدلُّ على ذلك دلالةً واضحةً ، قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرَّحيم الدِّهلويُّ (المتوفى سنة ١١٧٦هـ) في رسالته التي أسماها « المقالة الوضيَّة في النَّصيحة ، والوصيَّة » :

(نحن رجالٌ غرباءُ هاجر آباؤنا إلى الهند ، وإنَّ عربيَّة النسب وعربيَّة اللِّسان مفخرتان لنا ، وهي الَّتي تقرِّبنا إلى سيد الأوَّلين ، والآخرين وأفضل الأنبياء ، والمرسلين ومفخرة الوجود ﷺ ، ومِنْ شُكْرِ هذه النِّعمة العظمى ألا نتخلَّى بقدر

---

(١) رواه الطبرانيُّ .

(٢) رواه أحمد ، ومسلمٌ ، والترمذيُّ ، وصححه .

(٣) الجامع الصحيح للبخاريّ ، كتاب المناقب .

الامكان عن عادات العرب الأوّلين ؛ وتقاليدهم ، الّذين نشأ فيهم رسولُ الله ﷺ ، ولا نسمح لتقاليد العجم وعادات الهنادك أن تنتشر بيننا) .

ثمَّ قال :

(السّعيد منّا مَنْ حصلت له مشاركةٌ في لسان العرب ، والصّرف ، والنّحو ، وكتب الأدب ، واطّلع على الحديث ، والقرآن ، ولا بدَّ لنا من حضور الحرمين الشّريفين ، وتعلُّق القلب بهما ، وفي ذلك سرُّ سعادتنا ، والشّقيُّ من أعرض عنهما)[1] .

والّذين أدركوا هذه الحقيقة من علماء الإسلام ، وقادة الفكر في العالم الإسلاميِّ رأوا : أنَّ ارتباط الأقطار الإسلاميّة المترامية الأطراف ، واتّصال الجاليات الإسلاميّة ، والشُّعوب المسلمة بجزيرة العرب بصفةٍ عامَّةٍ ، والحجاز ، والحرمين الشّريفين بصفةٍ خاصّةٍ ضروريٌّ ، وأنَّ ارتباطها بهذا المركز ارتباط السّواقي ، والتُّرع بالنّهر الكبير الفيّاض ، وارتباط الأوراق بالشّجرة الخضراء ، إذا انقطع كلٌّ من ذلك عن أصله ، ومركزه ؛ انقطع عنه المدد ، وتوقّف تيار الحياة ؛ الّذي يسري إليه من هذا الأصل ، وأسرع إليه الجفاف ، والذُّبول ، وخافوا إذا حدث ذلك أن تغيب القوّة التي تربط بين الوحدات الإسلاميّة عقائدياً ، وعقلياً ، وحضارياً ، وينشأ إسلامٌ إقليميٌّ : فينشأ إسلامٌ إيرانيٌّ ، وإسلام تركيٌّ ، وإسلام هنديٌّ ، وإسلام أفغانيٌّ ، وإسلامٌ أوربيٌّ ، وإسلام أمريكيٌّ ، ويظهر في جانبٍ من جوانب العالم الإسلامي الواسع تحريفٌ دينيٌّ ، أو مسخٌ للإسلام ، أو تنجح مؤامرةٌ يحوكها رجلٌ ذكيٌّ من أعداء الإسلام ، فلا يمكن مقاومتها ، والتغلُّب عليها ، وكان ذلك من حِكَم مشروعيّة الحجِّ ، وأسراره ، لأنّه استعراضٌ عالميٌّ للأمم الإسلاميَّة ، وطبقات الأمَّة المسلمة على صعيدٍ واحدٍ ، ووقتٍ واحدٍ في رحاب البيت الحرام الّذي جعله الله ملتقى المسلمين ، وقياماً للنّاس[2] .

---

(١) « المقالة الوضيّة في النّصيحة والوصيّة » بالفارسيّة طبع دهلي ١٢٦٧هـ .

(٢) راجع باب أسرار الحج في « حجّة الله البالغة ، للشّيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدّهلوي .

ولمّا كانت الجزيرة ، والحجاز معقلَ الإسلام ، ومبدأه ، ومنتهاه ، والموئل الّذي يأوي إليه الإسلام والمسلمون في ساعاتٍ عصيبةٍ ، وأزماتٍ مختلفةٍ ، وفي آخر الزّمان ، وقد جاء في بعض الأحاديث ما يدلُّ على ذلك :

فعنْ عمرو بن عوف ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الدِّين ليأرز إلى الحجاز ، كما تأرِزُ الحيَّة إلى جُحرها ، وليَعْقِلنَّ الدِّين مِن الحجاز مَعْقِل الأرْوِيَّةِ مِنْ رأس الجبل »[1] .

وعن ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ : قال : « إنَّ الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين ، كما تأرز الحيَّة إلى جحرها »[2] .

وعن أبي هريرة : أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحيَّة إلى جحرها »[3] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرِز الحيَّة إلى جحرها »[4] .

ولمَّا كانت هذه الجزيرة ، وهذه البقاع المقدَّسة مصدر الإشعاع العالميِّ الإسلاميِّ ، ومقياس قوَّة الإسلام وسلطانه ؛ كان علماء المسلمين ، وقادتهم في كلِّ زمنٍ ، وبلدٍ شديدي الحساسية لِمَا يقع فيها من حوادث ، ولما يجري فيها من تيَّارات ، دقيقي الحساب لمدى تمسكها بالتَّعاليم والآداب الإسلاميَّة ومحافظتها على الرُّوح الدِّينيَّة ، والعاطفة الإسلاميَّة ، كبيري الغيرة عليها ، وعلى قيادتها للعالم الإسلاميِّ ، وقد تجلَّى ذلك في كتابات علماء الإسلام وأدبهم ، وشعرهم في أزمنةٍ

---

(١) رواه الترمذيُّ (٢٦٣٢) ، والأرْوِيَّةُ : أنثى الوعل ، والضأن الجبليُّ .
(٢) صحيح مسلم ج ١ ، ص٨٤ ، كتاب الإيمان ، بيان : « إنَّ الإسلام بدأ غريباً . . إلخ . رقم (١٤٦) (٢٣٢) و(١٤٧) (٢٣٣) .
(٣) صحيح مسلم ج ١ ، ص٨٤ ، كتاب الإيمان ، بيان : « إنَّ الإسلام بدأ غريباً . . إلخ . رقم (١٤٦) (٢٣٢) و(١٤٧) (٢٣٣) .
(٤) صحيح البخاري ، ج١ ، ص٢٥٢ ، رقم (١٨٧٦) .

مختلفةٍ ، وقد سار قول أشهر شعراء « إيران » وأدبائها : الشَّيخ مصلح الدِّين « سعدي » الشِّيرازي (المتوفَّى ٦٩١هـ) مسير المثل : (إذا بدأت طلائع الفساد والانحراف مِنْ فِناء الكعبة ، ورحاب البيت الحرام ؛ فعلى الإسلام والمسلمين السَّلام) . وقد فزع الشاعر الفارسيُّ المسمَّى بأبي المجد مجدودِ الغزنويِّ المعروف بالحكيم السنائي (المتوفَّى ٥٤٦هـ) لحوادث جرت في عصره ، ولتسرب نفوذ بعض القوى المعادية للإسلام إلى جزيرة العرب ، وإلى البقاع المقدَّسة ، ومركز الإسلام ، فأشار إلى ذلك في قصيدةٍ له ، وحسب له كلَّ حسابٍ ، وحذَّر العالم الإسلاميَّ من سوء عاقبته ، وأثار غيرة أهل الحجاز وأبناء الجزيرة(١) .

واعتبر المسلمون في كلِّ بلدٍ مهما تباعد عن مركز الإسلام ، وتشاغل بحوادثه ، وقضاياه صيانة هذا المركز عن نفوذ أعداء الإسلام ، والقوى المعادية له أقدس واجباتهم ، وأعظم مسؤوليَّاتهم ، وفضَّلوها على كلِّ قضيَّةٍ وطنيَّةٍ ، ومصلحةٍ إقليميَّةٍ ، أو شعبيَّةٍ ، وقد كان لمسلمي الهند دورٌ رائعٌ في هذه الغيرة ، والحماس ، والتَّفاني للجزيرة ، والحرمين الشَّريفين ، والاهتمام بقضاياهما ، وسير الحوادث فيهما ، وقد عارضوا تدخُّل الإنجليز ، والحكومة البريطانيَّة في شؤون هذه الجزيرة ، وفي الحرمين الشَّريفين معارضةً شديدةً عرَّضتهم لسخط الحكومة الإنجليزيَّة في الهند ، وتهديداتها ، وأثارت حيرة مواطنيهم الهنادك ، واستغرابهم ، وتهكُّمهم في بعض الأحيان ، فلم يبالوا بكلِّ ذلك ، وشكَّلوا جمعياتٍ للدِّفاع عن الحرمين الشَّريفين ، وجزيرة العرب ، وحرِّيَّتها ، وسلامتها ، ولا يزال بيت شاعر الإسلام الدُّكتور محمد إقبال يدور على الألسنة ، والأقلام ، معناه :

(يجب أن يكون المسلمون صفّاً واحداً لحراسة الحرم من شاطىء النِّيل إلى أرض كاشغر) .

---

(١) راجع ديوان شعره ، وقد اقتبس منه شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال شطر بيت في القصيدة التي قالها على قبر السنائي في « غزني » وهو قوله : « كرفته جينيان أحرام ومكي خفته دربطحا » .

بالعكس من ذلك كان الغربيُّون ـ وفي مقدمتهم القسوس ، والمستشرقون ـ شديدي التَّخوُّف من ارتباط قلوب المسلمين في العالم بهذا المركز الإسلاميِّ العالميِّ ، والتفاف المسلمين حوله ، واهتمامهم بقضاياه ، وشؤونه ، شديدي الكراهة له . وتحذير الحكومات الغربيَّة له جاء في تقرير مؤتمر مبشري البلاد الإسلاميَّة من البروتستانت الثَّاني العام في مدينة لكهنؤ ، الهند في يناير سنة ١٩١١م ما يلي :

(وتكلَّم بعده (يعني : بعد القسَّيس ورتز) سيمون عن حركة الجامعة الإسلاميَّة في ماليزيا ، فقال : « يزعم بعضهم : أنَّ الإسلام في الهند تنقصه الحياة ، وأنَّه غير مرتَّبٍ ، وأنَّه صبيانيٌّ ، ولكن يجب علينا ألا ننسى ارتباط الإسلام في الهند بمكَّة ، وهذا الارتباط يدعو سكان جزائر ماليزيا إلى الاعتقاد بأنَّهم جزء من مجموع كبير . . .)(١) .

وقد تكلَّم في هذا المؤتمر القسيس ورتز عن الجامعة الإسلاميَّة في أفريقيا ، فقال : (إنَّ مدينة مكَّة ، والطرق الصُّوفيَّة هما من أكبر العوامل على بث شعور الوحدة بين المسلمين ، والنَّفرة من كلِّ شيءٍ غير إسلاميٍّ)(٢) .

وجاءت في تقرير هذا المؤتمر الَّذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦م كلمة وليم جيفورد بالكراف ، ما نصُّها : (متى توارى القرآن ، والمدينة ، ومكَّة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربيَّ يتدرَّج في سبيل الحضارة ؛ الَّتي لم يبعده عنها إلا محمَّدٌ ، وكتابه)(٣) .

وعدل هؤلاء المبشِّرون ، والقسوس ، والمستشرقون ـ ومن كان على رأسهم من قادة الفكر ، وولاة الأمور في الغرب ـ بعد تجارب مريرة دلَّت على شدَّة حساسية

---

(١) راجع « الغارة على العالم الإسلامي » تأليف ا .ل . شاتليه ، تلخيص ، وترجمه مساعد اليامي ، ومحبِّ الدِّين الخطيب ص ١٠٥ .
(٢) نفس المصدر ص ١٠٢ .
(٣) أيضاً ص٥٥٠ .

المسلمين للاستيلاء المباشر على المركز الإسلاميِّ ، والحجاز ، والحرمين ، والسَّيطرة عليه سياسياً ، وإدارياً عن فكرة الحكم المباشر ، والتدخُّل السَّافر الواضح في شؤون هذه البلاد إلى محاولة بث النُّفوذ الفكري ، والثَّقافي ، والعلميِّ ، والأدبيِّ ، والحضاريِّ : في الجزيرة والبلاد المقدَّسة ، وذلك عن طريق منظمة يونسكو ، والأخصَّائيين في العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والاجتماع ، والأساتذة ، والمعلِّمين ، والخبراء الفنِّيين ، وعن طريق المؤتمرات الثَّقافية ، والنَّدوات العلميَّة ، وعن طريق البعثات الطُّلابية ؛ الَّتي تؤمُّ الغرب ، وتتلمذ على أساتذة الجامعات الأوربيَّة ، والأمريكيَّة ، وتنهل من مناهل الثَّقافة الغربيَّة ، وعن طريق التَّخطيط المدنيِّ ، والتَّعليميِّ ؛ الَّذي يجري تحت إشرافهم ، أو بتوجيههم ، فكان ذلك أخفى من دبيب النَّمل ، ولم يبلغ المسلمون ـ مع الأسف ـ من الوعي ، واليقظة ، والفطنة ما ينبِّههم على دقَّة هذه السِّياسة ، وخطرها ، فلم يحرِّك ذلك ساكناً في المسلمين ، ولم يُثِرْ فيهم انتباهاً ، أو اهتماماً ، وكان له تأثيرٌ بعيدُ المدى ، عميقُ الجذور في الحياة ، والمجتمع .

والمسلمون في مشارق الأرض ، ومغاربها يعتبرون الجزيرة العربيَّة كلَّها حلقةً واحدةً وامتداداً لرسالةٍ واحدةٍ ، ولدعوةٍ واحدةٍ ، ولمائدةٍ واحدةٍ ـ إذا صحَّ التعبير ـ فلا يشعرون ، وهم في بقعةٍ من بقاعها بأنَّهم في حاشية من حواشي هذه الجزيرة بعيدةٍ عن قلبها ، وعن مركزها ، بل يشعرون بأنَّهم واقفون في ظلِّ الكعبة ، وفي رحاب البيت العتيق ، فهذه الجزيرة كلُّها في تاريخها الجديد الَّذي يبتدىء من ظهور الإسلام ، وحياتها ، ونهضتها الحقيقيَّة تدين لمكَّة وبالأصحِّ لابن مكة الخالد الَّذي حمل الأمانة المقدَّسة ، وأوثر بالرِّسالة الأخيرة : محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشيِّ ﷺ ، وكان كثيرٌ من السَّلف إذا وقع بصرهم على أوَّل قطعةٍ من هذه الجزيرة ، وهم في طريقهم إلى مكَّة ـ وكان الزَّمن زمن السُّفن الشِّراعية ـ ولو كانت قطعةً قاحلةً ليس فيها ما يستهوي القلوب ، ويفتن العيون ؛ خرُّوا لله سجَّداً يحمدون الله تبارك وتعالى على أنَّه فسح في حياتهم حتَّى نالوا هذه السَّعادة ، وأقرُّوا عيونهم برؤية بلاد العرب ، وقد كانوا يعتبرون هذه القطعة الأرضيَّة قطعةً من قلوبهم[1] .

---

(١) مقتبس من محاضرة للمؤلف ألقاها في مسجد عليِّ بن أبي طالب في الشارقة في ٥ من محرَّم=

وبصرف النَّظر عن هذه الصِّلة العاطفية الإيمانيَّة بين المسلم وبين جزيرة العرب ، فإنَّ جزيرة العرب هي السُّور المنيع الحافظ حول الحرمين الشَّريفين ، وحول الحجاز ، فلابدَّ أن يكون بعيداً عن التدخُّل الأجنبي ، وعن وجود العناصر ـ سواءٌ كانت جسديَّةً ، أو معنويَّةً ـ الَّتي تهدِّد وحدة هذه الجزيرة الدِّينية ، لذلك كانت الوصيَّة النَّبويَّة بحماية الجزيرة عن اختلاف الدِّيانات ، والملل غير مقصورةٍ على الحجاز ، بل كاملةً شاملةً للجزيرة ، كما مرَّ سابقاً .

فَسَدَتِ الأوضاعُ في أوائل هذا القرن (الميلاديِّ) واختلَّت الأمور في مركز الإسلام ، وفي الحجاز ، والحرمين ، وخضعت هذه البلاد المقدَّسة للنفوذ الأجنبي ـ الإنجليزيِّ بالتَّحديد ـ في حكومة الأشراف ، واضطرب الأمن ، وأطبق الجهل ، وضعفت العقيدة ، وشاع كثير من العادات الجاهليَّة ، وعمَّ الفقر ، وانتشرت الفوضى ، وصعبت ممارسة فريضة الحجِّ ، وشعائره ، وأركانه لاختلال الأمن ، ووعورة الطُّرق ، وقلَّة الماء ، والغارة على قوافل الحجَّاج[1] ، وصعوبة وصول الميرة ، والزَّاد ، وعجزت الحكومة ، وضعفت الإدارة ، حتَّى كان الحجَّاج يشعرون ـ إذا خرجوا من بلادهم للحجِّ ـ بأنَّهم يخوضون معركةً حربيَّةً ، فيوصون أولادهم بما يهمهم كما يوصي الخارج إلى ساحة القتال ، وقد نشأ الجيل الجديد في هذه البلاد على الجهل ، والفقر ، والانقطاع عن العالم ، والتَّضايق من الحياة .

فكان مِنْ خفيِّ تدبير الله تعالى ، ودقيق صنعه أن قيَّض آل سعود لإصلاح الأوضاع ، وإقامة الأمن ، وإنشاء الطُّرق ، وترفيه البلاد ، وتعليم الأولاد ، وإقامة حكومةٍ قويَّةٍ ، وإدارةٍ حازمةٍ ، ساهرةٍ ، وتأمين الطُّرق وحراسة الحجَّاج القاصدين لبيت الله ، المقيمين في ضيافة الله ، وإجراء العيون الدَّافقة بالماء ، وتعميمها ، واستخدام الوسائل الحديثة والمستحدثات الصِّناعية لتذليل العقبات وتسهيل الحياة ،

= سنة ١٣٩٥هـ نظَّمتها وزارة الأوقاف في الشَّارقة ، وطبعت في رسالة مفردةٍ بعنوان : « خليج بين الإسلام والمسلمين » .

(١) تحقيق عند المؤلف : أن الإنجليز كانوا يوزعون السِّلاح ، ويهربونه إلى الحجاز ليشوِّهوا سمعة الحكم التركي ، ويبرهنوا على فساده وعجزه عن إقامة الأمن في البلاد المقدَّسة .

وتوفير المواد الغذائيَّة إلى حدٍّ لم يخطر بالبال ، ولم يصوِّره الخيال قبل عقود من السِّنين ، وكان هذا البيت السُّعودي قد قام على الدَّعوة إلى التَّوحيد ، ومحاربة الشِّرك ، والإصلاح الدِّيني ، والخلقي ، والاجتماعي ، ونادى به ، ورفع شعاره وضحَّى في سبيله ، وجازف بحياته ، وشرفه .

فتوجَّه المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود سنة ١٣٤٢هـ (١٩٢٥م) إلى الحجاز منظِّماً ، وإدارياً ، ومؤسِّساً لحكومة كبيرةٍ ، وملَكَ الحجاز ، وضبط الأمور ، وأقام الأمن ، وأمَّن الطرق ، وقضى على البدو الوحوش المفترسين للحجَّاج الآمنين الوادعين ، وأخذ على يد الظَّالم ، ونفَّذ الحدود الشَّرعيَّة ، وأخرج للنَّاس نموذجاً من البساطة ، والمساواة ، والتقشُّف في الحياة ، وأتى بأعمالٍ جليلةٍ تجلَّت فيها عبقريتُه وعصاميَّته كحاكمٍ ، وإداريٍّ ، وأعْجِبَ بها كلُّ مَنْ رُزِق الإنصاف ، واعترف بها كبارُ المفكِّرين والمؤلِّفين من الشَّرقيِّين ، والغربيِّين .

وكانت بارقة أمل انتعشت بها قلوب المسلمين في العالم الإسلاميِّ بصفةٍ عامَّةٍ ، وقلوب المسلمين في الهند بصفةٍ خاصَّةٍ ـ الَّذين كان همُّ الحجاز الشُّغل الشَّاغل والمقيم المقعد لهم ـ فحمدوا الله على ذلك ، ورحَّبوا بهذا التطوُّر في شؤون الحجاز في حماسٍ ، ونشوةٍ .

وكان في مقدمة هؤلاء المستبشرين من يلتقي مع الحكم الحديث في الحجاز على عقيدة التَّوحيد النَّقيِّ الخالص ، ونَبْذِ الشِّرْكِ ، والبدع ، وتطهير الدِّين ممَّا التصق به من الجهل ، والخرافة ، والعادات الجاهليَّة ، وقد نشأ كاتبُ هذه السُّطور في هذه البيئة الدِّينيَّة ، وعاش هذه الفترة الزَّمنيَّة الَّتي كان الحكم السُّعوديُّ فيها في الحجاز حديث النَّوادي ، والمحافل ، ولا يزال يذكر السُّرور الذي كان يغمر قلوب المسلمين في ذلك الوقت ، والآمال الكبيرة البعيدة الَّتي كانوا يعقدونها بهذا التطوُّر الجديد الَّذي حدث في الجزيرة ، وفي الحجاز ، وكان لهم كلُّ حقٍّ في ذلك ، فقد قامت في الحجاز حكومةٌ اقترن تاريخها بتاريخ الدَّعوة ، والجهاد والتَّضحية ، والتقشُّف في الحياة وبتاريخ الدَّعوة التي بدأها المصلح الكبير الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب ، رحمة الله عليه ؛ الَّتي كان لها الفضل في إيجاد الحماس الدِّينيِّ ،

الَّذي كان دائماً أمضى سلاحٍ ، وأقوى عاملٍ في الحروب ، والغزوات ، وإنشاء الدول ، والحكومات ، ورافقها تأييد آل الشيخ العلماء الأجلاء في كلِّ مرحلةٍ من مراحل تاريخها ، وقامت على أكتاف الدُّعاة المجاهدين ، وعلى أشلاء الشُّهداء المغامرين .

كلُّ ذلك حمل كثيراً من المخلصين المحبِّين للبقاع المقدَّسة على أن يدعو لهذه الحكومة بالتَّوفيق ، والتَّأييد ، ويبذلوا لها أفضل ما عندهم من نصحٍ ، وإخلاصٍ ، وعلمٍ ، وتجربةٍ ، وطاقةٍ ، ومقدرةٍ ، فقد واجهت هذه الحكومة الوليدة التي خرجت من قلب الصَّحراء إلى بلدٍ هو مُلتقى العالم الإسلاميِّ ومحطُّ أنظار العالمين : الشَّرقيِّ والغربيِّ ، وكانت تواجه تجربةً من أدقِّ التَّجارب في الحكم ، والإدارة ، والاجتماع ، والحضارة ، وكانت في مرحلةٍ انتقاليَّةٍ ، من أدقِّ مراحل الانتقال في تاريخ الحكومات ، والحضارات ؛ فضلاً عن تاريخ الأسر ، والبيوتات : تجربة التَّغلب على المشاكل السِّياسيَّة ، والإدارية ، والاقتصاديَّة ، والاتصال بالحكومات المجاورة المختلفة في سياستها ، واتجاهاتها ، تجربة الاقتباس من الحضارة الغربيَّة ، والعلم الحديث ، والجمع بين روح الدِّين وجوهره ، والخصائص الإسلاميَّة العربيَّة ، والبساطة التي عرف بها العرب ، وبين روح العصر ، ومقتضياته .

وكان يتوقَّف على نجاح هذه التَّجربة نجاح العمليَّة الإسلاميَّة في الحكم ، ومواجهة هذه الحضارة ، وسلامة هذه البلاد المقدَّسة ، ومحافظتها على شخصيتها الفريدة ، فكانت في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى مفكِّرين إسلاميِّين يجمعون بين الإخلاص لهذه البلاد ، وبين حصافة الرأي ، وعمق الفكر ، والتَّجرُّد من الأغراض ، والفوائد الشَّخصيَّة ، أو الوطنية ، أو الإقليميَّة ، وقد قام بعض كبار القادة ، والفضلاء ، والمصلحين ، والمؤلِّفين ، بتأدية هذه الرِّسالة في أساليبهم ، ومناهجهم الخاصَّة ، يستحقُّون عليها الجزاء من الله ، والشُّكر من كلِّ من يهمُّه أمر الإسلام ، والمسلمين في هذا العصر ، ولكنَّه حقٌّ على كلِّ مسلم ربط الله مصيره بالإسلام ، وربط مصير الإسلام بهذه البلاد المقدَّسة ، وقد جاء في الحديث الصَّحيح عن أبي رقية تميم بن

أوس الدَّاريّ ـ رضي الله عنه ـ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « الدِّين النَّصيحة » . قلنا : لمن ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم »[١] .

إنَّ هذا الحقَّ يحمل كاتب هذه السُّطور على أن ينشر ما وفَّقه الله له من كتابة رسائل إلى ملوك هذه الأسرة الكريمة العظيمة الَّتي لها حقٌّ ، وفضلٌ على كلِّ مسلمٍ يحبُّ الله ، ورسوله ، ويحبُّ هذه البلاد المقدَّسة ، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم خادم الحرمين الشَّريفين ، رائد التَّضامن الإسلاميِّ ، الملك الشَّهيد المغفور له جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ، عليه رحمة الله ، وأصحاب السُّمو الملكيِّ أمراء هذا البيت ، وأصحاب المعالي ، وزراء هذه المملكة العزيزة ، وكبار المسؤولين ، وقادة الرَّأي في البلاد العربيَّة السُّعودية ، وما ألقاه من محاضرات في مناسباتٍ مختلفةٍ ، من مؤتمراتٍ ، وندواتٍ ، ولجانٍ قياماً ببعض الواجبات ، وتسجيلاً لهذه الانطباعات والملاحظات ؛ الَّتي لولا نشرها في هذا الكتاب المفرد ؛ لبقيت مطمورةً في الصُّحف ، والأوراق ، وذهبت أدراج الرِّياح ، ولعلَّها بهذا الطَّريق تجدِّد الذِّكرى ، وتثير الاهتمام ، وتلفت النَّظر من جديدٍ ، وتدلُّ على مدى ما تتمتَّع به هذه البلاد من حرية إبداء الرَّأي ، وتقبُّل ما يأتي من مخلصٍ ، لا يبتغي به غير وجه الله بقبولٍ حسنٍ ، وصدرٍ رَحْبٍ .

وقد وُفِّق كاتب هذه السطور لكتابة رسائل إلى عددٍ من أمراء جزيرة العرب أيضاً في الخليج ، والكويت ، ولفت نظرهم إلى ضرورة التَّمسُّك بحبل الإسلام ، والتَّشبُّث بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ الَّذي أعز الله به العرب ، ومنح ما منح من دينٍ ، ودنيا ، وسعادةٍ ، وكرامةٍ وأن يكون دورهم في الانتفاع بالوسائل الحديثة ، والثَّروات النَّابعة من أرضهم دور الأصالة والتَّجديد ، لا دور التطفُّل ، والتَّقليد ، وضرورة صيانة أطراف هذه الجزيرة وما يلونه من بلادٍ ، وما يحكمونه من إماراتٍ ، وحكوماتٍ عن النُّفوذ الأجنبيِّ ، وعن وجود المعابد لغير المسلمين في ربوعها ، وعن تفاقم شأن الجاليات غير الإسلاميَّة ، فإنَّه سيُحدث مشكلاتٍ طريفةً معقدةً ، لا يجدون لها حلاً ، فكتب إلى بعض أمراء الخليج ، وأمير دولة الكويت ، وضاعت أصول أكثر هذه

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ، رقم (٥٥) (٩٥) كتاب الإيمان .

الكتب إلا كتاباً كتبه إلى صاحب السُموِّ الشَّيخ عبد الله السالم الصَّباح أمير دولة الكويت سابقاً حين كُتِبَتْ له زيارة هذا القطر لأوَّل مرَّةٍ في شعبان سنة ١٣٨١هـ ، ورأى إلحاق هذا الكتاب التَّاريخيِّ إلى هذه المجموعة الَّتي تحتوي على الرَّسائل الموجهة إلى ملوك المملكة العربيَّة السُّعودية وأمرائها ، ووزرائها ، إكمالاً للغرض ، وإتماماً للفائدة .

ونختم الكتاب بحديثٍ أذيع من دار الإذاعة السُّعودية بمكَّة المكرَّمة سنة ١٩٥٠م ـ ١٣٧٠هـ بعنوان : « من العالم إلى جزيرة العرب » . فقد تلخَّص فيه شعورُ المسلمين في العالم عن مركز هذه الجزيرة ، ورسالتها ، ومسؤوليتها .

ولا بدَّ من الاعتراف هنا ، والتَّسجيل لوجه الحقِّ ، والتاريخ ، والأمانة : أنَّ كاتب هذه السُّطور لقي في كلِّ هذه المراسلات ، والأحاديث الشَّفاهية كرمَ أخلاقٍ ، ورحابة صَدْرٍ ، وسعة أناةٍ وصبرٍ ، وبشراً يفيض على الوجه ، ويغمر المتحدِّث ، ويشجِّعه على الصَّراحة ، والاسترسال في الحديث ، وقد كان جلالة الملك فيصل الشَّهيد قدبلغ الغاية في ذلك ، وقد أطلق العنان ـ بما فطره الله عليه من أخلاقٍ إسلاميَّةٍ ، وسجايا عربيَّةٍ ، وخصائص قياديَّةٍ ـ لهذا الكاتب في الكتابة ، والحديث يفضي بما في صدره من غير تهيُّبٍ ، أو تلكؤٍ ، ومنح له الحرِّيَّة التي لا تتصوَّر فوقها حرِّيَّة . ونُحلِّي جيد هذا الكتاب بكتابٍ من جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ردّاً على الكتاب الَّذي كتب في ١٥/ ١٢/ ١٣٨٤هـ . وجاء في هذه المجموعة تزييناً لهذا الكتاب ، ولأنَّه يُعرب عن وجهة نظره ـ رحمه الله ـ وعهده وميثاقه مع الله ، جزاه الله عن الإسلام ، والمسلمين أفضل الجزاء ، وطيَّب مثواه .

وبهذا الشُّعور من الامتنان ، وبهذا الفيض من الاعتراف ، وبهذا النُّور من الأمل ، والرَّجاء ، ننشر هذه الرَّسائل ، والمحاضرات ، والكتابات لأوَّل مرَّةٍ ، والله ولي التَّوفيق ، ومنه الهداية إلى سواء الصِّراط ، وأقوم طريقٍ .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
دار عرفات ، دارة الشَّيخ علم الله
رائي بريلي (الهند)

٢٩/ شوال ١٣٩٧هـ
١٤/ أكتوبر ١٩٧٧م

أكبر خطر على العالم العربيِّ
المؤامرات والمخطَّطات الدَّقيقة العميقة
لقطع صلة العرب بالإسلام

استعراض ـ تاريخي ـ وتنبيه

وإنذار

دار السَّلام ـ القاهرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى .

أمَّا بعد : فكلُّ حركةٍ للقوميَّة قامت في العالم الإسلاميِّ ، واتخذت فلسفةً لنظامها ، وتطوَّرت إلى عقيدةٍ كانت تحدِّياً للإسلام ، وحاولت أن تسيطر على تلك المساحة للحياة الإنسانيَّة ؛ الَّتي كانت خاضعةً لحكم الإسلام ، وسيادته ، واشتملت هذه الحركة على العقائد ، والأخلاق ، والعواطف ، ومشاعر الحبِّ والكراهية ، والولاء ، وعدم الولاء ، ورباطة الجأش ، والحماس ، وجميع العناصر ، والأجزاء التي تشتمل عليها الأديان السَّماوية ، وتعتبرها جزءاً منها ، ولأجل ذلك كانت كلُّ حركةٍ من هذه الحركات الَّتي لها هذا الشأن والاحتواء ، والمضمونات ، والتأثير موضع حذر ، بل موضع خطرٍ لدى المؤمنين بالدِّين السَّماويِّ الأخير ، والدُّعاة إليه عن بصيرةٍ ، وإيمانٍ ، فبادروا إلى محاربتها ، باعتبارها منافسةً لهم ، لأنَّ نشوءها ، وانتشارها يحملان في أعقابهما أخطار تفكك الوحدة الإسلاميَّة ، وينتشر الإلحاد والضَّلال من جرَّائها ، وكانت مقاومتها ، وكبح جماحها الواجب الأوَّل في نظرهم .

وتستوي في هذا الأمر حركات القوميَّة والوطنيَّة ؛ التي نشأت في تركيا ، وإيران ، وكردستان ، وأفغانستان ، وتصدَّى الغيارى على الدِّين ، والرَّاسخون في العلم ، وأصحاب العقيدة السَّليمة في هذه البلاد كلِّها لمواجهة تلك الحركات ، وكان شعارهم تحطيم جميع الأصنام العنصريَّة ، والثَّقافيَّة ، وإعلان : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

لكن القوميَّة العربيَّة تختلف في طبيعتها عن جميع هذه الحركات ؛ لأنَّ

الأتراك ، والإيرانيين ، والأكراد ، والأفغان كانوا جزءاً من الملة الإسلاميَّة ، فكان انحرافهم انحراف ملَّةٍ ، أمَّا العرب ؛ فلم يكونوا ملَّةً فحسب ، وإنَّما كانوا منبع الدَّعوة الإسلاميَّة ، وحملة لوائها الأوَّلين ، وروَّادها ، وكان بلدهم منبعاً للإسلام ، ومأواه ، وملجأه الأخير ، فكان قبولهم لدعوة القوميَّة ، وانحصارهم في القالب المحدود للقوميَّة ، والعروبة ، أو احتضانهم لدعوة البعث العربي القوميَّة ؛ بدلاً من كونهم حملة الدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة حادثةً تاريخيَّةً ، فإذا كان انحراف الأمم الأخرى انحراف تلك الأمم وحدها ؛ كان انحراف العرب تحريفاً ، لذلك كلُّ قلقٍ وهمٍّ يساوران النفوس ، وكلُّ حذرٍ يطيِّر النومَ عن عيون المحبِّين للدِّين ، والعاملين له ، والمهتمِّين به لا يستغرب ولا يثير الدَّهشة والتساؤل ، بل بالعكس عدم اضطرابٍ على هذا الحادث الأليم يدل على عدم الشُّعور بضخامته ، ووخامة نتائجه كما كان مِن حقِّه أن يشر به من المعنيين بالدِّين ؛ ومستقبله .

وصدق الشَّاعر الأندلسيُّ العربيُّ :

لِمثْلِ هذا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كمدٍ ... إنْ كان في القلب إسْلامٌ وَإيمانُ

لماذا لم تشعر الدوائر الدِّينيَّة بأهمِّيَّة هذه الحادثة ، ولماذا لم يضطرب لها أصحابها ، وهم يحملون حقّاً حساسيةً مرهفةً في كلِّ أمرٍ له صلةٌ بالدِّين والعقيدة ، فلا يحتملون أدنى انحرافٍ ، أو عدولٍ ، فضلاً عن ضلالٍ في أمر الدِّين ، فكيف استساغوا هذا الضَّلال المبين ، وأغمضوا بصرهم ، بل وعلى العكس تجاوز بعضهم إلى الإعراب عن تقديرهم لزعماء هذه الانحرافات الضَّالة ، ونوَّهوا بأعمالهم ، ونسبوا إليهم البطولة ؟

إنَّ هناك سببين لهذا الموقف ؛ أوَّلهما : عدم معرفة هؤلاء النَّاس لحقيقة الأفكار ، والعواطف لدعاة القوميَّة العربيَّة ، وعجزهم عن إدراكها ؛ لأنَّ عدداً قليلاً من العلماء ، وحملة الدِّين يتمكَّن من دراسة منشورات القوميَّة العربيَّة الموثوق بها ، وتتاحُ لهم فرصة السَّماع ، والقراءة للأحاديث ، والبيانات ، والتقارير الصَّحفيَّة لقادة تلك الحركة ، وزعمائها ، والتَّصفُّح للجرائد ، والمجلات الصَّادرة من الدُّول العربيَّة الَّتي تعبِّر عن هذه الأفكار ، والاتجاهات ، فتقتصر معرفة هذه الفئة من النَّاس

على معلوماتٍ سطحيَّةٍ طافحةٍ ، وتعتمد على بياناتٍ سياسيَّةٍ في أغلب الأحوال ، فإذا كان رجال هذه الفئة من النَّاس قاصرين في اتخاذ آراء سديدة أو دراسة واقعية ، ولا يحدث في أذهانهم أيُّ تذمُّرٍ ، أو اشمئزازٍ ، أو قلقٍ (وإن كانت قلوبهم مفعمة بالغيرة الإسلاميَّة والحمية الدينيَّة) فلا غرابة في ذلك ، فإنهم لا يُدركون مدى خطورة الدَّعوة للقوميَّة العربيَّة ، وتوغُّلها في النفوس ، وتأثيرها ، وأبعادها ، وأهدافها ، وغاياتها ، وإلى أيِّ مدىً سرت فيها عدوى الإلحاد ، واللادينيَّة ، وتفاقمت ، وما هي انعكاسات هذه الدَّعوة على قلوب الشَّباب ، والمثقَّفين الَّذين تأثَّروا بها في الشَّرق الأوسط ، وفُتِنوا بقادتها ، وزعمائها ، وتأثَّروا بأهدافهم الَّتي يعبرون عنها ، ويجهرون بها ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

والسَّبب الثاني : أنَّ النَّظر إلى أيِّ دولةٍ من الدول الغربيَّة ، كأمريكا ، وبريطانية بنظرة ازدراء ، والتَّحديث بلهجة التَّحدِّي لها ، وتهديدها ، وإدانتها ، أو إبداء نيَّة المجابهة مع إسرائيل ، والإعلان ببدء حركةٍ لتحرير فلسطين ـ وإن كان باللسان فحسب ـ أو إظهار الصُّمود ، والتَّصدِّي في البيانات يعدُّ بطولةً ، وجرأةً ، يغتفر بها وقوع جميع السَّيئات ، ويتغاضى عن كلِّ عملٍ سابقٍ لهم ، وذلك في خلفيَّة ماضي هذه الدول الأوربيَّة ، وحاضرها ، وموقفها من دول العالم الإسلاميِّ ، وغياب أي : إجراءٍ جدِّيٍّ من قبل أيِّ بلدٍ إسلاميٍّ ، وعربيٍّ إزاء إسرائيل خلال السَّنوات العديدة الماضية ، فتُحمل هذه البيانات على صرف النَّظر عن كلِّ عيبٍ ، وزيغ للزعماء العرب القوميِّين ، وأيِّ زعيمٍ آخر من الزُّعماء العرب ، وحتَّى على الإغماض عن استغنائهم عن الإسلام ، ومحاولة قطع صلة الأمَّة العربيَّة ، والدول العربيَّة عن الإسلام ، وإعادتها إلى الجاهليَّة الأولى بتخطيط دقيق ، وعدم المبالاة بالعقائد الإسلاميَّة ، والفرائض الدِّينيَّة ، وأكثر من ذلك الاستهانة بها ، وازدراؤها ، ولا يصرف ذلك الذِّهن عن هذه العيوب ، والسَّيِّئات فحسب ، بل تحمل هذه البيانات على تقديس هؤلاء الزُّعماء ، ووضعهم في مصافِّ الأبطال ، والمنقذين للمسلمين ، والعرب ، ثم لا يقع في هذه المغالطة الذِّهنية عامَّةُ النَّاس وحدَهم ، بل يقع في هذه الفتنة عددٌ ملحوظٌ من الخاصَّة من الزُّعماء ، والقادة ، ويستعدُّ بعضهم للتَّصفيق لهؤلاء الزُّعماء ، ورفع هتافات في تأييدهم ، والإشادة بهم ، ويتعرَّضون

بالسُّوء واللاَّئمة لمن له معرفةٌ بحقيقة الأمور ، ويدرك حقيقة هؤلاء الزُّعماء القوميِّين ، وماضيهم ، وحاضرهم ، وما يضمرونه من نوايا سيئةٍ ، وما يكيدون للأمَّة ، ومدى ارتباطهم بالمؤامرات الصَّليبية ، وما يحملونه من قطع صلة المسلمين والعرب عن الإسلام ، وربطهم بالجاهليَّة القديمة ، والقوميَّة العربيَّة .

إنَّ النَّاقدين لمثل هذه الحركات ، وأصحابها ينحدرون من الفئة الَّتي كان شعارها الدَّائم : أنَّ النقص الدِّينيَّ ، والتَّحريف في الدِّين أهمُّ وأخطر من الانتصارات المادِّيَّة ، فإذا تحقق انتصارٌ عظيمٌ ، أو سعة في الحكم بمرزأةٍ في الدِّين ، أو إلحاق ضررٍ به ، أو انتقاصٍ منه ، كان هذا الانتصار الماديُّ في نظر هذه الفئة هزيمةً ، بل أشنع من هزيمةٍ ، وإنَّ تاريخ فقهاء الأمَّة ، وقادة الدِّين من أصحاب العزيمة حافلٌ بأمثلة هذه النَّظرة الدِّينيَّة ، وإلى هذه النَّظرة الدِّينيَّة ، أو التَّقييم الدِّينيِّ يرجع فضل صيانة هذا الدِّين من التَّحريف ، وإلا كان مصيره كمصير المسيحيَّة من المسخ ، والتَّحريف ، وقد أمكن الاحتفاظ بهذا الدِّين ، والأمَّة الإسلاميَّة بفضل الجهود المخلصة لعلماء الحقِّ ، الَّذين عملوا كما أمرهم القرآن الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] .

لقد أتيحت للكاتب بفضل الله تعالى وتيسيره فرصةُ التَّعايش مع العرب ـ وهم معدن الإسلام ، ورصيده ، وحملة الدَّعوة الإسلاميَّة الأولون إلى العالم ، ويجب أن يكونوا متحمِّسين للإسلام أكثر من غيرهم ، ويكونوا قدوةً للعالم ـ وسنحت له الزِّيارات المتكرِّرة إلى الدُّول العربيَّة ، والاطلاع على نشاطاتها العلميَّة ، والسِّياسيَّة ، ومراكزها الثَّقافية ، والدِّينيَّة ، والعضويَّة في بعضها ، والتعرُّف على رجال مختلف الطَّبقات ، ومناهجهم العمليَّة ، واتجاهاتهم الفكريَّة ، وتبادل وجهات النَّظر معهم ، والتَّباحث في هذه الأمور ، وسنحت له بذلك فرصة المطالعة المباشرة للخطط ، والمؤامرات ، والموادِ العلميَّة الرَّامية إلى قطع الصِّلة بالإسلام ، وظلَّ هذا الموضوع شغلاً شاغلاً له وهمّاً يلفت نظره ، ويسترعي اهتمامه بصفةٍ خاصَّةٍ مدَّةً طويلة .

إنَّ ما يشاهد اليوم من حماسٍ وثورةٍ في المسلمين في مختلف أنحاء العالم

الإسلاميِّ ، ولا سيما الشَّباب منهم ، والانفعال الشَّديد فيهم ، والافتتان بقيادة الزَّعيم العراقي البعثي الاشتراكي صدام حسين الطَّائشة ، وتحدِّياته ، وتهديداته ، والتَّظاهر بالجراءة والصُّمود لا يرجع إلى دراسةٍ ، أو تفكير ، أو مطالعةٍ ، وإنَّما هو بمثابة زوبعةٍ في فنجان ، أو غلي كغلي المرجل ، فشعرت بمسؤوليتي بحكم معرفتي ، ودراستي ، وواجبي الدِّينيِّ نظراً لهذا الهياج الَّذي يَسُوْدُ اليوم أن أقدِّم ملخَّصاً لبعض المقالات ، والبحوث ، والمطالعة التَّاريخيَّة الَّتي تشتمل على استعراض البواعث ، والدَّواعي لهذه الحركات ، وخلفيَّاتها ، وما يخشى من نتائجها (إذا تحقَّقت لا قدر الله) إنَّها دراسةٌ مخلصةٌ أمينةٌ ، وأرجو أنَّها ستنال الاهتمام بها ، والتقدير اللاَّئق ، ويخصَّص بعض الوقت للنَّظر فيها ، والاستفادة منها .

وما توفيقي إلا بالله

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

١٥/ رجب١٤١١هـ
١/ فبراير ١٩٩١م

إلى الإسلام من جديد

دار القلم ـ دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدِّمة الطَّبعة الأولى

الحمد لله ربِّ العالمين ، وصلَّى الله تعالى على خير خلقه محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، أمَّا بعد :

فهذه المحاضرات الَّتي يجدها القارىء في هذه المجموعة كتبت ، وألقيت في مناسباتٍ مختلفةٍ ، تختلف في الزَّمان ، والمكان ، والعنوان ، والألوان ، وتجتمع في غايةٍ واحدةٍ وهي : إيقاظ الشُّعور الدِّينيِّ في المسلمين ، وإعادة الثِّقة إلى نفوسهم بمركزهم ، ومبدئهم ، وغايتهم في الحياة ، ورسالتهم للعالم البشريِّ ، وتهيئة النُّفوس لحمل هذه الرِّسالة وتبوُّء مركز القيادة والإمامة للعالم الحائر الثَّائر ، وتجديف سفينة الحياة الضَّائعة بين الملاحين العابثين ، والرُّكاب النَّائمين .

وقد خوطبت في هذه المحاضرات والمقالات الأمَّة الإسلاميَّة بصفةٍ عامَّةٍ ؛ إذ هي الأمة الأخيرة الَّتي أخرجت للنَّاس ، وصاحبة الرِّسالة الأخيرة الَّتي وُجهت إلى النَّاس ، وعنيت بها الأمَّة العربيَّة بصفةٍ خاصَّةٍ ، فمن أفقها طلعت شمس الإسلام في العصر الأوَّل ، وأسفر الصُّبح الصَّادق ، وقد أسكنها الله في خير مركزٍ في العالم لتوجيه الدَّعوة الإسلاميَّة ، وإزجاء الرِّسالة الإسلاميَّة إلى الأمم المتحضِّرة ، والعالم المتمدِّن ، وتبوُّء مكان القيادة العالمية .

ولمَّا كانت هذه المحاضرات كتبت في ظروفٍ مختلفةٍ ؛ كنت أشكُّ في وجود وحدةٍ تربط بينها ، لذلك لمَّا اقترح عليَّ نشر هذه الرَّسائل في مجموعةٍ تردَّدت بعض الزَّمن في إجابة هذا الطلب ، ونظرت فيها من جديدٍ ؛ فإذا بوحدةٍ تجمع بينها ، وغايةٍ تشترك فيها ، وهي : الدَّعوة إلى الإسلام من جديدٍ ، فقبلت هذا الاقتراح ، وجمعتها في مجموعةٍ أسميتها : « إلى الإسلام من جديد » وأدعو الله سبحانه ،

وتعالى أن ينفع بها القرَّاء ، وأن يحرِّك بها سواكن القلوب ، ويحيي بها موات النُّفوس ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قدير .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
نزيل القاهرة
١٣٧٠هـ - ١٩٥١م

مقدّمة الطّبعة الثّانية

الحمد لله ، والصّلاة ، والسّلام على رسول الله . أمّا بعد :

فقد ظهرت الطَّبعة الأولى لكتاب « إلى الإسلام من جديد » في القاهرة سنة ١٣٧٠هـ ، وكانت طبعةً مشوَّهةً ممسوخةً ، كثر فيها التَّصحيف ، والتَّحريف ، حتَّى كان المؤلِّف نفسه يحار في فهم كثيرٍ من الكلمات ، وردِّها إلى أصلها ، ويظهر أنَّ الناشر لم يعتن بتصحيح الكتاب ، واتقان الطِّباعة ، وحسن المظهر اعتناءً ما ، وبالرَّغم من ذلك كان للكتاب انتشارٌ ، وذيوعٌ في الأوساط الإسلاميَّة ، ونفد الطَّبع في وقتٍ قريب .

واتَّفق بعد ذلك أن جمعتُ مقالاتي في مجاميع مختلفةٍ أخذت بعضها من « إلى الإسلام من جديد » ومن هذه المجاميع « العرب والإسلام » و« الطريق إلى المدينة » وكتبت بعض مقالاتٍ أخرى ، وألقيت بعض محاضرات تدخل في موضوع « إلى الإسلام من جديد » وتستحقُّ أن تضمَّ إليها ، يفقدها القارىء في الطَّبعة الأولى ، ويجدها في هذه الطَّبعة ، وبذلك تكوَّنت مجموعةٌ أكثرها قديمٌ ، وقليلٌ منها جديدٌ ، يجمعها اسمٌ واحدٌ ، وغرضٌ واحدٌ ، وهو : « إلى الإسلام من جديد » ورغب بعض الأصدقاء في طبعها ، ونشرها ، فأذنت لهم بذلك شاكراً فضلهم ، وعنايتهم بنشر الفكر الإسلاميِّ ، والدَّعوة الإسلاميَّة ، منتهزاً هذه الفرصة لصدور هذا الكتاب من جديدٍ ، وعلى الله قصد السَّبيل .

دارة الشَّيخ علم الله الحسني رحمه الله .

أبو الحسن علي الحسني النّدْوي

١/ ١/ ١٣٨٧هـ

١٠/ ٤/ ١٩٦٧م

رَبَّانيَّـةٌ لا رَهْبانيَّـةٌ

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةٌ بين يدي الكتاب

الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى ، أمَّا بعد : فيرى القارىء الكريم على الصَّفحة الَّتي تواجهه آيةً من القرآن الكريم ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

الآية الَّتي تقتضي من الأجيال اللاَّحقة من المسلمين أن تكون منشرحة الصَّدر مقدِّرةً واعيةً للأجيال السَّابقة ، ولمن سبقها ، وتقدَّمها في الإخلاص لله تعالى ، وطاعته ، وخشيته ، وخدمة هذا الدِّين ، والدَّعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله ، والعناية بأحوال المسلمين ، وسدِّ ثغور الإسلام ، والمسلمين ، لا تحمل لها غلاًّ ولا حقداً ، ولا يضيق صدرها عن الاعتراف لها بالجميل ، وعن الدُّعاء ، والثَّناء ؛ والتماس العذر لها ، وغضِّ البصر عن زلاتها الَّتي لا يخلو عنها بشرٌ ، ولا يبرأ عنها مجتهدٌ ، فكلُّ من يجتهد يخطىء ، ويصيب ، وكلُّ من يجري يكبو ، ويعثر ، وكلٌّ يؤخذ من قوله ، ويردُّ ، إلا النَّبيَّ المعصوم ﷺ .

وتقتضي هذه الآية أن نكون متورِّعين في الحكم على سلف الأمَّة ، وسابقيها في الإيمان ، والإحسان ، بل تقتضي الآداب القرآنيَّة ، والتَّعاليم النَّبويَّة أن نكون متورِّعين في الحكم على كلِّ مسلمٍ ، لا نتهوَّر ، ولا نتسرَّع ، ولا نتحمَّس ، ولا نجزم حتَّى نكون على بيِّنةٍ من الأمر ، وحتَّى نستوثق ، ونتأكَّد ، فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

وبعد! فهذه مقالاتٌ كُتِبت في أوقاتٍ مختلفةٍ ، وفي مناسباتٍ مختلفةٍ ، وبعضها حديثٌ لم يُطبع ، تجمع بينها وحدةٌ معنويَّةٌ ، وهي شرح فكرةٍ على أساس العلم ، والتَّجربة ، وإيضاحُ ضرورةٍ ، أو ثغرةٍ في حياتنا ، وأخلاقنا لا بدَّ أن تُسدَّ ، ودفاعٌ عن جماعةٍ اشتدَّت حولها الخصومة في هذا العصر ، ومعظم مَنْ يخوض فيها ، ويتحمَّس لا يعرفها معرفةً شخصيَّةً عميقةً ، ولا يُتعب نفسه في دراستها ، وقد أتاح الله للمؤلِّف ـ لحكمةٍ يعلمها ـ فرصة الاتصال بها اتصالاً لا يتأتَّىٰ لكلِّ من عاش في مثل جوِّه العلميِّ ، وبيئته العصريَّة ، فسجَّل مشاهداته ، وانطباعاته ، وحصيلة دراسته ، وحياته في هذه المقالات ، مجموعة في هذا الكتاب ، ننشرها اليوم قياماً بالواجب ، واعترافاً بالجميل ، ودفاعاً عن جماعة تدين لها بعض الأجيال ، وبعض الأقطار بالدُّخول في الإسلام ، أو بالبقاء عليه ، راجياً من الله ثواب هذا العمل ، وعسى أن يحرِّك ساكن القلوب ، وأن يثير كامنَ الإيمان ، وأن يحمل بعض العقلاء والمنصفين على التَّفكير من جديدٍ ، وعلى طلب المزيد ، وبالله التَّوفيق ، وله الحمد في الأولى ، والآخرة .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

٢٩/٣/١٣٨٦هـ
١٩/٧/١٩٦٦م
يوم الثلاثاء

مواساةٌ أم مساواةٌ ؟

المجمع الإسلاميُّ العلمي
لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله !

أمَّا بعد : فهذه قطعةٌ من الكتاب الكبير للمؤلِّف ؛ الَّذي هو عاكفٌ على تأليفه ، وإخراجه في هذه الأيام ، وقد أسماه : « الأركان الأربعة ، في ضوء الكتاب ، والسُّنَّة ، وفي أسلوب العصر الحديث ، وهذا هو الفصل الأخير ، الَّذي ختم به البحث في موضوع الرُّكن الثَّاني : الزَّكاة .

وقد بدا للمؤلف ، أن يفرزها ، وينشرها رسالةً صغيرةً ؛ لأنها تثير جوانب جديدةً هامَّةً من التَّفكير ، وتُلقي ضوءاً على القضيَّة الَّتي تشغل التَّفكير الإنسانيَّ ، والتَّفكير الإسلاميَّ في وقتٍ واحدٍ من وجهة نظرٍ خاصَّةٍ ، لعلَّ الباحثين المنصفين يجدون فيها ـ على وجازة هذه الرِّسالة ، وصغرها في الحكم ـ مادَّةً جديدةً للفكر ، ونواةً لبحثٍ علميٍّ أعمق ، ودراسةٍ مقارنةٍ أوسع ، وأشمل . وبالله التَّوفيق .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

١٨/ ٤/ ١٣٨٦هـ

٦/ ٧/ ١٩٦٦م

ردَّةٌ ... ولا أبا بكرٍ لَها

المجمع الإسلامي العلمي
لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المؤلِّف

وبعد : فإنَّ هذا المقال الَّذي هو بيد القرَّاء ، قد ظهر أوَّلًا افتتاحيةً لمجلَّة « المسلمون » الغرَّاء الصَّادرة من جنيف[1] ، بعنوان « ردةٌ جديدةٌ » ، ثمَّ أفرد بالطَّباعة في رسالةٍ صغيرةٍ بعنوان « ردَّة ولا أبا بكرٍ لها » تلقَّفتها الأيدي ، وتداولتها الطَّبعات ، وتناقلتها الصُّحف والمجلات ، وظهرت لها عشرات آلاف من النُّسخ في عددٍ من العواصم العربيَّة ، وكانت من أكثر كتابات كاتب هذه السُّطور ، ومقالاته ، ورسائله انتشاراً ، وذيوعاً في العالم العربيِّ ، والإسلامي .

ولعلَّ سرَّ هذا الانتشار الكبير ، واهتمام الدُّعاة ، وأهل الفكرة الإسلاميَّة بهذا المقال : أنَّه يصوِّر واقع العالم الإسلاميِّ ـ وخاصَّةً الطَّبقة المثقفة فيه ـ تصويراً دقيقاً ، ويضرب على الوتر الحسَّاس ، ويضع الإصبع على موضع الدَّاء ، وكلُّ ما كان هذا شأنه تجاوبت له النُّفوس ، والعقول ، وواكبته الآراء ، والأفكار ، وكان له صدىً في الأوساط المعنيَّة بالفكرة ، كأنَّها كانت منه على ميعادٍ ، وكأنَّه يعبِّر عن خواطرها ومشاعرها ، وتجاربها .

ولا بدَّ من الاعتراف هنا بأنَّ الفكرة الأساسية الَّتي يدور حولها هذا المقال أوحى بها فصلٌ من فصول الكتاب[2] القيِّم : « القرآن والعلم الجديد » لمؤلفه المسلم

---

(١) هما افتتاحيتان ظهرتا في مجلَّة « المسلمون » سنة ١٣٧٨هـ أولاهما بعنوان : « ردةٌ جديدةٌ » وثانيتهما بعنوان : « دعوةٌ جديدةٌ » .

(٢) الكتاب كُتب أصلاً في أردو ، ونُقلت بعض فصوله إلى العربيَّة ، نشرتها مجلَّة « البعث الإسلامي » .

الفاضل المرحوم الدُّكتور رفيع الدِّين رئيس مجمع إقبال (Iqbal Academy) في كراتشي فقد تحدَّث عن تجربةٍ جديدةٍ ، وواقع طريفٍ ، لم يسبق له نظير ، هي ردَّة الطبقة المثقَّفة العالميَّة من الجيل الإسلاميِّ المعاصر ، الَّتي تختلف كلَّ الاختلاف عن حوادث الردَّة العقائديَّة ؛ التي عرفها المسلمون قديماً ، وسجَّلها التاريخ ، وقد تحدَّث عن مدى عمقها ، وضخامتها ، وشدَّة تأثيرها في واقع المجتمع الإسلاميِّ المعاصر ، وخطرها على مستقبل الإسلام ، والمسلمين ، وقد فتحت هذه الإشارة البليغة آفاقاً جديدةً ، وواسعةً للتَّفكير ، وأملت الكتابة في هذا الموضوع ، فجاء هذا المقال عفو السَّاعة فيض الخاطر ، من غير أن يتفرَّغ له المؤلف ، ويكد فيه ذهنه ، ويُجهد فيه قلمه .

وقد تلت هذا المقال حين اطَّلع عليه الإخوان والزُّملاء خطوةٌ إيجابيَّةٌ ، فاستقرَّ رأيهم على تأسيس مركزٍ للتَّأليف ، والتَّرجمة ، والنَّشر يسير في ضوء هذا المقال ، وينقطع إلى تحقيق هذه الفكرة ؛ الَّتي تحدَّث عنها هذا المقال ، وهي إنتاج أدبٍ إسلاميٍّ قويٍّ ، مطبوعٍ بالطَّابع العلميِّ ، مشبع بروح الدَّعوة ، يعالج العقد النَّفسيَّة ، والمشكلات ؛ الَّتي يواجهها الشَّباب المثَّقف في العالم الإسلاميِّ اليوم ، فقام « المجمع الإسلاميُّ العلميُّ » في لكهنؤ الهند في سنة ١٣٧٨هـ (١٩٥٩م) ، واستطاع بحول الله وتوفيقه أن يصدر كتباً ورسائل في أربع لغات : العربيَّة ، والأردية ، والإنجليزيَّة ، والهنديَّة ، ذات قيمةٍ علميَّة ، ودعويَّةٍ ، نُقل كثيرٌ منها إلى اللُّغة الفارسيَّة ، والتركيَّة وغيرها من لغات الأقطار الإسلاميَّة ، وغير الإسلاميَّة .

وإلى القرَّاء طبعةً جديدةً من هذا المقال ، والكاتب يرحِّب بكلِّ طبعةٍ جديدةٍ له في أيِّ ناحيةٍ من نواحي العالم الإسلامي ، وفي أيِّ لغةٍ من لغاته ، ونشره ، ونقله في الصُّحف ، والمجلات ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى مِنْ سامعٍ .

١٧ من رجب ١٣٩٤هـ
٧ من أغسطس ١٩٧٤م

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

أحاديثٌ صريحةٌ في أمريكا

مؤسَّسة الرِّسالة

بيروت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المدخَل إلى الكِتاب

هذا الكتاب الَّذي بين يدي القرّاء هو مجموع محاضراتٍ ألقيت في أمكنةٍ مختلفةٍ في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ، وكندا ، وقد قُمت بهذه الرِّحلة بناءً على دعوةٍ من المنظَّمة الإسلاميَّة المعروفة للطلاب المسلمين في أمريكا ، وكندا Muslim Students Association America & Canada في موسم الصيف عام ١٩٧٧م لحضور مؤتمرها السَّنويِّ المنعقد في « بلومنجتن » Bloomington « إنديانا » Indiana واستغرقت الرِّحلة الفترة ما بين ٢٧/ مايو ١٩٧٧م و٦/ أغسطس ١٩٧٧م ، ونظَّم القائمون على المنظَّمة في نهاية المؤتمر زيارةً لشمالي أمريكا ، وكندا لمدَّة ٢٠ يوماً ، تغطِّي أهمَّ المدن ، والمراكز الحضاريَّة ، والصِّناعيَّة ، والثَّقافيَّة في أمريكا ، وكندا ، التي يوجد فيها عددٌ وجيه من الجاليات الإسلاميَّة ، والطُّلاب المسلمين ، والشَّباب الإسلاميِّ المثقَّف ، وكثيرٌ من أبناء الإسلام ـ العرب ، والهنود ، والباكستانيِّين ـ الَّذين يعملون في مجالات الحياة المختلفة ، وبدأت الجولة من نيويورك New-york City وانتهت في « شيكاغو » Chicago واستوعبت من بين مدن أمريكا الشَّمالية : نيويورك سيتي ، وجرسي سيتي ، فلاديلفيا ، بالتي مور ، بوستن ، وشيكاغو ، دترائت ، وسالت ليك سيتي ، سان فرانسسكو ، سان جوزي ، ولوس أنجلوس (كاليفورنيا) ومن بين مدن كندا : مونتريال ، تورنتو ، بالإضافة إلى مدينة واشنطن التي كانت زيارتها بعد انتهاء هذه الجولة .

ووفَّقني الله في هذه الزيارة أن ألقي عشرين محاضرةً ، عشراً منها في اللُّغة الأرديَّة ، واتَّفق لي أن أتحدَّث في خمس جامعات من الجامعات الكبرى الشَّهيرة في أمريكا ، وهي : جامعة كولمبيا (نيويورك) ، وجامعة هارفارد (كمبيردج) ،

وجامعة ترائت (ان آربور) وجامعة كاليفورنيا الجنوبيّة (لوس أنجلوس) وجامعة أوتا (سالت ليك سيتي) ، كما وُفِّقت لإلقاء خطب الجمعة في قاعة الصَّلاة في مبنى منظمة الأمم المتَّحدة بـ « نيويورك » ، وجامعي « تورنتو » و« ترائت » وكان يستمع إلى هذه المحاضرات ـ بحماس كبير ، ورغبة قويَّةٍ ـ الطبقة المثقَّفة من المسلمين ـ ومعظم المسلمين المقيمين في أمريكا هم الطَّبقة العليا من المثَّقفين ـ وعددٌ كبيرٌ من الشَّباب الإسلاميِّ ، العربيِّ ، والهنديِّ ، والباكستانيِّ ، ويوجه المستمعون في ختام المحاضرات إلى المحاضر ـ كعادة العصر الحديث ـ تساؤلات يسترشدون فيما يهمُّهم من المشكلات والقضايا ، وقد تنافسوا في تسجيل المحاضرات ، وإهدائها ـ كهديةٍ طريفةٍ ـ إلى إخوانهم ، وذويهم ، وزملائهم .

واستطاع المحاضر أن يحصل على بعض الأشرطة ـ وقد فاته أن يحصل على جميعها في غمار الأسفار ـ فلمَّا عاد إلى الهند نقل منها معظم هذه المحاضرات الإخوة الأعزَّة السَّيد سعيد حسن ، والسيد سلمان الحُسيني ، وعلاء الدِّين .

وها هي ذي بعض المحاضرات العربيَّة بين يدي القرَّاء العرب ـ وقد نشرت المحاضرات الأرديَّة ـ وإذ يقدِّمها المحاضر للقرَّاء الكرام ؛ فهو يأمل أنَّها ستنال إقبالاً ، وتجاوباً لديهم ، وأنَّها ستكون عوناً له على إعادة الثِّقة بالرِّسالة الَّتي يحملونها ، والدَّور الَّذي ألقيت مسؤوليته على عواتقهم ، ورفع معنويَّاتهم ، وإزالة « مركب النَّقص » الَّذي يعانيه كثيرٌ من شبابنا إزاء الحضارة الغربيَّة ، وقيمها ، ومثلها ، وكأنَّها هدية رحلة أمريكا ، يزفُّ بها إلى القرَّاء في العالمين العربيِّ والإسلاميِّ ، كما أنَّها « مكافأةٌ » متواضعةٌ للإخلاص ، والحبِّ اللَّذين تلقَّاه بهما الأصدقاء ، والمحبُّون ، والمضيفون المخلصون في أمريكا .

وإن كانت لهذه المحاضرات المتواضعة سمةٌ تتَّسم به ، وقيمةٌ تبرر إذاعتها ؛ فهي أنَّها تتَّسم بالصِّدق ، والصَّراحة ، وقد تحدَّث المحاضر عن الحضارة الغربيَّة ، والمدنيَّة الأمريكيَّة المادِّيَّة من مستوىً عالٍ ، وهي القمَّة الَّتي يسمو إليها الإسلام ، والقرآن بأتباعه الناشدين للحقِّ ، والمخلصين من طلاب العلم ، والدِّين ، القمة الَّتي يتراءى العالم القديم ، والعالم الحديث كلاهما أمام النَّاظر منها كسرابٍ خادع ،

وتبدو الزَّخارف كلُّها ، والنَّضارة ، والبهاء بأجمعهما كلمعان الفصوص الزَّائفة المزوَّرة ، وليس في ذلك أيُّ فضلٍ لذكاء الخطيب ، وقوَّة دراسته ، أو فراسته ، وثقوب نظره ، وشفوف وجدانه ، وإنَّما يعود الفضل كلُّه إلى التعاليم والرِّسالة الَّتي يبلغ بمعتنقيها إلى هذه القمَّة العليا الَّتي يبدو منها العالم كلُّه في أسفل السُّفوح ، وهنالك تنقشع كلُّ غشاوةٍ عن العيون ، فترى الأشياء كلَّها على ما هي عليه .

ويرى المؤلف لزاماً عليه أن يوجِّه الشُّكر إلى كلِّ من عُنُوا برحلته هذه ، وقاموا بإكمال ترتيباتها ، وإجراءاتها ، وتوفير التَّسهيلات نحوها ، وتنظيم الحفلات الكبيرة ، ولا سيَّما الأصدقاء المخلصون الَّذين نظموا هذه الزِّيارة ، وقاموا بتنسيقها ، والتَّدابير اللازمة بشأنها ، أخصُّ بالذِّكر منهم السَّيِّد ناظر الدِّين علي الحيدر آبادي المحترم (نائب رئيس N.S.A والمسؤول عن قسم البرامج) ، والصَّديق المخلص أنيس أحمد (مدير قسم التَّعليم والنَّشر والإذاعة ، والإعلام) وكذلك يستحقُّ الشُّكر أمين عام المنظَّمة الدُّكتور محمود رشدان ، ورئيسها يعقوب مرزا ، اللَّذان نظَّما الزِّيارة ، وبذلا الجهد الجهيد على توسيع نطاقها ، وتعميم نفعها ، وتأثيرها ، وعلى توفير أسباب الرَّاحة والسُّهولة للمحاضر .

وكذلك المؤلِّف مدينٌ لأولئك المخلصين الطَّيِّبين ، المحبِّين للإسلام ، والمسلمين ، الَّذين استقبلوه بالحبِّ ، والأخوَّة ، والضِّيافة الكريمة في المدن ، والأمكنة الَّتي يسكنونها ، وساهموا في عقد الحفلات ، والنَّدوات بنشاطٍ كبير ، واعتناءٍ وفيرٍ ، وسيطول الكلام لو رحنا نعدُّ أسماءهم ، فجزاهم الله جميعاً خير الجزاء ، ووفَّقهم لما يحبُّ ، ويرضى .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

دارة الشَّيخ علم الله الحسني

رائي بريلي ـ الهند

٣ / ربيع الأول ١٣٩٨هـ

١١/ فبرايــــر ١٩٧٨م

التفسير السّياسي للإسلام
في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي
وسيّد قطب

دار القلم ـ الكويت

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى مَنْ يرى : أنَّ رضا الله تعالى في الدُّنيا والآخرة ، والفوز بالجنَّة ، والنَّجاة من النار ، وموافقة الكتاب والسَّنة هي الغاية ، وكلُّ ما عداها ـ من جهودٍ ، ومحاولاتٍ ، وجماعاتٍ ، وقياداتٍ ، ونظمٍ ، وحكومات وسائلُ تخضع للغاية ، وتستخدم لصالح الإسلام ، فيحبُّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله[1] ، وينتصر لحركة ، أو فكرةٍ ، لا ينتصر لهما إلا حبّاً للإسلام .

أهدي هذا الكتاب إلى مَنْ يؤمن بأنَّ النِّعمة الوحيدة الَّتي ختمت بشخصيةٍ ، هي نعمة « النُّبوَّة » الَّتي ختمت برسول الله ﷺ ، أمَّا سائر النِّعم ؛ فباقيةٌ سائرةٌ ، منها نعمة العلم ، ونعمة الفكر ، ونعمة التَّحقيق ، فلا يحتكرها إنسانٌ ، ولا تختم بإنسانٍ ﴿ كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ .

أهدي هذا الكتاب إلى مَنْ يكون على استعدادٍ دائمٍ للانتقال من نافعٍ إلى أنفع ، ومن صالحٍ إلى أصلح : ولقبول الحقِّ إذا اتَّضح ، والدَّليل إذا قام « فإنَّ الحقَّ قديم » كما يقول عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ في منشوره للقضاء ـ فالرُّجوع إليه لا غضاضة فيه ، ولا بدعة .

أهدي هذا الكتاب إلى مَنْ يرى : أنَّ حقَّ الملاحظة والنَّقد حقٌّ مشاعٌ ، لا يحرِّمه ذو علمٍ ، وصاحب فكرٍ ، وأنَّ عمليَّة النَّقد وإبداء الملاحظات لا يطبَّق عليها قانون « اتجاه واحد » .

أهدي هذا الكتاب إلى مَنْ لا يُسرع بالحكم على كتابٍ حتَّى يستوعبه فهماً ، وقراءةً ، ولا يستقبل بحثاً بإساءة الظنِّ بنيَّة صاحبه ، والشَّكِّ في مراميه .

---

(١) لفظ ورد في حديثٍ مرفوعٍ متَّفق عليه .

وصدق الله العظيم ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْويُّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المَدْخل

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله صلى اللهُ عليه ، وآله ، وصحبه ، وسلَّم .

أمَّا بعد : فإنَّ الإسلام دين الله الأخير ، الَّذي يتكفَّل بهداية البشريَّة إلى يوم يرث الله الأرض وَمَنْ عليها ، وعليه تتوقَّف نجدتها ، وخلاصها ، وصلاحها ، وفلاحها ، فلا بدَّ ـ إذاً ـ أن يبقى إلى يوم القيامة ، يوجِّهها في دينها ، ودنياها ، وينير لها الطَّريق فيما يتَّصل بأولاها ، وأُخْراها ، ومن ثَمَّ جاءت عقائده ، وحقائقه مقررةً لا تتغيَّر ، وشرائعه ، وأحكامه ، وقوانينه مستوفاةً لا تقبل النَّسخ ، والتَّعديل ، ولم تكن شريعتُه وحدها منزلةً من الله ، بل إنَّ حضارته هي الأخرى تقوم على الحقائق الأبديَّة الخالدة . حقائق لا تحتاج إلى التَّقرير .

ولكن هناك حقيقةٌ أخرى ، هي : أنَّ الحياة متحرّكةٌ متطوِّرةٌ . مستمرةُ النُّمو والتَّغيُّر ، وذلك من محاسنها ، وليس من مساويها وليس ذلك شذوذاً عن الفطرة ، وإنَّما هو اقتضاء الفطرة ، فهي تنتقل من طورٍ إلى طورٍ ، ومن لون إلى لونٍ ، لأنَّها دائمة الشَّباب ، والنَّشاط .

فكلُّ شيءٍ في الحياة يتغيَّر ، تتغيَّر اللُّغات ، واللَّهجات ، وتتغيَّر أساليب البيان ، والتَّعبير ، ومناهج البحث ، والتَّفكير ، وتتغيَّر الأسباب الَّتي تثير القلق النَّفسيَّ ، والاضطراب الدَّاخليَّ ، وتتغيَّر الوسائل الَّتي تقاوم هذا القلق ، والاضطراب ، وتتغيَّر أوضاع التَّساؤلات ؛ التي تثور في النُّفوس البشريَّة ، كما تتغيَّر أوضاع الإجابات عليها .

وتنحصر مسؤولية أبناء الإسلام البررة المخلصين ، وأنصاره ، وحُماته من

العلماء ، والمُصلحين القائمين بعرضه ، والتَّعبير عنه ـ في هذا الوضع المزيج الَّذي تشكِّله أبديَّة الدِّين ، وخلوده ، وتطوُّر الحياة ونموُّها المستمرُّ ـ في أن يقوموا (كلٌّ في عصره) بعملية عرض الإسلام ، ومحاسنه ، وتعليماته بأسلوبٍ يقوِّي إيمان أبناء عصورهم ـ من جديد ـ بهذا الدِّين الخالد ، وحقائقه الثَّابتة ، وعقائده الأبديَّة ، ويعيد إلى نفوسهم الثِّقة بفضلها ، وحاجة البشريَّة والمدنيَّة إليها ، وهذا ما أشار إليه سيِّدنا عليٌّ ـ كرَّم الله وجهه ـ حينما قال : (كلِّموا النَّاس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسولُه)[1] وهذا ما صنعه متكلموا الإسلام ، والعلماء الربَّانيُّون في عصورهم المختلفة ، فقد قاموا بهذه المسؤوليَّة الدَّقيقة حسب الأوضاع ، والملابسات الَّتي واجهتهم ، جزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء .

لكنَّ هذا العمل دقيقٌ وصعبٌ بقدر ما هو واجبٌ وضروريٌ ، فيجب على الذين يحاولون أن يقوموا بعمليَّة عرض الإسلام ، وتفهيمه ، وتقريبه إلى القلوب ، والأذهان أن يلازموا الحيطة ، والدِّقَّة ـ على طول الطَّريق ـ في تحقيق غاياتهم ، وإكمال مهمَّتهم ، حتَّى لا يتكوَّن على غفلةٍ منهم ، أو عن غير إرادةٍ ، وقصدٍ لهم ، لدى الجيل الجديد ـ الَّذي يراد تعريفه بحقائق الإسلام ، وترسيخ عقائده في قلبه ، أو يقصد استخدامه لاعلاء كلمة الله ، ورفع منار الإسلام ـ « ذوقٌ دينيٌّ » مختلفٌ عن « الذَّوق الدِّينيِّ » الَّذي كان يتَّسم به الجيل الإسلامي الأوَّل ، بفضل تلقيه التَّربية في أحضان النُّبوَّة مباشرةً ، ذلك الَّذي توارثته الأجيال المتلاحقة بعده ، وحتَّى لا ينحرف هذا الجيل في مناهج تفكيره عن الجادَّة الَّتي رسمتها النُّبوَّة على صاحبها الصَّلاة ، والسَّلام ، كما حدث مرَّاتٍ في تاريخ الأديان القديمة ، والمذاهب ، والفرق الإسلاميَّة الحديثة . إنَّ هذا الحدث لا يتكرَّر في تاريخ الأديان ، والمذاهب ، ولكنَّه إذا حدث مرَّةً ، لم يكن تداركه ، وتلافيه ممكناً بأي حيلةٍ من الحيل ، والتَّاريخ يشهد بذلك ، إنَّ هذا « الذَّوق الدِّينيَّ » إنَّما ينبع من التَّأييد

---

(١) وساق البخاريُّ في صحيحه قول عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في هذا المعنى بما يلي : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبُّون ان يكذب الله ورسوله؟ » ويروى مثل ذلك عن عبد الله بن مسعودٍ ، رضي الله عنه .

الإلهيِّ ، والتَّوفيق الربَّانيِّ ، والقوَّة القدسيَّة ، الَّتي يُكرَّم بها الأنبياءُ والرُّسل ، وهو أقوى قوَّة ، وأعظم ثروةٍ ، وأمضى سلاحٍ ، وأغلى تراثٍ لدى هذه الأمَّة ، إنَّه سهلٌ إفساده ، ولكن لا يمكن إصلاحه إلا بالتَّعاليم النبويَّة الصَّحيحة ، والتَّربية الدِّينيَّة العريقة ، وصحبة الرَّبانيِّين الَّذين يمثِّلون السِّيرة النَّبويَّة الأصيلة ، ولا تملك حكومةٌ مهما كانت قويَّةً ، وعظيمةً ـ أو منظَّمةٌ سياسيَّةٌ مهما كانت غنيَّةً ، وحكيمةً ـ أن تتدارك هذا الانحراف عن « الذَّوق الإسلاميِّ » الأصيل .

وظلَّ هذا العمل الدَّقيق ـ عملُ العرض الجديد للإسلام ـ يتمُّ عبر التَّاريخ الإسلاميِّ بطريقةٍ حكيمةٍ ، لم تحدث بين الجيل المسلم المعاصر ، وبين العقائد ، والحقائق ، والقيم ، والمثل الإسلاميَّة ، تلك الفجوة العميقة الواسعة الَّتي وقعت ـ في تاريخ اليهوديَّة ، والمسيحيَّة ـ بين الشَّباب المثقَّف الذَّكيِّ ، وتعاليم العهد العتيق ، والعهد الجديد ، ممَّا آثار الشُّكوك ، والشُّبهات الكثيفة في قلبه تجاه تعاليم « الكتاب المقدَّس » وأدَّى به إلى الثَّورة عليها ، وضربها عرض الحائط ، وخيَّم الإلحاد ، واللادينيَّة على العالمين اليهودي ، والمسيحي ، وبالتَّالي مني العالم البشريُّ كلُّه بأن يجني ثماره المُرَّة ، ولا يزال .

لكنَّ القائمين بعرض الإسلام ، وتقديمه في الأسلوب العصريِّ استطاعوا أن يتفادوا من هذه الورطة ، ومن أن يحدث ضعفٌ في صلة هذه الأمَّة الفكرية والعقلية بحقائق الإسلام الأوليَّة ، وتصوراته الأساسيَّة ، بل ازدادت إيماناً بها ، وإذعاناً لها ، وإقبالاً عليها ، وعلى ذلك فلم تُمْنَ هذه الأمَّة بما مني به الهنادك ، والفرس ، حيث ظلُّوا قروناً ـ ولا يزالون ـ يعضُّون على التقاليد ، والطُّقوس ، والأعراف الدِّينيَّة ، والاجتماعية بنواجذهم ، بينما يئسوا من التَّطبيق بين الدِّين ، والعقيدة ، وبين العقل ، والعلم ، ومن جدارة دينهم لمسايرة الحياة البشريَّة المتطوِّرة ، والرَّكبِ البشريِّ المتقدِّم ، ورأوا بقاء دينهم في أن يكون على عزلةٍ تامَّةٍ من العلم ، والمعرفة ، وألا يرتفع عنه ذلك الرُّكام الهائل من الجهل المطبق ، والأوهام ، والأحلام الكثيفة ؛ التي تراكمت عليه ، وسدت منافذ الهواء ، والنُّور .

ومن ثمَّ فهؤلاء المخلصون الَّذين قاموا بهذه المسؤوليَّة الجليلة ، مسؤولية

العرض الجديد للشّريعة الإسلاميّة عبر العصور الإسلاميّة يستحقُّون كلَّ تقديرٍ ، واعتراف ، وشكرٍ ، ودعاءٍ منَّا ، ومن الأجيال المتلاحقة ، حيث تفادوا بهذه الأمَّة من أن تقع فريسة الصِّراع بين الدِّين ، والعلم ، والحروب الدَّمويَّة الحمراء ، الَّتي تأجَّجت نارها ، واشتدَّ أوارها بين المعسكرين المتنافسين ـ الدِّينيِّ والعلميِّ ـ في القرون الوسطى في العالم المسيحيِّ ، ممَّا اضطر العالمَ الأمريكيَّ « درابر » (John William Drapper) أن يضع كتابه الشّهير « الصِّراع بين الدِّين والعلم » Comfict Bettwen Religion and Science .

وظلَّ هذا الواجب العظيم المبارك المفيد يؤدِّي عبر التَّاريخ الإسلاميِّ ، وقيَّض الله في كلِّ عصرٍ من المجدِّدين ، والمصلحين ، والمتكلِّمين ، ومن قام بعرضٍ جديدٍ للإسلام ، وتقديمٍ عصريٍّ لتعاليمه بكلِّ جدارةٍ ، ومقدرةٍ ، وتوفيقٍ .

وبجانب ذلك لم يخل عصرٌ من العصور الإسلاميَّة من أولئك العلماء الرَّاسخين في العلم ، المتذوّقين للشَّريعة الإسلاميَّة ، المطَّلعين اطلاعاً دقيقاً على عقلية الجيل الجديد ، والاتِّجاهات ، والملابسات الَّتي يعيشها الَّذين راقبوا هذا العرض الجديد العصريَّ للإسلام مراقبةً أمينةً ، حتَّى لا يواكبه انحرافٌ عن الصِّراط المستقيم ، وعدولٌ عن الجادَّة الَّتي وضع عليها سيِّدُنا محمدٌ ﷺ هذه الأمَّة ، وحتَّى لا يختلف هذا « الذَّوق الدّينيُّ » و« الفهم الدينيُّ » ـ الَّذي يكوِّنه هذا التَّعبير الجديد عن الإسلام ـ عن « الذوق الدِّينيِّ » و« الفقه الدِّيني » الإسلاميَّين الأصليَّين اللَّذين سيظلان « مثاليَّين » إلى يوم القيامة ، وأبدوا ملاحظاتهم عن هذا العرض الجديد للإسلام في غير محاباةٍ وتردُّدٍ ، مع كلِّ تقديرٍ لهذا العمل ، والاعتراف بقيمته ، ومن غير شكٍّ في نيَّة القائمين بالتَّجديد ، والتَّعبير الجديد ، ووضعوا الإصبع ـ بكلِّ حرِّيَّةٍ ـ على الأخطاء ، والعثرات ، والتَّطرُّف ، أو المغالاة الَّتي وجدوها قد تطرَّقت إلى هذا العمل الجليل ، وما حال بينهم وبين هذه الحسبة الدَّقيقة ، وإبداء الملاحظة الصَّريحة عليه شهرة هؤلاء الكتَّاب ، والمفكِّرين العاملين في مجال التَّقديم العصريِّ للإسلام ، ولا مكانتُهم في ما كان يتَّسم به هؤلاء المفكِّرون المؤلِّفون ، من زهدٍ ، وتقوى ، وورعٍ ، وذلك لأنَّ رائدهم كان مجرَّد الإخلاص ، والاحتساب ، فأعربوا

عن آرائهم ، وملاحظاتهم ، وانطباعاتهم ، وما كانوا يتخوَّفونه من وراء ذلك من نتيجةٍ سلبيَّةٍ سيِّئةٍ في كلِّ اتِّزانٍ ، واقتصادٍ ، وإخلاصٍ ، وحيادٍ ، غير مدفوعين بنزعةٍ من النَّزعات .

وقد استقبل هؤلاء المفكِّرون ، والمجدِّدون بدورهم هذه « المحاسبة العلميَّة » والمراقبة الدِّينيَّة المخلصة ـ في أغلب الأحيان ـ في سرورٍ ، وانشراح صدرٍ ، وتلقَّوها بالقبول والشُّكر ، وعنوا بها عنايةً جدِّيةً ، واستفادوا منها في عملهم ، فجعلوه أنفع ، وأجدى ، وأعدل ، وأكثر خيراً للأمَّة المسلمة ، وللبشريَّة جمعاء ، وظهور هذين النَّوعين من العلماء ظلَّ مستمراً ومتَّصلاً منذ فجر التَّاريخ الإسلاميِّ ، وسيظلُّ إلى يوم القيامة ، كما ينبىء به الحديث النَّبويُّ الَّذي رواه البيهقيُّ :

« يحمل هذا العِلْم مِنْ كل خَلَفٍ عدولُه ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[1] .

والواقع : أنَّ وجود هاتين الطَّبقتين ضروريٌّ ، وعلى تعاونهما العلميِّ المتبادل يتوقَّف بقاء هذا الدِّين سليماً ، محافظاً على أصالته ، ونقائه ، بعيداً عن كلِّ تحريفٍ ، وعبثٍ ، وإفراطٍ ، وتفريطٍ ، وذلك هو الَّذي يغذِّي تطوُّره الفكريَّ ، والعقليَّ المستمرَّ ، ويجعله صالحاً لكلِّ عصرٍ ، ومصرٍ .

منذ مطلع القرن التَّاسع عشر المسيحيِّ ظهر في العالم الإسلاميِّ ـ الَّذي كان يعاني التَّدهور الفكريَّ ، والانحطاط السِّياسيَّ ـ اضطرابٌ فكريٌّ عجيبٌ[2] بفعل نفوذ أوربا السِّياسيِّ ، وتقدُّمها الماديِّ الحثيث ، وغزوها المتتابع ، وانتصاراتها المتواصلة في مجال العلم ، والعلوم التَّجريبيَّة ، ممَّا جعل القيام بعمليَّة « عرض الإسلام في الأسلوب العصريِّ » فرض كفايةٍ إذ كان مندوباً قبل ذلك ، فهؤلاء

---

(١) مشكاة المصابيح ، كتاب العلم ، الفصل الثَّاني .

(٢) اقرأ للاطِّلاع على مراحل ارتقائه ، وتطوره في الأقطار الإسلاميَّة كتاب المؤلِّف « الصِّراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربيَّة في الأقطار الإسلاميَّة » طبع دار القلم الكويتيَّة ، الطَّبعة الثالثة .

الشَّباب المثقَّفون ، ولا سيَّما الَّذين سافروا إلى أوربا في أواخر القرن التَّاسع عشر ، أو في أوائل القرن العشرين ، واحتكُّوا بأهلها ، وأمكنهم أن يختلطوا بالحكَّام الإنجليز ، أو المفكِّرين الغربيِّين ، قد تزعزعت جذور العقائد الإسلامية في قلوب كثيرٍ منهم بل تنكَّروا لها ، واشمأزوا منها ، ووقع منهم عددٌ كبيرٌ فريسةً الرِّدَّة الفكريَّة ، والحضاريَّة[1] .

هنالك نهض في مختلف نواحي العالم الإسلامي كتَّابٌ ، وعلماء حاولوا أن يواجهوا هذا الموقف الحرج ، وتقلَّدوا مسؤولية الدِّفاع عن الإسلام ، والشَّريعة الإسلاميَّة ، والحضارة الإسلاميَّة ، وتاريخ الإسلام ، والمسلمين ، ونظام حكمهم ، وتعليمهم ، وساهموا في القيام بهذه الخدمة المشرَّفة ، في كلٍّ من تركيَّا ، ومصر ، والشَّام ، والهند : كلٌّ حسب عقليَّته ، وثقافته ، ودراسته ، وتربيته ، وجدارته ، ومقدرته ، وعلى الرَّغم من الاعتراف بقيمة هذه المحاولة ، وجدواها - فقد انتشلت عدداً وجيهاً من النُّفوس الصَّالحة من حمأة تلك البلبلة الفكريَّة ، والردَّة الحضاريَّة ؛ الَّتي كانت تهبُّ أعاصيرُها الهوجاء في العالم الإسلاميِّ ، فإنَّها كانت تتَّسم بالأساليب الدِّفاعيَّة ، والاعتذاريَّة ، تبدو كأنَّها ترمي أوّلًا وقبل كل شيء إلى إزالة الفجوة - أو تضييقها على الأقل - بين الحضارة والقيم الإسلاميَّة ، والحضارة والمثل الغربيَّة ، كما كانت تنمُّ عن تقبُّل المصطلحات السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة الغربيَّة على علاتها ، أو تطبيقها على التَّعاليم الإسلامية ، والتَّاريخ الإسلاميِّ ، دون تحفُّظٍ ، واحتياطٍ ، وربَّما نجدها تنطوي على تأويلٍ باردٍ ، وتفسيرٍ غريب للإسلام ، وتعاليمه ، كأنَّه يهدف تقريب التَّعاليم الإسلاميَّة إلى المقرَّرات الغربيَّة ، أو المفاهيم الَّتي آمن بها الغرب .

ومن ثمَّ حاسب الرَّاسخون في العلم من العلماء المعاصرين هذه المحاولة - مع الاعتراف بقيمتها الجزئية - محاسبةً علميَّةً ، وأبوا أن تقبل الأمَّة المسلمةُ كلُّها هذا « الفهم الدِّينيَّ » الَّذي تنشئه هذه الكتابات ، وأخذوا بأيدي جماعةٍ كبيرةٍ من الشَّباب المسلمين المثقَّفين - الَّذين كانوا قد تأثَّروا بذلك - إلى الصِّراط المستقيم ، وعلى

---

(١) يرجع إلى رسالة المؤلِّف السَّائرة « ردَّةٌ ولا أبا بكرٍ لها » .

ذلك فقد سدُّوا منافذ « التَّحريف العالميِّ » ، الَّتي فتحتها كتابات هؤلاء الأفاضل و« بحوثهم » .

وقد تمَّ أكبر قسطٍ من هذا العمل الَّذي يمتاز بمتانته ، وعمقه ، واعتداله في الهند ؛ الَّتي كانت أكبر مسرحٍ للصِّراع بين الفكرة الإسلاميَّة ، والفكرة الغربيَّة بحكم كونها خاضعةً خضوعاً مباشراً لسيطرة الاستعمار البريطانيِّ ، وقد كانت الطَّبقة المثَّقفة المسلمة ، والشَّعب المسلم الهنديُّ يحمل الشَّيءَ الكثير من روح المقاومة ، وقوَّة التَّماسك أمام الزَّحف الغربيِّ المعنويِّ المدمِّر ، وذلك بفضل وجود مراكز التَّعليم الدِّينيِّ ، والثَّقافة الإسلاميَّة القويَّة في شبه القارَّة الهنديَّة ، وبتأثير العلماء الرَّبَّانيِّين ، وأصحاب القلوب المشرقة الصَّافية ، والحياة الإيمانيَّة ، الجميلة ، الجذَّابة ، المؤثرة للآجلة على العاجلة ، والتَّطوُّع ، والاحتساب على الرَّواتب ، والمناصب ، الَّذين لم تؤثر الحضارة الغربيَّة ، وقيمها ، ومثلها في حياتهم ، وتفكيرهم ، هذه الثروةُ لم تكن متوفرةً في كثير من البلاد الإسلاميَّة ، والعربيَّة ، أو كانت هذه الرُّوح قد ضعفت فيها ، واضمحلت من أجلِّ اضمحلال هذه العوامل ، والمؤثِّرات منذ مدَّةٍ طويلة .

ومن ناحيةٍ أخرى : قد ملأ قلوبَ الشَّعبِ المسلمِ الهنديِّ القيم كراهيةً وسخطاً ما واجهه من إخفاقِ حربِ الاستقلال المستميتة في ١٨٥٧م الَّتي قادها ضدَّ الحكومة الإنجليزيَّة ، والشَّعب البريطانيِّ الأوربيِّ المسيحيِّ ؛ الَّذي كان يمثِّل هذه الحضارة ، وهذه الفكرة ، وهذه الفلسفة للحياة ، وكان يحمل لواءها ، ويتبنَّى الدَّعوة إليها ، وقد انبثقت من هذه الكراهية والسُّخط حركةُ الخلافة الجبَّارة ، وحركة رفض الموالاة مع الإنجليز القويَّة في الرُّبع الأوَّل من القرن العشرين ، وكلُّ ذلك حال بين الشَّعب المسلم الهنديِّ ، وبين انجرافه مع تيَّار الإلحاد ، والرِّدَّة الحضاريَّة الَّذي كان ينطلق ويتدفَّق بكلِّ قوَّةٍ من أوربا .

كانت مقاومة المفاهيم ، والقيم الغربيَّة على قدمٍ ، وساقٍ تؤدِّي دورها في لون خاصٍّ ؛ إذ استرعى الأستاذ الكبير السَّيِّد أبو الأعلى المودودي في منتصف هذا القرن انتباه الطَّبقة المثقَّفة من المسلمين بمقالاته القيِّمة الَّتي كان يكتبها في مجلَّته الغرَّاء

« ترجمان القرآن » الصَّادرة مِنْ حيدرآباد ـ الهند ، في نقد الحضارة الغربيَّة ، ونظام الحياة الغربيِّ ، المقالات الَّتي تتميَّز بأسلوبها الهجوميِّ ، ونقدها اللاَّذع لحركة « التَّقدُّميَّة » و« التَّجدُّد » وفكرة « القوميَّة » المتطرِّفة الَّتي نجمت ، وباضت ، وفرَّخت في حضن الثَّقافة الغربيَّة ، وكذلك طَرَق موضوعاتٍ ، وقضايا في صميم الشَّريعة الإسلاميَّة ، والقوانين الإسلاميَّة ، تلك المباحث ، والقضايا الهامَّة الَّتي استهدفت لهجمات « المتجدِّدين » بصفةٍ خاصَّةٍ ، وسطَّر قلمُه حولها مقالاتٍ قويَّةً ، مؤثرةً ، معضدةً بالدَّلائل ، أمثال : الرِّبا ، والحجاب ، والجهاد ، والأضحية ، والرِّق ، وحجِّية الكتاب والسُّنَّة ، والأحوال الشخصية ، وما إليها من المسائل الهامَّة ، وسيكون من الإجحاف الكبير إذا لم نوفه حقَّه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هذه ـ الَّتي ظهرت فيما بعد في صورة كتبٍ ، ورسائل ـ ومؤلفاته ، ورسائله المستقلَّة من دورٍ رائعٍ في إعادة الثِّقة إلى الطَّبقة الذَّكيَّة ، المثَّقفة بالثَّقافة الغربيَّة ، بالإسلام ، وبقيمه ، وتصوراته ، وفي تخليصها من « مركَّب النقص » و« نفسية الهزيمة الدَّاخلية » حيال الإسلام وتعاليمه ، ممَّا جعل بعض الكتَّاب يدعوه : « متكلم الإسلام » .

ولكان من حسن حظِّ الإسلام ، وسعادة جدِّ المسلمين لو جعل الأستاذ المودودي هذا العمل وحده نصب عينيه ، وجنَّد له مواهبه الغنيَّة ، ووقف عليه حياته العلميَّة الخصبة ، ولكنَّه هبَّ يمارس عملاً آخر نستطيع أن نسمِّيه (الصِّياغة الجديدة للفكر الإسلاميِّ) واعتبره أساساً فكريّاً لنهضة المسلمين ، ولجمع كلمتهم ، وللجماعة الإسلامية ، ونعني بذلك بصفةٍ خاصَّةٍ كتابه المستقل الَّذي أسماه « المصطلحات الأربعة في القرآن » الَّذي فسَّر فيه تلك المصطلحات القرآنيَّة الأربعة ؛ الَّتي يدور عليها الإسلام ، وتقوم عليه تعاليمه ودعوته ، وإليها تستند « إقامة الحكم الإسلامي » أو « إقامة الدِّين » تفسيراً خاصّاً يتميَّز بالطَّابع السِّياسيِّ ، ويدور حول « حاكمية الإله » و« سلطان الرَّبِّ » يحدِّد علاقة العبد بربه في مفهومٍ خاصٍّ ، وفي حدودٍ معيَّنةٍ ، وينحصر به غرض نزول القرآن ، والدَّعوة الإسلاميَّة في تأسيس « الحكم الإسلاميِّ » و« إقامة الحكومة الإلٰهيَّةِ » فحسب .

وكان له موقفٌ خاصٌ هو نتيجةٌ طبيعيَّةٌ منطقيَّةٌ نحو « الوسائل » و« الغايات » والعبادة والذِّكر ، والأركان الأربعة العمليَّة .

والكتاب الَّذي بين يدي القارىء محاولةٌ مخلصةٌ ترمي إلى الإعراب عن « خواطر » و« خلجات » كانت تساور النَّفس من مدَّةٍ طويلةٍ ، وعملٍ بالوصيَّة النَّبويَّة : « الدِّين النَّصيحة » .

وقد أجَّلنا هذا العملَ سنين طوالاً رغم حوافز ملحةٍ كثيرةٍ إلى تحقيقها ، وأسئلةٍ كانت تتردَّد من جهاتٍ مختلفةٍ عن الجماعة ، وأسسها الفكريَّة ، وعن طبيعة الاختلاف لها ، وأسبابه ، والكتابة في هذا الموضوع شائكٌ دقيقٌ ، فله اتِّصال وثيقٌ بمجموعة حبيبةٍ من الإخوان الكرام ، والزُّملاء الفضلاء الَّذين يساهمهم المؤلِّف في كثيرٍ من مجالات العمل الإسلاميِّ ، والكفاحِ في سبيل القضايا الإسلاميَّة ، واتِّصال وثيقٍ بالحركة الَّتي لا ينكر فضلها في إيقاظ الفكر الإسلاميِّ ، وإعادة الثِّقة إلى نفوس كثير من الشَّباب بصلاحية الإسلام ، والقوَّة الكامنة فيه للقيادة في هذا العصر ، وكذلك كان المؤلِّف لا يأمن أن يستغلَّ هذا البحث لبعض مصالح سياسيَّةٍ أو حزبيَّةٍ ، أو يُحمل ذلك على اتِّجاهات شخصيَّة ، أو ردود فعلٍ لا يسلم منها الإنسان إلا إذا عصمه الله .

وإذا كان هذا هو الشَّأن، فالحديث في هذا الموضوع دقيقٌ محرجٌ ، ومثيرٌ للتَّشكُّكات ، والتَّساؤلات الكثيرة ، وقد سهُل على النَّاس الاسترسال إليها ، والتوسُّع فيها ، وصعُب عليهم حسنُ الظَّنِّ بصاحبه ، والتماس العذر له ـ وقد طال العهد بالنَّقد البريء النَّزيه ، المجرَّد من الأغراض السِّياسيَّة ، والدَّوافع الشَّخصيَّة ـ الَّذي لم يكن يبتغي به إلا وجه الله ، وحبَّ هذا الدِّين الَّذي هو مصدر كلِّ خيرٍ ، وسعادة ، وعزَّةٍ ، وقوَّةٍ ، وإيثاره على الأشخاص ، والجماعات ، والرِّئاسات ، والقيادات ، وعلى أصحاب المواقف المحمودة ، والمآثر الجليلة في الدَّعوة ، والتَّربية ، والجهاد ، والبطولات ، كما كان شأن أئمَّة الجرح ، والتَّعديل من المحدِّثين في أمر كبار الصَّالحين ، والزُّهاد والمثقَّفين ، وأئمَّة فنِّ التَّزكية ، والتَّربية ، وأمراء الجيوش الإسلاميَّة ، وقادة الفتح ، وخلفاء المسلمين[1] .

---

(١) يرى القارىء نماذج رائعةً من هذا النَّقد الصَّريح الأمين في كتب الجرح ، والتعديل مثل « كتاب المجروحين » لابن حبَّان : « وميزان الاعتدال » للذهبي ومقدِّمة صحيح مسلم .

وقد أضاف إلى هذه المشكلة : أنَّ منهج المؤلِّف الَّذي التزمه في تأليفه كان منهجاً علميَّاً يتَّسم بالإيجابيَّة ، والهدوء ، والابتعاد عن المسائل الخلافيَّة ، والمناقشات اللفظيَّة ، وإذا كان لابدَّ من ذلك تعرَّض له جانبيّاً[1] ، ثمَّ عاد إلى خطِّه الأوَّل من الحديث في المبادىء ، والأسس ، والأهداف ، والغايات ، ولم يكن من السَّهل عليه ، والمرغوب له ، العدول عن هذا المنهج ؛ الَّذي آثره لنفسه ، وحافظ عليه طوال حياته[2] .

ولم يقدم المؤلِّف إلى هذا البحث إلا حين عرف ، وعاشر كثيراً من الَّذين تخرَّجوا في المدرسة الفكريَّة الَّتي تقوم على كتابات الأستاذ المودودي وحدها ، وتعتمد على فهمه للدِّين ، وتفسيره له ، ورضعوا بلبانها ، ونشؤوا في أحضانها ، لا يدينون في ثقافتهم الدِّينيَّة ، وفهمهم لحقيقة الدِّين لمدرسة دينيَّةٍ أخرى ـ بمعنى المدرسة الواسع ـ أو لمكتبة إسلاميَّة أخرى ـ بمعنى المكتبة الواسع ـ وإذا كان لهما نصيبٌ في عقليَّتهم ، وثقافتهم الدِّينيَّة ، فهو نصيبٌ ضئيلٌ سطحيٌّ ، وأفزعته اتِّجاهات فكريَّةٌ ، وفهوم ، وتفسيراتٌ للدِّين بدت طلائعها في الحديث والكتابة والفكر والتأليف ، والعمل والتَّطبيق ، وخاف أن تنشأ طبقةٌ ، أو مجتمعٌ فيه عددٌ كبيرٌ من الشَّباب الأذكياء المثقَّفين ، والعاملين لمجد الإسلام المخلصين ، من أصحاب الهمة العالية ، والنَّظر البعيد ، والإيثار ، وروح التَّضحية في خدمة الإسلام والمسلمين على منهجٍ يختلف عن المنهج الإسلامي الأوَّل في الرُّوح ، والدَّوافع ، والنَّفسيَّة ، والعقليَّة ، والأهداف ، والغايات ، والمثل ، والقيم ، ويضعف ما جاهد له الرَّسول ، وأصحابه من إخلاص الدِّين لله ، والعمل للآخرة ، وروح « الإيمان والاحتساب »[3] المسيطرة على الحياة كلِّها ، السَّارية في الأعمال ،

---

(١) كما فعل في كتاب « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » .

(٢) يستثنى من ذلك كتابه « القادياني والقاديانيَّة » وهو الكتاب الوحيد الذي ألَّفه في الردِّ على طائفةٍ مارقةٍ تدَّعي الإسلام .

(٣) تشترط الأحاديث الصَّحيحة الكثيرة « الإيمان والاحتساب » لوقوع الأعمال الصَّالحة ـ حتَّى الفرائض والواجبات ـ موقع القبول عند الله ، واستحقاق الفاعل للثَّواب ، والأجر عليها ،=

والتَّصرُّفات بأسرها ، ويتحوَّل هذا الكفاح إلى مجرَّد عمليَّة تنظيمٍ جماعيٍّ ، أو محاولة الحصول على الحكم والسُّلطان للمسلمين ، وقد يكون تحوُّلاً لا رجعة بعده إلى الأصل ، والمصدر ، كمَّا جُرِّب ذلك مراراً في تاريخ الأديان ، والفرق ، والدَّعوات ، والحركات ، فأقبلنا ـ مضطرين علم الله ـ على التَّنبيه على هذا الخطر ـ ولو كان غامضاً ، أو بعيداً ـ فالحبُّ يبعث على الإشفاق ، والنُّصح يدفع إلى الإنذار .

والمؤلِّف يحمد الله على أنَّه وفقه لتأليف هذا الكتاب في حياة الأستاذ المودودي ، فقد وضعه في رمضان ١٣٩٨هـ (أغسطس ١٩٧٨م) ، وصدر من المطبعة في المحرَّم ١٣٩٩هـ (ديسمبر ١٩٧٨م) ، وبادرتُ بإرسال نسخةٍ منه مع رسالةٍ شخصيَّة رقيقةٍ إليه ، أعتذر فيها عن هذا النَّقد العلميِّ الَّذي كان رائده الإخلاص ، والإشفاق ، والنَّصيحة لله ، ولرسوله ، ولدينه ، وإبداء بعض الملاحظات عن بعض تحقيقاته ، وتعبيراته ، وقد ظلَّ الطَّرفان على صلاتٍ ودِّيَّةٍ ، وحسن ظنٍّ كلٍّ واحدٍ بصاحبه ، واعتراف ، وتقديرٍ ، وجاءني ردٌّ لائقٌ بمقامه العلميِّ ، والدَّعويِّ ، وحسن تلقِّيه للبحوث العلميَّة ، كتبها في ٢٣ من يناير ١٩٧٩م من لاهور ، يشكر فيها على هذه الملاحظات ، ويدعو المؤلِّف إلى مراجعة سائر كتاباته ، ومؤلَّفاته ، وإبداء ما يتخوَّف منه على الفكرة الدِّينيَّة الصَّحيحة ، ويقول : « إنَّني لا أستطيع أن أقول : إنِّي سأوافق عليها تماماً ، ولكنِّي سأتأمَّل فيها ، وإنِّي لا أعتبر نفسي فوق مستوى النَّقد ، واختلاف وجهات النَّظر » . وظهرت للكتاب طبعةٌ في باكستان اطَّلع عليها أعضاء الجماعة الإسلاميَّة ، وتناول الكتابَ المجلاتُ ، والصُّحُف الباكستانيَّة ـ بما فيها المجلات ، والصُّحف الَّتي تُعتبر لسانَ

= جاء في صحيح البخاريِّ « من صام رمضان إيماناً ، واحتساباً ؛ غفر له ما تقدَّم من ذنبه » ، و« من قام ليلة القدر إيماناً ، واحتساباً ؛ غفر له ما تقدَّم من ذنبه » ، وجاء بيان « الإيمان والاحتساب » في روايةٍ للبخاريِّ كما يلي : « رجاء ثوابها ، وتصديق موعودها » . وتلك هي روح الأعمال ، والقوَّة الَّتي تحرك الأمَّة للعمل ، والاحتفاظ بهذه الرُّوح إلى يوم القيامة مسؤوليةٌ عظيمةٌ على عاتق الدُّعاة ، والمصلحين في هذه الأمَّة .

حال الجماعة ـ بالنَّقد والتَّقريظ ، وعلقت عليه ، كما تحدَّثت عن الطَّبعة الهنديَّة الصُّحفُ ، والمجلات الإسلاميَّة الَّتي تصدر في الهند ، وبعض مجلات الجماعة ، وصحفها .

وفوجىء العالم الإسلاميُّ ، وفجع بوفاة هذا المفكِّر الإسلامي الكبير في ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩م ، وفوجىء المؤلِّف بالنَّبأ ، وهو في دلهي في حفلة المجلس الاستشاري للجماعات ، والقيادات الإسلامية في الهند ، وشاء الله أن يكون بجوار زملائه ، وأصدقائه أعضاء الجماعة الإسلاميَّة الهنديَّة ، وهم من أنشط أعضاء هذا المجلس الاستشاري العاملين ـ صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة ١٣٩٩هـ (١٣ من سبتمبر ١٩٧٩م ويلقى كلمة عزاءٍ ، وتأبينٍ في إحدى حفلات هذا المجلس الَّتي مثلت فيها كلُّ المنظَّمات الإسلاميَّة السِّياسيَّة ، وحضرتها شخصيات الشَّعب الإسلامي البارزة ، بمناسبة معركة الانتخابات القادمة للبرلمان الهندي ، ويدلي بحديثٍ ضافٍ على أثر عودته من العاصمة إلى مقرِّ عمله ، عن الرَّاحل العظيم ، لمندوب المعهد العالي للدَّعوة ، والفكر الإسلامي ندوة العلماء ـ لكهنؤ[1] ، وفي تفصيلٍ أكثر لمندوب صحيفة ندوة العلماء الأرديَّة « تعمير حياة » ، يذكر فيه صلته بالمرحوم الأستاذ المودودي الَّتي يرجع تاريخها إلى الثَّلاثينات الأولى من هذا القرن المسيحيِّ ، ومساهمته وإيَّاه في الدَّعوة والفكر ، مع مقتطفات من رسائله ، تلقي ضوءاً على ما كان بينهما من صداقةٍ ، وثقةٍ ، وتقديرٍ .

والمؤلِّف الآن يحمد الله على أنَّه لم يضطر إلى نشر هذه الملاحظات النَّقدية على إثْرِ وفاة الأستاذ المودودي ، وإن كان الحقُّ حقيقاً بأن يقال في الحياة ، وبعد الممات ، وقد جرى على ذلك كثيرٌ من علماء الإسلام ، فأبدوا آراءهم الحرَّة ، وملاحظاتهم الجريئة عن كبار الرَّاحلين بعد وفاتهم ، ولم يشعروا في ذلك بحرجٍ ، أو إساءة إلى الرَّاحلين ، والحقُّ أولى من الرِّجال ، ولكنَّ إبداء ما يريب ، ويحيك في الصَّدر في حياة مَنْ يتَّصل به هذا التَّعليق ، أو النَّقد ، أولى ، وأجمل ، وأيسر ، وأسهل من إبدائه بعد وفاته بأيَّامٍ ، وشهورٍ ، والله المسؤول أن يجزل له مثوبة

---

(١) وقد ظهر هذا الحديث في صحف النَّدوة العربيَّة وبعض المجلات في العالم العربيِّ .

الدُّعاة ، والمجاهدين ، ويغفر له الزَّلات الَّتي لا يخلو عنها المتحرُّون للحقِّ من الكتَّاب ، والمفكِّرين ، والعلماء ، والمؤلِّفين .

ونرجو : أنَّ إخواننا الَّذين ينتمون إلى « الجماعة الإسلاميَّة » سيكونون في مقدِّمة مَنْ يرحِّب بهذا الكتاب . ويقرؤه قراءة جدٍّ ، وإمعانٍ ، ولا يسارعون إلى اتِّهام هذا العمل بعصبيَّة حزبيَّةٍ ، أو بنزعةٍ شخصيَّةٍ ، أو إرضاء حاجةٍ ذاتيَّةٍ ، ولا يرون فيه معارضةً للحركة الإسلاميَّة ، أو محاولة إقامة الحكم الإسلامي الَّذي بدت تباشيره ساطعةً في الأفق ، ويجب أن يستبشر به كلُّ من يحبُّ هذا الدِّين ، ويسعى لمجد هذه الأمَّة ، ويعمل لإنهاض الإسلام ، والمسلمين .

والَّذين يحاولون أن يخدموا الدِّين بكل جدٍّ ، وإخلاصٍ ، ولا يريدون إلا إعلاء كلمة الله ، ورفع شأن الإسلام ، وينشدون الحقَّ ، والصَّواب ، ويحرصون على تصحيح « الفهم الدِّينيِّ » وتصعيده ، وإكماله ، والحقُّ هو المقياس الوحيد لديهم « أوَّلًا وأخيراً ـ لاجماعةٌ من الجماعات ـ مهما كان وثيق الصِّلة بها ـ ولا فردٌ من الأفراد ـ مهما كان عظيماً عنده ـ فإنَّهم دائماً يتلقَّون النَّقد الإيجابي البنَّاء ، والآراء ، والتَّوجيهات المخلصة ـ مهما خالفت آراءهم ـ بصدرٍ رحبٍ ، وقلبٍ منشرحٍ .

وكانت هذه الحسبة العلميَّة المخلصة النَّزيهة في طليعة العوامل ؛ الَّتي صانت الأمَّة المسلمة عن الانحراف عن الجادَّة ، والتَّحريف للدِّين ، والشُّذوذ الجماعيِّ ، والعثرة المردية في تاريخها الطويل ، ورحلتها الشَّاقَّة الشَّاسعة في ميادين الاجتهاد ، والتَّجربة ، والاستنباط ، والاستنتاج ، وإجهاد الفكر ، والرَّأي ، ويرجع إليها الفضل في تلقيح الأفكار ، وتنقيح الأنظار ، وتوسع المكتبة الإسلاميَّة الفقهيَّة التَّوسُّع الَّذي لا نظير له في تاريخ الدِّيانات ، والثَّقافات ، ودفع الحرج عن الأمَّة ، وإنارة السَّبيل للسَّالكين ، وحفظ القادة ، والزُّعماء ، والمفكِّرين ، والعلماء عن الافتئات في الرَّأي ، والإعجاب بالنَّفس وادِّعائهم ، أو ادِّعاء أتباعهم العصمة لهم ، وحفظ الأمَّة عن أن تقع فريسةً لغلوٍّ ، أو تطرُّف ، أو شذوذٍ ، أو عثرة .

وقد فُقدت هذه الحسبة ـ العلميَّة الدِّينيَّة ـ أو ضعُفت ضعفاً كبيراً في دياناتٍ أخرى ، خصوصاً في المسيحيَّة ، فكانت فريسة تحريف الغالين ، وانتحال

المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ونشأت أجمات كثيفةٌ ، وغاباتٌ مخيفة ، على أديم هذه الدِّيانات توارت عنها أصالتها ، وتعاليمها الأولى ، ولذلك شدَّدت الشَّريعة الغرَّاء على وجوب الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، والقيام بهما في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، وحذَّرت من التَّواني فيهما ، والمحاباة لأهل الوجاهة والسُّلطان ، وجعلت « كلمة حقٍّ عند سلطان جائرٍ » أفضلَ الجهاد ، وقام المسلمون ـ وخصوصاً علماؤهم ـ بهذه الفريضة في كلِّ زمنٍ فاسدٍ ، وحكم جائرٍ ، وسمح له أمير المؤمنين عمل لكلِّ ضعيفٍ ، ومغمورٍ ، ورحَّب به ، فقال : « لا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها »[1] وقال مرة : « امرأة أصابت ورجل أخطأ »[2] .

ولا يمنع من هذا التَّنبيه على خطأ ، أو زلَّةٍ ، والإرشاد إلى الأنفع الأصلح ، أو الأقوم الأسلم تبوُّءُ مَنْ تعرض لهذا الخطأ الاجتهاديِّ ، أو السهو ، والنِّسيان اللَّذين هما من خصائص الإنسان مكان قيادةٍ ، أو اشتغاله بمصلحة اجتماعيَّة للأمَّة ، أو سلامة نيَّةٍ ، أو غناؤه في كفاحٍ ، أو نضالٍ ، فقد كان الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ينبهون أفضل الرُّسل ؛ وخير البشر ـ ﷺ ـ على السَّهو ، وقد قال ذو اليدين لرسول الله ﷺ وقد صلى الرُّباعية اثنتين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟![3] وعزل أمير المؤمنين عمر ـ وهو أعرف المسلمين بمصالح

---

(١) كتاب الخراج للإمام أبي يوسف ص٧ .

(٢) أخرج عبد الرزاق عن عمر : أنه قال : « لا تغالوا في مهر النِّساء : فقالت امرأة : ليس ذلك لك يا عمر ! إنَّ الله تعالى يقول ﴿ وآتيتم احداهن قنطاراً ﴾ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ امرأة خاصمت عمر فخصمته » . وأخرجه الزُّبير بن بكار بلفظ « امرأة أصابت ، ورجل أخطأ » (راجع نيل الأوطار ج٦ ص١٧٠) .

(٣) روى الترمذيُّ في الجامع الصَّحيح بإسنادٍ عن أبي هريرة : أنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ انصرف من اثنتين ، فقال له ذو اليدين : أقصُرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟! فقال رسول الله ﷺ أصدق ذو اليدين ؟ فقال النَّاس : نعم . فقام رسول الله ﷺ فصلَّى اثنتين أخريين ، ثمَّ سلم ، ثم كبَّر ، فسجد مثل سجوده ، أو أطول ، ثمَّ كبر ، فرفع ، ثم سجد مثل سجوده ، أو أطول . سنن التِّرمذي أبواب الصَّلاة ، والحديث في الصَّحيحين ، والموطأ . سنن الترمذي (٣٩٩) .

الإسلام والمسلمين ـ سيدنا خالداً في معركة اليرموك ، وهي المعركة الحاسمة المصيريَّة في تاريخ الإسلام ، ونصَّب أبا عبيدة مكانه ، ولو أخذ المسلمون في ماضيهم عدم إحداث التَّشويش في صفوف المسلمين بعين الاعتبار ، وكفُّوا عن التَّنبيه على الزَّلل ، والخطأ ، لانقطع هذا التيار الحيويُّ المبارك من حركة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والحسبة في الدِّين ، والشَّهادة بالحقِّ عن جهاز الأمة الاجتماعيِّ ، والخُلقيِّ ، ووقف القلب عن توزيع الدَّم الصَّحيح إلى الشَّرايين ، والعروق ، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على أهل العلم ، والرأي ، وانجراف العامَّة للتَّيارات ، واختفاء كثير من حقائق الدِّين أعظم ، وأجلَّ من اعتراف هذا القائد ، أو الإمام ، أو العبقري بخطئه في التعبير ، أو تقصيره في الفهم ، أو التَّفهيم ، فإنَّ العصمة لله وحده ، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلا رسول الله ﷺ .

أمَّا « الجماعة الإسلامية » فهي أولى بالعمل بهذا المبدأ ، فدستورها الأساسيُّ ينصُّ على ذلك ، فيقول :

« لا يعتبرنَّ أحدٌ أحداً معياراً للحقِّ ، إلا رسول الله ﷺ ولا يظنُّه أعلى من أن يناله أحدٌ بالنَّقد ، أو يجد فيه مأخذاً ، ولا يسوغ لأحداً أن يخضع لآخر عقليًا ، وفكريّاً ، بل يجب عليه أن يقيس كلَّ إنسان بهذ المقياس الإلٰهيِّ الكامل ، ويضعه بعد القياس والوزن في مكانه الَّذي يستحقُّه »(١) .

ونحن نستبعد جدّاً من الجماعة الَّتي كان منطلقها من النقد الجريء الشَّامل لكلِّ العصور الإسلامية ، والطَّبقات الإسلاميَّة ، وتقييم الحركات ، والجهود تقييماً حرّاً بعيداً عن كلِّ عصبيَّةٍ جماعيَّةٍ ، وأحكامٍ تقليديَّة أن يكون عند أعضائها في الدَّاخل ، أو أصدقائها في الخارج ، تعظيمٌ يبلغ حدَّ التَّقديس لمؤسِّسها ، والدَّاعي إليها ، وأن تكون عندهم حساسيةٌ زائدةٌ في كلِّ ما يوجَّه له من نقدٍ ، أو ملاحظاتٍ ، أو مآخذ(٢) .

---

(١) دستور الجماعة الإسلامية الهنديَّة ـ معدَّلا ـ طبع المكتبة الإسلامية المركزيَّة .

(٢) كانت مفاجأة حقّاً للمؤلف حين تلقَّى رسائل حانقة تنبىء عن استياءٍ شديدٍ ، ونقدٍ لاذع من عدد من المنتمين إلى الجماعة في الهند على إثر صدور الطَّبعة الأرديَّة ؛ لأنه كان يتوقع منهم=

وقد ضرب الأستاذ أبو الأعلى المودودي لذلك مثلاً عمليّاً حينما وضع كتابه « التَّجديد وإحياء الدِّين » (باللُّغة الأرديَّة) الَّذي تناول فيه مآثر عددٍ من كبار رجال التَّجديد ، والإصلاح في تاريخ الإسلام بالنَّقد ، والتَّحليل ، ولم يحل بينه وبين أن يبدي آراءه ، وانطباعاته نحو هؤلاء الأعلام رغم عظمتهم ، وشهرتهم ، وعلوِّ مكانتهم عند النَّاس .

وهذا الكتاب الذي هو بين يدي القارىء الكريم محاولةٌ متواضعةٌ في هذا الاتجاه الَّذي سار فيه الأستاذ أبو الأعلى ، ومعذرةً ، فلا يطبق قانون « اتِّجاه واحد » (One way Traffic) الَّذي يُعمل به في تنظيم حركة المرور ، على النَّقدق العلمي ، والبحث عن الأصلح الأنفع ، وعرض حصيلة الدِّراسات ، وعصارة التفكير ، ولو طُبِّق هذا القانون على عالم التفكير ، والتَّأليف ؛ لشلَّ الذِّهنُ الإنسانيُّ ، وتعطَّلت الحركة العلميَّة ، ووقف سير الإصلاح ، والتجديد ، والموافاة بالمفيد الجديد إلى الأمَّة الَّتي هي كشجرةٍ طيِّبةٍ ، أصلها ثابتٌ ، وفرعها في السَّماء تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها .

والله يقول الحقَّ وهو يهدي السَّبيل .

١٣ من ذي القعدة الحرام ١٣٩٩هـ

٩ أكتوبر سنة ١٩٧٩م

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

رائي بريلي ، (الهند)

= أن يكونوا أوسع صدراً ، وأكثر احتمالاً من غيرهم من غلاة المنتسبين إلى جماعاتٍ أخرى ، وأنَّهم يميزون بين الخلاف الشَّخصي الحاقد ، والاختلاف المبدئي الهادف .

أريدُ أنْ أتحدَّث إلى الإخوان

المجمع الإسلاميُّ العلميُّ
لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم الرِّسالة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين ، وبعد :

فقد ظللت متَّصلاً بالعالم العربيِّ ، ملماً بأحواله ، مشاركاً في سرَّائه ، وضرَّائه ، مطَّلعاً ـ بقدر الإمكان ـ على حركاته وتيَّاراته كجزء من وطني الكبير ؛ الَّذي أعيش فيه ، وكقسمٍ رئيسيٍّ قياديٍّ من الأمَّة الكبيرة الَّتي أنا فردٌ من أفرادها ، واقتنعت بدراستي لتاريخ الماضي ، والحاضر ، وتجارب رجلٍ ساهم في مسيرة الدَّعوة ، والصَّحوة الإسلاميَّة في بلاده بعض المساهمة بتوفيق الله تعالى : أنَّه لا يغيِّر الوضع السَّائد على العالم الإسلاميِّ ـ بما فيه العالم العربيُّ ـ من الانهيار الَّذي يتهدَّده إلا حركةٌ شعبيَّةٌ قويَّةٌ أساسها الإيمان ، والتَّقوى ، والجهاد لإعلاء كلمة الله ، ومن أهدافها تطهير المجتمع من الأدواء الخلقيَّة ، والاجتماعيَّة ، وإيقاظ الوعي الإسلاميِّ ، المدنيِّ ، والسِّياسيِّ ، وتنميته ، وتطبيق نظام الحياة الإسلاميِّ في الأقطار الإسلاميَّة ، ورأيت : أنَّ الشرَّ قد تفاقم ، وأنَّ الأمر أعظمُ من أن يُتدارك بجهودٍ فرديَّةٍ ، ودروسٍ دينيَّةٍ ، وإلقاءِ مواعظَ ، وخطبٍ ، ونشر مؤلَّفاتٍ ، وكتب ، وسير الجمعيات سيراً وئيداً ، فالسَّيل لا يمسكه إلا سيلٌ مثله ، والتَّيَّار لا يدفعه إلا تيَّارٌ أقوى منه .

وعلمتُ من مصادر موثوقٍ بها ، وبأخبارٍ تكاد تكون متواترةً : أنَّ حركة « الإخوان المسلمون » في مصر كادت تحقِّق هذه الأمنية ، فقد أثَّرت في حياة البلاد

تأثيراً قوياً ، واجتمع عندها من قوّةٍ ، وإيمانٍ ، وعملٍ ، وعلمٍ ، وحماسٍ ، وتنظيمٍ ، ودعوةٍ ـ وزيادةٍ على كلِّ ذلك وجود القائد المهيَّأ لذلك ، والمختار له ، كالشَّيخ حسن البنَّا[1] ـ ما استطاعت به أن تغيِّر اتِّجاه البلاد من اللَّادينية إلى الدِّين ، ومن الاستهزاء بالدِّين إلى التمسُّك ، والتَّفاخر به ، وأوجدت في مجتمع مترهِّلٍ عدداً كبيراً من الشَّباب تعالوا عن سفاسف الأمور ، والدَّعة ، والرَّاحة ، وأثبتوا بطولتهم في حرب فلسطين ، وفي الاستقامة في المحن ، والشَّدائد ، ومواجهة الإغراءات المادِّيَّة ، والفرص المتاحة للحياة النَّاعمة الرَّخيَّة ، وتولِّي المناصب السَّامية الرَّفيعة .

ولم يقدَّر لي الخروج من الهند إلى أيِّ بلدٍ عربيٍّ ـ فضلاً عن مصر مولد الحركة ، ومركز نشاطها ـ إلا في سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) حين خرجت للحجِّ إلى الحجاز وأقمت في مكَّة ، والمدينة ـ شرَّفهما الله ـ شهوراً ، وكان المرشد العام الشَّيخ حسن البنَّا يشهد الموسم ، ويقوم بالدَّعوة واللِّقاءات منذ أعوام ، ولكن كان من سوء حظِّي : أنه لم يشهد الحجَّ في هذا العام لأسبابٍ قاسرةٍ ، فلم يقدَّر لي لقاؤه ، والاستفادة منه ، ووقع بعد ذلك من قتل النَّقراشي باشا ، واغتيال المرشد العام[2] وحلّ الجمعية ، ومطاردة الإخوان ، واغتيالهم ، وتعذيبهم ، ما يعلمه الجميع ، وما أصبح جزءاً من تاريخ الحرَّكات الإسلاميَّة ، إذا وفَّق الله أحداً لتدوينها بأمانةٍ ، وشجاعةٍ .

ويسَّر الله لي الرِّحلة إلى مصر في ربيع الثاني ١٣٧٠هـ ، يناير ١٩٥١م ، والإقامة في القاهرة نحو ستَّة أشهر ، وقُدِّر لي اتصالٌ وثيقٌ بقادة الحركة ، وأعضاء مكتب الإرشاد ، والعاملين في مجال الدَّعوة في تستُّرٍ ، واحتفاظٍ ؛ لأن الحركة كانت قد حلَّت قانونياً ، وكان كتابي : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » قد

---

(١) اقرأ انطباعاتي عنه ووصفي لشخصيته القويَّة ، وتحليلها ، في التَّقديم الَّذي قدَّمت به كتاب « مذكرات الدَّعوة والدَّاعية » للشيخ حسن البنا الشَّهيد طبع بيروت ، الطَّبعة الثانية ١٣٨٥هـ .

(٢) وذلك في ١٣ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٨هـ (١٢ فبراير ١٩٤٩م) .

صدر حديثاً من « لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر » بالقاهرة ، وقد شقَّ طريقه إلى الإخوان والمعنيِّين بالصَّحوة الإسلاميَّة ، ووجدوا فيه طلبتهم ، ورأوا فيه صورةً لما يطمحون إليه من الاعتزاز بالإسلام ، والحرص على عودته إلى مركزه الرِّياديِّ ، والقياديِّ ، وتقويم الحضارة الغربيَّة ، وما تحمله من قيمٍ ، ومثلٍ ، وما تتمتع به من « تنزيهٍ » و« تقديسٍ » في الأوساط المثقَّفة ثقافةً غربيَّةً عصريَّةً تقويماً علميّاً جريئاً ، فعنوا بدراسة هذا الكتاب حتَّى في المعتقلات عنايةً خاصَّة ، وقُرِّر في الكتب الَّتي ينصحون بقراءتها ، والعناية بها ، فكان لقائي مع الإخوان البارزين لقاء معرفةٍ ، وثقةٍ ، وتجاوبٍ في التَّفكير ، والانطباع ، ووضعوا ثقتهم فيَّ ، وأحلُّوني من قلوبهم ، وأفكارهم محلاًّ لا يحلُّه زائرٌ غريبٌ ، ونازلٌ طارقٌ ، وخطَّطوا لي رحلاتٍ إلى الأرياف ، والمدن يرافقني فيها بعضُ كبار الإخوان ، مثل الأستاذ الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي ، وغيره ، وسمحوا لي بالحديث التَّوجيهي إلى مجموعات من الإخوان في أمكنةٍ مختلفةٍ .

وتجلَّت لي بذلك جوانبُ قويَّةٌ مشرقةٌ من الحركة تستحقُّ كلَّ تقديرٍ ، وتشجيعٍ ، وجوانب تحتاج إلى مزيدٍ من العناية ، وتلك طبيعة كلِّ الحركات والمحاولات ، والتَّنظيمات ، والجمعيات ، بعد الجيل الإسلامي الدَّعويِّ الأوَّل ؛ الَّذي نشأ في أحضان النُّبوَّة ، وتخرَّج في المدرسة النَّبويَّة الأولى ، لا يُستثنى من ذلك صغيرٌ ، أو كبيرٌ ، وبعيدٌ ، أو قريبٌ ، والكمال لله وحدَه ، والعصمة لرسوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم .

وقد أغراني ما لقيته من الإخوان من الثِّقة ، والتَّقدير ، والاستجابة الحسنة ، بأن أسجِّل بعض انطباعاتي ، ودراساتي لحركة الإخوان ، وأعترف بها في سرورٍ غامرٍ ، وإعجابِ أخويٍّ مخلصٍ ، وأشير إلى بعض الجوانب التي تحتاج إلى مزيدٍ من العناية والاهتمام ، وذلك في اقتصادٍ ، واحترامٍ ، واتِّزانٍ ، وانسجام ، ورأيت ذلك حقّاً عليَّ ، وضريبةً للحبِّ والتَّقدير اللَّذين أكرموني بهما ، فللحبِّ ، والثِّقة ضريبةٌ تدفع عن طواعيةٍ ، وسرورٍ .

وقد بدأت أسجِّل هذه الانطباعات ، والملاحظات بشيءٍ من التَّخوُّف ،

والحذر ؛ لأنِّي جرَّبت : أنَّ بعض المنظمات يضيق صدرها ، وينفد صبرها ، بسماع الملاحظات التَّوجيهيَّة النَّقديَّة ، مهما كانت مخلصةً ، متواضعةً ، واشتغلتُ بالكتابة في بعض أيَّام جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ وشهر مارس من ١٩٥١م وعنونتُها بعنوان : « أريد أن أتحدَّث إلى الإخوان » ولمَّا انتهيت من الكتابة أطلعت الأستاذ صالح عشماوي رئيس تحرير صحيفة « الدَّعوة » الإخوانية ، فاستحسنها ، وأشار بأن ألقيها أوَّلاً في حفلةٍ خاصَّةٍ للإخوان ، ثمَّ تُنشر في « الدَّعوة » .

وفي يوم الخميس ١٤/٦/١٣٧٠هـ ـ ٢٢/٣/١٩٥١م حضرت محلَّ اجتماع أعضاء « مكتب الإرشاد » في منزل الأستاذ منير دلَّة بالجيزة ، ووجدت مجموعةً طيِّبةً من الإخوان ، والمشرفين على إدارتها ، أذكر منهم الأستاذ صالح عشماوي ، والأستاذ عبد الحكيم عابدين ، والأستاذ فريد عبد الخالق ، وفضيلة الشَّيخ محمد حسن الباقوري شيخ معهد مينا الدِّيني[١] ، والصَّاغ محمود لبيب ، والأستاذ منير دلَّه ، والأستاذ عبد الحفيظ الصَّيفي ، وآخرين .

وقدَّمني الأستاذ صالح عشماوي إلى الأساتذة الحاضرين ، وذكر أني هيَّأت كلمةً لهذه الجلسة ، ورحَّب الإخوان بها ، وقرأت هذه الكلمة ، فسمعوها بإصغاء تامٍّ ، وإقبالٍ عظيمٍ ، والأثر يبدو في وجوههم ، وعيون بعضهم ، وبعدما انتهيت منها ، تكلَّم الأستاذ عبد الحكيم عابدين[٢] وكيل الإخوان المسلمين ، وألقى كلمةً لطيفةً في التَّرحيب بهذه الكلمة ، وقال : إنَّه وجد فيها صورةً صادقةً لفكرة الأستاذ المرشد ، ونفحةً من نفحات تفكيره ، رحمه الله تعالى ، وأنَّه وأصحابه مغتبطون جدّاً بهذا التَّوجيه الأخويِّ ، ومقدِّرون له ، واستأذنني في نشر هذه الكلمة ، فقبلت ذلك بكلِّ سرورٍ[٣] .

---

(١) وقد كان بعدُ وزير الأوقاف والأزهر في حكومة الرَّئيس جمال عبد النَّاصر .

(٢) وكان موضع الأمانة ، والثِّقة من المرشد العام ؛ الذي كان متزوِّجاً بأخته ، وكان خطيباً مصقعاً ، وأديباً ، وشاعراً ، وحقوقيّاً ، توفي إلى رحمة الله تعالى في بيروت » .

(٣) مقتبس من كتاب « مذكرات سائحٍ في الشَّرق العربيِّ » للكاتب « الطَّبعة الثالثة ص١٧٠ » طبع مؤسَّسة الرِّسالة ، بيروت .

ونشرت لجنة الشَّباب المسلم للتَّأليف ، والتَّرجمة ، والنَّشر ، هذه المقالة في صورة رسالةٍ في ١٣٧١هـ وقدَّم له كاتب الإخوان الأكبر ، والعالم الدَّاعية المفكِّر المشهور فضيلة الشَّيخ محمد الغزالي ، وصدرت للرِّسالة طبعةٌ ثانيةٌ بتقديم المرشد العام للإخوان حينئذٍ الأستاذ الكبير حسن الهضيبي رحمه الله ! وهكذا قُرنت هذه الرِّسالة بشهاداتٍ ذاتِ قيمةٍ كبيرةٍ ، وتزكيةٍ من شخصيَّتين كبيرتين من قادة الدَّعوة والحركة ، وذلك إنْ دلَّ على شيٍ فإنَّه يدلُّ على رحابة صدر قادة جماعة الإخوان ، وسعة نظرهم ، وتقديرهم لما يزيد في ثروة الحركة ، وقوَّتها ، وإفادتها ، مع غض النَّظر عمَّن تصدر هذه الملاحظات ، وملابساته ، ووطنيته ، ومعرفته المحدودة بدور الجماعة الدَّعويِّ ، والجذري ، وما حقَّقت من نجاحٍ ، وتأثير يندر نظيرهما في تاريخ الجماعات ، والحركات المعاصرة ، وهكذا يجب أنْ تكون الجماعات الإسلاميَّة ، والدَّعوات ، والحركات الإصلاحيَّة ، والمسؤولون عن الصَّحوة الإسلاميَّة في كلِّ بلدٍ ، وزمنٍ ، فقد جاء في حديثٍ صحيحٍ : « الدِّين النَّصيحة »[1] .

ولمَّا كانت هذه الرِّسالة قد نفدت الطَّبعتان لها ، وشعرت بأنَّه قد جاء فيها بعضُ ملاحظاتٍ ، ولفتات نظرٍ يحتاج إليها العاملون في مجال الصَّحوة ، والانتفاضة الإسلاميَّة ، الَّتي تعدَّدت ، وتنوَّعت في الزمن الأخير في مختلف أصقاع العالم الإسلاميِّ ، وذلك في سبيل ترشيد الصَّحوة ، وتدعيمها ، وتوسيع دائرتها ، وتعميق أثرها ، فهي حاجةُ هذا العصر وفي صالح النَّشاط الإسلامي الدَّعوي ، والتَّربويِّ ، وشجَّعني على ذلك عنوان الرِّسالة وهو : « أريد أن أتحدث إلى الإخوان » . فالعاملون في مجال الدَّعوة والإصلاح ، والعمل الإسلامي ، والكفاح كلُّهم إخوان وإن اختلفت بيئاتهم ، ومجالات عملهم ، واختلفت أهدافهم في الأوَّليَّة ، والأولوية ، فكلهم دعاةٌ ، وعاملون في مجال المصلحة الإسلاميَّة .

---

(١) رواه مسلم (٥٥/ ٩٥) .

وإليهم جميعاً أُقدِّم هذه الرِّسالة ، وأقول مرَّةً ثانيةً : « أريد أن أتحدَّث إلى الإخوان » .

وصدق الله العظيم : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

بمبائي ١٨ من جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ

٢٩ من يناير ١٩٨٩م

المجتمع الإسلاميُّ المعاصر
فضله وقيمته ، حاجته ومتطلّباته ،
وطريق الانتفاع به

المجمع الإسلاميُّ العلميُّ
لكهنؤ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وتعريف بالرّسالة

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده ، وبعد !

فقد وُجِّهت إلى الكاتب دعوةٌ من وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة التابعة للجمهورية الجزائرية لحضور ملتقى الفكر الإسلامي الثَّالث والعشرين المنعقد بين ٢٨ من المحرم و٥/ من صفر ١٤١٠هـ ، (٢٩/ من أغسطس و٥/ من سبتمبر ١٩٨٩م) وهو ملتقى الفكر الإسلاميِّ الَّذي تلتقي فيه أكبر مجموعةٍ من الباحثين الإسلاميِّين ، والمعنيين بالتَّوجيه الدِّيني العلمي ، وقد حضر الكاتب لقائين لهذا الملتقى ، وساهم ـ بقدر الإمكان ـ في بحوثهما ، وألقى مقالين فيهما ، طُبِعَا ، وانْتَشَرا ، وقد كان حريصاً على أن يحضر هذا الملتقى الأخير لأهميَّة الموضوع الَّذي اختير لهذا الملتقى ، وهو : « نحو مجتمعٍ إسلاميٍّ معاصر » وأعدَّ له مقالاً ، وهيَّأت وزارة الشؤون الدِّينيَّة الجزائريَّة أسباب الرِّحلة له ، ولمرافقه العزيز الأستاذ محمد الرَّابع الحسني النَّدْوي ؛ الَّذي هيَّأ مقالاً للملتقى ، وكان مرافقاً للكاتب في الرِّحلتين السَّابقتين .

بدأ الكاتب ومرافقه العزيز رحلةً طويلةً ، كانت تحتوي على ثلاث قارَّات : أوربا ، وأفريقيا ، وآسيا ، تشمل : تركيا ، وإنكلترا ، والجزائر ، كانت مكَّة فيها نهاية المطاف في المخطط المقرَّر لهذه الرِّحلة ، لا يخامره شكٌّ ، ولا تردُّدٌ ، في حضور الملتقى .

ولكن إرادة الله غلابة ، فلمَّا انتهى في هذه الرِّحلة إلى « لندن » بعدما انتهى من حضور لجنة المركز للدِّراسات الإسلاميَّة في جامعة أكسفورد ، وقد حُجز للكاتب ،

ومرافقه مقعدان في الطَّائرة المتَّجهة إلى الجزائر ، وكانت قضيَّة ساعتين ، أو ثلاث ساعات ، لاستئناف السَّفر ، اضطرَّ لأسبابٍ صحيَّةٍ اضطراريَّةٍ إلى إلغاء السَّفر ، والتَّوجُّه إلى الهند رأساً صباح اليوم القادم ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ .

وقد كان أرسل مقاله إلى المسؤولين ، وعلى رأسهم ، وفي مقدمتهم رئيس الملتقى وزير الشؤون الدِّينيَّة للجزائر معالي بوعلام باقي ، والشَّيخ عبد الوهاب حموده ، عن طريق البريد ، لعلَّه عرض في الملتقى .

وقد كان الكاتب قد ركَّز الحديث على موضوع « المجتمع الإسلامي المعاصر » وما يتَّسم به من مزايا ، وفوارق عن المجتمعات غير الإسلاميَّة ، باعتباره هو المجتمع الوحيد الَّذي لا يزال محافظاً على الخيط الذي يربطه بالسَّماء ، ورسالاته ، وتعاليمه ، والعقائد ، والقيم ، والمثل ؛ التي أكرمه الله بها عن طريق النُّبوَّة الأخيرة ، والَّتي لا يزال الإيمان بها ، والتَّحمُّس لها ، والتهيُّؤ للاستجابة لكلِّ دعوةٍ تأتي عن طريقها ، وبين ما يعاني هذا المجتمع مِنْ حيرةٍ ، ومحنةٍ ، بسبب وجود نظامٍ تعليميٍّ ، وتربويٍّ ، ودعائيٍّ ، يتصادم بما ورثه هذا المجتمع من عقيدةٍ ، وشعورٍ ، وعاطفةٍ ، ورواسب ، وبقايا من آثار الدَّعوات الإسلاميَّة ، والبيئات الدِّينية الكريمة ، وما يواجهه من تخوُّفات ، ومناوءات من بعض القيادات في بعض الأقطار الإسلاميَّة ، تجعلها تركِّز عنايتها ، وما تملكه من وسائل ، وطاقات ، على اجتثاث جذور هذا الشُّعور الدِّينيِّ ، والتَّحمُّس للإسلام ، وسرعة الاندفاع إلى كلِّ دعوةٍ باسم البعث الإسلاميِّ ، والتجديد الدِّينيِّ ، وبذلك يتركَّز النِّضال بين القيادات ، وبين الجماهير المسلمة يشغل كليهما عن توجيه صلاحيَّاتهما ، وإمكانيَّاتهما عن الكفاح للقوات الأجنبيَّة ، وعوامل الفساد في العالم المعاصر ، ويجعل هذه الأمَّة الَّتي يقول الله عنها .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ويقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

ويقول مشيراً إلى الدَّور القياديِّ الفريد الَّذي نيط بها إلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

وبذلك وُجد في المجتمع الإنساني المعاصر كلِّه فراغٌ لا يملؤه ، ولا يمكن أن يملأه عنصرٌ آخر من العناصر المنتمية إلى الأنبياء السَّابقين ، أو قيادة متزعمة لمكافحة الفساد ، وتوجيه المدنية إلى جهةٍ صالحةٍ ؛ لانقطاع صلتها عن تعاليم السَّماء ، وجهود الأنبياء ، فكان أكبر فراغ في المجتمع البشريِّ كلِّه ، وأعظم أزمةٍ من الأزمات الحقيقية ، أو المصطنعة ، والمفروضة ، وصدق الله العظيم :

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

وقد استأنف الكاتب النَّظر في هذا المقال الَّذي أُعِدَّ لملتقى الفكر الإسلامي الجزائريِّ ، وأشاد بهذه النُّقطة إشادةً خاصَّةً ، وتناولها بمزيدٍ من الشَّرح ، والإيضاح ، ونوَّه بالطَّريق الَّذي يرجع به هذا المجتمع ـ الذي هو أمل البشريَّة ، وصاحب الرِّسالة الأخيرة ، والوِصاية إلى العالم ـ إلى دوره القياديِّ ، وإلى طبيعته الَّتي امتازت بها من أوَّل يومها ، وقد جاءت في ذلك عصارةُ دراساتِ الكاتب العاجز للقرآن ، الكتاب السَّماويِّ الخالد ، والسِّيرة النَّبويَّة الشَّريفة ، وتاريخ الإصلاح ، والدَّعوة ، والتَّجديد ، على مدى القرون ، والاطِّلاع على ما يعاني هذا المجتمع ، وينقصه ، وما يحتاج إليه في ضوء مشاهداته ، وتجاربه العلميَّة في مجال الدَّعوة في طبقات الأمَّة ، والمجتمع المختلفة ؛ حتَّى صار هذا المقال ـ بفضل الله ، وتوفيقه ـ مخطَّطاً عمليًّا ، ودستوراً يسير في ضوئه الدُّعاة ، والعاملون للإسلام ، ودعوةً لولاة الأمور ، وقادة البلاد الإسلاميَّة للتَّفكير الجادِّ المحايد البنَّاء الخاضع لحبِّ الواقع والحقائق الرَّاهنة ، وصيانة الجهود ، والطَّاقات عن أن تضيع في ما لا يُجدي نفعاً ، وعن الجهاد في غير عدوٍّ ، وعن الانشغال بمحاولة القضاء على هذه الثَّروة ؛ الَّتي

لا بديل لها ، ولا يمكن اقتلاعها اقتلاعاً تامّاً ـ كما تحقَّق ذلك في بعض الأقطار الَّتي حاول قادتها التَّغريب ، والعلمانيَّة ، وقَطْع صلة المجتمع عن الماضي قطعاً باتاً ، وظهرت في أكثرها الانتفاضة الإسلاميَّة ، والصَّحوة الدِّينيَّة (على اختلاف درجاتها ، في القوَّة ، والضَّعف ، والظُّهور ، والخفاء) ـ عسى أن تنال هذه السُّطورَ لفتةٌ كريمةٌ من هذه القيادات ، وتهيؤٌ للتَّفكير من جديد ، واستعراضٌ أمينٌ للواقع ، ومقارنةٌ بين الرِّبح والخسارة ، والنَّجاح ، والخيبة ، فإنَّ ذلك من الواجبات الأوليَّة ، والجذريَّة للقيادات الَّتي منحها الله هذه المجموعات الكريمة القويَّة ، ومنحها هذه الفرص المتاحة ، وصدق الله العظيم :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

والله وليُّ التَّوفيق

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
دارة الشَّيخ علم الله الحسني

٢٩/ من صفر ١٤١٠هـ
٣٠/ سبتمبر ١٩٨٩م

مقدِّماته

لكتبه حول الفِرَق والطوائف

١ ـ صورتان متضادتان .

٢ ـ القادياني والقاديانية .

صورتان متضادَّتان

لنتائج جهود الرَّسول ﷺ الدَّعويَّة والتَّربويَّة وسيرة الجيل المثاليِّ الأوَّل عند أهل السُّنَّة والشيعة والإماميَّة

دار الصَّحوة ـ القاهرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة عن الكتاب

الحمد لله وحده ، والصَّلاة ، والسَّلام على من لا نبيَّ بعده .

وبعدُ : فإنَّ هذا الكتاب الَّذي بين يدي القراء ليس كتاب جدلٍ كلاميٍّ ، وعقائديٍّ ، أو مناظرةٍ دينيَّةٍ يُثبت مذهباً دينيّاً خاصّاً ، وينتصر لمدرسةٍ فكريَّةٍ معيَّنةٍ ، أو ينفي معتقدات فرقةٍ ، وجماعةٍ ويزيِّفها ، فالَّذي يقرأ هذا الكتاب من خلال هذه النَّظرة لا يعود بطائلٍ ، فإنَّ موضوع نقد ديانة خاصَّةٍ والردِّ عليها تحويه مكتبةٌ واسعةٌ بلغات المسلمين المتعدِّدة ـ وخاصَّةً بالعربيَّة ، والفارسيَّة ، والأرديَّة ـ زاخرةٌ بمواد ومعلوماتٍ ، ولا يتسنَّى استعراضها بسهولةٍ ، فضلاً عن استيعابها .

أمَّا هذا الكتاب الصَّغير ، ففيه صورةٌ لتأثير التَّعاليم الإسلاميَّة ، ونتائج المجهودات التربويَّة والدَّعوية ، الَّتي قام بها الرَّسول ﷺ في العهد الأوَّل ، وتاريخ الإسلام النَّموذجيِّ (وهو عهد الرِّسالة ، والصَّحابة) ، وبيانٌ للميِّزة الخاصَّة الَّتي تميَّز بها سيِّد الأنبياء ، وأشرف المرسلين ﷺ عن دعاة العالم ، ومصلحيه ، ومربيه ، الَّذين قاموا بدور الإصلاح والتَّربية في مجالاتهم في عصورٍ مختلفةٍ ، وحقَّقوا نجاحاً محدوداً يُذكر ، ويشكر .

هذا الكتاب يعرض وضع المجتمع الإسلاميِّ الأوَّل ـ الَّذي كان غرس دعوة النَّبيِّ ﷺ وتربيته وحدَه ـ في ضوء التَّاريخ الموثوق به ، ويبيِّن النِّظام الغيبيَّ الإلهي لصيانة الصَّحيفة الَّتي جاء بها الرَّسول الأعظم ﷺ ، وهو كتاب الله الأخير ، والدُّستور الدَّائم لحياة الإنسان . وفي الكتاب محاولةٌ مخلصةٌ لتوضيح الفرق الأساسيِّ بين الموقف الَّذي يتَّخذه منشئو الحكومات ، ودعاةُ الإنقلاب نحو

أسرهم ، وعائلاتهم ، وشأن رسول الإنسانيَّة ﷺ مع أقاربه ، وأسرته ، وأهل بيته ، مع بيان ما اتَّصف به أهل بيته ، وأسرته ، ومن كان ينتمي إليه من أخلاقٍ ، وسماتٍ يتميَّزون بها عن أسر العظماء ، ومنشئي الحكومات ، وقادة الشُّعوب ، والزُّعماء ، وفيه أضواء على أهمِّيَّة عقيدة « وحدة النَّبيِّ » و« خاتميَّته » الَّتي أجمعت عليها الأمَّة ، والإيمان بأنَّه هو الشَّارع ، والمطاع وحده منذ ظهور الإسلام وحتَّى تقومَ السَّاعة .

ويقابل ذلك كلَّه ما يدين به الشِّيعة الإماميَّة في نتائج جهود الرَّسول الدَّعويَّة والتَّربويَّة ، وعن الجيل المثالي الَّذي كان ـ ويجب أن يكون ـ النموذج الدَّائم لتعاليم الإسلام ومقياس نجاح مَنْ بعث بها ، ودعا إليها ، وقد اتخذت هذه الفرقة هذه النَّظرة السَّلبيَّة القائمة شعار جماعتها ، وفرقتها مؤسساً كلُّ ذلك على ما كتبه أئمَّة الشِّيعة ، وعلماؤهم الكبار الثِّقات عن هذه الفرقة ، وجاء في كتبهم ومؤلَّفاتهم الموثوق بها منذ عهد مؤسِّسها الأوَّل إلى الإمام الخمينيِّ ، كما أنَّ كلَّ ما عزوناه إلى أهل السُّنَّة من العقائد ، ووجهات النَّظر عُرفت عنهم بطريق التواتر ، والإجماع ، وما ذكرناه من حقائق علميَّةٍ ، وتاريخيَّةٍ عن تاريخ الإسلام وعهد الصَّحابة ، والحياة النَّبويَّة ، يعتمد على كتب التَّاريخ المحايد ، وشهادات المسلمين ، وغير المسلمين المنصفين المحقِّقين .

وقد تركنا إلى الفطرة السَّليمة ، والذَّوق الصَّحيح ، والعقل العام وحدَه ـ ولا يخلو منه زمانٌ ـ الحكمَ في اختيار التَّصوير والتَّعبير الَّذي يليق بشأن نبيٍّ يعتبر أعظمَ هادٍ ، ومربٍّ ومصلحٍ في تاريخ الإنسانيَّة ، وأنجح نبيٍّ بنصِّ القرآن ، وشهادة التَّاريخ ، وهو ما تقتضيه بطريق الضَّرورة ، والبداهة الخصائصُ النَّبويَّة الفذَّة الَّتي اتصف بها بين الأنبياء والمرسلين فضلاً عن الدُّعاة ، والمربِّين ، وذلك ما تضافرت عليه شهادات المؤرِّخين المسلمين ، وغير المسلمين .

وتساءلنا بعد ذلك هل يتَّفق التَّصوير الَّذي يلحُّ عليه الشِّيعة الإماميَّة لجهود النَّبي ﷺ والجيل المثاليِّ الأوَّل ، واتَّفقت عليه كلمتُهم وما هو كاللَّازم لما يثبتونه ، ويقرِّرونه مع الدِّين الَّذي يوجه إلى الإنسانيَّة كلِّها رسالةَ الهداية ، والسَّعادة ،

والحبِّ ، والإيثار ، والتَّضحية ، ويضمن التَّغيُّر الجذريَّ العميق في سلوك الإنسان وأخلاقه إذا أخذ بهذه التَّعاليم في كلِّ عهدٍ وجيل ، ويتحمَّل مسؤولية إنقاذه من حضيض البهيميَّة الأخيرة إلى قمَّة الإنسانيَّة العالية ؟

وقد وُضع هذا الكتاب أصالةً في أردو ، ونقله الأستاذ سعيد الأعظمي النَّدْويُّ رئيس تحرير مجلَّة « البعث الإسلامي » إلى العربيَّة ، وأضاف إليه المؤلِّف زياداتٍ ذاتَ قيمةٍ بقلمه ، وللمترجم شكر المؤلِّف .

١٩/ ٢/ ١٤٠٥هـ	**أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي**
١١٦١٤/ ١٩٨٤م	**المجمع الإسلاميُّ العلميُّ لكهنؤ (الهند)**

القادِيانيُّ والقاديانيّة

دار القلم ـ الكويت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمةٌ بين يَدي الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد فقد ظهرت الدِّيانة القاديانيَّة في آخر القرن التَّاسع عشر المسيحيِّ في الهند بعد استقرار الحكم الإنجليزيِّ فيها ، وهي ثورةٌ على النُّبوَّة المحمَّديَّة ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وعلى الإسلام ، ومؤامرةٌ دينيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ ، **إن وجد لها نظير في الخطر والضَّرر على الإسلام ، ففي الحركة الإسماعيليَّة الباطنيَّة التي تولَّى كبرها عُبيد الله بن ميمون القدَّاح في القرن الثالث الهجريِّ ، وأشك أنها بلغت مبلغ الأولى ـ القاديانية ـ في أصالة الفساد . ودقة المؤامرة ، ومعاداة الإسلام .**

وتبنَّتها الحكومة الإنجليزيَّة ، واحتضنتها ، وساعدتها العوامل الاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والفكريَّة الكثيرة الَّتي توفَّرت في عصر ظهوره ، فانتشرت على بعدها من الإسلام ، وأصبحت طائفةً كبيرةً يحسب لها الحساب ، وأصبحت « قاديان » مركز دعوةٍ ، ودعايةٍ ، وسياسةٍ يدين لها ، ويؤمُّ شطرها بعضُ كبار المثقَّفين ـ الثَّقافة العصريَّة ـ ورجال الدَّولة ، ولا يُرى لها نشاطٌ إلا في المناظرات ، وإثارة الشُّكوك ، والشُّبهات في المسلمين ، وتأييد السِّياسة الإنجليزيَّة ، ونشر الدِّعاية لعقيدتها الخاصَّة في الهند وخارج الهند ، حتَّى انقسمت الهند عام ١٩٤٧م وتكوَّنت باكستان ، وفرضت الحكومة الإنجليزيَّة الرَّاحلة عن الهند ظفر الله خان على باكستان كوزيرٍ للخارجية ، وانتهز الأخير فرصة سلطته بكلِّ حزمٍ ، وعزمٍ ، فشحن الوزارة الخارجيَّة ، والمفوَّضيَّات في عواصم العالم بالقاديانيِّين ، ودسَّهم في مصالح

الحكومة الأخرى ، وسلَّطهم على رقاب الموظفين المسلمين ، وتسرَّبوا في الجيوش الباكستانيَّة، واحتلُّوا مناصب خطيرةً في الجيش، وفي الشُّرطة وفي مصلحة الطَّيران .

وقد كوَّنوا إمارةً حرَّةً في بنجاب ، تسمَّى « الرَّبوة »[1] وهي مستعمرةٌ قاديانيَّةٌ لا يُوظَّف فيها إلا القاديانيُّ ، ويمكن أن تشبَّه الرَّبوة في باكستان بإسرائيل في فلسطين ، وكلاهما جاثمٌ على صدر المسلمين ، وقائمُ بينهم بالمرصاد .

وبدأت القاديانيَّة توجِّه دعوتها ، ورسالتها إلى البلاد العربيَّة والإسلاميَّة ، وبدأت تظهر في العراق ، وسورية ، وتنتشر في إندونيسيا[2] ، ومن أعزِّ أمانيها ، وأحلامها ، ومن أعظم مطامحها ، أن تنتشر في جزيرة العرب ـ مَهْد الإسلام ، وعاصمة محمَّدٍ عليه الصَّلاة ، والسَّلام ـ وأن يكون لها مركزٌ قويٌّ في مكَّة ، أو المدينة شرَّفهما الله ، وأعاذهما من كلِّ فتنةٍ وإلحاد ! وبدأت تُعنى بالجهات القاصية في قارة إفريقيَّة ، والدُّول الإسلاميَّة النَّاشئة ، ولا تضيِّع فرصةً لنشر دعايتها ، وتوجيه دعوتها في المؤتمرات السِّياسيَّة والنَّدوات العلميَّة العالميَّة ، والمؤسَّسات الدِّينيَّة الكبيرة .

لقد فزع علماء المسلمين ورجال الدِّين لهذه الفتنة من أول يومها، وكان أوَّل من فزع لها علماء الهند بطبيعة الحال ، فحاربوها بأقلامهم ، وألسنتهم ، وعلمهم ، وذلك أقصى ما كان يمكن في عهد الدَّولة الإنجليزيَّة ، وكان في مقدِّمة هؤلاء المجاهدين الشَّيخ محمد حسين البتالوي ، ومولانا محمَّد علي المونكيري مؤسِّس ندوة العلماء ، والشَّيخ ثناء الله الأمرتسري ، والعلامة الكبير الشَّيخ أنور شاه الكشميريُّ ؛ الذي أقلقته هذه الفتنة ، وشغلت خاطره ، وتفكيره واستولت على مشاعره. وكان من أنشط الجمعيات والجماعات في محاربة هذه الفتنة الباغية جمعية الأحرار وعلى رأسها ، وفي مقدِّمتها الخطيب المصقع السَّيد عطاء الله البخاريُّ

---

(١) سمَّوها الربوة ليطبقوا عليها قوله تعالى ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] وهذا هو المنطق القادياني المعروف .

(٢) يقال إنَّ عدد من يدين بها كبيرٌ ، ومنتشر في إندونيسيا ، ومنهم بعض كبار المثقَّفين ، ورجال السِّياسة .

الأمرتسري[1] ، ومن هؤلاء الموفَّقين الدكتور محمَّد إقبال الَّذي كان من كبار المثقَّفين المتنوِّرين الَّذين أنجبهم العالم الإسلامي في العصر الأخير ، ومن كبار الدُّعاة إلى الاتحاد الإسلاميِّ المتمسِّكين بمبدأ التسَّامح ، ومع ذلك كان أوَّل من دعا إلى فصل القاديانيِّين عن المسلمين ، واعتبارهم أقليةً غير مسلمةٍ .

وأطبق العلماء على تضليل القاديانيِّين ، وتكفيرهم ، وأصبح ذلك كلمة إجماعٍ لم يشذ منها إلا شاذٌّ ، وأفتوا ، وألَّفوا في ذلك مؤلفاتٍ كثيرةً ، وأصدرت مراكز الفتوى فتاوى صريحةً بكفرهم وارتدادهم عن دين الإسلام ، وأصدرت محكمة بهاولبور سنة ١٩٣٥م ـ بعد مناقشةٍ طويلةٍ دامت عامين كاملين واشترك فيها كبار علماء أهل السُّنَّة ، وكبار علماء القاديانيَّة ـ حكمها بكفر القاديانيَّة ، وعدم حِلِّ نكاح المسلمة بالقاديانيِّ ، وكتب القاضي الفاضل محمد أكبر خان حيثيات الحكم في تفصيلٍ ، واستدلالٍ ، وحكم بارتداد القاديانيِّ ، وأنَّ نكاح عائشة بنت إلهي بخش مع عبد الرزَّاق القاديانيِّ باطلٌ شرعاً ، وقد استعرض دلائل الفريقين ، وناقشها في نحو مئة وخمسين صفحةً أصبحت من المصادر العلميَّة ، والمراجع القضائيَّة في هذا الموضوع[2] .

ولما اشتدَّ خطب القاديانيَّة ، وكادت تستولي على باكستان ـ الدَّولة الإسلاميَّة الكبرى ـ ويفلت الزِّمام من يد الإسلام ؛ فزعت الجماعات الإسلاميَّة ، والأحزاب المختلفة ، والشَّخصيات الدِّينيَّة بهذا الوضع الشَّاذِّ ، واجتمع منهم ثلاثةٌ وثلاثون ممثلاً من رؤساء الجمعيات ، والجماعات الدِّينية ، وكبار العلماء في باكستان في يناير عام ١٩٥٣م في كراجي ، فطلبوا من الحكومة أن تجعل القاديانيِّين أقليةً غير مسلمةٍ لها حقوقها ، وأن تخصِّص لهم ما يستحقُّون حسب عددهم من المقاعد في البرلمان الباكستانيِّ ، وما يستحقُّون من الوظائف في مختلف المصالح ، والإدارات ؛ حتَّى لا يستولوا على أداة الحكومة ، والجهاز الإداري في باكستان ، ولا يضايقوا المسلمين في دولتهم الَّتي أسَّسوها بدمائهم ، وأشلائهم .

---

(١) توفي إلى رحمة الله في ربيع الأول سنة ١٣٨١هـ (أغسطس ١٩٦١م) .

(٢) راجع فيصله « مقدِّمة بهاولبور » طبع في ١٩٣٥م في لاهور في اللغة الأردوية .

وتصاممت الحكومة عن هذه المطالبة العادلة الصَّارخة ، ولم تُعرها شيئاً من العناية ، فاضطر قادة الفكر إلى حركةٍ عامَّةٍ تُبدي السُّخط العامَّ ، وتقنع الحكومة بتغلغل هذه الفكرة ، والرَّغبة في طبقات الجمهور ، وكانت حركةً شعبيَّةً هائلةً لم تشهد البلاد مثلها منذ عهدٍ بعيدٍ ، وقد أضعفت هذه الحركة القاديانيَّة كثيراً ، وأقصتها عن الحياة العامَّة ، والمجتمع الإسلاميِّ ، وانتهت بسحب ظفر الله خان عن الوزارة أخيراً ، ولكنَّها لا تزال قوَّةً في الدَّاخل ، ودعايةً في الخارج ، ولا تزال خطراً على الفكرة الإسلاميَّة ووحدتها في العالم الإسلاميِّ ، وعلى الجيل الجديد الَّذي لم يهضم الإسلام ، ولم يتشرَّب تعاليمه ، وثقافته ، ولم ترسخ فيه العقيدة الإسلاميَّة الأصيلة ، ولا تزال نشيطةً في بثِّ دعوتها ، وعقيدتها في الأقطار العربيَّة الَّتي لا تخلو من الفوضى الفكريَّة ـ كغيرها من الأقطار ـ وجهل العقيدة الإسلاميَّة في بعض الأوساط وقلَّة الحميَّة الدِّينيَّة في بعضها ، أضف إلى ذلك جهل إخواننا العرب الشَّباب لحقيقة القاديانيَّة ، وتاريخها ، وعقائدها ، وعجزهم عن الاطلاع على مصادرها ، ومؤلفات مؤسِّسها ، وانخداعهم بالدِّعايات ، وتأييد ظفر الله خان لبعض القضايا الإسلاميَّة ، وبعض مواهبه وشهرته الَّتي لا صلة لها بالعقيدة ، وصحَّتها ، والَّتي يُرزقها الكافرُ والمؤمنُ ، والفاسقُ والصَّالحُ .

وقد عني بعض كبار العلماء في مصر ، والشَّام بالردِّ على القاديانيَّة ، وكانت لهم في ذلك مواقف محمودةٌ يستحقُّون عليها الشُّكر ، والتَّقدير ، ولم يمكنهم الاطلاع على العقيدة القاديانيَّة ، وطبيعتها ، وتاريخها ، والدَّور الَّذي مثَّلته ، لأنَّ المكتبة القاديانيَّة لا تزال في « أردو » ، ومؤلفات المرزا غلام أحمد العربيَّة ـ على قلَّتها ـ يضنُّ بها ، ويحرص على إخفائها ، فلم تكن كتابات علمائنا في البلاد العربيَّة ـ على قيمتها العلميَّة والدِّينيَّة ـ تصويراً دقيقاً صادقاً للدِّيانة القاديانيَّة ، وما تشمل عليه من طامَّاتٍ ، وقد وجدت في زياراتي للشَّرق العربيِّ ، وإقامتي في حواضره ، وعواصمه رغبةً ملحَّةً في نقل العقائد القاديانيَّة ، وتعاليمها إلى العربيَّة ، وتعريفها إلى العلماء العرب ، حتَّى يصحَّ لهم الحكم عليها ، ويمكنهم نقدها ، وتزييفها .

كلُّ ذلك أقلق شيخنا الجليل العارف الكبير مولانا عبد القادر الرأي

بوري[1] الذي يلتهب غيرةً على الإسلام ، وعقيدته ، وحماسةً في الدفاع عن كرامة الرَّسول ، وعرضه ، والَّذي هو من أعرف النَّاس بأخطار القاديانيَّة ، وأهدافها ، قد عاصر ولادة القاديانيَّة ، ونشوءها وقابل مؤسِّسها ، وجلس إلى صاحب فكرتها وسرِّها الحكيم نور الدِّين ، وكان دائماً من وراء الجهاد ضدَّ الحركة القاديانيَّة في بنجاب ومدده الرُّوحي ، وسنده الدِّيني ، وأمرني بتأليف كتابٍ بالعربيَّة ، أعرض فيه الدِّيانة القاديانيَّة ، وعقيدتها ، وتاريخها ، وقد حثَّه على ذلك ندورة ما يقدَّم في هذا الموضوع إلى المثقَّفين العرب ، فقد انعقدت النَّدوة العلميَّة العالمية في لاهور في يناير ١٩٥٨م ، وحضرها وفودٌ من العالم العربيِّ ، وتساءل كثير من أعضائها عن القاديانيَّة ، ولم يجد أصدقاؤنا ـ على شدَّة حرصهم ـ ما يقدِّمونه إلى هؤلاء العلماء .

وصلت إلى لاهور على إثر هذه النَّدوة العلميَّة ، فكان الشيخ ، وكان أصدقائي الكثيرون في انتظاري ، وكان الشَّيخ مصمِّماً على ألا يتركني حتَّى أؤلِّف هذا الكتاب ، ورأيت منه الجدَّ والحرص الشديد على هذا التأليف الَّذي يراه حاجةً من حاجات هذا العصر الإسلاميَّة ، ودفاعاً عن كرامة الرِّسالة المحمَّديَّة الأخيرة ، الَّتي تلاعب بها ، واجترأ عليها هذا الجسور ، وعرَّض الإسلام للخطر الدَّائم ، ورأيت من سعادتي أن يقع عليَّ اختيار أحد كبار المخلصين ، وأن أكون جندياً صغيراً للدِّفاع عن الإسلام ، وأن أنافح عن عِرْض محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام ، وعن حماه ، وأردَّ عنه الكلاب ، والذِّئاب .

وكنت مكلَّفاً بدراسة المكتبة القاديانيَّة الضَّخمة الثَّقيلة الَّتي خلَّفها مؤسِّسها ، وبعض أتباعه ، واستعراضها ، ولم يتَّفق لي ذلك من قبل[2] ؛ إذ لم يكن شيءٌ أثقل

---

(١) استأثرت به رحمة الله تعالى في ١٤ ربيع الأول من سنة ١٣٨٢هـ (١٦ أغسطس ١٩٦٢) في لاهور ، فهوى بذلك علمٌ من أعلام الإصلاح ، والتَّربية ، واليقين ، والمعرفة ، رحمه الله تعالى ! .

(٢) سبق للمؤلف بحث في الموضوع أسماه « القاديانيَّة ثورة على النُّبوَّة المحمَّدية والإسلام » ولكنَّه بحثٌ موجزٌ ونظرةٌ عجلى في القاديانية ، لم يتعرَّض المؤلف لأجلها للمكتبة القاديانية ، واقتصر فيها على بعض النقول ، والآراء .

عليَّ ، وأبغض إليَّ من قراءة هذه الكتب الضَّخمة الَّتي كتبت في أسلوبٍ ثقيلٍ ، لا تفيد قارئها علماً جديداً ، ولا تروِّح نفسه ، فليس فيها علمٌ غزيرٌ ، ولا طرافةٌ ، ولا متعةٌ أدبيَّةٌ ، ولكنِّي عزمت على ذلك ، واعتكفت في حجرة من حجرات منزل الوجيه الفاضل الشَّيخ عبد الحميد عضو البرلمان الباكستاني ، والوزير السَّابق ، وحضَّر لي الإخوان مكتبة القاديانيَّة ومن كتبها ما يحتوي على أكثر من ألف صفحة ، منها ما يشمل على أقلَّ منه ، وعكفت على مطالعتها والاقتباس منها ، ثمَّ بدأت أكوِّن رأيي ، وفكرتي ، فأكتب ، وأؤلِّف ، حتَّى تمَّ الكتاب في قرابة شهرٍ ، وكان ذلك في اليوم السَّابع والعشرين من فبراير عام ١٩٥٨م ، والحمد لله الَّذي بعزَّته ، وجلاله تتمُّ الصَّالحات .

وقد كان دليلي في هذه المكتبة الواسعة صاحب هذه المكتبة مولانا محمَّد حياة الَّذي يكاد يكون دائرة معارف القاديانيَّة . وله اقتدارٌ عجيب ، واستحضارٌ غريبٌ لكلِّ ما يتَّصل بالقاديانيَّة ، وكنت أقتبس من كلتا المكتبتين الصَّامتة ، والنَّاطقة ، واعترف أنِّي لم أكن أستطيع أن أؤدِّي مهمَّتي لولا مساعدة هذا الأستاذ الكبير ؛ الَّذي يتهيَّبه الدُّعاة القاديانيُّون ، ويتحامون مناظرته .

وأذكر بالشُّكر ، والتَّقدير المجاهد الكبير الشَّيخ محمد علي الجالندهري ، أمين « مجلس تحفظ ختم نبوت » ، وقد كان من كبار المرحِّبين بفكرة التَّأليف ، والمشجِّعين لإتمامه ، كما أشكر الأساتذة لال حسين أختر ، واحسان أحمد الشُّجاع آبادي ، وعبد الوحيد ، وعبد القادر بما نلت منهم من مساعداتٍ ، ومصادر قيِّمةٍ في الموضوع .

وأخيراً لا آخراً يدين مؤلِّف الكتاب للأستاذ الكبير المرحوم محمد إلياس البرني ؛ لما أفاد من كتابه العظيم « قادياني مذهب » ، الَّذي يعتبر موسوعةً في المعلومات عن القاديانيَّة ، وكان له توجيه كبيرٌ في وضع المخطَّط لتأليف هذا الكتاب ، رحم الله المؤلف ؛ وجزاه عن الإسلام خير الجزاء !

أمَّا بعد : فقد كتبت هذا الكتاب في أسلوبٍ عصريٍّ شائقٍ ، وتحاميت الأسلوب الجدلي القديم ، حتَّى لا يزهد في قراءته الشَّباب المثقف ، وتناولت شخصية

مؤسس الدِّيانة بالدراسة ، والتحليل العلميِّ ، وذكرت كيف تطوَّرت فكرتُه ، وعقيدتُه ، وانتقدت الدِّيانة ، وصاحبها في أسلوبٍ علميٍّ نزيهٍ ، وتحرَّيت الدِّقَّة ، والصِّحَّة ، والأمانة في ترجمة العبارات والنُّصوص ، وحكاياتها ، والإحالة إلى الصَّفحات ، وذكرت المصادر القاديانيَّة مع بيان طبعاتها ، لأنَّ القاديانيِّين عُرفوا بالتَّغيير في الطَّبعات المختلفة ، واشتهروا بالمكابرة ، وجحود النَّقل .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب الصَّغير منيراً للفكر ، وزاداً للدُّعاة ، ومغنياً عن الأسفار الكبيرة .

وصلَّى الله على خير خلقه ، وخاتم رسله ، وأنبيائه سيِّدنا محمدٍ ، وآله ، وصحبه ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

سلخ شعبان ١٣٧٧هـ

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

مقدِّماته

لكتُبه في الحضارات والمدنيات

١ ـ المسلمون تجاه الحضارة الغربية .

٢ ـ الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل الجديد المثقَّف .

٣ ـ الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية .

٤ ـ بين الدين والمدنية .

المسلمون

تجاه الحضارة الغربيَّة

دار المجتمع للنَّشر والتَّوزيع
جدَّة (السُّعوديَّـة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

استخدم الغرب لتسخير العالم الإسلاميِّ ، وإبقاء سيطرته عليه وسائل لا يُعرف لها مثيلٌ في تاريخ استيلاء أمَّةٍ على أمَّةٍ ، فقد اشتركت في هذا الغزو عناصرُ عديدةٌ من العاطفة ، والقوَّة ، والعلم ، وتفكير علماء الغرب ، ومفكِّريه ، ومخطِّطيه ، والدَّهاء ، والمكر ، أو ما نسميه بالتَّدجيل .

فاقترن الغزو العسكريُّ بالغزو الفكريِّ والسِّياسيِّ ، وساعد الغربَ في تحقيق هذه الغاية تدهورُ البلاد الإسلاميَّة في عصر الانحطاط ، وعدم استقامتها في الاحتفاظ بروح الدَّعوة ، والجهاد الَّتي كانت تدفعه ، والجمود ، والتحجُّر في العلم ، والفكر ، والاجتماع ، والوهن في نظام الدِّفاع ، فسرت فيها نفسيَّة الانهزامية ، ومركَّب النَّقص ، والتَّردُّد ، فلم يتمكَّن العقل السَّليم من الوقوف أمام الغزو الأوروبيِّ العلميِّ ، والعسكريِّ موقف صرامةٍ ، وتحليلٍ بحرِّيَّة القبول ، والرَّفض ، وصلاحية التَّميُّز ، كما وقف أمام الحضارات الغازية في عهده الزَّاهر ، خلال احتكاكه بالحضارات الرُّوميَّة ، والفارسيَّة ، والهنديَّة .

كانت الرُّوح الصَّليبيَّة ، وتصميم الغرب للاستيلاء على الثَّروة الَّتي كانت تحرِّك العالم الإسلاميَّ فكريّاً ومعنويّاً ، وتدفعه بطريق يهدِّد الغرب ، والَّتي كانت مصدر قلقٍ ، واضطرابٍ له طيلة قرون العنصرَ الرَّئيسيَّ في موقف الغرب من العالم الإسلاميِّ وركيزته ، وقد خطَّط تخطيطاً دقيقاً لابعاد هذا العالم عن منطلقه ، وصرفه عن استئناف دوره القياديِّ ، واستخدم فيه ذكاءه ، وطاقاته العلميَّة ، والسِّياسيَّة ،

بتزاملٍ وثيقٍ مع اليهوديَّة ، ووكالاتها ، فلم يكن العالم الإسلاميُّ يواجه عدوّاً واحداً ، وإنَّما كان يواجه أعداءً متحمِّسين يتمثَّلون في الرُّوح الصَّليبيَّة واليهوديَّة الحاقدة للإسلام ؛ الَّتي كانت تكيد ضدَّ الإسلام منذ قرونٍ ، وتتحيَّن الفرص والماديَّة اليونانيَّة المتمثِّلة في العلوم ، والبحوث الجديدة ، ومطامع الاستعمار العسكريِّ في الدُّول الغربيَّة . إنَّ الاقتباس من العلوم ، والانتفاع من الوسائل الغربيَّة ، والاستفادة من المصنوعات ليست بعمليةٍ غريبةٍ في تاريخ الأمم ، ولا تحرِّمها شريعةٌ ، ولا يشكِّل ذلك مشكلةً ، أو خطراً ، وإنَّما تعيش الأمم بالتَّبادل ، والتَّزامل ، وروح الأخذ ، والعطاء ، ولكنَّ الخضوع لفكرٍ ، ولثقافةٍ ، وعقيدةٍ ، والانسلاخ من الخصائص الاجتماعيَّة ، والذَّاتيَّة ، يؤدِّي إلى ذوبان الشَّخصيَّة ، وانهيار الكيان الاجتماعي ، ويُبعد الأمم عن التَّفكير في استعادة مجدها ، وذاتيَّتها ، لقد حسبت القيادة الفكريَّة للعالم الإسلاميِّ في العصور المتأخِّرة نتيجةً لدعاية علماء الغرب بأنَّ المسألة هي مسألة العلم ، واتِّخاذ وسائل التَّقدم ، وأنماط الحضارة ، فدعت إلى تقليد الغرب ، وكان الغرب هو الَّذي تبنَّى هذه الفكرة بدهاءٍ ، ومكرٍ ، وأعدَّ لها الذِّهن ، وأقنع العقول الجديدة ، إنَّها مسألة التَّقدُّم الحضاريِّ ، والعلميِّ ، ولكنَّ التجربة مع الاستعمار الغربيِّ ، والتَّجربة مع علماء الغرب ، وفلسفاتهم ، وسلوكهم مع العمل ، والتَّاريخ ، وتحيُّزهم ، بل عصبيتهم الصَّليبيَّة ، والتَّجربة مع الحضارة الغربيَّة وسلوكها مع الأمم الإسلاميَّة ، ودراسة الحركات ، والأفكار الَّتي غزت أوروبا الشَّرق الإسلاميَّ بها تشير بجلاءٍ إلى أنَّها تتكون من العناصر التَّالية :

العنصر الأوَّل :

الوعي والشُّعور في الغرب بخطر الإسلام ، وتهديده ، وعزمه على وقف سَيْره لصيانة أوروبا من غزو الإسلام ، وهي النَّفسيَّة الَّتي أوجدتها الكنيسية الأوروبيَّة ، وسخرت لها وسائل الإعلام ، والتَّعليم ، وشاركت اليهوديَّة في هذه المشاعر ، وقامت بدورها .

العنصر الثَّاني :

التَّقـدُّم العلمـيُّ ، والصِّنـاعـيُّ لأوروبـا ، والتَّقـدُّم الحضـاريُّ نتيجـة للعلـم ، والصِّناعة الَّذي يقوم على أساس الانتفاع الماديِّ .

العنصر الثَّالث :

مطامع الاستعمار ، والشُّعور بتفوُّق الجنس الأبيض ، وهي العقليَّة الَّتي ورثتها أوروبا المعاصرة من التَّاريخ اليوناني ، ولم تتغيَّر بتغيُّر الظروف ، ولا التقدُّم الحضاريِّ ، فيمارس الغرب بمنتهى القسوة ، والصَّرامة لترسيخ استيلائه على الأمم المستضعفة والاجتهاد ؛ لتبقى هذه الأمم تابعةً مستضعفةً .

العنصر الرَّابع :

استغلال العلم للأغراض السِّياسيَّة ، وساهم الاستشراق فيه كوكالةٍ للكنيسة ، والاستعمار الأوروبيِّ ، وقام بنشر فلسفة تفوُّق الغرب ، وبثِّ الانهزاميَّة في الأمم التَّابعة للغرب ، وقلب موازين البحث ، والتَّحقيق .

في ضوء هذه التَّجربة يجب أن يكون موقف العالم الإسلاميِّ إزاء الغرب قائماً على الأسس الآتية ، لمواجهة الغزو المتعدِّد الجوانب :

إعادة الوعي الإسلاميِّ ، وإحياء روح الإيمان ، والثِّقة برسالتنا ، وتاريخنا ، وقيمنا ، ومعرفة مكائد عدوِّنا ، والعزم على استعادة المجد ، وإعداد النُّفوس لها ، وإعداد أساسٍ علميٍّ متجدِّد من غير خضوعٍ للغرب ؛ حيث نقتبس من العلوم على مقياسنا ، وظروفنا الخاصَّة . وتنظيم حياتنا الواقعيَّة على أساس الإيمان ، والعلم الحديث ، وتكوين قوَّةٍ دفاعيَّةٍ مستقلَّةٍ بذاتها ، قوامُها الإيمان وروحُ الجهاد ، ومادَّتها الوسائل الحديثة ، والخبرة المعاصرة لتطهر المجتمع الإسلامي من المشكِّكين ، والمتشكِّكين ، ومحاربة النفسيَّة الانهزاميَّة ، والتَّبعيَّة بتخطيطٍ ، وتوازنٍ بين الدِّين ، والحياة المعاصرة .

يجد القارىء في الصَّفحات الآتية تفصيلاً ، وعرضاً لهذا الموقف ، وهو عبارةٌ عن مقتبساتٍ من كتبي ، وخطبي الَّتي عالجت فيها مشكلة الحضارة الغربيَّة ،

وحلَّلت عناصرها ، وبحثت صلاحيَّة هذه الأمَّة لمواجهتها ، وهي تشكِّل موقفاً معتدلاً نابعاً عن قلبٍ مؤمنٍ واعٍ بالخَطرِ الحقيقي ، وفكرٍ باحثٍ محلِّلٍ ، وتجربةٍ ، ودرايةٍ للواقع ، بأسلوبٍ يجمع بين سِمَة حديث القلب ، والفكر معاً ، والعاطفة ، والعقل ، عسى الله أن ينفع به العاملين في مجال الدَّعوة ، والعمل الإسلاميِّ ، وهو الموفِّق ، وهو يهدي السَّبيل .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

الحضارة الغربيّة الوافدة

وأثرها في الجيل المثقف

كما يراه شاعر الهند الكبير لسان العصر
السَّيد أكبر حسين الإلٰه آبادي

دار الصَّحوة ـ القاهرة

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ﷺ .

أما بعد : فقد مرَّت الهند ـ كما مرَّت الأقطار الإسلاميَّة الأخرى : الَّتي مُنيت بالحكم الغربيِّ الأجنبيِّ ، وسيطرة الحضارة الغربيَّة ، ونظام التَّعليم الغربيِّ ـ بمرحلة انتقاليةٍ دقيقةٍ عميقةٍ ، هي من نتائج الوقوع في حكم أجنبيٍّ قويٍّ قاهرٍ ، وتدِقُّ هذه المرحلة ، وتتعقَّد حين ترافق هذا الحكم انهزاميَّةٌ يُعبَّر عنها في علم النَّفس الحديث بـ « مركَّب النَّقص » وشعورٌ زائدٌ بتفوّق الفريق الحاكم ، حضاريّاً ، واجتماعيَّاً ، وعقليّاً ، وخلقيّاً ، هنالك يتحقَّق ما عبَّر عنه فيلسوف التَّاريخ ، ونابغة العرب ، والمسلمين ، العلامة ابن خلدون بقوله : « المغلوب مولعٌ بالاقتداء بالغالب ، في شعاره ، وزيِّه ، ونِحْلته ، وسائر أحواله ، وعوائده » .

وعلَّل ذلك بأنَّ « المغلوب يرى : أنَّ غلب الغالب ليس بعصبيَّةٍ ، ولا قوَّة بأسٍ ، وإنَّما هو بما انتحله من العوائد ، والمذاهب »[1] .

وقد وقع هذا في الهند ، ومصر ، والمغرب الإسلاميِّ العربيِّ ، والأقطار الشَّرقية الَّتي خضعت للنُّفوذ الأجنبيِّ ، وكان أكبر ممثليه في أواسط القرن التَّاسع عشر الميلادي ـ الّذي كان بدء عصر الاستعمار السِّياسيِّ ، والثَّقافيِّ ـ الإنجليزُ والفرنسيُّون ، وقد حدث بذلك صراعٌ بين الفكرة الإسلاميَّة ، والفكرة الغربيَّة ـ بأوسع معانيهما ـ كان الانتصار فيه ـ لعدم استناد الفكرة الإسلاميَّة إلى قوَّةٍ سياسيَّةٍ كبيرةٍ ، وحكوماتٍ إسلاميَّة حرَّةٍ ، ومجتمع إسلاميٍّ واع معتزٍّ بعقيدته ، ورسالته ، وشخصيته ـ للفكرة الغربيَّة الَّتي تحتضنها حضارةٌ فتيَّةٌ تحمل معها ثمراتِ العلوم التَّطبيقيَّة ، والمبتكرات الصِّناعيَّة المدنيَّة ، والحكومات القويَّة المسلَّحة .

وتلت ذلك ثورةٌ فكريَّةٌ ، واجتماعيَّة لم يجرِّب العالم الإسلاميُّ في هذا النِّطاق الواسع الشَّامل ثورةً مثلها ، ونشأت مشاكل طريفةٌ ، وتناقضات عجيبةٌ ، لم يعرفها

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

المجتمع الإسلاميُّ في فترة تاريخية في عمره الطَّويل ، وكان كلُّ ذلك محنةً للكيان الإسلاميِّ ، والعقل الإسلاميِّ في مسيرته الطَّويلة ، تسترعي اهتمام قادة الفكر من المسلمين ، ورجال التَّعليم والتَّربية ، والمفكِّرين الإسلاميِّين على اختلاف اتجاهاتهم ، ومستوياتهم ، وقد عُني بالموضوع عددٌ منهم ، فبحثوا الموضوع نقداً وتحليلاً ، وإنكاراً وتزييفاً في أسلوب دينيٍّ مرَّةً ، وفي أسلوبٍ علميٍّ موضوعيٍّ مرَّةً أخرى ، ولكلٍّ فضلٌ .

وقد واجه هذا الموضوع شاعرٌ من كبار شعراء أردو ـ لغة المسلمين في الهند الشَّعبية ، والعلميَّة ـ في أوائل القرن العشرين بأسلوبٍ آخر ، يختلف عن أساليب الأوَّلين ، وهو السَّيد أكبر حسين الإله آبادي ، (١٢٦٣هـ ـ ١٣٤٠هـ) (١٨٤٦ ـ ١٩٢١م) .

فاستخدم لنقد الحالة النَّفسيَّة الَّتي كانت تسيطر على هذا العصر ، والعقليَّة المتطوِّرة ، والمتطرِّفة الَّتي كانت تهيمن على الجيل المثقَّف النَّاشىء في حضانة التَّربية الغربيَّة أسلوب الفُكاهة الحلوة ، والأدب الخفيف الرُّوح ، وما زال ، ولا يزال هذا الأسلوب ـ كما يعرف ذلك علماء النَّفس ، والاجتماع ، ومؤرخو الأدب ، وفلسفة الدَّعوة ـ من أبلغ الأساليب ، وأقواها ، وأخفِّها وقعاً على النُّفوس وأقدرها على النُّفوذ في أعماق الشُّعور ، والتَّسرُّب في مناهج الفكر ، وجعله موضوع شعره طول حياته ، ينتقد سياسة السَّيد أحمد خان رائد التَّعليم الغربيِّ ، الدَّاعي إلى قبول الحضارة الغربيَّة ، ومؤسِّس جامعة عليكراه الإسلاميَّة ، مع الاعتراف بإخلاصه ، وينتقد الجيل المثقَّف الجديد ، وما يتسم به من تقليدٍ أعمى للغرب ، وتساهلٍ في العقيدة ، ورقَّةٍ في الدِّين ، وتبذير في الأقوال ، والأموال ، وتركيزٍ زائدٍ على المظاهر ، واستخفافٍ بالدِّين ، ورجاله ، ونهامةٍ للحياة ، وتهالكٍ على المناصب الرَّسميَّة ، وتخلٍّ عن التُّراث الشَّرقيِّ القديم ، ومبادئه القديمة ، وثورةٍ عليها من غير تمييزٍ ، وتبصُّرٍ ، واندماج في المجتمع الغربيِّ الغريب ، وسيطرة التفكير المادِّي الاقتصاديِّ المحض . ويصوِّر ـ بشاعريته السَّاحرة ، وريشته البارعة ـ الجيل الجديد تصويراً دقيقاً ، واضح القسمات ، والملامح .

وقد انتشر شعره في الأوساط الهنديّة على اختلاف طبقاتها ، واجتماعاتها انتشاراً عجيباً ، وتلقّاه الكتّاب ، والشّباب ، وردّدوه ترديداً لم يُعرف لشعرٍ آخر في شبه القارة الهنديّة منذ زمنٍ طويلٍ .

وقد نجح هذا الشّعر في تحريك عاطفة الكراهية ، والازدراء ، والتّخفيف من غُلُوِّ النّظريّة التّقليديّة ، وقيمة هذه الحضارة ، وإثارة الشُّعور بقيمة الحضارة الإسلاميّة ، والاعتزاز بالعقيدة الإسلاميّة ، والشّخصيّة الإسلاميّة ، وكان من عوامل الاتّجاهات الاجتماعيّـة الجديدة في الهند ، ولا يسع المؤرّخ للفكرة الإسلاميّة الهنديّة ، والمجتمع الإسلاميّ المعاصر الاستهانةُ بقيمته ، وغضُّ الطّرف عن الانتباه له ، والتّنبيه عليه .

وفّق الله كاتب هذه السُّطور لنقل مجموعةٍ من شعره ، وإلقاء الضوء على ما جاء فيها من معانٍ عميقةٍ ، وإشاراتٍ لطيفةٍ ، وتجسيم هذه المعاني ، والشّهادة على صدقها ، وواقعيّتها في ضوء الواقع والحوادث ، مؤيّداً بالشّهادات الأجنبيّة ، والأخبار الصّحفية .

وقد كان هذا الكاتب لم يتجاوز العشرين من عمره[١] فقد كان ذلك في سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤م) وبدأ ينشرها في مجلة « الضِّياء » الغرّاء الّتي كانت لسان حال ندوة العلماء ، والمجلّة العربيّة الشّهريّة الوحيدة في شبه القارّة الهنديّة ، وكان يرأس تحريرها زميله الكاتب الإسلاميُّ الكبير ، والصّحافيُّ الإسلاميُّ البارع ، الأستاذ مسعود عالم النّدوي[٢] .

وقد أرسل سلسلة هذه المقالات إلى صحيفة « الفتح » المصريّة الإسلاميّة ؛ الّتي كانت ملتقى كبار الكتّاب الإسلاميين ، كأمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، والأستاذ العلامة الشّيخ تقي الدين الهلالي ، وغيرهما ، وكان يصدرها ، ويحرّرها الأستاذ محبُّ الدِّين الخطيب ، وظهرت هذه السلسلة في أعداد من صحيفة « الفتح »

---

(١) كانت ولادة الكاتب في شهر الله المحرّم عام ١٣٣٤هـ .
(٢) توفي رحمه الله في ١٠ رجب سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) .

في سنة ١٣٥٤هـ ، ثمَّ شُغل عنها الكاتب بأعمالٍ تأليفيَّةٍ أخرى وبمهنته التَّعليمية ، واشتغاله بالدَّعوة ، والرِّحلات .

ولمَّا زار القاهرة في أوائل عام ١٩٥١م ، وزار الأستاذ محبَّ الدِّين الخطيب ، ذكَّره الأستاذ بهذه السِّلسلة من المقالات ، وطلب منه أن يقدِّم لها ، وينشرها الأستاذ من « دار الفتح » في رسالةٍ ، أو كتابٍ مستقلٍّ ، ولكن الكاتب لم يستطع أن يحقِّق هذا الطَّلب لاشتغاله بالزِّيارات ، والمقابلات ، وبأعماله الكتابيَّة الأخرى مدَّة إقامته في القاهرة .

وقد اتَّفق أن وقع بصر الكاتب حديثاً على هذه السِّلسلة من المقالات في مجلَّدات « الفتح » ومجلَّدات « الضِّياء » فشعر بأنَّ هذه المقالات لم تفقد قيمتها ، وتأثيرها ، وأنَّها إذا نُشرت ، لا يقال إنَّها قد جاءت في غير أوانها ، ومكانها ، وقد استنشق في هذه المقالات روائح ريعان الشَّباب ـ والشَّباب حبيبٌ ـ واستغرب كيف أجرى الله قلمه في هذه السِّنِّ المبكِّرة بهذه المعاني ، وكيف تهيَّأت له هذه القُدرة على التَّعبير ، والتَّصوير باللُّغة العربيَّة الَّتي كان حديث العهد بها ، وبأساليبها ، وأدبها ، ولم تقدر له بعدُ زيارة بلدٍ من البلدان العربيَّة ، والاستفادة من جوِّها العربيِّ ، ومركزها الأدبيِّ ، والله يخلق ما يشاء . وقد رأى الكاتب : أنَّه ليس في نشر هذه المقالات تجديدٌ لذكريات العهد الرَّاحل الحبيب فحسب ، بل فيه مواصلةٌ للمسيرة الدَّعويَّة الأدبيَّة ؛ الَّتي بداها في مقتبل شبابه ، وزهرة عمره ، والَّتي يريد أن يعيش عليها ، ويلقى الله بها ، و﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم : ٤] .

غرَّة صفر سنة ١٤٠٥هـ
٢٧ من أكتوبر ١٩٨٤م

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي
رائي بريلي
دارة الشَّيخ علم الله الحسني

الإسلام
وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانيَّة

دار ابن كثير
دمشق ـ بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا الكتاب

الحمد لله وحده ، والصَّلاة ، والسَّلام على مَنْ لا نبيَّ بعده !

أما بعد : فإنَّ كاتب هذا المقال وُجِّهت إليه دعوةٌ من المجلس الوطنيِّ للثَّقافة ، والفنون ، والآداب التَّابع لوزارة الإعلام في الكويت ؛ لإلقاء محاضرةٍ على موضوع : « الإسلام والحضارة الإنسانيَّة » بمناسبة بدء القرن الخامس عشر الهجري الَّذي احتُفل به في مختلف أنحاء العالم الإسلاميِّ بطرقٍ مختلفةٍ ، وألوانٍ مختلفةٍ[1] ، وقد صادف هذا الاقتراح تجاوباً نفسيّاً ، وفكريّاً في نفس الكاتب ، لشعوره بأهمِّية هذا الموضوع ، وجدِّيَّته ، ولاشتغاله بالبحث ، والكتابة فيما يتَّصل بهذا الموضوع ، ويساعد على التوسُّع فيه ـ إذا دعت إليه الحاجة ـ والتَّركيز عليه ـ إذا طلب منه التَّركيز ـ قراءةً ، وكتابةً ، وتأمُّلاً ، وتفكيراً ، فقبل هذه الدَّعوة الكريمة الهادفة الَّتي جاءت من بلدٍ إسلاميٍّ عربيٍّ ، وأعدَّ ذلك بحثاً في مدَّةٍ قليلةٍ ، وعلى تزاحمٍ من الأشغال ؛ وتتابعٍ من الرِّحلات ، والتنقُّلات .

ونظمت الحفلة وزارة الإعلام في الكويت ، وأُلقيت المحاضرة على مدرج كلِّية العلوم في جامعة الكويت بالخالدية مساء يوم الأربعاء ١٨ صفر ١٤٠٤هـ ٢٣

---

(١) كان من ضمنها الاحتفال الَّذي عقدته المنظَّمة الإسلاميَّة للطلاب في ٢٢/ من ذي الحجة سنة ١٤٠٠هـ في قاعة المحاضرات الكبرى في عاصمة الولاية الشَّمالية (لكهنؤ الهند) وكان من آثاره ، ومخلَّفاته المفيدة الباقية حديث كاتب هذه السُّطور ، نشر بعده بعنوان : « القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التَّاريخ والواقع » في اللُّغات الثَّلاث : الأرديَّة ، العربية ، والإنجليزيَّة ، وكان له صدىً وتلقٍّ كريمٍ في الأوساط الدِّينية ، والعلمية .

(نوفمبر ١٩٨٣م) ، حضرتها الشَّخصيات البارزة ، وكبار العلماء والمثقَّفين في البلد ، وقرىء أكثر هذا المقال في حفلةٍ كبيرةٍ أيضاً في نادي مكَّة الثَّقافي سلخ صفر ١٤٠٤هـ (٦ من ديسمبر ١٩٨٣م) وطبع في مجموعة « أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين »[١] .

ولكنَّ المقال ـ على ما جاء فيه من أسسٍ قويَّةٍ صالحةٍ ، ولفتاتٍ مثيرةٍ في الموضوع ـ يغلب عليه الطَّابع الارتجاليُّ والاستعراض السَّريع بما يتَّصل بهذا الموضوع بنسبٍ قريبٍ ، أو بعيدٍ ؛ لضيق الوقت ، وانشغال الخاطر .

ثمَّ جاءت الكاتب دعوةٌ من الأمانة العامَّة للمؤتمر العالميِّ الرَّابع للسِّيرة ، والسُّنة النَّبويَّة المزمع عقده في رحاب الأزهر الشريف في القاهرة ، ومعها قائمةُ الموضوعات المقترح تقديمُها لهذا المؤتمر ، ومن ضمنها « أثر الرِّسالة الإسلاميَّة في الحضارة الإنسانيَّة » فحرَّكت هذه الدَّعوة ، وهذا الموضوع المقترح الرَّغبة في التوسُّع في هذا الموضوع ، وشغل الخاطر بعدما كان الكاتب قد انتهى من التَّفكير فيه ، وملك عليه فكره ، وأعصابه ، واستحوذ على مشاعره ، شأنه في مثل هذه الموضوعات العلميَّة ، والأغراض الكتابيَّة ، فبدأ يدرسه من جديدٍ ، ويضع تحت كلِّ عنوانٍ من العناوين الجانبيَّة ، وفي شرح جوانبَ ، ومجالاتٍ في حياة الأمم والشُّعوب ، والحضارة ، ظهرت فيها التَّأثيراتُ الإسلاميَّةُ في أجلى أشكالها ، وفي بيان المُعطيات الهامَّة ، والمنح الأساسية للإسلام ، والبعثة المحمَّديَّة موادَّ جديدةً ، ودلائل قويَّة ، وشهاداتٍ أجنبيَّةً ، حوَّلت المحاضرة من مقالٍ يُكتب على عجلٍ إلى رسالةٍ مدروسةٍ ضافيةٍ ، وبحثٍ علميٍّ تاريخيٍّ ، يسترعي انتباه الباحثين ، والمنصفين من المسلمين ، وغير المسلمين ، ويستحقُّ أن يُنقل إلى لغاتٍ أجنبيَّةٍ ، ويقدَّم إلى الطبقة المثقَّفة المتهيِّئة لقبول الحقِّ ، والواقع ، وشهاداتِ التَّاريخ ، واعترافاتِ الفضلاء الأجانب ، وأقطابِ الفكر ، والبحث في العالم الغربيِّ ، وفي شبه القارَّة الهنديَّة .

---

(١) ٦٣ ـ ٨٠ ، طبع دار عرفات ، رائي بريلي ـ الهند .

ولم يتحاش الكاتب ، ولم يمنعه التَّواضع عن أن ينقل ما صدر عن قلمه في بعض جوانب هذا الموضوع في كتاباته السَّابقة ، وفي بعض مؤلَّفاته ؛ إذا رأى أنَّه قد وفَّى الموضوع حقَّه ، ولا يستطيع أن ياتي بأحسن منه ، فإن كلَّ كاتبٍ ، ومؤلِّفٍ يجرِّب « نفحاتٍ » لا يقدر عليها في كلِّ وقتٍ ، وفي كلِّ مكانٍ ، ولا يعاب كاتبٌ أو مؤلِّفٌ على أن يستعير من نفسه لنفسه ، ويقتبس من كتاباته ، ومؤلَّفاته ما يشاء ، وقد يجد القارىء المتتبِّع لكتابات كاتب هذه السُّطور ، ومؤلفاته مقتطفاتٍ قد قرأها في كتاب المؤلِّف : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » أو « السِّيرة النَّبويَّة » فضلاً عمَّا جاء في مجموعة : « أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين » ولكن عملية التَّركيب ، والمزج ، والاقتباس ، والنقل قد جعلت هذا الكتاب الصَّغير كتاباً جديداً ، مستقلاً بنفسه ، له شخصيَّةٌ كتابيَّةٌ متميِّزةٌ ، منسجمةٌ ، مزدوجةٌ ، متركِّبةٌ ، موحَّدةٌ .

ولمَّا بلغ الكاتبَ خبرُ تأجيل المؤتمر الدَّوليِّ الرَّابع للسِّيرة والسُّنَّة النَّبويَّة الَّذي كان من دواعي إقبال المؤلف على هذا الموضوع من جديدٍ ، وذلك من غير تحديدٍ للميعاد ؛ رأى أن ينشر هذا الكتاب لما فيه من مادَّةٍ للتَّفكير ، ومددٍ للعاملين ، والمشتغلين في مجالات الدَّعوة ، وباعثٍ للكتَّاب ، والباحثين ، الَّذين أكرمهم الله بسعةٍ من العلم ، ورحابةٍ في الصَّدر ، وشجاعةٍ في الاعتراف بالحقِّ ، وعلى التوسُّع في هذا الموضوع ، والوفاء له بجدارةٍ ، واستحقاقٍ ، وقد أسمينا هذا البحث الموسَّع ـ الَّذي أصبح أضعافاً مضاعفةً بالنِّسبة إلى المقال الأوَّل ـ « الإسلام ، أثره في الحضارة ، وفضله على الإنسانيَّة » ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل : ٩] .

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

المجمع الإسلاميُّ العلميُّ ، وندوة العلماء

لكهنؤ (الهند)

١٩/ شوال ١٤٠٥هـ

٨ / ٧/ ١٩٨٥م

بَيْن الدِّين والمَدنيَّة

مؤسَّسة الرِّسالة
بيروت

مقدِّمة المؤلِّف

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين سيِّدنا محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد كان من عادة « المجمع العلمي » في الجامعة المليَّة الإسلاميَّة في دلهي ، أن يوجِّه دعوةً إلى كبار المفكِّرين الإسلاميِّين في الهند في أعوامٍ مختلفة لإلقاء محاضرةٍ لها صلةٌ بالحياة ، والمجتمع ، والفلسفة ، والتَّاريخ ، أذكر منهم على سبيل المثال العلامة الكبير الشَّيخ عبد الرؤوف الدانافوري ، صاحب كتاب « أصحُّ السِّير » في السِّيرة النَّبويَّة ، فألقى محاضرةً عنوانها : « الإسلام والقضايا المدنيَّة المعاصرة » ، كان لها دويٌّ في الأوساط العلميَّة ، وكالعالم السَّلفي ، المحقِّق الضَّليع ، العلامة محمد إبراهيم السَّيالكوتي .

ووجَّه المجمع في سنة ١٩٤٢م الدَّعوة إلى كاتب هذه السُّطور وكان لا يزال في بداية رحلته العلميَّة التأليفيَّة ، قد ناهز الثَّلاثين من عمره ، لم يصدر له من المؤلفات إلا « سيرة السَّيد أحمد شهيد » ، وبعض المقرَّرات الدِّراسية باللُّغة العربيَّة لطلبة دار العلوم التَّابعة لندوة العلماء ، الَّتي كان يدرِّس فيها ، فاستصغر نفسه أمام هذه المسؤولية العلميَّة ، والشَّرف الأدبيِّ الكبير ، ولمَّا كانت هذه الدَّعوة قد وُجهت إليه من أستاذه المفسِّر الشَّهير ، والمؤلِّف الطَّائر الصِّيت صاحب الفضيلة الشَّيخ عبد الحيِّ الفاروقي رئيس القسم الدِّينيِّ في الجامعة ، وكان في جدٍّ ، وإلحاحٍ ؛ لم يسعه إلا القبول ، وأراد أن يتدارك حداثة السِّنِّ ، وخمول الذِّكر بإعداد هذه المحاضرة إعداداً لائقاً بمقام الجامعة العلميِّ ، والمجموعة المختارة الموقَّرة التي ستستمع إليها ، فأضنى نفسه في دراسة تاريخ الفلسفة القديمة ، والحديثة ، وتاريخ الحضارات ، والمجتمعات البشريَّة الَّتي ظهرت في عهودٍ مختلفةٍ ، ثمَّ التأمُّل في

القرآن الكريم الَّذي كان موضوعه الرَّئيسيُّ في الموادِّ الَّتي كان يدرِّسها في دار العلوم ، فخرج من كل ذلك بتأمُّلات ، ودراسات ، صبَّها في هذه المحاضرة الَّتي كان عنوانها « بين الدِّين والمدنيَّة » .

وألقيت هذه المحاضرة في شتاء ١٩٤٢م في إحدى قاعات الجامعة للمحاضرات ، وقد رأس الاحتفال الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي الأستاذ في إحدى كلِّيات العاصمة الشَّهيرة آنذاك[١] ، وحضره المرحوم الدُّكتور ذاكر حسين نائب رئيس الجامعة ، وأحد رجال التَّعليم ، والتَّربية في العالم ، ورئيس الجمهورية الهنديَّة سابقاً ، وكبار أساتذة الجامعة ، وأعيان البلد ، وقد نالت استحسان المستمعين ، ونشرته مكتبة الجامعة بعنوان : « إدارة نشريات إسلام » (رحيم يارخان) في باكستان .

ولفت الأستاذ محيي الدِّين ـ أحد أعضاء المجمع الإسلاميِّ العلميِّ في لكهنؤ ـ نظر المؤلِّف إلى أهميَّة هذه المحاضرة ، وقيمتها العلميَّة ، وأبدى ضرورة نقلها إلى اللغة الإنجليزيَّة ، وكاد المؤلف يتناساها في مجموعة مؤلَّفاته ، وكتاباته ، فوافق على المشروع ، وقام الأستاذ محيي الدين بترجمتها إلى اللُّغة الإنجليزية ، وقام المجمع الإسلاميُّ العلميُّ بنشر الطَّبعة الأولى سنة ١٩٧٠م والطَّبعة الثانية في ١٩٧٥م ، وقد نالت القبول في الأوساط العلميَّة الجامعيَّة ، والثقافية في الهند .

وقد رأى المؤلف أخيراً أن يطَّلع عليها المثقَّفون ، والباحثون في الشَّرق العربيِّ الإسلاميِّ ، وطلب منه الأستاذ شمس الحق النَّدْوي المدرِّس في دار العلوم أن ينقلها إلى العربيَّة ، وأجاب المؤلِّف طلبه تحقيقاً لرغبته في انتشار هذه المحاضرة في الأقطار الَّتي تتكلَّم اللُّغة العربيَّة ، شأنه في كلِّ ما يؤلِّف ، ويكتب في اللُّغة الأردية ـ وإن كانت اللُّغة العربيَّة هي اللُّغة الَّتي نالت النَّصيب الأكبر في كتاباته العلميَّة والبحوث الإسلاميَّة ـ وقد اجتهد الأستاذ المترجم في نقل هذه المحاضرة إلى اللُّغة العربيَّة ، لكثرة المصطلحات العلميَّة الفلسفيَّة ، والمقتطفات ، والنقول من كتب

---

(١) رئيس القسم الدِّيني في جامعة علي كره الإسلاميَّة سابقاً ، ورئيس تحرير مجلَّة « برهان » العلميَّة الصَّادرة مِنْ دلهي حالياً .

الفلسفة الحديثة ، والإحالة إلى مؤلِّفيها ، ومراجعها ، وأجال فيها المؤلِّف نظره ، وتناولها بالتَّنقيح ، والتَّهذيب ، ونقل النُّصوص الإسلاميَّة العربيَّة بلفظها ، وهكذا جاءت هذه المحاضرة كما أنَّها ألقيت باللُّغة العربيَّة .

وهاهي هديةٌ إلى القرَّاء العرب ، والشَّباب الإسلاميِّ المثَّقف والعاملين في مجال الدَّعوة ، ونشر الفكرة الإسلاميَّة في أوساط الجامعات ، والكلِّيات ، والمجامع العلميَّة ، والحلقات الواعية الَّتي تعتني بجانب الإسلام العلميِّ ، والفكريِّ ، وترغب في أن تعرف مركز الإسلام ، والحضارة الإسلاميَّة بين الفلسفات ، والحضارات ، والمجتمعات ، وأنماط الحياة ، والله الهادي إلى سواء الصِّراط .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
المجمع الإسلامي العلمي ـ لكهنؤ

١٩ من جمادى الآخرة ١٣٩٨هـ
٢٧ من مايو ١٩٧٨م

مقدِّماته

لكتبه في التعليم والتربية

١ ـ نحو التربية الإسلامية الحُرَّة .

٢ ـ دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء ، وتكوين الدعاة . . .

نحو التَّربية الإسلاميَّة الحُرَّة
في الحُكوماتِ والبلاد الإسلاميَّة

مؤسَّسة الرِّسالة
بيروت

كلمةٌ بَينَ يَدي الكِتاب

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله .

أما بعد ! فإنَّ موضوع التَّربيـة في الحكومات ، والبلاد الإسلامية ؛ وكيف يجب أن تكون سياسة التَّعليم ؛ وإلى أين تتجه ، وما هي الأهداف الصَّحيحة ، والمثل العليا ؛ التي يجب أن تهدفها ، وتسعى لتحقيقها هو موضوع السَّاعة الَّذي يشغل قادة الفكر ، والمهتمِّين بشؤون العالم الإسلاميِّ في جميع أنحائه ، ولعلَّه هو الموضوع الحسَّاس الحاسم ؛ الَّذي سيقرِّر مصير الأمَّة الإسلاميَّة ، ويصوغ مستقبلها .

وقد تناولتُ هذا الموضوع بالبحث ، والتَّفكير منذ مدَّةٍ طويلةٍ ، وقد نشرت « البلاد السُّعودية » أوَّل بحثٍ لي في هذا الموضوع في سنة ١٩٥٠م ، في سلسلة مقالاتٍ ، نشرتها تباعاً في أعدادها ، كنت يومئذٍ في مكَّة ، ونشر هذا البحث مرَّاتٍ عديدة بعنوان : « كيف توجَّه المعارف في الأقطار الإسلاميَّة؟ » وأمامي الطَّبعة الخامسة ؛ التي صدرت في الإسكندريَّة عام ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) قام بطبعها فضيلة الشَّيخ عبد المهيمن أبو السمح إمام المسجد الحرام ، ثمَّ بحثت في هذا الموضوع في كتابي « الصِّراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربيَّة في الأقطار الإسلاميَّة » وكان آخر ذلك محاضرة ألقيت في جامعة الرياض في ٢٢ شعبان ١٣٨٨هـ (١٣ نوفمبر ١٩٦٨) وقد جاءت فيه الفكرة مختمرةً ناضجةً وفي وضوحٍ كبيرٍ ، حين قمت بزيارة العاصمة السُّعودية على دعوة كريمةٍ من صاحب المعالي الوزير العالم الشَّيخ حسن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف للمملكة العربية السُّعوديَّة ، وقد رأيت أن أضمَّ إلى هذه الفصول الثَّلاثة التي هي في صميم موضوع التَّربية في البلاد الإسلاميَّة ما جاء متَّصلاً به في كتابي : « روائع إقبال » ، وأجمعَ كلَّ ذلك في رسالةٍ مفردةٍ ، تعطي

فكرةً كاملةً متناسقةً في هذا الموضوع ، ونقدمها إلى قادة الفكر ، والعاملين في حقل التَّعليم إسهاماً منَّا في هذا الجهاد المقدَّس ، وفي هذا العمل البنائيِّ الإيجابيِّ ؛ الَّذي هو أكبر حاجة العالم الإسلاميِّ اليوم ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] .

١٢/ ٩/ ١٣٨٨هـ
٤/ ١٢/ ١٩٦٨م

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
أمين ندوة العلماء العام
لكهنؤ (الهند)

دور الجامعات الإسلاميَّة المطلوب

في تربية العلماء ، وتكوين الدُّعاة ، وحماية الأقطار الإسلاميَّة من التَّناقض والمجابهة

المجمع الإسلاميُّ العلميُّ

لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الرِّسالة

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ، وعلى آله ، وأصحابه ، وسلَّم .

وبعد فهذه مقالةٌ أعدَّت لمؤتمر تكوين الدُّعاة الَّذي عقدته رابطة الجامعات الإسلاميَّة في القاهرة في ضيافة جامعة الأزهر بالتَّعاون مع وزارة الأوقاف المصريَّة في الفترة من ٢٠ ـ ٢٢/ شعبان ١٤٠٧هـ الموافق ١٨ ـ ٢٠ أبريل ١٩٨٧م .

ولم يقدَّر لصاحب المقال أن يحضر المؤتمر ، ويشارك فيه عمليّاً ، وجسدياً لعوائق حالت دون ذلك ، وقد أرسل المقال إلى المسؤولين عن المؤتمر قبل انعقاده بمدَّة كافيةٍ .

والآن يقدِّم المقال مطبوعاً منشوراً إلى المسؤولين عن الجامعات الإسلاميَّة ، والمؤسَّسات التعليميَّة ، والتَّربويَّة وقادة الفكر ، وموجهي الشُّعوب ، والبلاد الإسلاميَّة ؛ لما فيه من توجيهاتٍ ، وتجارب ، وحقائق ليست مقيَّدةً بزمانٍ ، ومكانٍ ، ولما فيه من تعويضٍ ، وتلاف ، عن غيبة صاحب المقال لأسباب قاسرةٍ عن هذا المؤتمر الموقَّر الهادف ، وبالله التَّوفيق .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

المجمع الإسلاميُّ العلمي

ندوة العلماء لكهنؤ

١٨/ شعبان ١٤٠٧هـ

١٨/ أبريل ١٩٨٧م

مقدّماته

لكتُبه حول المذكِّرات والرحلات والسيرة الذاتية

١ ـ مذكِّرات سائح في الشرق العربي .

٢ ـ من نحو كابل إلى نحو اليرموك .

٣ ـ أسبوعان في المغرب الأقصى .

٤ ـ في مسيرة الحياة .

مذكِّرات سائح في الشَّرق العربي

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

مقدّمة

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ، أمَّا بعد :

فإن مكتبة اللُّغة العربيَّة ـ القديمة والحديثة ـ غنيَّةٌ بكتب الرَّحلات ، والأسفار ، وكتبٍ سُجِّلت فيها الخواطر ، والانطباعات ، وقد امتاز العرب ، والمسلمون بالشَّغف بالأسفار البعيدة ، والمغامرات الخطيرة ، ونبغ فيهم الرَّحالون ، والمغامرون ، ومن أشهر كتب الرَّحلات في القديم رحلة ابن جبير الأندلسيِّ (٦١٤هـ) ورحلة ابن بطوطة المغربيِّ (٧٧٧هـ) وقد حفظنا له الشَّيء الكثير من صور العالم الإسلاميِّ الذي زاراه ، والمجتمع الإسلامي الَّذي عاصراه ، وشاهداه ، وتصويراً للشَّخصيات الَّتي تعرَّفا بها ، وعاشا معها ، وهي صورٌ وملامح تجرَّدت عنها كتب التَّاريخ الَّتي تدور غالباً في الشرق حول الملوك ، والأمراء ، وحول الأحداث السِّياسية ، والحروب ، والمنافسات ، والعزل ، والنصب ، وكتب التراجم الَّتي تدور حول العلماء ، والمشائخ ، والمناقب ، والفضائل .

وندرت الكتب الَّتي سُجِّلت فيها الخواطر ، والآراء ، والانطباعات بالنسبة إلى كتب الرِّحلات ، والسِّير ، والأخبار ، واقتصر ما وجد منها على تسجيل الهواجس ، وخطرات النَّفس ، والحديث معها ، ومحاسبتها ، وتجارب الحياة ، ومن أكثرها حيويَّة ، وأقواها أدباً رسالة « المنقذ من الضلال » للغزاليِّ (٥٠٥هـ) وكتاب « صيد الخاطر » لابن الجوزيِّ (٥٩٧هـ) .

ومع الاعتراف بفضل هذه الكتب وفضل مؤلِّفيها لا بدَّ من التَّسجيل هنا : أنَّ الحياة الَّتي صوَّروها ، والبلاد الَّتي رسموها ، والمجتمع الَّذي سجلوه للأجيال القادمة كان ذلك بسيطاً ، محدوداً ، متكرِّراً ، لم يتسع ، ولم يتعقَّد ، ولم يتنوَّع ، ولم يتجدَّد شأن الحياة في هذا العصر ، والمجتمع في هذا الزَّمان ، ولم يعرف

الثَّروات الفكريَّة ، والحركات السِّياسيَّة ، والمؤسَّسات الكثيرة ، والفلسفات المتناحرة ، والشَّخصيات المتناقضة ، تكاد الحياة تكون في زمانهم صورةً واحدةً ، ونغمةً واحدةً ، فكانت مهمَّتهم سهلةً بسيطةً ، لا تحتاج إلى الانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخر ، ومن جوٍّ إلى جوٍّ آخر إلا نادراً .

ثمَّ إن أكثر هذه الكتب إنَّما كُتبت ، أو أمليت بعد أن مضى على هذه الرِّحلات ، والمشاهدات زمنٌ طويل ، وكان ذلك باقتراح أميرٍ ، أو صديق . وإذا كانت الذَّاكرة لم تخن أصحابها في تسجيل الحوادث ، وتحديد الأمكنة ، وتعيين المقادير ، وإن كان بعض النَّاقدين قد ساورهم الشَّك في دقَّة هذه التفاصيل فممَّا لا شكَّ فيه : أنَّه لا ثقة بالانطباعات الَّتي هي أشبه بالظِّلال ، والأمواج ، فلا تدوم ، ولا تبقى ، ويستطيع الإنسان أن يستعرض ما شاهده ، ولا يستطيع أن يستعيد ما شعر به ، وما ترك الحادث فيه من أثر نفسيٍّ ، وماهاج من إعجابٍ ، أو امتعاضٍ ، أو لذَّةٍ ، أو ألمٍ . ولم تكن « طريقة المذكِّرات » أو « تسجيل اليوميَّات » قد حدثت بعدُ عند الرَّحالين ، والمؤلِّفين ، أو حدثت ، ولكن لم يطَّلع عليها القرَّاء ، ولم تتناولها يد النَّشر ، والإذاعة .

وكثرت كتب الرَّحلات في هذا العصر لنشاط حركة التَّأليف ، والنَّشر ، ولتيسُّر السَّفر في هذا الزَّمان ، وتوفُّر أسباب الرَّاحة ، والسُّرعة ، والوصول إلى أقاصي البلدان ، ودعاية الحكومات وتشجيعها ، حتَّى تشكلت وزارة السِّياحة في كثيرٍ من الحكومات ، فكثرت كتب في اللُّغة العربيَّة في العهد الأخير ، ولكنَّها على ما تحتوي عليه من فوائد علميَّةٍ ، وجغرافيةٍ ، ومادَّةٍ للسَّمر ، وتزجية الوقت ، وترويح النفس ، وتعريفٍ ببعض جوانب الحياة ، والمدنيَّة ، والاجتماع يغلب عليها الجانب الجغرافيُّ ، وتعتني بالآثار ، والمشاهد أكثر من أيِّ شيءٍ ، ولا تصوِّر في الغالب إلا جانباً من جوانب الحياة ، يتلاءم مع ذوق المؤلف ، أو يتجاوب مع غرض رحلته ، وهدفها ، فإذا كان الرَّحالة أديباً ؛ اقتصر على ذكر الأدباء المشهورين ، وتصوير الحياة الأدبيَّة في هذه البلاد ، ووصف النَّشاط الأدبيِّ ، وإذا كان رجلاً دينياً ؛ أسهب في وصف الحالة الدِّينيَّة ، وأغرق في التفاؤل ، أو التشاؤم ، وإذا كان رجل

سياسةٍ ، أو إدارةٍ ؛ ذكر مقابلة رجال السِّلك السِّياسي ، واسترسل في ذكر وصف الحركات ، والمذاهب السِّياسيَّة وهلمَّ جراً .

ثمَّ يتجرَّد أكثر هذه الكتب عن العاطفة ، والعقيدة ، ومشاعر النفس ، وأحاسيسها ، ويمثل فيها المؤلفون دور آلة التَّصوير ، أو أداة التَّسجيل من غير تعليقٍ على ما يشاهدون ، وصدىً في النفس لما يسمعون ، فلا يسمع القارىء من خلال كتاباتهم دقَّاتِ قلوبهم ، وهمساتِ ضمائرهم ، ويمكنه أن يضع على غلاف كتابٍ من هذه الكتب اسم مؤلف أجنبيٍّ ، لا يتَّصل بهذا المجتمع بثقافةٍ ، أو نسبٍ ، ولا يلتقي معه على عقيدةٍ ، أو ديانةٍ ، ولا يرتبط بعاطفةٍ أو وجدان ، وذلك إن اعتبره بعض النَّاس فضيلةً ، وكمالاً ؛ ففي علماء الأدب مَنْ يعتبره نقصاً ، وعيباً ، فإنَّ الكتابة الَّتي لا يستطيع القارىء أن يحدِّد زمانها ، وبيئتها ، ولا يهتدي إلى عقيدة مؤلِّفها ، وفكره ، والقيم ، والمثل الَّتي يحبُّها ، وينتصر لها ، ولا يشعر فيها بمرارة ألمٍ ، وحزنٍ ، وحلاوة إعجابٍ ، ورضا ؛ إنَّها كتابةٌ مصطنعةٌ ، لا تؤثِّر في النَّفس ، ولا تصلح للبقاء .

خرج مؤلف هذا الكتاب في مفتتح سنة ١٩٥١م في رحلةٍ إلى عواصم الشَّرق العربيِّ ؛ ليدرس وضع هذه الأقطار الدينيَّ ، والعلميَّ ، والاجتماعيَّ ، ويتعرَّف برجالاتها ، وقادة الفكر فيها ، ويتذاكر معهم في الشؤون الدِّينيَّة ، والعلميَّة ، والقضايا الإسلاميَّة ، والمناهج الإصلاحيَّة ، والمشاريع التعليميَّة ، ويعرِّفهم ببلاده « شبه القارة الهنديَّة » الَّتي أسدلت عليها حجبٌ كثيفةٌ ، وأثير حولها نقعٌ كثيرٌ ، وعاشت في عزلةٍ عن العالم العربيِّ منذ فترةٍ طويلةٍ ، ويخبرهم بتجارب الدَّعوة ، والإصلاح الَّتي مرَّت بها الهند الإسلاميَّة في عهدها الأخير ، وقد كُتب لها نجاحٌ كبيرٌ ، ويستفيد بما جدَّ في العالم العربيِّ من آراء ، ونظريات ، ونشأ من حركاتٍ ، ودعوات ، ونبغ من رجالٍ ، وشخصيَّات ، وقام من مدارس فكريَّةٍ ، ومؤسَّسات ، وظهر من أساليب ، وثار من مشاكل ، وقد أراد الله أن ينشأ قبل أن يزور هذه البلاد نشأة دينيَّةً ، علميَّةً أدبيَّةً ، مثقَّفاً ثقافةً متنوِّعةً ، تركَّبت شخصيته بعدة عناصر ، يتذوَّق الأدب ، والشِّعر ، والتَّاريخ ، والاجتماع ، والحضارة ، وفلسفة الحياة ،

وقد مارس الحياة العلميَّة ، وعمل في حقل الإصلاح والدَّعوة ، وباشر مهنة التَّعليم ، وعالج الكتابة ، والتأليف ، وعرف الأساليب الأدبيَّة ، والمدارس الفكريَّـة ، والاتِّجاهات المتعارضة في مصر ، والشَّام ، فزار هذه البلاد على بصيرةٍ ، وبيِّنةٍ من الأمر ، وبعد أن لم يكن ينقصه إلا اللقاء ، وأراد الله كذلك أن يزور الشَّرق العربيَّ الإسلاميَّ على أثر ظهور كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » أشهر مؤلفاته بالعربيَّة ، فعرفته الأوساط الإسلاميَّة قبل أن يزور هذه البلاد ، فيسَّر كلُّ ذلك مهمَّته من النفوذ في المجتمع الإسلامي العلميِّ ، فورد كلَّ مَشْرَع ، ونهل من كلِّ مَوْرِدٍ ، وزار كلَّ طبقةٍ من الرِّجال ، وخاض في كلِّ موضوعٍ ، وشارك في كل بحث ، وكان الحديث سجالاً ، يأخذ ، ويعطي ، ويقتطف ، وينشر .

وقد التزم في هذه الرِّحلة كلِّها أن يسجِّل كلَّ حديثٍ ، وكلَّ انطباعٍ في يومه غالباً ، وفي أقرب وقتٍ إذا فاته التَّسجيل في اليوم ، وأن يتحرَّى الدِّقَّة في النَّقل ، والصِّحَّة في الرِّواية ، وتسجيل الحديث في لفظ المتحدِّث ، ولغته بقدر الإمكان ، فجاءت في الكتاب صورٌ من الأساليب ، والآداب المحلِّيَّة ، يستفيد بها مؤرِّخ الأدب فيما بعد ، ويتمثَّل القارىء لهذا الكتاب بعد أن مضى عليه زمن شخصية المتحدِّث ، وسماته الحقيقية ، ويتمثَّل البيئة الَّتي دُوِّنت فيها هذه المذكرات ، وماكان يجيش فيها من صراعٍ نفسيٍّ ، واصطراع فكريٍّ ، واضطراب اجتماعيٍّ ، وقلقٍ وتذمُّرٍ ، وثورةٍ ، وما كان يتمخَّض به هذا المجتمع من حوادث لم تقع ، وشخصيـاتٍ لم تـولد ، ومن تطوراتٍ ، لم تتَّضح ، فجـاءت هذه المذكِّرات مجموع صورٍ ناطقةٍ ، يستطيع القارىء أن يعيش بها في تلك الفترة ؛ التي لا تعود أبداً .

وكذلك التزم أن يبدي آراءه ، وملاحظاته ، وانطباعاته على أثر مقابلةٍ ، أو زيارةٍ ، أو حديثٍ ، أو مشهدٍ ، وماأحدثه الحادث من ردِّ فعلٍ ، أو أثر نفسيٍّ ، ويسجِّل كلَّ ذلك في أسلوبٍ صريحٍ ، مكشوفٍ ، بعيدٍ عن غموضٍ ، وتحفظٍ ، وعن كل مجاملةٍ ، وتكلُّفٍ ، فهو وصفٌ ، وتصويرٌ من إنسان حيٍّ ، يحمل

القلب ، والعاطفة ، والعقيدة ، ويؤمن بمبادىء ، وقيم ، ومثل ، ويحبُّ هذه البلاد التي يزورها ، ويرتبط بماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها ، ويعتبر نفسه عضواً من أعضاء هذه البلاد ، يشاركها في آلامها ، وآمالها ، ويشاطرها في شقائها ، وسعادتها ، ويرى الدِّين الإسلاميَّ الَّذي أكرم الله به هذه البلاد ، واختارها لتمثيله ، ونشره في العالم المقياس في كلِّ شيء ، فيقيس به الأعمال ، والأخلاق ، والرِّجال ، وتلك ميِّزةٌ لهذا الكتاب ، لا يجد المؤلف حاجةً للاعتذار عنها ، ثمَّ يلقي قبل أن يغادر قطراً من الأقطار التي زارها نظرةً إجماليَّةً على هذا القطر ، ويذكر محاسنه ، وجوانب الضَّعف فيه ، وما سرَّه في زيارته ، وما أحزنه ، وأثار فيه الاستنكار ، والإشفاق ؛ من غير أن يحتفل برضا أصدقائه الَّذين أحبَّهم ، وأحبُّوه ، وبسخطهم ، وعدم إعجابهم ، وقديماً قال الشَّاعر العربيُّ :

وفي العتاب حياةٌ بين أقوام

وقد ظهرت الطَّبعة الأولى لهذا الكتاب باسم « مذكرات سائح في الشرق العربي » عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) نشرتها جماعة الأزهر للتَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ، قدم لها صديق المؤلف الفاضلُ ، وعضوُ الجماعة الكبير الدُّكتور محمَّد يوسف موسى ، وطبعتها مكتبة وهبه ، وجاءت طبعةً مغلوطةً لم يُعتنَ بتصحيحها وتنقيحها ، وبحسن الطِّباعة والإخراج .

وقد حذفت منه الرَّقابة المصريَّة ـ وكان ظهور الكتاب في عهد جمال عبد النَّاصر ـ الشَّيءَ الكثير ، ومُثِّل بالكتاب كما يُفعل بالقتيل ، فجاءت العبارات ناقصةً مبتورةً في كثير من المواضع ، وأخلَّت بالمعنى ، وقد ظهرت لكل كتابٍ للمؤلِّف عدَّةٌ طبعاتٍ إلا هذا الكتاب ، فقد كانت له طبعةٌ واحدةٌ ، فقد حدثت في مصر تطوراتٌ سياسيَّةٌ منعت من إعادة طبعها . ولمَّا علم المؤلف رغبة بعض المكتبات في طبع هذا الكتاب من جديدٍ ، شكَّ بعض الوقت في قيمة هذا الكتاب العلميَّة ، وخاف أن يكون هذا الكتاب قد فقد الشَّيء الكثير من الأهمِّيَّة ، والغناء ، والحيويَّة ، وأن يكون قد مضى زمنه ، فقرأ هذا الكتاب من جديدٍ ، فوجد : أنَّ

الكتاب وثيقةٌ تاريخيَّةٌ كبيرةٌ ، والوثائق التاريخية لا تفقد قيمتها ، وأهمِّيتها مهما تقدَّم زمانُها ، بل كلَّما تقدَّم الزَّمان ، وبعُد العصرُ الذي دوِّنت فيه هذه المذكِّرات ؛ ازدادت قيمة هذه المعلومات ، والانطباعات الَّتي جاءت في صفحاتها ، فيرى فيها القارىء ملامح ، وقسمات وجوهٍ ، لا يجدها في كتاب تاريخ . ويقرأ فيها اعترافاتٍ وتصريحاتٍ لقادة فكرةٍ ، وزعماء إصلاحٍ ، وأئمَّة علمٍ ، وأمراء بيانٍ ؛ قد دوَّت أسماؤهم في الآفاق ، لا يجدها حتى في مؤلَّفاتهم ومذكَّراتهم ، وقد يجد فيها الباحث بعد قرونٍ حلقةً مفقودةً تكمِّل بحثه ، وتملأ الفراغ الهائل فيه ، قد يئس منها ، ويستفيد بها المؤرخ ما لا يستفيد بآلاف من الصَّفحات من كتب التراجم ، وأوراق الجرائد ، والمجلات ، والأحاديث ، والمقابلات الَّتي اعتادت الصُّحف أن تنشرها ، وبذلك وافق المؤلف على فكرة طبع هذا الكتاب ، ورأى من المصلحة أن يقرأه القرَّاء من جديدٍ ، وينصفوا عن طريقه الكثير من الشَّخصيات التي أسدل عليها ستار ، وسحب عليها ذيل النِّسيان ، أو أساءت إليها الأغراض السياسيَّة ، ويضعوا شخصيات أخرى في مكانتها اللاَّئقة ، أعطاها بعض الكتاب والمؤلِّفين ، والدِّعايات أكثر من حقِّها ، وأن يستفيدوا منها ما يوفِّر عليهم الوقت ، والقوَّة ، والمواهب . فتجارب العاملين ، والنَّتائج الَّتي توصَّلوا إليها ثروةٌ إنسانيَّةٌ مشتركةٌ ، تستفيد منها الأجيال بعد الأجيال ، وقد جاء في حديث صحيحٍ : « الحكمةُ ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها » .

ولما صحَّت العزيمة على طبع هذا الكتاب ، وكان الفضل فيه لمؤسَّسة الرِّسالة « ببيروت » وقد فات المؤلِّف في هذه الرِّحلة أن يزور « لبنان » وقد كُتبت له هذه الزيارة سنة ١٩٥٦م ، فدوَّن مذكَّراتها ، ونشرها في مجلة « البعث الإسلاميِّ » بعنوان « ثلاثة أيام في لبنان » وقد ألحق هذا الفصل القصير بهذا الكتاب إتماماً للرِّحلة ، وإكمالاً للكتاب .

وها هي هذه الطَّبعة الثَّالثة للكتاب مشتملةً على المحذوفات في الطَّبعات السَّابقة ، وقد اعتمد فيها على مسودة المؤلف التي عثر عليها بعدما مضى عليها زمنٌ طويلٌ ، وهو يعتقد : أنَّها ضاعت . ولله الحمدُ في الأولى ، والآخرة .

وأخيراً نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، ويحقِّق به أهداف الرِّحلة ؛ الَّتي قام بها المؤلِّف ، وتجشَّم تسجيل معلوماتها ، وانطباعاتها في زحمةٍ من الأشغال ، والمواعيد ، واللِّقاءات .

أبو الحَسن علي الحسني النّدوي

٢١ من صفر ١٣٩٩هـ

٢١ من يناير سنة ١٩٧٩م

مِنْ نهر كابُل إلى نهر اليرموك

مؤسَّسة الرِّسالة

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كَلِمَةٌ بَيْنَ يَدَي الكِتَاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمَّدٍ ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد : فقد كان لمؤلف هذا الكتاب شرفُ قيادة وفدٍ زار ستَّة أقطارٍ إسلاميَّةٍ ، وعربيَّةٍ في غرب آسيا . وفي الشَّرق العربيِّ ، وهي : أفغانستان ، وإيران ، ولبنان ، وسوريا ، والعراق ، والأردن ، وكان هذا الوفد من ضمن الوفود الكثيرة التي أرسلتها رابطة العالم الإسلاميِّ في مكَّة المكرَّمة في سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م إلى مختلف أنحاء العالم ، وانتظمت القارات الخمس للتَّعرُّف على واقع المسلمين ، وأوضاعهم ومؤسَّساتهم ومتطلَّباتهم ، والتَّعريف بأهداف الرَّابطة ، ورسالتها .

وقد كانت الجولة الَّتي يتحدَّث عنها هذا الكتاب في فترة ما بين ٤ من حزيران ١٩٧٣ و٢٠ من آب ١٩٧٣م ، وقد سجَّل المؤلِّف أخبار هذه الجولة ، وانطباعاته ، وملاحظاته ، وما دار فيها من حديثٍ ، وما ألقاه فيها من محاضرات ، وما حظي به من لقاءاتٍ ، وزيارات معتمداً في ذلك على ذاكرته غالباً ، وعلى بعض الأشرطة الَّتي كانت معه نادراً ، فجاء الكتاب مصوِّراً لجوانب الحياة في هذه البلاد ، وما تواجهه من قضايا ، ومشكلات ، وما تعانيه من صراعٍ فكريٍّ ، وحضاريٍّ ، ونفسيٍّ ، وماتحتاج إليه من إرشادٍ ، أو إسنادٍ ، حتَّى يكون القارىء ، والمعنيُّ بمصير هذه البلاد على بينةٍ من أمرها ، ووعيٍ لطبيعة الأمور ، والأوضاع في هذه البلاد .

ولا بدَّ من التَّنبيه على نقطتين في هذه الكلمة الوجيزة :

١ ـ إنَّ ما جاء في هذا الكتاب من انطباعات ، وملاحظات ، ومقترحات ،

وانتقادات إنَّما هي ظلالٌ ، وانعكاسات في نفس المؤلِّف ، أحدثتها هذه الجولة ، وهي ترجع إلى دراسته ، وتجاربه الخاصَّة ، وآرائه ، ونظرياته الَّتي اقتنع بها ، وهو مسؤول عنها شخصيّاً ، وهو يعبِّر في ذلك عن آرائه ، وانطباعاته ، ولا يتكلَّم في ذلك بلسان الرَّابطة دائماً ، وليس من الضَّروريِّ أن توافق على كلِّ ما جاء في هذا الكتاب ، ولا تُعتبر الرَّابطة مسؤولةً عن كلِّ ما تضمنَّه هذا الكتاب من آراءٍ ، وملاحظاتٍ ، وأفكارٍ .

٢ ـ لقد تحرَّى المؤلِّف الدِّقَّة ، والإتقان ، وتوخَّى الصِّدق ، والإنصاف ، وعدم الانحياز ، والوصول إلى الحقيقة بقدر الإمكان ، ولكنَّه لا يأمن أنْ يكون قد تورَّط في إفراط أو تفريطٍ ، أو تعرَّض لخطأ ، أو سوء فهمٍ في الحكم على الأشخاص ، أو الحركات ، والمؤسَّسات ، وذلك يقع كثيراً لمن لا تمكِّنه الظروف من الإقامة الطَّويلة ، والمعرفة الشَّخصيَّة ، ونَخْل الأمور ، وتنقيح الأخبار ، وقد وقع كثيرٌ من الجوَّابين ، والرَّحالين فريسة هذه الأخطاء ، والأوهام ، فمعذرةً إلى القارىء الكريم من أبناء هذه البلاد إذا وجد شيئاً من هذا النَّوع فالعصمة لله وحدَه .

ولمَّا كانت بداية هذه الرِّحلة من كابُل عاصمة أفغانستان ، وكانت نهايتُها عمَّان عاصمة الأردن ، حلا للمؤلف أن يسمِّي هذا الكتاب : « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » وهما نهران عظيمان في هاتين المدينتين تكتنفهما حوادث تاريخيَّةٌ إسلاميَّةٌ ، وقد وصل بينهما المدُّ الإسلاميُّ في القرن الأول .

وقد سبق للمؤلِّف تأليف كتاب : « مذكرات سائح في الشَّرق العربيِّ » صدر من القاهرة في سنة ١٩٥٢ فجاء هذا الكتاب حلقةً ثانيةً من هذه السِّلسلة ، يُعَرِّف بهما القارىء ما جدَّ من حوادث ، وماوقع من انقلابٍ ، وتطوُّرٍ في فترةٍ لا تتجاوز ٢٢ سنة .

ونسأل الله جاهدين مخلصين أن ينفع بهذا الكتاب ، وينير به السَّبيل ، ويقوِّي به العزم على خدمة الرِّسالة الإسلاميَّة وخدمة هذه البلاد ، وحمايتها من الأخطار المُحدقة ، والتَّحدِّيات المعاصرة ، وعلى الله قصد السَّبيل .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

أسبوعان
في المغرب الأقصى

مؤسَّسة الرِّسالة
بيروت

كَلمة عن الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسوله الأمين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، وبعد :

فهذه هي المذكرة الَّتي سجَّلها بعد عودته من الرِّحلة ـ في ضوء الملاحظات ، والإرشادات التي قيَّدها الأستاذ محمد الرَّابع الحسني النَّدويُّ . رئيس دار العلوم ندوة العلماء ، وزميله ، ومرافقه في هذه الرِّحلة التَّاريخية وفيها ما يحرِّك همم الإسلاميِّين ، ويشحذ عزائمهم ، وإنَّ فيها موعظةً ، وذكرى للذَّاكرين .

المذكِّرةُ استعراضٌ موجزٌ لتاريخ المغرب ، والتطوُّرات ، والتقلُّبات الَّتي عاشها عبر الأدوار ، وقصَّة الرُّقيِّ ، والانحطاط الّتي مرَّ بها ، والحضارة ، والثَّقافة والمدنيَّة الَّتي عاش في حضنها ؛ حتَّى لا يشعر القارىء بالصُّعوبة في فهم القصَّة ، وأدوارها حين لا يكون قد اطلع على الخلفيَّات .

وقد رأى أن يلحق بها الكلمة الَّتي بدأها في الرِّباط ، بعنوان « نحن الآن في المغرب » ، والَّتي ذكر من خلالها أبناء المغرب الأقصى ، بتاريخهم الزَّاهر الزَّاهي وماضيهم المجيد العتيد ، كما حذَّرهم من الأخطار الَّتي تُحدق بهم ، وكادت تأتي عليهم ، والواجبات الَّتي تعود عليهم ، والمسؤوليَّات الَّتي تقع على عواتقهم ، وقد جاءت فيها عصارة دراسة المؤلِّف ، وتجاربه ، وأخلص فيها النُّصح إلى القادة ، وأولياء الأمور .

وقد زادت قيمةَ هذه المذكرة زيادةً كبيرةً مقدِّمةُ صديق المؤلف المرحوم الأستاذ عبد السلام القدوائيّ النَّدوي ، وكانت له عنايةٌ بالمغرب الأقصى وإسبانيا ، وتاريخها منذ البداية ، وعاش على الحبِّ لهذه الأرض ، وله نظرٌ عميقٌ ، واطِّلاع دقيقٌ على تاريخها ، ونحن نشكره على هذا التَّكرُّم شكراً يفيض به القلب .

وقد وضع المؤلِّف هذه المذكرة في « أردو » لغة مسلمي شبه القارة الهنديَّة بسبب قلَّة المواد في هذه اللُّغة ، وقلَّة معلومات الشَّعب المسلم عن إخوانهم المغاربة ، ثمَّ رأيت أنَّ نقلها إلى العربيَّة ، ونشرها في بلاد المغرب ، وفي العالم العربيِّ منيرٌ للعقول ، وحافزٌ للهمم ، فعهدت بنقلها إلى العربيَّة إلى الأستاذ نور عالم الأميني النَّدوي ـ وهو مترجمٌ قديرٌ ، وكاتب أديبٌ ـ فقام بهذه العملية خير قيام ، وتناولتُ التَّرجمة بالتَّنقيح والتهذيب ، فجاءت كتاباً مستقلاً كأنَّه أُلِّف في العربيَّة أصالةً .

ورجوت الصَّديق الفاضل ، والعالم العامل فضيلة الشيخ أبو بكر القادري أن يسعى في نشره في المغرب ، ويختار له دار نشرٍ وتوزيعٍ ؛ لينتشر الكتاب في المغرب العربيِّ الحبيب ويتحقق غرض المؤلف ، فلبَّى هذه الدَّعوة في نشاطٍ ، وحماس ، واستجابةٍ كريمة ، كأنه كان منه على ميعادٍ ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، فهو من كبار العاملين في مجال الدَّعوة الإسلامية ونشر الفكرة الصَّحيحة ، وإثارة الوعي ، واليقظة الإسلامية ، والمؤلِّف شاكرٌ لفضله ، معترفٌ بجميله .

ونأمل : أنَّ هذه المذكرة سيتلقاها القارىء الكريم كهدية ثمنيةٍ وتحفةٍ طريفةٍ في حفاوةٍ ، وإقبالٍ ، ورغبةٍ .

٣/ ٨/ ١٤٠١هـ — **أبو الحسن علي الحسني النَّدوي**

٧/ ٦/ ١٩٨١م

في مسيرة الحياة

(الجزء الأوَّل ، والثَّاني ، والثَّالث)

دار القلم ـ دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكِتَاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على الرَّسول الأمين ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإنَّه قد صدرت بقلم المؤلف كتبٌ ، ورسائل في موضوع العقائد ، والعبادات ، وتفسير الآيات القرآنيَّة الكريمة ، والسِّيرة النَّبويَّة العطرة ـ الموضوع الدَّقيق ، الجليل الخطير ، بما إلى ذلك من موضوع التَّاريخ ، والسِّير ، والتَّراجم الَّذي يتطلَّب المسؤوليَّة التَّاريخيَّة الحسَّاسة ، إلى موضوع الكتابة عن الشَّخصيات المعاصرة ، الحرج الشَّائك الوعر ، إلى مواضع الكتابة عن الشَّخصيات المعاصرة ، الحرج الشَّائك الوعر ، إلى مواضيع الأدب ، والشِّعر اللَّطيفة الرَّقيقة ، وموضوعات الفكر الإسلاميِّ ، والثَّقافة الإسلاميَّة الواسعة المهمَّة ، فقد صدرت عشراتٌ من الكتب بقلم المؤلف في هذه المجالات الفسيحة المتنوعة ، ولكنَّه لم يواجه في بدء أيِّ تأليف جديدٍ هذا الصراع العقليَّ ، والتردُّد النَّفسيَّ الَّذي واجهه في بدء هذا المؤلَّف عن حياته ، وقصَّة ماضيه ، وقد مضت أعوامٌ وسنون ، والمؤلِّف يقدِّم رجلاً ، ويؤخِّر أخرى ، يتهيَّب الخوض في هذا الموضوع ، ولا يجرؤ على الكتابة فيه .

وقد كان لذلك أسبابٌ عديدةٌ ، منها تلك الكلمة المأثورة الحكيمة : (ما هلك امرؤ عرف قدره) التي كنت في ضوئها أستصغر نفسي في مجال التَّنويه بها ، وأتضاءل أمام الرِّجال الَّذين كُتب في سيرتهم وتراجمهم ، أو تناولوا تقييد المذكَّرات لحياتهم ، فلم أكن يوماً سياسيّاً بارزاً ، ولا قائداً محنَّكاً ، ولا صاحب شهرةٍ ، وجاهٍ

عريضٍ ، أو تربيةٍ ، وإرشادٍ ، ولا نابغةً من نوابغ العلم والفنِّ ، لم يكن شيءٌ من ذلك حتَّى يسوغ لي التَّأليف عن نفسي .

ثمَّ إنَّه ليس من الممكن المضيُّ في هذا التأليف خطوةً ، أو خطوتين بدون ذكر أحداثي ، ووقائعي ، وقصص رفقتي ، وزملائي ، ومعاصريَّ ـ الَّتي لو خلت منها قصَّة حياةٍ ؛ لكانت قصَّةً باردةً ميِّتةً مجرَّدة عن الحيويَّة ، بعيدةً عن الطَّبيعة البشريَّة ـ ويُخشى فيها في كلِّ موضعٍ من المواضع من الزَّلات ، والهفوات ، وخداع النَّفس ، والغرور بالذَّات ، كما يُخاف فيها من الإساءة إلى الأصدقاء ، والزُّملاء ، وتجريح شعورهم بعدم توفيتهم حقوقهم ، أو من المغالاة في تقريظهم ، والمبالغة في الثَّناء عليهم .

ثمَّ إنَّه لا يتوقَّع من إنسانٍ حيٍّ واعٍ ، يملك ضميراً حيّاً ، وشعوراً يقظاً أن يغمض عينه حين الحديث عن قصَّة حياته عن أحداث البيئة ، وظروفها ، وأوضاعها ، والحركات ، والجماعات الَّتي عاشها ، والحوادث ، والوقائع الَّتي احتكَّ بها ، لاسيَّما إذا كان المؤلِّف له صلةٌ بالدِّين الحيِّ الخالد ، والأمَّة الحيَّة ؛ الَّتي تملك لتكوينها الخاص قدرةً غير عاديَّةً على التأثير في الأوضاع ، والظروف ، وحساسيةً زائدةً لما يقع حولها ، وخاصَّةً إذا كان للمؤلِّف صلةٌ بجماعةٍ ، بلغت « حمايتها » لقيمٍ ومثلٍ خاصَّةٍ إلى حدِّ « الحميَّة » وعدم الرِّضا بأضدادها إلى حدِّ الامتعاض ، والكراهية ، ثمَّ يكون قد صادف زمناً يقطع التَّاريخُ فيه مسافة قرونٍ في سنين ، ومسافة أعوامٍ ، وسنين في أسابيع ، وأيام ، وتقع فيه من الحوادث ، والوقائع ما لا تقلب الخارطة السياسية العالمية ظهراً لبطن فحسب ، بل تغيِّر قوالب الحياة ، وملامح الإنسانيَّة ، وتؤثِّر بصورٍ خاصَّةٍ على حال الأمَّة ، ومستقبلها ، الَّتي يرتبط بها مصير الكاتب ، وقلبه ، وضميره .

في مثل هذا الوضع لا يستطيع أكبر مؤرِّخٍ محايدٍ حتَّى أيُّ قاصٍّ محترف ـ يحكي القصص للمتعة ، والتَّسلية ـ أن يجرِّد القلم عن القلب ، والعواطف عن الحوادث ، وأحداث العالم عن قصَّة الحياة الشَّخصيَّة ، وأحداثها ، ويحكي قصَّته في تجرُّدٍ تامٍّ ، وحياءٍ كاملٍ ، فكلَّما ألحَّ عليَّ الأصدقاء الأعزَّاء في الكتابة عن حياتي ، أو

وجدت اندفاعاً إليها في نفسي ؛ صرفتني مشاكلُ الطَّريق ، وعقباته نظراً إلى الحكمة المأثورة (في السكوت سلامةٌ ، وفي الكلام ندامةٌ) ، ومضت الأعوام والسِّنون في هذا الصِّراع ، وقد ودعنا في هذه المدَّة أولئك الأصدقاء الأعزَّاء ، الَّذين كانوا يطالبون بالكتابة ، ويلحُّون عليها ـ بصفةٍ خاصَّةٍ ـ والَّذين كان يتيسَّر لي الرُّجوع إليهم في الكشف عن تفاصيل بعض الأحداث ، والوقائع ، وجزئيَّاتها ، وسنينها[1] ، كما انتقل إلى رحمة الله تعالى بعض المحبِّين الصَّادقين الَّذين كانوا سيتلقَّون هذه القصَّة في شوقٍ ورغبةٍ ، ويقرؤونها في حبٍّ ، وتذوُّقٍ .

وصادف أن انتهيت في ديسمبر عام ١٩٨٢م من ثلاثة ، أو أربعة أعمال تأليفيَّة ، كانت قد استقطبت منذ شعور كلَّ عنايتي ، واهتمامي ، ولم يكن يمكن لي قبل إكمالها أن أتوجَّه إلى موضوع آخر ، وليس أشدَّ وأشقَّ ، وأجهد عليَّ من بقائي عاطلاً ، لا شغل لي مِنْ كتابةٍ ، أو مطالعةٍ ، فهو نوعُ عذابٍ ، وعقابٍ ، وخطر لي في أثناء هذه الفرصة السَّانحة ـ الَّتي كانت تبدو مدَّتها قليلةً محدودةً جدًّا ، ولم تكن قد تهيَّأت لديَّ أسباب البدء في عملٍ تأليفيٍّ مهم آخر ـ أن أشرع في الكتابة حول هذا الموضوع ، وظهر أمامي جانبان مهمَّان من جوانب الخير ، والنَّفع فيه :

١ـ إنَّه باستعادة ذكريات حياتي ، وأحداثها ، والتَّأمُّل في صنع الله تعالى بعبده الضَّعيف أتذكَّر قول الله تعالى ، فأرى تفسيره في حياتي ، وهو قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

إنَّ ما شاهدت في حياتي ـ رغم صغر نفسي ، وضآلتها ، ورغم البيئة المحدودة ، والأوضاع النَّابية ، والوسائل القليلة الضَّئيلة ـ من رحمة الله تعالى ،

---

(١) في مقدمة هؤلاء ابن أختي العزيز الشَّيخ محمد الثَّاني الحسني الَّذي انتقل إلى رحمة الله تعالى في ٢١/ ربيع الآخر ١٤٠٢هـ ـ ١٦/٢/ ١٩٨٢م ، رحمه الله رحمةً واسعةً ، وأغدق عليه شآبيب رضوانه ، وقد كان نسَّابة أسرته ، ومؤرخها ، والمطَّلع على الوثائق التَّاريخية ، ورافقني في كثيرٍ من الرِّحلات والأحداث .

وقدرته المطلقة ، وفضله العظيم ، وتربيته ، وكرمه ـ أكد لديَّ تأثير دعاء الوالدين ، وفوائد تعليم المعلِّمين المخلصين العطوفين الحريصين على تربية تلاميذهم ، واحتضان عباد الله الصَّالحين ، ودعواتهم المجابة ، أو سرورهم بتحقيق هذا الطَّالب بعض مطالبهم ، ورغباتهم ، ورأيت بأمِّ عيني نتائج اختيار الغايات الصَّالحة ، وأهداف الحياة الصَّحيحة ـ التي لا تتيسَّر إلا بتوفيق الله تعالى ـ والتقيُّد ـ رغم الضَّعف ، وانحراف الصِّحَّة ، وقلَّة الهمَّة ، وخمود القريحة ـ ببعض المقررات والمبادىء ، ومحاولة الارتباط الدَّائم ، والصِّلة الوثيقة بعباد الله المخلصين ، الصَّالحين .

قلت في نفسي : إنَّه لو مرَّت بالقرَّاء ضمن قصَّتي المتواضعة هذه الحقائق الجليلة ؛ لكانت زاداً للعبرة ، والعظة ، ودافعاً إلى علوِّ الهمَّة ، والطُّموح ، وتعليق الرَّجاء بالله تعالى ، وحسن الظنِّ به ، وإنَّه لا يتيسَّر تلقين هذه الحقائق ، والعظات ، والعبر في مقالٍ علميٍّ رزينٍ ، أو خطابٍ دينيٍّ جليل ، كما يتيسَّر في قصَّة ساذجةٍ ، وحكايةٍ مرسلةٍ عن النَّفس ، وأحداثها ، ووقائعها ، وإنَّه يتجلَّى في حياة معاصرٍ متواضعٍ من تجارب الحياة ، ونتائج الأحداث ما لا يتجلَّى أو يستخرج ـ أحياناً ـ من تراجم الشَّخصيات المرموقة العظيمة في التَّاريخ ، وحياة النَّوابغ من السَّلف الأقدمين ، فلا تنبعث منها عاطفةُ تقليدهم ، ومحاكاتهم ، ودوافع الأخذ بتجاربهم ، كما تنبعث من قصَّة حياة المعاصرين ، أو صغار السِّنِّ ؛ إذ لا مجال هنا للاعتذار بتفاوت الأعصار ، والفوارق بين عهد اليُمْن ، والبركة ، وعهد الفتن ، والشرور .

٢ ـ السَّبب الثَّاني : أنَّ هناك كثيراً من المواضيع ، والأحداث ، والوقائع والمؤسَّسات ، والحركات ، والشَّخصيَّات ، واالجماعات ، وتصوير البيئة والأعراف ، ونظام التَّربية السَّائد في البيوتات لا يتيسَّر الحديث عنها إلا في تضاعيف قصَّة حياتي ، ومذكَّرات رحلة عمري ، فإنَّنا لو ألقينا الضَّوء على كلٍّ واحدٍ منها بصورةٍ منفردةٍ مستقلة ؛ لاحتاج ذلك إلى مجلَّدات مفردةٍ ، زد إلى ذلك المسؤوليات التَّاريخية ، والالتزامات التَّأليفية ؛ التي قد تحول دون تناول كثيرٍ من الحقائق ، ولباب الحديث الَّذي يسهل إيراده في قصَّة الحياة الشَّخصية في غير ما تكلُّفٍ ،

واهتمامٍ ، وهكذا تتحوَّل حياة فرد ـ إذا كان لا يعيش في دنيا الأحلام ، والرُّؤى ، وقد وهبه الله تعالى شعوراً حيّاً بالأوضاع والظُّروف ، والبيئة ، والجوِّ ، وصلاحية التأثُّر بها ، والتَّجاوب معها ، وملكة العرض ، والكتابة عنها ـ تصويراً صادقاً ناطقاً لعهده ، ومذكرةً حيَّةً له ، وقد يعثر فيها المؤرِّخ ، والمؤلِّف على تلك الموادِّ المفيدة الضَّروريَّة ؛ الَّتي لا يجدها في كتب التَّاريخ العرفيِّ التَّقليديِّ ، وحياة العباقرة الجليلة المليئة بالبطولات .

وكان من الممكن أن يكبح عنان المؤلِّف الشُّعور بأنَّه يُقدم على ارتكاب « بدعةٍ تأليفيَّة » وأنَّ الوقت الَّذي كان ينفقه في التَّأليف عن حياة المصلحين ، والمجدِّدين ، وعباد الله الصَّالحين ، وإبراز مآثرهم ، وجلائل أعمالهم بدأ ينفقه في إطراء نفسه ، والتَّنويه بشخصه ، ويضيِّع بذلك ساعات العمر ، ويهيِّىء أسباب فضيحته ، ومعايبه ، وإن كانت قد صدرت كتبٌ ذات قيمةٍ أدبيَّةٍ ، وتاريخيَّةٍ في هذا الموضوع بأقلام الكتَّاب ، والأدباء العرب المعروفين ، يحتلُّ فيها كتاب مؤلف سلسلة « فجر الإسلام » و« ضحى الإسلام » و« ظهر الإسلام » الدُّكتور أحمد أمين بعنوان : « حياتي »[1] ، مكان الصَّدارة ، والرُّجحان ، الَّذي لا يتناول أحداث حياته وقصَّتها فحسب ، بل يصور مجتمع عصره ، ومدنيَّته ، ونظام التَّعليم ، والتَّربية فيه ، وحياة مصر كلِّها في عهده ،ولكن لم يكن يقنع المؤلِّف ـ الَّذي عاش في البيئة الدِّينيَّة الهنديَّة ـ ويبعث فيه الهمَّة ، والعزيمة وجود هذه الأمثلة ، فقد كُتِبَتْ في هذا النِّصف من القرن الحالي عشراتٌ من الكتب في قصص الحياة الشَّخصية في أوربا ، وفي الهند[2] أيضاً ، وصادفتني ثلاثة أمثلةٍ لأفراد الطَّبقة العلميَّة الدِّينية ، ومشايخي ، وأساتذتي الموقَّرين ، أحدهم : شيخ الإسلام السَّيد حسين أحمد المدني ـ رحمه

(١) ويجدر بالذكر في هذا الصَّدد كتاب « الأيام » للدُّكتور طه حسين ، وكتاب « أنا » للأستاذ عباس محمود العقاد ، ومذكرات (١ ، ٢ ، ٣) للعلامة محمَّد كرد علي ، الكتب التي قرأها المثقَّفون في شوقٍ ، وإعجابٍ ، ورغبةٍ ، وظهر أخيراً كتاب « ذكريات » للكاتب الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي .

(٢) كتاب « البحث عن الحقِّ » للزَّعيم غاندي ، وكتاب « قصَّتي » لجواهر لال نهرو ، وكتبٍ بأقلام أدباء الهند المسلمين ، والكتاب المشهورين .

الله تعالى ـ الَّذي ألف كتابه : « نقش حياة » وكان قد بدأه بقصَّة حياته ، ولكن أنهى هذه القصَّة للأسف على صفحة ١٣٠ ، وبدأ يكتب فيما بعد قصَّة جهاد التحرير الَّذي كان لشيخه ، ومرشده شيخ الهند محمود حسن الدَّيوبندي فيه القدح المعلَّى ، والدَّور القياديِّ العظيم ، وانتهى المجلَّد الثَّاني أيضاً من الكتاب في تفصيل هذه الحكاية ، وبيان أسبابها ، وعواملها ، وخلفيَّاتها .

وكان المثال الثَّاني لبركة العصر ، وريحانة الهند شيخنا شيخ الحديث ؛ محمَّد زكريا الكاندهلوي ـ صاحب « أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك » ـ الَّذي ألف حياته في سبعة مجلَّدات لم تقتصر على حياته فقط ، بل تناولت عهده ، وبيئته ، والنِّظام التَّعليميَّ الدِّينيَّ في عصره ، وخصائصه ، ومزاياه ، وقصصاً من حياة خرِّيجي هذا النِّظام ، والقائمين عليه ، وطبيعتهم ، ودورهم ، ومنهجهم .

وكان المثال الثَّالث للأستاذ الأديب الكبير الشَّيخ عبد الماجد الدَّريابادي صاحب « تفسير القرآن » بالأرديَّة ، والإنكليزيَّة ، الَّذي ألَّف في حياته كتاباً في أسلوبه الفريد الخاصِّ ، فهو يثير العظة ، والاعتبار ، ويعلِّم الأدب والسُّلوك ، وهو تسجيلٌ ناطقٌ مؤثِّرٌ لعهد طفولته ، وشبابه ، وكهولته .

كانت هذه الأمثلة الثَّلاثة لهذه الشَّخصيات الكبيرة الَّتي اعترف ـ مع تفاوت مراتبهم ، ومكانتهم ـ بفضلها ، وأتشرف بمعاصرتها ، حافزةً على هذا العمل ، ومدعمةً له ، ورأيت : أنَّ هذا العمل التَّأليفيَّ لم يعد في وسطنا ، وطبقتنا « بدعةً محدثةً » وإن كانت ؛ فهي « بدعةٌ حسنةٌ » .

وقد كان من الدَّوافع إلى هذا التَّأليف : أنَّني سوف أجد عن طريقه فرصةً طيِّبةً ـ ضمن بيان عقليَّتي ، وتفكيري ، وتطوراتهما ، وتاريخ الإنشاء والكتابة ، والتَّأليف في حياتي ، وأهمِّ الأحداث والوقائع ، والحركات والدَّعوات في عهدي ـ لعرض آرائي ، وأفكاري ، ومشاهداتي ، وانطباعاتي ، ودعوتي ، ومنهجي بصورةٍ مختصرةٍ ، وعرض النُّقاط الأساسيَّة الرَّئيسية من كتاباتي ، ومؤلَّفاتي ، وتقديم مقتطفاتٍ مهمَّةٍ منها ، وهي منشورةٌ مبعثرةٌ في كثير من مقالاتي ، ومحاضراتي ،

ومؤلَّفاتي ، التي بلغت أكثر من خمسةٍ وسبعين مؤلَّفاً ، ليس من اليسير أن يقف عليها مَنْ يريد الاطِّلاع على آرائي فيها في وقتٍ واحد .

وسوف يجد القرَّاء الكرام في محتويات الكتاب إطناباً وإطالة أحياناً ، ولكن الَّذي أراه : أنَّه لابدَّ من الاعتراف بالفرق الطَّبيعي بين كتب التَّاريخ والتَّراجم ، وكتب الحياة الشَّخصية ؛ إذ إنَّ المؤلف في كتب التَّاريخ ، والتَّراجم يكون ممثلاً عن تلك الشَّخصيات الَّتي يكتب عنها ، ومحامياً لها ، ومدافعاً عنها ، ومتقيِّداً بكثير من الالتزامات فيها ، ويكون هو حرّاً طليقاً في الكتابة عن حياته نفسه ، وممثلاً لذاته ، ومتحدِّثاً عنها ، فلا يصح ـ إذاً ـ أن تقاس محتويات كتب الحياة الشَّخصية بمقياس الاتزان ، والتَّناسب الدَّقيق ، الَّذي تُقاس به محتويات كتب التَّاريخ ، والتَّراجم ، فالواجب أن يُسمح للمؤلف عن نفسه أن يستخدم الإيجاز ، أو الإطناب ، والإجمال أو التَّفصيل ، حسب وجهة نظره ، وحسب انطباعاته في حياته ، واعتباره للأهمِّيَّة ، والخطورة لشيء دون آخر ، وإلا فسوف ينعدم الفارق المطلوب بين الكتاب عن النَّفس ، والكتاب عن الغير .

وكان من تقدير الله تعالى وتيسيره : أنَّني وجدت لأسبابٍ طبيَّةٍ فرصة الفراغ ، والاستجمام لمدَّةٍ محدودةٍ ، حيث لم أكن أستطيع لبعدي عن مقرِّي ومكتبتي أن أشتغل بعملٍ تأليفيٍّ كبيرٍ أضطر فيه إلى مراجعة الكتب المكرَّرة والرُّجوع إلى كثيرٍ من المصادر ، والمراجع مرَّةً بعد مرَّةٍ ، فبدأت بهذا العمل الَّذي كان مَلْئاً للفراغ وتسليةً ، متوكِّلاً على الله ، راجياً منه الخير ، قاصداً التَّذكير لنفسي أوّلاً بنعم الله الَّتي تستوجب الحمد ، والشُّكر دائماً ، ويجب ألا تغيب عن البال أبداً ، والاعتبار بالحوادث ، والانتفاع بالدُّروس ، وتجارب الحياة بها ، ثمَّ إشراك القرَّاء الأعزَّاء من إخواني ، وأصدقائي ، وتلاميذي ، وأبنائي في استخراج النَّتائج الصَّحيحة من الحوادث الماضية والانتفاع بها ، والاعتبار من الأخطاء والعثرات ، فيبتعدون عنها ، ومشاهدة آيات الله في الأنفس ، والآفاق ، ونعمه على عباده ، وخلقه ، فيتعرَّضون لها ، ويجرِّبونها ، ويستجلبونها بالرَّجاء ، والدُّعاء .

والسَّعيد من وُعظ بغيره ، والعاقل من انتفع بتجارب الآخرين ، فإنَّها ثروةٌ مشتركةٌ ، وحقٌّ مشاعٌ ، وصدق رسول الله ﷺ ؛ إذ قال :

« الحكمة ضالَّة المؤمن حيث وجدها فهو أحقُّ بها » .

ويشكر المؤلِّف العزيزَ السَّيِّدَ سلمانَ الحسيني النَّدويَّ أستاذ دار العلوم ندوة العلماء على أنَّه وفَّر وقتاً وجهداً للقيام بمهمَّة نقل الكتاب من اللُّغة الأرديَّة الَّتي أُلِّف فيها إلى اللُّغة العربيَّة الفصيحة على كثرة شواغله ، وقيامه بمُهمَّة التَّدريس ، والدَّعوة ، وهو أحد أعضاء الأسرة الَّذين تعتزُّ بهم ، وابن بنت أخي المؤلِّف الأكبر ومربِّيه الدُّكتور السَّيد عبد العلي الحسني ، رحمه الله! وأهل البيت أدرى بما فيه ، وقد تصفَّحه المؤلِّف ، وتناوله بشيءٍ من التَّهذيب والتَّنقيح ، والحذف ، والزِّيادة .

والحمد لله أوّلاً وآخراً .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي

٥/ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ

١٥/ ٢/ ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

بَيْنَ يَدي الكِتاب

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ، صلَّى الله عليه ، وآله ، وسلَّم .

وبعد : فلم يكن يخطر لي ببالٍ بعدما انتهيت من تأليف المجلد الثَّاني لكتابي « في مسيرة الحياة » ـ بالأرديَّة ـ الَّذي اختتمت بوقائع عام ١٩٨٣م ، وأحداثه : أنَّه سيعقبه المجلَّد الثَّالث منه ، ولكن بعد أن قام العزيز سلمان الحسيني النَّدْويُّ بترجمة المجلَّدين من الكتاب إلى العربيَّة ، وجمع موادَّهما في كتابٍ واحدٍ ، وبعثتُ به للطِّباعة ، والنَّشر إلى الأستاذ محمد علي دولة صاحب « دار القلم » بدمشق ، وتحلَّى الكتاب بالطِّباعة على مستوى عالٍ راقٍ بعنوان : « في مسيرة الحياة » ، في شهر شعبان عام ١٤٠٧هـ « الموافق مايو ١٩٨٧م » ؛ إذ بالنَّاشر الفاضل الأستاذ محمد علي دولة ، والمؤلِّف ، اطَّلعا على أنَّه طُبع على غلاف الكتاب ـ خطأ ـ رقم الجزء (١) ، ولعلَّ الناشر الفاضل كان يتوقَّع صدور المجلد الثَّالث بالأرديَّة ، الَّذي سيُطبع مجلَّداً ثانياً بالعربيَّة ، وقد اعتذر الأستاذ محمد علي دولة إلى المؤلِّف لهذا الخطأ ، مع إبداء رغبته في إكمال هذه السِّلسلة ، ووضع المجلَّد الثَّالث بالأرديَّة ، الَّذي يلي المجلد الأوَّل بالعربيَّة ؛ لأنَّ ذلك يوهم القرَّاء بأنَّ الكتاب ناقصٌ ، لم تُسْتكمل أجزاؤه ، ويبقى المقتنون للمجلد الأوَّل في انتظار للمجلد الثَّاني .

هذا وقد جدَّت ـ في هذه الفترة ـ في حياة المؤلف ، وفي نطاق هذه البلاد (الهند) وحياة المسلمين بها أحداثٌ مهمَّةٌ ، ومواقف خطيرةٌ ، ووقائع تستحقُّ التَّسجيلَ ، وكتابةَ مذكَّرات فيها ، وحفظَها في مستودع التَّاريخ ، ورأيت ذلك عملاً مفيداً ، وضرورةً أكيدةً ، لاسيَّما وقد بُذِلت في هذه الفترة جهودٌ جبَّارة ، وقامت

حركةٌ شعبيَّةٌ مجلجلةٌ في مسلمي الهند للدِّفاع عن قوانين الأحوال الشَّخصية للمسلمين ، والحفاظ عليها ، ومعارضة حكم المحكمة العليا الَّذي كان تدخُّلاً صريحاً في أمور الدِّين ، وهتكاً لحرمة القوانين الشَّرعية ، لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخ الأمَّة الإسلامية الهنديَّة في سعتها ، وعمومها ، وقوَّتها ، وتأثيرها ، وخطرها ، ودقَّتها ، ويُخشى : أنَّه بعد مُضيٍّ فترةٍ من الزَّمن يصعب الوصول إلى المعلومات الصَّحيحة عنها ، والتَّفصيلات الضَّرورية المتعلِّقة بها ، كما يتعسَّر التَّوصُّل إلى المعلومات الصَّحيحة الكافية ، والتَّسجيل الدَّقيق للجهود الَّتي بُذلِت في معالجة مختلف قضايا الأمَّة الإسلاميَّة في مختلف مدن الهند الرَّئيسية ، وماجرى من المناقشات ، والحوار حول الأوضاع الطَّائفيَّة الشاذَّة ، وضرورة التَّعايش السِّلمي ، والتَّفاهم فيما بين المسلمين ، وغيرهم ، وإنصاف بعضهم للبعض ، واحترام الإنسانيَّة ، وقد جدَّت في هذه الفترة للمؤلِّف أحداثٌ ، وقُدِّر له أن يقوم برحلاتٍ طويلةٍ مفيدةٍ إلى الخارج ـ لاسيَّما إلى بعض البلدان الإسلاميَّة ـ لا يمكن التَّغاضي عنها .

كان كُلُّ ذلك من الدَّوافع المجدَّدة إلى تأليف المجلد الثَّالث للكتاب بالأرديَّة ، الذي سيُقدَّم إلى القُرَّاء العرب كجزء ثانٍ لترجمته العربيَّة المعنونة بـ : « في مسيرة الحياة » .

والله تعالى هو المسؤول أن يجعله ـ رغم أنَّه تمَّ تأليفه في زمن انحراف الصِّحَّة ، وفترة النَّقاهة ، وفي شهر رمضان ، وهي فترةٌ غير عاديَّةٍ ، وغير ملائمةٍ لعمل التَّأليف ـ ممتعاً مفيداً ، حقيقاً بأن يأخذ مكانه في الأدب الإسلاميِّ السَّليم ، الصَّالح ، الهادف : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٠] .

٢٩ من جُمادى الأولى سنة ١٤٠٩هـ — **أبو الحسن علي الحسني النَّدويُّ**

٢٩ من ديسمبر ١٩٨٨م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بَيْن يَدي الكتَاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد : فهذا هو الجزء الرَّابع لكتابي (في مسيرة الحياة) ، في أردو ، وقد كنت ألفّتُ الجزء الثَّالث مُرْغماً ، وذلك لأنَّ التَّرجمة العربيَّة الَّتي كانت تحتوي على الجزأين الأوَّلين للكتاب بالأرديَّة حملت رقم الأول خطأً ، فطلب منِّي النَّاشر الفاضل أن أقوم بتأليف الجزء الثَّاني لكي لا يبدو الكتاب ناقصاً ، فجمعتُ المواد في اللُّغة الأرديَّة أولاً ، لأنَّ الكتاب كان أصلاً بالأرديَّة ، فأتى الجزء الثالث إلى حيِّز الوجود بطبيعة الحال ، ووصل إلى أيدي الرَّاغبين فيه ، وقد طُبع في الهند ، وباكستان في آنٍ واحدٍ سنة ١٩٨٨م ، وكنت أتردَّد كثيراً في تأليف الجزء الرَّابع ، وكانت نيَّتي إنهاء هذه السِّلسلة بالجزء الثَّالث ، وماكنت أجد في نفسي حافزاً إلى مواصلة هذه السِّلسلة .

بيد أنَّ الإخوة ، والمعارف ألحُّوا في رسائلهم على مواصلة سرد أحداث فترة حياتي ، وزاد من الإلحاح من الإخوة والمحبِّين ما وقع في بلادي الهند بصفةٍ خاصَّةٍ ، وفي العالم العربيِّ الإسلاميِّ بصفةٍ عامَّةٍ ، من أحداثٍ جليلةٍ ، ووقائع مهمَّةٍ ، وتطوُّراتٍ حاسمةٍ ، وما عرض من قضايا شائكةٍ ، ومآسي داميةٍ ، بعثت علي الاهتمام والتَّفكير ، والدِّراسة ، وفي الوقت نفسه أتيحت لي فرصةٌ للقيام برحلاتٍ متعدِّدةٍ إلى الدُّول الشَّرقية ، والغربيَّة ، وحضور ندواتٍ ، ومؤتمرات محليَّة ، إقليميَّة ودوليَّة ، ذات أهمِّيَّةٍ بالغةٍ ، ووجدت فرصةً سانحةً لإبداء الرَّأي ، وإلقاء المحاضرات ، كما انتهزت الفرصة المواتية للتحدُّث إلى المشاركين فيها ،

من أماكن بعيدةٍ ، وتبادل وجهات النَّظر مع الزُّعماء ، والقادة ، والمسؤولين في داخل الهند ، وخارجها .

فخطر ببالي : أنَّ هذه الأحداث الَّتي وقعت في بلادي ، والتَّطوُّرات الَّتي مرَّ بها العالم العربيُّ ، وذكريات الرِّحلات الَّتي قمت بها رغم ضعف صحَّتي ، ومداولات النَّدوات ، والمؤتمرات الَّتي عقدت في الدُّول المختلفة حول القضايا المهمَّة الحاسمة لو لم تُسجَّل ، وتُقيَّد ، ولم تُدوَّن بأمانةٍ ، ودقَّةٍ ـ فإنَّ جزءاً كبيراً من تاريخ الملَّة الإسلاميَّة ، وتاريخ هذه البلاد سيبقى خافياً على الجيل الجديد من المؤرِّخين ، والكُتّاب الَّذين يعيشون في هذه الأوضاع ، ولم يعرفوها عن كثبٍ ، ولم يجرِّبوها ، ويلتبس عليهم لمرور الزَّمن ، وتتضارب وجهات النَّظر ، ويعزُّ عليهم الوصول إلى خلفيَّات الوقائع ، والأحداث ، وردود الفعل ، والتَّفاعلات ، وأصناف الأفكار ، والاتِّجاهات ، والعواطف الَّتي كانت تختلج في النُّفوس ، والارتسامات الَّتي كانت تتلاطم في الأذهان ، والعقول للطَّبقة المثقَّفة الواعية في هذا العصر الَّذي نحن بصدده .

يعرف المُتتبِّعون للأحداث ، والمراقبون للتَّاريخ مراقبةً واقعيّةً ، ناقدةً ، حُرَّةً ، أنْ معظم كتب التَّاريخ في الزَّمن القديم كانت تدور حول الحكومات ، والبيئات السِّياسيَّة العليا ، وتركِّز على تنصيب الملوك ، وعزلهم ، ووقائع الحروب والصِّراعات ، والغلبة ، والانكسار ؛ فلها منهجٌ مُقرَّر ، وطرازٌ معيَّن ، وهي أشبه بالتَّاريخ الشَّخصي منه بالتَّاريخ العام ، وتاريخ العصر والزَّمن ، ومن هذه الناحية لا تعتبر هذه الكتب كتباً تاريخيَّة من النَّاحية الفنِّيَّة ، وإنَّما هي كتبٌ تاريخيَّةٌ اصطلاحيَّاً ، أو عرفياً .

فإنَّ هذه الكتب القديمة لا تشخِّص نبضات القلب ، هواجس النَّفس ، ولا تلقي الضَّوء على مراحل تطوُّر العقل ، واضطراب الرُّوح في ذلك العصر ، والدَّوافع ، والحركات للقضايا الَّتي كانت تواجه ذلك المجتمع ، الَّتي هزَّت كيان البلاد بكاملها ، وأطارت نوم مَنْ يعيش فيها من الرِّجال المثقَّفين الواعين ، وسبَّبت لهم قلقاً متواصلاً ، واضطراباً دائماً ؛ كما أنَّ هذه الكتب لا تساعد القرَّاء على أن يقيسوا

حجم الجهود الهائلة الَّتي بُذِلت لتغيير الوضع ، والوسائل التي اتُّخِذَتْ لمقاومة الأخطار ؛ الَّتي كانت تُحْدِق بالجميع ، والتَّضحيات الَّتي قُدِّمت لإيجاد المناخ الهادىء الرَّزين في ذلك العهد ، والأسباب ، والعوامل الَّتي تفاعلت لنجاح تلك الجهود .

إنَّ هذه الكتب التَّاريخيَّة القديمة كانت لا تقدر على إبراز ملامح ذلك العصر بكلِّ ما يتعلَّق به من أفكارٍ ، وآراءٍ ، وأحاسيس ، ومشاعر ، وعواطف ، وانفعالات ، وعوامل خلقيَّةٍ ونفسيَّةٍ ، والتَّقاليد ، والعادات المتَّبعة ، والميول ، والنَّزعات ؛ الَّتي كان تختلج في النُّفوس ، ولا يدَّعي أحدٌ من هؤلاء المؤرِّخين : أنَّه بذل هذا المجهود ، وعرض التَّاريخ من هذه الزَّوايا ، وإنَّما كان همُّه الوحيد : سرد الحكايات ، ونقل الرِّوايات ، وتسجيل الأحداث ، كما وقعت بترتيبها الزَّمنيِّ بدون نقدٍ ، وتمحيصٍ ، وقراءةِ ما بين السُّطور ، والبحث عن البواعث ، والمحرِّكات الكامنة .

فإذا أراد أحدٌ أن يعرف خفقان القلب ، وخلجان النَّفس ، وقلق الرُّوح في ذلك الزَّمن ، وأن يعرف الحركات ، والدَّوافع للمنهج الَّذي اختير لمواجهة القضايا النَّاشئة فيه ؛ لا تغنيه هذه الكتب ، ولا تشفي غُلَّته ، ولا تهديه إلى ضالَّته ؛ ولا يجد ذلك إلا في مجالس الأتقياء ، والعارفين ، وما جرى فيها من الأحاديث ، وما أُلقي فيها من المواعظ ، وما سُرِد في حكاياتها من الوقائع ، وكما تفيده دراسة المذكِّرات الشَّخصية التي سُجِّلت في ذلك العصر إذا أمكن الحصول عليها ، ورسائل الكُتَّاب ، والدُّعاة ، والعلماء ، والصُّلحاء ، الَّذين يملكون ضميراً حيّاً ، وشعوراً يقظاً ، وقلباً متألِّماً ، ويتَّصفون بالبَسالة ، والشَّجاعة ، والمروءة وبُعْد النَّظر ؛ والرِّحلات الَّتي قام بها السَّيَّاحون ؛ الَّذين يسجِّلون انطباعاتهم بالصِّدق ، والصَّراحة ، والدِّرك ، والأمانة ، ولا يحكون فقط ما تلقَّوه من حفاوةٍ ، بالغةٍ ، وترحيبٍ حارٍّ ، وما شاهدوه من المباني الشَّامخة ، والحدائق الغنَّاء ، والحقول الخضراء ، والأشجار الباسقة ، والورود الزَّاهية ، والأماكن البهيجة ، خلال رحلاتهم ، وجولاتهم ؛ وإنَّما يكشفون القناع عن ذلك المجتمع ، ويصوِّرون الحياة في ذلك العصر بجميع

خصائصها من الطُّمأنينة ، والاضطرابات ، والحبِّ ، والكراهية ، والخير ، والشَّرِّ ، والتَّضامن ، والتَّشتُّت ، والأمن ، والسَّلامة والقتال ، والنِّضال ، ولا يمكن أن يكتمل تاريخ ملَّةٍ ، أو عهدٍ ، أو مجتمعٍ دون أن توضع هذه الأمور موضع الاعتبار ، وتنال نصيبها الأوفر من الدِّراسة ، والتَّحليل .

إنَّ الجزأين لـ (مسيرة الحياة) بالعربيَّة ، وهذا الجزء الثَّالث ـ الَّذي هو بين أيدي القرّاء الآن ـ تسدُّ الحاجة ، وتملأ هذا الفراغ إلى حدٍّ ما ، وتساعد على تحقيق هذا الهدف ؛ من حيث إنَّها تقدِّم صورةً حيَّةً ناطقةً متحرِّكةً للمراكز ، والمؤسَّسات المهمَّة في بلادي الهند بصفةٍ خاصَّةٍ ، وفي العالم العربيِّ والإسلاميِّ بصفةٍ عامَّة ، وتجسُّ نبضات القلب ، وهواجس النَّفس ، واضطراب الرُّوح في ذلك العصر ، وتدلُّ على القضايا الَّتي يعاني منها المسلمون ، وعلى الأخطار الَّتي كانت تحدق بالأحوال الشَّخصية الإسلاميَّة ، وعلى العوائق الَّتي كانت تعترض في سبيل الحفاظ عليها ، وعلى الجهود الَّتي بُذلت لإزالة العوائق ، والتغلُّب على المشاكل ، ومعالجة الأخطار ، وعلى مدى ما وصلت إليه الهند من الانهيار الخُلقيِّ ، والتَّدهور الاجتماعيِّ ، والأزمة الاقتصاديَّة ، وسوء الظَّنِّ ، والتذمُّر ، والشُّكوك ، والشُّبهات ، والتَّلاؤم ، وفقدان الثِّقة بالقادة ، ومدى ما تعود إلى الأمَّة الإسلاميَّة من مسؤوليَّةٍ إزاء ذلك .

وكيف كان يفكِّر من كان يفكر ، وماذا كان يجتهد من كان يجتهد ، وكم من اضطرابات طائفيَّةٍ ، حدثت في الهند ! وماهي أبعادها ، وكم كانت ضخامة أضرارها ! وماهو الثَّمن الَّذي دفعته الأمَّة الإسلاميَّة ، الَّتي كانت عُرضةً لها رئيسيّاً ، وماهي الجهود الّتي بُذلت لإطفاء نيرانها .

وما هي الأحداث الَّتي أدَّت إلى هدم المساجد ، وإحراقها ، وماهي الأخطاء الَّتي وقع فيها المسلمون ، وسوء التَّدبير ، خلال محاولاتهم لصيانة المساجد ، ووقاية الأرواح ، والممتلكات ؛ الَّتي أثارت العاطفة الدِّينيَّة الَّتي لا يوجد لها نظير في التَّاريخ القديم في قلوب كثيرٍ من أفراد الطَّائفة الهندوكيَّة ، الَّذين كانوا قد فقدوا صلتهم بديانتهم ، وفترت حماستُهم ، وخمدت حميَّتُهم لها ، أو كان هذا البعد

يزداد ويتعمّق ، فعادت إليهم حميّتهم ، وحماستهم ، وانبعثت فيهم المطامح ، وثارت عزائمهم لإحياء ديانتهم ، وتقاليدهم ، وكان قد فشل في إحيائها ـ بل في إبقائها ـ زعماؤهم الكبار رغم جهودهم المتواصلة .

وما هي الآراء المخلصة الواقعيّة ، الّتي عُرضت على المسؤولين في الحكومة نحو هذه القضايا ، وتجاه هذه الآراء ، ثمّ كيف كان سقوط القيادات السّياسيّة ، وماهي الأسباب الّتي كانت وراء هذا السُّقوط ، وماهو الموقف الّذي كان ينبغي للمسلمين أن يختاروه ، وماهي الآراء الّتي عَرَضها المفكّرون الإسلاميُّون المخلصون على الحكومة الجديدة ، وماهي التَّوجيهات الّتي قدَّموها للمسلمين ؛ لانتهاز هذه الفرصة ؛ وكيف وُفّقوا للاستمرار في نشاطاتهم الدَّعويّة ، والفكريّة ، والعلميّة ، والإداريّة في مثل هذه الأوضاع السّياسيّة ، والقضايا المهمّة الحاسمة ، والأخطار الجسيمة المهدِّدة للأمّة الإسلاميّة ، الّتي كانت تكفي لتشغل أصحاب الضمّائر الحيّة ، والقلوب الخفّاقة ، والعاملين في مجال الدَّعوة الإسلاميّة ؛ وكيف مُنحت لهم فرص القيام برحلاتٍ طويلةٍ إلى الدُّول الشَّرقيّة والغربيّة ، للمشاركة في الحفلات الّتي عقدت فيها ، بالإضافة إلى ما كان لهم من علاقةٍ قويّةٍ مباشرةً بأوضاع البلاد ، ومشاكلها .

ثمّ ما هي الجهود الّتي بذلت لترشيد الصَّحوة الإسلاميّة ، وعرض الإسلام في صورته الأصيلة في الدُّول الغربيّة ، واستخدام القلم لتحقيق الأهداف النَّبيلة السَّامية ، وتقديم الأدب كأداةٍ للبناء ، والإصلاح ، لا كأداةٍ للتَّدمير ، والإفساد .

بالإضافة إلى كلِّ ذلك يجد القُرّاء في هذا الكتاب ذكريات الشَّخصيات الّتي لحقت بالرَّفيق الأعلى ممَّن كان لهم تأثيرٌ على الأحداث ، ودورٌ في مجريات الأمور ، ولو كان فاتهم دويٌّ في الأوساط السّياسيّة ، والدِّينيّة ، والعلميّة ، أو لم يكن لهم صلةٌ شخصيّةٌ ، أو عائليّةٌ بالمؤلِّف .

هكذا يساعد هذا الكتاب الّذي لا يملك قيمةً علميّةً ، أدبيّة ، تأليفيّةً ، وتحليليّةً كبيرةً على فهم ما حدث في الهند في النِّصف الثَّاني للقرن العشرين ؛ من أوضاعٍ ، وأحداثٍ ، وعواطف ، وأحاسيس ، وتفاعلاتٍ ، وارتساماتٍ ، بل على التَّفاعل مع

نبضات القلب ، وهواجس النَّفس ، واضطرابات الرُّوح أيضاً ويشعر القارىء كأنَّه يعيش في ذلك العصر ، وفي خِضَمِّ تلك الأحداث ، ويوفِّر للمؤرِّخين ، والمحلِّلين الجدد معلوماتٍ ، ووثائق لم تتناولها الأقلام ، ولم تنشرها الصُّحف ، والمجلات ، إلا الجزء الضَّئيل منها ، وكذلك يستطيع الوطنيُّون الصَّادقون ، والعاملون المخلصون أن يتَّعظوا بما جاء في هذه الحلقات الأربع من الحوادث ، والوقائع ، ويحترسوا من الوقوع في الأخطاء ؛ وأن تنشأ فيهم الواقعيَّة ، والاعتدال ، والاتزان ، وبُعْدُ النَّظر ، ورحابة الصَّدر ؛ الَّتي هي من أشدِّ حاجات هذه البلاد ، وهذه الملَّة الَّتي تعيش بها .

أدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع النَّاس بهذا الجزء ، الَّذي تجرَّأتُ على تأليفه ؛ رغم شعوري بعجزي ، وتقصيري ، وألا يعود هذا العمل خائباً ، وهذه المحاولة فاشلةً ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾(1) [إبراهيم : ٢٠] .

* * *

(١) قد قام بعملية التَّعريب ، ونقل المواد الكتابية من أردو إلى العربيَّة المحروس السيد جعفر مسعود الحسني النَّدوي ، ابن الأستاذ واضح رشيد الحسني النَّدْوي ـ الأستاذ بدار العلوم ندوة العلماء ، ورئيس تحرير صحيفة (الرائد) وقد أحسن ، وأجاد ، أطال الله بقاءه ، ووفّقه لما يحبُّ ، ويرضى .
وقد جاء في هذا الجزء ما احتوى عليه الجزء الرَّابع ، والخامس من الأصل الأرديِّ لـ (مسيرة الحياة) .

مقدماته

لكتُبه عن الهند

١ ـ المسلمون في الهند .

٢ ـ الأضواء على الحركات .

المسلمون في الهند

المجمع الإسلاميُّ العلميُّ ـ لكهنؤ (الهند)
دار ابن كثير ـ دمشق

مقدِّمة المؤلِّف

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله ، أمَّا بعد :

كنت في رحلتي في الشَّرق الأوسط[1] أواجه سؤالاً كان يتكرَّر ، ويوجَّه في كلِّ مجلسٍ ، وفي كلِّ مناسبةٍ : ما عدد المسلمين في الهند ؟ فأجيب : أنهم أربعون مليوناً[2] ، وهناك يندهش النَّاس ويندفع بعضهم قائلاً : يا سلام ! أربعون مليوناً ! فلولا ثقتهم بالضَّيف ، ولولا الجدُّ في الجواب ؛ لسارعوا إلى التَّكذيب ، أو الشَّكِّ على الأقلِّ ؛ لأنَّهم ما كانوا ينتظرون بعدما سمعوا عن موجات الهجرة الكبيرة ، وعدد النَّازحين الضَّخم : أنَّ المسلمين سيكونون مليوناً واحداً فضلاً عن أربعين مليوناً ، إذاً فلا غرابة في استغرابهم .

لقد كانت هذه مفاجأةً لا تفارقني أينما حللت ، ونزلت ، مفاجأةً للطَّرفين ، مفاجأة للسَّائلين عن عدد المسلمين في الهند ، ومفاجأةً للمجيب لاستغرابهم ، وهناك مفاجآتٌ أخرى فيما يتَّصل بالمسلمين في الهند ، فالَّذين كانوا يعرفون : أنَّ في الهند عدداً كبيراً من المسلمين ـ على قلَّة هؤلاء ـ كانوا يعتقدون : أنَّ المسلمين لا شأن لهم في هذا القطر العظيم ، وليست لهم حضارةٌ خاصَّةٌ ، ولا ثقافةٌ واسعةٌ ، ولا آدابٌ ساميةٌ ، ولا مؤسَّساتٌ علميَّة ، ولا نشاطٌ ، ولا إنتاجٌ في العلم ، والأدب ، إنَّما هم كالرِّعاع ، أو أمَّةٌ قد أفلست في كلِّ مقوِّمات الحياة ، وفي كل ما تعتزُّ به أمةٌ من علمٍ ، وأدبٍ ، ودينٍ ، واجتماعٍ ، وأخلاقٍ ، ومروءةٍ .

---

(١) كانت هذه الرِّحلة الَّتي شملت السُّعودية ، ومصر ، والسُّودان ، وسوريا ، وفلسطين سنة ١٩٥١م .

(٢) ويقدر الآن عددهم ما بين خمسين مليوناً ، وستين مليوناً ، ويرى بعض أهل الخبرة : أنَّهم أكثر من ذلك .

بل قد كان بعض الإخوة يسأل : هل في الهند مساجد ؟ هل فيها مدارس دينيَّة ؟ هل عندكم علماء ؟ هل يوجد هناك من يحسن أن يقرأ القرآن ؟ هل هناك من يفهم العربيَّة ؟ أسئلةٌ تدلُّ على أنَّ معلومات إخوتنا العرب عن المسلمين في الهند ضئيلةٌ جدّاً ، وتدل كذلك على أنَّه قد أثير نقعٌ كبيرٌ حول المسلمين في الهند ، وتدلُّ كذلك على تقصير علماء الهند في القيام بمهمَّة التَّعريف بهذا القطر العظيم ، وبهذه الأمَّة الإسلاميَّة العظيمة ؛ التي مثَّلت دوراً رائعاً في تاريخ الإسلام ، وتاريخ العلم العام ، وأضافت ثروةً ذاتَ قيمةٍ عظيمةٍ إلى مكتبة الإسلام العامَّة ، وأتحفتها بطُرَفٍ غاليةٍ تتجمل بها المكتبة العربيَّة ، وتزدهر بها على سعتها ، وغناها ، وتفرَّدت ببعض العلوم الإسلاميَّة الَّتي كانت ، ولا تزال فيها الهند زعيمةَ العالم الإسلاميِّ ، وحاملة لوائها عدَّة قرونٍ ، كعلم الحديث ، والفقه ، وأصوله في القديم ، والسِّيرة النبوية ، وعلم الكلام ، والدَّعوة إلى الإسلام في هذا العصر .

وأنجبت الهندِ رجالاً شهد لهم علماء الغرب بالفضل ، وعكفوا على كُتبهم ، ومؤلَّفاتهم ينقلون ، ويقتبسون ، ويستدلُّون ويحتجُّون ، وقد أنجبت كذلك علماء يندر نظيرهم في الذَّكاء ، وخصوبة الفكر ، والابتكار العلميِّ ، وأنجبت كذلك فضلاء لا يضارعون في كثرة المؤلَّفات ، والإنتاج ، وقد أنتجت من الملوك رجالاً يتفرَّدون في حسن سياستهم ، وتنظيمهم الدَّولة ، وحسن القوانين العادلة ، وفي فضائلهم الخُلُقيَّة ، والعلمية والعمليَّة ، والجمع بين الدِّين والدنيا .

ولا تزال الهند مأهولةً بشعبٍ مسلمٍ قويٍّ في دينه ، غنيٍّ في علمه ، وبرجاله ، مخصبٍ في عقله ، متوقِّد الذِّهن ، نشيطٍ مصمِّمٍ على الإقامة في وطنه الَّذي خدمه ألف سنة ، وأغناه في العلم ، والحضارة ، والدِّين ، والاجتماع ، وكان من صانعيه .

إنَّ من الجفاء أن تبقى هذه البلاد الغنية برجالها ، وأعمالها ، وماضيها ، وحاضرها مجهولةً عند أصدقائها في الخارج ، مطمورةً في صفحات التَّاريخ ، ولكن التَّبعة في ذلك على أبنائها قبل أن تكون على أصدقائها ؛ لأنَّهم فرَّطوا في تقديم هذه البلاد ، وما تمتاز به من فضلٍ ، وعلمٍ ، وحياةٍ ، ونشاطٍ إلى النَّاطقين بلغة الضَّاد ، وانطووا على نفوسهم ، وعاشوا في العزلة عن العالم .

ولكنني إذا ذكرت أبناء الهند بالتَّقصير في جنب بلادهم الأمِّ ، فإنِّي أعتذر إلى روح مؤرِّخ الهند الكبير الذي خلَّف لأبناء البلاد العربيَّة مكتبةً كاملةً في تاريخ الهند ، ووصفها ، وقام وحده بما تقوم به المجامع العلميَّة في أوربا ، برجالها ، وعدَّتها ، ألا وهو المرحوم العلامة السَّيد عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق (١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م) الَّذي ألف في تراجم أعيان الهند كتابه : « نزهة الخواطر » في ثمانية مجلَّداتٍ كبارٍ ، تشتمل على نحو خمسة آلاف ترجمة[١] ، وفي تاريخ الهند العلميِّ ، والتَّعليميِّ : « عوارف المعارف » الَّذي أصدره المجمع العلميُّ العربيُّ بدمشق باسم : « الثقافة الإسلاميَّة في الهند »[٢] وفي خطط الهند ، وآثارها كتابه : « جنَّة المشرق »[٣] فإنَّه قد قضى ما عليه ، وزاد ، جزاه الله عن المسلمين في الهند خير ما يجزي العاملين المخلصين .

أراني قد قسوت بعض الشَّيء مع إخوتي الكرام في الأقطار العربيَّة العزيزة الَّذين لم تمكنهم شؤونهم الخاصَّة من دراسة تاريخ الهند ، وخاصةً المسلمين ؛ غابِرهم ، وحاضرِهم ، فإنِّي ـ والحقُّ يُقال ـ وجدت فيهم عدداً لا يستهان به من المتتبِّعين لأحوال الهند ، والمطَّلعين على آثارها الإسلاميَّة[٤] ، الَّذين لا يزالون يشيدون بفضلها في بعض العلوم الإسلاميَّة ، وحراستها لأمانة الحديث الشَّريف بعدما ركدت ريحه في البلاد العربيَّة ، وقد رأيت حرصاً كبيراً في كلِّ بلدٍ عربيٍّ

---

(١) ظهرت طبعتان من هذا الكتاب الجليل في ثمانية أجزاء ، أصدرتها دائرة المعارف العثمانيَّة في حيدر آباد ، الهند .

(٢) صدرت الطَّبعة الثَّانية مزيدةً منقَّحةً مع ذيلٍ ، وتكملةٍ من المجمع سنة ١٩٨٤م .

(٣) صدر هذا الكتاب من دائرة المعارف العثمانيَّة ، حيدر آباد سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م باسم « الهند في العهد الإسلاميِّ » لأنَّه أدلُّ على موضوع الكتاب ، وأقرب إلى الذَّوق العصريِّ ، ونقل إلى الإنجليزيَّة باسم India During Muslim Rule .

(٤) صدر حديثاً كتاب « الإسلام في الهند » لصاحب الفضيلة الدكتور عبد المنعم النَّمر (وزير الأوقاف في مصر سابقاً) ، وهو أوَّل كتابٍ يصدر في الشَّرق العربيِّ مؤسَّساً على دراسةٍ ، ومعرفةٍ ، وإخلاصٍ ، ويسد عوزاً كبيراً في المكتبة العربيَّة .

على معرفة الهند ، وتطلُّعاً إلى إخوتهم المسلمين في الهند ، وعنايةً خاصَّةً بشؤونهم ، وانجذاباً إليهم بحكم الدِّين ، والثَّقافة الإسلاميَّة ، وبسب ما عُرِف به المسلمون في الهند قديماً ، وحديثاً من الغيرة على الإسلام ، والتَّعصُّب للعلوم الإسلاميَّة العربيَّة ، والحرص على الجامعة الإسلاميَّة .

ذلك يدفعني إلى أن أقدِّم إلى إخوتي في الشَّرق العربيِّ هذا الكتاب ، يتحدَّث عن الهند ، وعن إخوتهم فيها قديماً ، وحديثاً ويتناول هذا الحديث نواحيَ شتَّى في الحياة العلميَّة ، والاجتماعيَّة والدِّينيَّة ، وعمَّا أضافه المسلمون إلى ثروة الهند منذ دخولها ، وما أدخلوا عليها من إصلاحاتٍ ، وتجديداتٍ في مختلف نواحي الحياة ، وعمَّا أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الإسلاميَّة ، وما زادوا إلى تراثها ، ومن نبغ فيها من العلماء الكبار ، والمؤلفين العظام ، وعن مظاهر نشاط المسلمين العلميِّ ، والدينيِّ ، ومراكزه الكبيرة في العصر الحاضر ، وعن خصائص هذا الشعب ، وطبيعته وشخصيَّته ، وعن ماضيه ، وحاضره ، وعن قضاياه الرَّئيسية ، ومشكلاته ، عسى أن يكون حلقةً ـ ظلَّت مفقودةً زمناً طويلاً ـ في سلسلة تنوير الرَّأي العام ، والتَّزويد بالمعلومات الصَّحيحة ، وفي سبيل التَّعارف الإسلاميِّ .

ويحملني على تقديم هذا الكتاب أيضاً أنَّنا نلاحظ : أنَّ كثيراً من أقطاب السِّياسة ، والثَّقافة ، ورجالات العالم الإسلاميِّ ، والشرق العربيِّ يزورون هذه البلاد كلَّ عامٍ ، ويقضون فيها ما شاء الله من الوقت ، ولا يهمُّهم أن يتَّصلوا بإخوتهم المسلمين ـ الذين أسهموا في بناء الحضارة ، والثَّقافة الإسلاميَّتين العربيَّتين بسخاءٍ ، وجدارةٍ ـ وأن يعرفوا أوضاعهم السِّياسيَّة ، والثَّقافية ، والدِّينيَّة ، وما يمثِّلونه ، أو يستطيعون أن يمثِّلوه من دَوْرٍ في حضارة هذه البلاد ، وحضارة العالم ، ومالهم من قضايا ، ومشكلاتٍ يعالجونها ، كأنَّها بلاد ـ كأوربا ، واليابان ـ ليس فيها شعبٌ مسلم ، وينصرفون إلى بلادهم ؛ لا يعرفون عن الشَّعب الإسلاميِّ في الهند إلا معلوماتٍ ضئيلةً ، سطحيَّةً ، مبعثرةً ، وقد يعرفون عن البوذيِّين ، والجينيِّين أكثر ممَّا يعرفونه عن المسلمين الَّذين يشاركونهم في العقيدة ، والثَّقافة ،

والحضارة ، والَّذين كانوا بناة الهند الجديدة ، وصانعيها ، والَّذين هم من أغنى شعوب العالم علماً ، وإنتاجاً ، وحكماً ، وإدارةً ، وآثاراً ، ومخلفاتٍ ، ولا يزالون مصدر قوَّةٍ ، وأملٍ .

إلى هؤلاء ، وأولئك جميعاً أقدِّم هذا الكتاب ، وبالله التوفيق .

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
المجمع الإسلاميُّ العلميُّ
ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

سلخ ذي الحجَّة الحرام ١٣٧٩هـ

الأضواء
على الحركات والدعوات الدينية
في الهند

دار ابن كثير
دمشق ـ بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله وحده ، والصَّلاة ، والسَّلام على من لا نبيَّ بعده .

أمَّا بعد : فقد أثيرت حديثاً تساؤلاتٌ عن بعض الحركات ، والدَّعوات الدِّينيَّة الشَّعبيَّة الواسعة النِّطاق ، وقويَّة النُّفوذ في الشَّعب الهنديِّ ، وعن مدارسها الفكريَّة ، والتَّعليميَّة ، والتَّربويَّة ؛ الَّتي مثَّلت دوراً رائعاً وحساساً في المحافظة على العلوم الشَّرعيَّة الأصيلة ، وتعليمها ، ونشرها ، وفي تحقيق الانتفاضة الإسلاميَّة في شبه القارة الهنديَّة ، وكانت محاولةً إثارة تشكيكاتٍ في عقيدتها ، ومنهجها ، والتزامها لمتابعة مصادر الدِّين الصَّحيح ، والعقيدة الإسلاميَّة الشَّرعيَّة الأصيلة .

وذلك كلُّه عن طريق دعاياتٍ ، وانتقاداتٍ ، وتخرُّصات ، لتحقيق مصالح جماعيَّةٍ ، وإفراد العناية بمؤسَّساتٍ ، ومراكز تعليميَّةٍ خاصَّةٍ باتِّجاهٍ خاصٍّ ، ومشربٍ خاصٍّ .

وقد نشأ بذلك سوء تفاهم ، أو سوء ظنٍّ بمراكز ، ونشاطات للدَّعوة الإسلاميَّة العميقة النُّفوذ الواسعة الأرجاء ، ومدارس ومراكز تعليميَّة تربويَّة ذات نتائج باهرةٍ في التَّمسُّك بالدِّين الصَّحيح ، والمحافظة ، والغيرة عليه ، وتمسُّك الأجيال الثَّقافية بالتَّعليم الإسلاميِّ الأساسيِّ ، والمحافظة على تراثها الدِّينيِّ ، ومزاياها الإسلاميَّة ، وفي تحرير البلاد من الحكم الأجنبيِّ ، والدِّفاع عن شخصيَّتها ، وحضارتها الإسلاميَّة ، وقانون الأحوال الشَّخصيَّة للمسلمين ، وغير ذلك .

وقد رأى كاتب هذه الرِّسالة من الواجبات عليه أن يقدِّم تعريفاً موجزاً في ضوء التَّاريخ الصَّحيح المحايد بهذه الدَّعوات ، والحركات ، ومراكزها ، ومدارسها

الفكريَّة ، وإنتاجها ، وآثارها حتَّى يكون القرَّاء ـ وخاصَّةً إخواننا العرب ، والمسلمون في خارج الهند ـ على بيِّنةٍ من الأمر ، وفي ضوء معلوماتٍ صحيحةٍ ، وحقائق تاريخيَّةٍ ، ومنجزات ، ومآثر مشهودةٍ شائعةٍ ، حتى يمكنهم ، ويسهل عليهم الحكم ، والقضاء في هذه القضيَّة المُثارة المفخَّمة تفخيماً زائداً ، يحوِّل المسلمين ـ خصوصاً في بلادٍ بعيدةٍ عن مراكز الإسلام ـ هدفاً لهجماتٍ ، ومؤامراتٍ تريد إبادة العنصر الإسلاميِّ الثَّقافيَّة ، واللُّغويَّة ، والحضاريَّة ، ثمَّ الدِّينيَّة الإسلاميَّة ، وتحويل البلاد إلى إسبانيا الثَّانية . لا قدَّر الله ذلك ! ويكون ردُّ فعلهم ضدَّ هذه الدِّعايات في ضوء الآية القرآنيَّة ، والتَّعليم القرآنيِّ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مقدماته

لكتبه الأدبية

١ ـ مختارات من أدب العرب .

٢ ـ قصص النبيِّين (للأطفال) .

٣ ـ القراءة الراشدة .

٤ ـ قصص من التاريخ الإسلامي .

مُختاراتٌ من أدب العرب

(الجزء الأوّل والثّاني)

دار الشُّروق ـ جَدَّة

دار ابن كثير ـ دمشق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّدنا ، ومولانا محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أما بعد : فإنَّ الأدب العربيَّ قد أصيب بمحنةٍ أصيب بها أدب كلِّ أمَّةٍ ، وهي محنةٌ تكاد تكون طبيعيَّةً ، ومطَّردةً للآداب ، واللُّغات إلا أنَّ آجالها تختلف ، فقد يطول أجل هذه المحنة في أدب قومٍ ، ويقصر في أدب قومٍ آخرين ، وذلك يرجع إلى الأحوال الاجتماعيَّة والعوامل السِّياسيَّة ، وحركات الإصلاح ، والتَّجديد ، والبعث الجديد ، فإذا توفَّرت في أمَّةٍ ، قصر أجل هذه المحنة ، وإذا فقدت ، أو ضعفت ؛ طال أمد هذه المحنة ، وطال شقاء الأدب ، والأمَّة بها .

إنَّ هذه المحنة هي تسلُّط أصحاب الصِّناعة ، والتَّكلف على هذا الأدب الَّذين يتَّخذونه حرفةً ، وصناعةً ، ويحتكرونه احتكاراً ، ويتنافسون في تنميقه ، وتحبيره ، لِيُثبتوا به براعتهم ، وتفوُّقهم ، ويصلوا به إلى أغراضهم ، ويستمرُّ ذلك ، ويستفحل حتَّى يصبح الأدب مقصوراً عليهم مختصّاً بهم ، ويأتي على النَّاس زمانٌ لا يُفهم من كلمة « الأدب » إلا ما أثر عن هذه الطَّبقة من كلامٍ مصنوعٍ ، وأدبٍ تقليديٍّ ، لا قوَّة فيه ، ولا روح ، ولا جدَّة فيه ، ولا طرافة ، ولا متعة فيه ، ولا لذَّة .

ويطغى هذا الأدب الصِّناعيُّ التَّقليديُّ على كلِّ ما يُؤْثَرُ عن هذه الأمَّة ، وتحتوي عليه مكتبتُها الغنيَّة الزَّاخرة من أدبٍ طبعيٍّ ، وكلامٍ مرسلٍ ، وتعبير بليغٍ ، يحرِّك النُّفوس ، ويثير الإعجاب ، ويوسِّع آفاق الفكر ،و يغري بالتَّقليد ، ويبعث في النَّفس الثِّقة ، ولا عيب فيه إلا أنَّه صدر عن رجالٍ لم يقطعوا إلى الأدب ،

والإنشاء ، ولم يتَّخذوه حرفةً ، ومكسباً ، ولم يشتهروا بالصِّناعة الأدبيَّة ، ولم يكن لهذا النتاج الأدبيِّ الجميل الرَّائع عنوانٌ أدبيٌّ ، ولم يكن في سياقٍ أدبيٍّ ، وإنَّما جاء في بحثٍ دينيٍّ ، أو كتابٍ علميٍّ ، أو موضوع فلسفيٍّ ، أو اجتماعي ، فبقي مغموراً مطموراً في الأدب الدِّينيِّ ، أو الكتب العلميَّة ، ولم يشأ الأدب الصِّناعيُّ ـ بكبريائه ـ أن يفسح له في مجلسه ،و لم ينتبه له مؤرخو الأدب ـ بضيق تفكيرهم ، وقصور نظرهم ـ فينوِّهوا به ، ويعطوه مكانه اللاَّئق به .

إنَّ هذا الأدب الطَّبيعيَّ الجميل ، القويَّ كثيرٌ ، وقديمٌ في المكتبة العربيَّة ، بل هو أكبر سنّاً ، وأسبق زمناً من الأدب الصِّناعيِّ ، فقد دون هذا الأدب في كتب الحديث ، والسِّيرة قبل أن يدوَّن الأدب الصِّناعيُّ في كتب الرَّسائل ، والمقامات ، ولكنَّه لم يحظ من دراسة الأدباء ، والباحثين ، وعنايتهم ما حظي به الأدب الصِّناعيُّ ، مع أنَّه هو الأدب الَّذي تجلَّت فيه عبقريَّةُ اللُّغة العربيَّة ، وأسرارها ، وبراعـة أهـل اللُّغة ، ولباقتهم ، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى .

ونأخذ كتب الحديث والسِّيرة ـ كمثالٍ لهذا الأدب الطَّبعيِّ ـ أوَّلاً ، فنقول : إنَّها اشتملت على معجزاتٍ بيانيَّةٍ ، وقطع أدبيَّةٍ ساحرةٍ ، تخلو منها مكتبة الأدب العربيِّ ـ على سعتها ، وغناها ـ وهو دليلٌ على صحَّة هذه اللُّغة ، ومرونتها ، واقتدارها على التَّعبير الدَّقيق عن خواطر ، ومشاعر ، ووجداناتٍ ، وكيفيَّاتٍ نفسيَّةٍ ، عميقةٍ ، دقيقةٍ ، ووصفٍ بليغ مصوِّر للحوادث الصَّغيرة ، وهي الكتب الَّتي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأوَّلين وأساليب بيانهم ، ولئن صحَّ ما قاله الرقاشيُّ : (إن ما تكلَّمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر ممَّا تكلَّمت به من جيد المنظوم ، فلم يُحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره) . فكتب الحديث النَّبويِّ تسدُّ هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربيِّ ، تنقل إلينا هذا الذُّخر الأدبيَّ ؛ الَّذي أعتقد : أنَّه قد ضاع ، وتمتاز أنَّها قد اتَّصل سندُها ، وصحَّت روايتُها فهي أوثق مصدرٍ لِلُّغة العربيَّة البليغة ؛ الَّتي كانت سائدةً في عهدها الذَّهبيِّ الأوَّل وللأدب العربيِّ الَّذي كانت منتشراً في جزيرة العرب .

إنَّ هذه الكتب تشتمل على رواياتٍ قصيرةٍ ، وطويلةٍ ، وكلُّها أمثلةٌ جميلةٌ لِلُغة

العرب العرباء ؛ الَّتي كانوا يتكلَّمون بها ، ويعبِّرون فيها عن ضمائرهم ، وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربيِّ فيها من البلاغة العربيَّة ، والقُدرة البيانيَّة ، والوصف الدَّقيق ، والتَّعبير الرَّقيق ، وعدم التكلُّف والصِّناعة ما يقف أمامه خاشعاً ، معترفاً للرُّواة بالبلاغة ، والتَّحرِّي في صحَّة النَّقل ، والرِّواية ، ولِلُّغة العربيَّة بالسَّعة ، والجمال .

أمَّا الرِّوايات الطَّويلة فهي ثروةٌ أدبيَّةٌ ذاتُ قيمةٍ فنِّيَّةٍ عظيمةٍ ، وهي التي تجلَّت فيها بلاغة الرَّاوي العربيِّ ، واقتدارُه على الوصف والتَّعبير ، والتَّصوير ، وهي الَّتي يطول فيها نفسه ، فيحكي حكايةً يعبِّر فيها عن معانٍ كثيرةٍ ، وأحاسيس دقيقةٍ ، ومناظر متنوعةٍ ، فلا يخذله اللِّسان ، ولا يخونه البيان ، ولا يتخلَّف عنه مدد اللُّغة ، وكأنَّها لوحةٌ فنيَّةٌ منسجمةٌ متناسقةٌ ، قد أبدع فيها الفنَّان ، أو صورةٌ متناسبةٌ ، قد أحسن فيها المصوِّر كلَّ الإحسان .

اقرأ معي حديث كعب بن مالكٍ عن تخلُّفه عن غزوة تبوك ، وهو موضوعٌ دقيقٌ محرجٌ ، يطلب منه الصَّراحة ، والاعتراف بالتَّقصير ، والشَّهادة على النَّفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجوِّ القاتم العابس ، الَّذي عاش فيه خمسين ليلةً ، ويطلب منه تصوير الخواطر ؛ الَّتي كانت تجيش في صدره ، وتساور نفسه ، وهو يعيش في جفاءٍ ، وعتابٍ ، ممَّن يحبُّهم ، وتربطه بهم العقيدةُ ، والعاطفة ، لا يجد لذَّةً في فراقهم ، ولا يرى في الدُّنيا عوضاً عنهم ، وتصوير تلك الصِّلة الرُّوحيَّة ، والحبِّ العميق الَّذي يربطه بالنَّبيِّ ﷺ ربطاً وثيقاً ، محكماً ، ولا يحلُّه العتاب ، والعقاب ، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه ، وتودُّدهم إليه ، وتصوير ذلك السُّرور الَّذي غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ! وما أكثره تعقداً ، ودقةً! ولكنَّه ببلاغته العربيَّة يتغلَّب على هذه المشاكل النَّفسيَّة ، والأدبيَّة ، ويترك لنا ثروةً نعتزُّ بها .

اقرأ معي هذه القطعة الصَّغيرة الَّتي اقتبستها من حديثه الطَّويل ، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروفٍ ، وأجواء ، ويصوِّر تلك الحالة النَّفسيَّة الَّتي تخلف فيها عن هذه الغزوة ، وما انتابه من التَّردُّد ، ولم يكن التخلُّف عن الغزوات من سيرته ، وعادته ، وتمتَّعْ بما احتوت عليه هذه القطعة من القوَّة ، والجمال ، وصِدْق التَّصوير ، وبراعة التَّعبير :

(وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوةَ حين طابتِ الثِّمارُ ، والظِّلالُ ، وتجهَّز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفِقْتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم ، فأرجعُ ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه ، فلم يزلْ يتمادى بي حتَّى شمَّر بالنَّاس الجدُّ . فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقضِ مِنْ جَهازي شيئاً فقلت أتجهَّز بعده بيوم ، أو يومين ، ثُمَّ ألحقهم ، فغدوتُ بعد أن فَصَلُوا ؛ لأتجهَّز ، فرجعتُ ، ولم أقض شيئاً ، ثمَّ غدوتُ ، ثمَّ رجعت ، ولم أقض شيئاً ، فلم يَزَلْ بي حتَّى أسرعوا ، وتفارط الغزوُ ، وهممتُ أن أرتحل ، فأدركَهم ـ وليتني فعلت ! ـ فلم يُقَدَّر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في النَّاس بعد خروج رسول الله ﷺ فَطُفْتُ فيهم ؛ أحزنني أنِّي لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق ، أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء) .

ثمَّ انظر كيف يصوِّر حالته ، وقد هجره المسلمون ، ونُهوا عن كلامه ، وكيف يعبِّر عن حالة المحبِّ ، الَّذي هجره الحبيب ـ عقوبةً وتأديباً ـ وهو يطمع في ودِّه ، ويتسلَّى بنظراته ، والذي لم يزده هذا العتابُ إلا رسوخاً في المحبَّة ، ولوعةً ، وجوىً ، دعه يقصُّ قصَّته بلسانه البليغ :

(ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثة مِنْ بين مَنْ تخلَّف عنه ، فاجتنبنا النَّاس ، وتغيَّروا لنا ؛ حتى تَنَكَّرتْ في نفسي الأرض ، فما هي الَّتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأمَّا صاحباي ، فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشبَّ القوم ، وأجلدهم ، فكنتُ أخرج ، وأشهد الصَّلاة مع المسلمين ، وأطوفُ في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلم عليه ؛ وهو في مجلسه بعد الصَّلاة ، فأقول في نفسي : هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا ؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه ، فأسارقه النَّظر ، فإذا أقبلت على صلاتي ؛ أقبل إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه ؛ أعرض عنِّي ، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة النَّاس ؛ مشيت ؛ حتَّى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي ، وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه ، فوالله ! ما ردَّ عليَّ السَّلام ! فقلت : يا أبا قتادة ! أنشدك الله ! هل تعلمني أحبُّ اللهَ ، ورسولَه؟ فسكت ، فعُدت له ،

فنشدتُه ، فسكت ، فعدت له ، فنشدته ، فقال : اللهُ ، ورسولُه ، أعلم! ففاضت عيناي ، وتولَّيت ؛ حتى تسوَّرت الجدار)[١] .

واقرأ معي كذلك حديث الإفك ؛ الَّذي ظهرت فيه براعة السَّيدة عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ الأدبيَّة ، وقوَّتها البيانيَّة ، وحسن تصويرها ، ووصفها للعواطف ، والمشاعر النِّسويَّة اللَّطيفة ، الدَّقيقة ، وقد تجلَّت في هذه القطعة رقَّة عاطفة المرأة المحبَّة لزوجها مع إباء الحرَّة الواثقة بعفافها ، وطهارتها ، المؤمنة بربِّها . وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرِّقَّة ، والشدَّة ، والعاطفة ، والعقل ، زد إلى ذلك بيان عائشة الَّتي تقلَّبت في أعطاف البلاغة العربيَّة ، وانتقلت فيها من بيتٍ إلى بيتٍ ، قد أضفى كلُّ ذلك على هذه الرِّواية من الجمال الفنِّيِّ ما يجعلها من القطع الأدبيَّة الخالدة في الأدب .

انظر كيف تصف ما تقوَّله النَّاس ، وتحدَّثوا به ، وما شعرت به من تغيُّرٍ في وجه الرَّسول ﷺ ، تذكر كلَّ ذلك في حياء المرأة ، وأدبها من غير إبهامٍ ، أو عيٍّ :

قالت عائشة : (فقدمنا المدينة ، فاشتكيتُ حين قَدِمْتُ شهراً ؛ والنَّاس يُفيضون في أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيءٍ من ذلك ، وهو يُريبني في وجعي أنِّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطفَ الَّذي كنتُ أرى منه حين أشتكي ، إنَّما يدخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فيسلِّم ، ثم يقول : « كيف تيكم ؟ » ثمَّ ينصرف ، فذلك يَريبني ، ولا أشعر بالشَّرِّ) .

وتذكر توجُعها من الخبر المُشاع ، فتقول : (فبكيت يومي ذلك كلَّه ، لا يرقأ لي دمعٌ ، ولا أكتحل بنومٍ) قالت : (وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ، ويوماً ، لا أكتحل بنومٍ ، ولا يرقأ لي دمعٌ ؛ حتَّى إنِّي لأظنُّ أنَّ البكاء فالقٌ كبدي)[٢] .

وتتقدَّم في الحكاية ، وتذكر كيف يسألها رسولُ الله ﷺ عمَّا قيل عنها ، ويعزم

---

(١) الحديث بتمامه رواه البخاريُّ برقم (٤٤١٨) .

(٢) الحديث بطوله في صحيح البخاريِّ برقم (٤١٤١) .

عليها الصِّدق ، فلا تلبث أن تعتريَها حميَّة المرأة العفيفة ، الفاضلة ، ويقلصُ دمعُها حتى لا تحسُّ منه بقطرةٍ ، وترجو أباها ، وأمَّها أن يجيبا عنها رسولَ الله ﷺ ، فيمتنعان ، ويفضِّلان السُّكوت حياءً من رسول الله ﷺ واستحياءً من الدِّفاع عن قضيَّة بنتهما ، وهو الدفاع عن النَّفس ، فتنبري للكلام القويِّ ، الصَّريح ، المُبين - وهي البليغةُ الأديبة - وتتمثَّل بقول سيِّدنا يعقوب ، وتفوِّض أمرها إلى الله ، وتنزل براءتها من السَّماء ، فتطلب منها أمُّها أن تشكر رسولَ الله ﷺ وتقوم إليه ، فتأبى - في دَلال العفائف وأنفة المؤمن - أن تحمد إلا الله الَّذي أنزل براءتها مِنْ فَوْقِ سبع سٰموات ، وخلَّد طهارتها إلى آخر يومٍ يُقرأ فيه القُرآن ، ويؤمن به .

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النَّبويَّة ، وذكرها لتفاصيلها ، وما وقع لرسول الله ﷺ وصاحبه - رضي الله عنه - في الطَّريق ، ووصولهما إلى المدينة ، وكيف تلقَّاهما الأنصار ، وفرحوا بقدوم رسول الله ﷺ وكلُّ ذلك مثالٌ رائعٌ للوصف الدَّقيق البليغ ، والبيان القادر الوصَّاف .

وهنالك رواياتٌ أخرى طويلة النَّفس ، ضافية البيان ، تشتمل على غُرر الكلام وبدائعه الحسان ، ومناهج العرب الأوَّلين في كلامهم ، كحديث صلح الحُديبية ، وحديث الإيلاء ، وغير ذلك ، كانت تستحقُّ أن تكون في المكانة الأولى في دراستنا الأدبيَّة ، ولكنَّها أُفلتت من نظر المؤلِّفين والنَّاقدين ، لأنَّها لم تدخل في دواوين الأدب ، ولأنَّ تصوُّرهم للأدب كان تصوراً محدوداً ، جامداً ، لا يعدو الصِّناعة .

ويلي الحديثَ كُتُبُ السِّيرة ، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح، ومثَّلت تلك اللُّغة البليغة الَّتي كانت في عصور العربيَّة الأولى ، وهذبها الإسلام ، ورقَّقها ، واشتملت على قطعٍ أدبيَّةٍ لا يوجد لها نظيرٌ في المكتبة العربيَّة المتأخِّرة .

اقرأ في سيرة ابن هشام حديث حليمة ابنة أبي ذويب السَّعدية عن رضاعة رسول الله ﷺ ، واقرأ فيها قصص الاضطهاد ، والتَّعذيب ، واقرأ فيها مغازي رسول الله ﷺ وحروبه ، واقرأ في كتب الحديث ، والشَّمائل ، وفي كتب التَّاريخ ، والسِّير أحاديث الوصف ، والحلية ؛ تجدْ من القدرة الفائقة على الوصف ،

والتَّعبير ، والبيان السَّاحر لدقائق الحياة ، وخوالج النَّفس ، وَتَرَ من اللُّغة النَّقيَّة الصَّافية ، واللَّفظ الخفيف ، والتَّعبير الدَّقيق الرَّقيق ما يطربك ، ويملؤك سروراً ، ولذَّةً ، وثقةً وإيماناً ، بعبقريَّة هذه اللُّغة ، ورغبةً في دراستها ، والتوسُّع فيها .

وهكذا صان الله هذه اللُّغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضَّياع ، وانتقلت ثروتها من جيلٍ إلى جيلٍ ، ومن كتابٍ إلى كتابٍ ، حتَّى جاء دور التَّأليف ، والتَّاريخ في القرن الثَّالث ، والرَّابع ، وحفظ لنا المؤرِّخون أمثال الطَّبريِّ ، والمسعوديِّ ، والأدباء ، أمثال الجاحظ ، وابن قُتيبة ، وأبي الفرج الأصبهانيِّ ثروةً زاخرةً من الأدب في كتبهم ، وحفظوا لنا تلك اللُّغة العذبة البليغة الَّتي كان العرب الصُّرحاء يتكلَّمون بها في بيوتهم ، وعلى موائدهم ، وفي مجالس انبساطهم ، وجاء منها الشَّيء الكثير في كتاب « البخلاء » للجاحظ وكتاب « الإمامة ، والسِّياسة » لابن قُتيبة ، وكتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التَّاريخية) و« روضة العقلاء ، ونزهة الفضلاء » ، وكتاب « الإمتاع ، والمؤانسة » لأبي حيَّان التَّوحيديِّ ، وهذه كتب التَّاريخ والأدب الَّتي تمثِّل لنا العربيَّة في جمالها الأوَّل ، ونقائها الأصيل ، وسعتها النَّادرة .

ثمَّ جاء دَوْرُ المتكلِّفين المقلِّدين للعجم ، ونبغ في العواصم العربيَّة أمثالُ أبي إسحاق الصَّابىء ، وأبي الفضل بن العميد ، والصَّاحب بن عبَّاد ، وأبي بكر الخوارزميِّ ، وبديع الزَّمان الهمذانيِّ ، وأبي العلاء المعريِّ ، واخترعوا أسلوباً للكتابة ، والإنشاء هو بالصِّناعة اليدويَّة ، والوشي ، والتَّطريز أشبه منه بالبيان العربيِّ السَّلسال ، وكلام العرب الأوَّلين المرسل الجاري مع الطَّبع ، وغلب عليهم السَّجع ، والبديعُ ، وغلوا في ذلك غُلوّاً أذهب بهاء اللُّغة ورواءها . وقُيِّدَ الأدب بسلاسلِ ، وأغلالٍ ، أفقدته حرِّيته ، وانطلاقه ، وخفَّة روحه ، وجماله .

وتزعَّم هؤلاء الأدبَ العربيَّ ، واحتكروه ، وخضع لهم العالمُ العربيُّ الإسلاميُّ لنفوذهم ، وعلوِّ مكانتهم تارةً ، وللانحطاط الفكريِّ ، والاجتماعيِّ الَّذي كان يسود على العالم الإسلاميِّ أخرى . وأصبح أسلوبُهم للكتابة هو الأسلوب الوحيد الَّذي يُحتذى به ، ويقلَّد في العالم الإسلاميِّ .

وجاء أبو القاسم الحريري ، فألَّف المقامات ـ وهو أسلوبُ الكتابة المسجَّعة المختصر ـ وقد تهيَّات النفوس لقبولها ، فعكف عليها العالم الإسلاميُّ دراسةً ، وشرحاً ، وتقليداً ، وحفظاً ، وتغلغلت في مدارس الفكر ، والأدب ، وبقيت مسيطرةً على العقول ، والأقلام أطول مدَّةٍ تمتَّع بها كتاب أدبيٌّ ، وما ذاك لفضل الكتاب ، بل لأنَّه قد وافق هوى النُّفوس ، وصادف عصر الجمود ، والعقم الأدبيِّ في العالم الإسلاميِّ .

ثمَّ جاء القاضي الفاضل ـ مجدِّد أسلوب الحريري ، وبالأصحِّ : مقلِّده ـ وهو وزير أعظم دولةٍ إسلاميَّة في عصرها ، وكاتب سرِّ أحبِّ سلطان في عهده ؛ صلاح الدين الأيوبي قاهر الصَّليبيين ، ومعيد مجد المسلمين ـ فانتشر أسلوبه في العالم الإسلاميِّ ، وحرص على تقليده الكتَّاب ، والمنشئون في أنحاء المملكة الإسلاميَّة[1] .

وهكذا بقي أسلوبٌ وحيدٌ يتحكَّم في العالم الإسلاميِّ ، ويسيطر على الأوساط الأدبيَّة ، وأصبح ما خلَّفه هؤلاء الكتَّاب المتصنعون من تراثٍ أدبيٍّ هو المعنيُّ بالأدب العربيِّ ، وجاء المؤرِّخون للأدب ، فاعتبروهم أئمَّة البلاغة ، وأمراء البيان ، وأصحاب الأساليب ، وقدَّموا ما كتبوه ، وعرضوه للدَّارسين ، والباحثين ، وقلَّد بعضهم بعضاً ، وتناقلوه ، وأصبحت كتب التَّاريخ ، والأدب نسخةً واحدةً ، وأصبحت الكتابة صورةً واحدةً من القرن التَّاسع إلى القرن الثَّالث عشر ، لا يُستثنى منها إلا عبقريَّان اثنان ؛ أوَّلهما : ابن خلدون ، وثانيهما : الإمام أحمد بن عبد الرَّحيم الدِّهلوي[2] (م١١٦٧هـ) .

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرُهم ، وانصرف النَّاس ـ حتَّى الباحثين منهم ـ عن ذخائر الأدب العربيِّ الثَّمينة ، ولم يفكِّر أحدٌ في أن يبحث التَّاريخ ، والسِّيَر ،

---

(١) ظهرت نماذجهم في الكتاب لقيمتها الفنية ، ولأنَّها تمثِّل دوراً من تاريخ الأدب العربيِّ .

(٢) اقرأ كتابه الفريد « حجَّة الله البالغة » ، واقرأ ترجمة مؤلِّفه في : « نزهة الخواطر » الجزء السَّادس ، طبع دائرة المعارف العثمانيَّة بحيدر آباد (الهند) .

والتَّراجم ، وفي مؤلَّفات العلماء عن قطعٍ أدبيَّة رائعةٍ تفوق في قوّتها ، وحيويَّتها ، وسلاستها ، وسلامتها ، وفي بلاغتها ، وجمال لغتها ـ على دواوين أدبيَّةٍ ، ومجاميع ، ورسائل أكبَّ عليها النَّاس ، وافتُتنوا بها .

هذا وقد بقيت طائفةٌ من العلماء ـ حتَّى في عصور الانحطاط الأدبيِّ ـ غير خاضعين لأسلوبٍ تقليديٍّ في عصرهم ، متحرِّرين من السَّجع ، والبديع ، والصَّنائع ، والمحسِّنات اللَّفظية يكتبون ، ويؤلِّفون في لغةٍ عربيَّةٍ نقيَّةٍ ، وفي أسلوبٍ مطبوعٍ يتدفَّق بالحياة ، إذا قرأه الإنسان ؛ ملكه الإعجاب ، وآمن بفكرتهم ، وخضع لعقيدتهم ، ولما يقرِّرونه . وهذه القطع الَّتي طويت في أثناء كتبٍ علميَّةٍ ، أو دينيَّةٍ ، فجهلها الأدباء ، وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربيِّ الأصيل ، وهي الَّتي عاشت بها العربيَّة هذه السِّنين الطِّوال ، وهي التي يفزع إليها المتأدِّب المتذوِّق ، وهي رياضٌ خضراء في صحراء العربيَّة القاحلة الَّتي تمتدُّ من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون .

إنَّ ما كتب هؤلاء العلماء ـ غير معتقدين : أنَّهم يكتبون للأدب ، ولا زاعمين : أنَّهم في مكانةٍ عاليةٍ من الإنشاء ـ هو الَّذي يسعد العربيَّة ويشرِّفها أكثر ممَّا يسعدها ، ويشرِّفها كتابات الأدباء ، ورسائلهم ، وموضوعاتهم الأدبيَّة ، وأخاف لو أنَّهم قصدوا الأدب ، وتكلَّفوا الإنشاء ؛ لفسدت كتابتُهم ، وفقدت ذلك الرَّونق ، وتلك العذوبة الَّتي تمتاز بها كتابتهم ، ولخسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة ، فقد التصقت بالأدب شروطٌ ، وصفاتٌ ، وتقاليد هذه المفسدة له ، الطَّامسة لنوره ، فلا بدَّ فيه من السَّجع ، والصِّناعة ، ولا بدَّ فيه من البديع ، والمحسِّنات اللَّفظيَّة ، ولا بدَّ من تقليد مَنْ يُعَدُّ في الطَّبقة الأولى من الأدباء ، أمَّا الكتابات العلميَّة التَّاريخية ، أو الدِّينيَّة ؛ فليست فيها هذه الالتزامات ، وهذه الشُّروط القاسية ، فتأتي أبلغَ ، وأجمل .

ونرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعاً أدبيّاً ، وتكلَّف الإنشاء ؛ تدلَّى وأسفَّ ، وتعسَّف ، وتكلَّف ، ولم يأت بخيرٍ ، وإذا استرسل في الكلام ، وكتب في موضوعٍ علميٍّ ، أو دينيٍّ ؛ أحسن ، وأجاد ، هكذا نرى الزَّمخشريَّ متكلِّفاً مقلِّداً في

« أطواق الذَّهب » وكاتباً موفَّقاً بليغاً في مقدِّمة « المفصَّل » وفي مواضع من تفسيره : « الكشَّاف » ، ونجد ابن الجوزيِّ غير موفَّقٍ في كتابه « المُدهش » وكاتباً مترسِّلاً بليغاً في كتابه : « صيد الخاطر » ، وظنِّي : أنَّهما كانا يعتبران أثريهما الأدبيَّين : « أطواق الذهب » و« المدهش » من أفضل كتاباتهما الأدبيَّة ؛ الَّتي يعتمدان عليها ، ويفتخران بها ، ولعلَّ عصرهما صفَّق لهذين الكتابين : الأطواق ، والمدهش أكثر ممَّا صفق لكتاباتهم العلميَّة ، والأدبيَّة ، والدِّينيَّة . ولكن قاضي الزَّمان ، وحاكم الذَّوق قد حكما بالعدل . وليس اليوم للكتابين الأوَّلين قيمةٌ كبيرةٌ . أما صيد الخاطر ، وتلبيس إبليس ، والمفصل ، والكشَّاف ؛ فهي جديرةٌ بالبقاء ، جديرةٌ بكلِّ اعتناء .

ليس السِّرُّ في فضل هذه الكتابات العلميَّة ، والدِّينيَّة ، وتأثيرها ، وقوَّتها ، وجمالها هو التَّحرر من السَّجع ، والبديع ، وترسُّلها فحسب ؛ بل السَّبب الأكبر هو أنَّ هذه الكتابات قد كُتبت عن عقيدةٍ ، وعاطفةٍ ، وعن فكرةٍ ، واقتناع ، وعن حماسةٍ ، وعزمٍ . أمَّا الكتابات الأدبيَّة ؛ فقد كان غالبها يكتب باقتراح من مَلِكٍ ، أو وزيرٍ ، أو صديقٍ ، أو لإرضاء شهوة الأدب ، أو تحقيق رغبة المجتمع ، أو حُبّاً للظُّهور ، والتَّفوُّق ، وهذه كلُّها دوافع سطحيَّةٌ ، لا تمنح الكتابة القُوة والرُّوح ، ولا تسبغ عليها لباس البقاء ، والخلود ، ولا تعطيها التَّأثير في النُّفوس ، والقلوب ، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب ، والعقيدة كالفرق بين الصُّورة ، والإنسان ، وكالفرق بين النَّائحة ، والثَّكلى .

ويذكِّرني هذا قصَّةً رويناها في الصِّبا ، وهي : أنَّ كلباً قال لغزالٍ : ما لي لا ألحقك ، وأنا مَن تعرف في العَدْو ، والقوَّة ؟! قال : لأنَّك تعدو لِسَيِّدك ، وأنا أعدو لِنَفسي .

وقد كان هؤلاء الكتَّاب المؤمنون الَّذين ملكتهم فكرةٌ ، أو عقيدةٌ ، أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابةً لنداء ضميرهم ، وعقيدتهم ، مندفعين ، منبعثين ، فتشتعل مواهبُهم ؛ ويفيض خاطرُهم ، ويتحرَّق قلبُهم ، فتنثال عليهم المعاني ، وتطاوعهم الألفاظ ، وتؤثِّر كتابتُهم في نفوس قرَّائها ؛ لأنَّها خرجت من قلبٍ فلا تستقرُّ إلا في قلبٍ .

أمَّا هؤلاء المتصنِّعون ، فإنَّهم في كتاباتهم الأدبيَّة أشبهُ بالممثِّلين ، قد يمثِّلون الملوك ، فيتصنَّعون أُبَّهةَ الملك ، ومظاهره ، وقد يمثِّلون الصُّعلوك ، فيتظاهرون بالفقر ، وقد يمثِّلون السَّعيد ، وقد يمثِّلون الشَّقيَّ من غير أن يذوقوا لذَّة السَّعادة ، أو يكتووا بنار الشَّقاء ، وقد يُعزُّون من غير أن يُشاركوا المفجوع في أحزانه ، وقد يُهَنِّئون من غير أن يشاركوا السَّعيد في أفراحه .

بالعكس من ذلك اقرأ كتابات الغزاليِّ في « الإحياء » وفي « المنقذ من الضَّلال » ، واقرأ خطب عبد القادر الجيليِّ (رضي الله عنه) ما صحَّ منها ، واقرأ ما كتبه القاضي ابن شدَّاد عن صلاح الدِّين ، واقرأ ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وتلميذه الحافظ ابن قيِّم الجوزيَّة في كتبهما ؛ تَرَ مثالاً رائعاً للكتابة الأدبيَّة العالية يتدفَّق قوَّةً ، وحياةً ، وتأثيراً ، وذلك هو الأدب الحيُّ ، الخليق بالبقاء ، ولا سبب لذلك إلا أنَّه كُتب عن عقيدةٍ ، وعاطفة .

وهنالك شيءٌ آخر ، وهو أنَّ الإيمان ، وصفاء النَّفس ، والاشتغال بالله ، والعزوف عن الشَّهوات يمنح صاحبه صفاء حسٍّ ، ولطافة نفسٍ ، وعذوبة روحٍ ، ونفوذاً إلى المعاني الدَّقيقة ، واقتداراً على التَّعبير البليغ ، فتأتي كتابتُه كأنَّها قطعةٌ من نفس صاحبها ، وصورةٌ لروحه خفيفةً على النفس ، مشرقة الدِّيباجة ، لطيفة السَّبك ، بارعةً في التَّصوير ، لذلك كان من الأدب الصُّوفي ، وفي كلام الصَّالحين العارفين قطعٌ أدبيَّة خالدةٌ ، لم تفقد جمالها ، وقوَّتها على مر العصور والأجيال ، وترى من ذلك نماذج في كلام السَّادة : الحسن البصريِّ ، وابن السَّمَّاك ، والفضيل بن عياضٍ ، وابن عربي ، والطَّائي تعدُّ من محاسن العربيَّة ، واقرأ ـ على سبيل المثال ـ الحوار الَّذي دار بين ابن عربي ، ونفسه ، وسجَّله في كتابه : « رسالة روح القدس » .

إنَّ هذه القطع الأدبيَّة الدَّافقة بالحياة ، والقوَّة ، والجمال كثيرةٌ ، غير قليلةٍ في المكتبة العربيَّة ، إذا جمعت ؛ تكوَّنت منها مكتبةٌ ، لكنَّها منثورةٌ ، مبعثرة في هذه المكتبة مطويةٌ ، مغمورةٌ في أوراق كتبٍ ، ومؤلفاتٍ لا تجدها في ركن الأدب ، والإنشاء في مكتباتنا العربيَّة ، ولا يذكرها المؤرِّخون للأدب في كتبهم ، هذه القطع

أصدق تمثيلاً لِلُّغة العربيَّة ، وأدبِها الرَّفيع ، ومحاسنه من كثيرٍ من الكتب المختصَّة بالأدب ، ومن كثير من المجاميع ، والرَّسائل ، والمقامات ، والمقالات الأدبيَّة الَّتي تعتبر أساس الأدب ، وزهو العربيَّة ، ومحصول العقول .

وهذه القطع هي الَّتي تخدم اللُّغة ، والأدب أكثر ممَّا تخدمها كتب اللُّغة ، والأدب ، وهي الَّتي تفتق القريحة ، وتُنشِّط الذِّهن ، وتقوِّي الذَّوق السَّليم ، وتعلم الكتابة الحقيقية .

إنَّ هذه القطع ، والنُّصوص منثورةٌ ـ كما قلت ـ في كتب الحديث ، والسِّيرة ، والتَّاريخ ، وكتب الطَّبقات ، والتَّراجم ، والرِّحلات ، وفي الكتب الَّتي أُلِّفت في الإصلاح ، والدِّين ، والأخلاق ، والاجتماع ، وفي بحوثٍ علميَّةٍ ، ودينيَّةٍ ، وفي كتب الوعظ ، والتَّصوُّف ، وفي الكتب الَّتي سجَّل فيها المؤلِّفون خواطرهم ، وتجارب حياتهم ، وملاحظاتهم ، وانطباعاتهم ، ورووا فيها قصَّة حياتهم .

هذه ثروةٌ أدبيَّةٌ ، زاخرة ، تكاد تكون ضائعةً ، وقد جنى هذا الإهمال على اللُّغة ، والأدب ، وعلى الكتابة ، والإنشاء ، وعلى التَّأليف ، والتَّصنيف ، وعلى التفكير ، فقد حرمه مادَّةً غزيرةً من التَّعبير ، وباعثاً قويّاً للتَّفكير .

مخطئٌ من يظنُّ : أنَّ المكتبة العربيَّة قد استُنفدت ، وعُصرت إلى آخر قطراتها ، إنَّها لا تزال مجهولةً ، تحتاج إلى اكتشافاتٍ ، ومغامراتٍ ، إنَّها لا تزال بكراً جديدةً ، تعطي الجديد ، وتفجأ بالغريب المجهول ، إنَّها لا تزال فيها ثروةٌ دفينةٌ ، تنتظر منْ يحفرها ، ويثيرها .

إنَّ مكتبة الأدب العربيِّ في حاجةٍ شديدةٍ إلى استعراضٍ جديدٍ ، وإلى دراسةٍ جديدةٍ ، وإلى عرضٍ جديدٍ .

ولكن هذه الدراسة ، وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيءٍ كبيرٍ من الشَّجاعة ، وإلى شيءٍ كبيرٍ من الصَّبر ، والاحتمال ، وإلى شيءٍ كبيرٍ من رحابة الصَّدر ، وسعة النَّظر ، فالَّذي يخوض فيها ؛ ليخرج على العالم بتحفٍ أدبيَّةٍ جديدةٍ ، وذخائر عربيَّةٍ جديدةٍ ؛ ينبغي ألا يكون ضيِّق التَّفكير ، جامداً ، متعصِّباً في فهمه للأدب ، متعصِّباً لبلدٍ ، أو لطبقةٍ ، أو لعصرٍ ، تهوله ضخامة العمل ، واتِّساع المكتبة العربيَّة ، أو

يوحشه عنوانٌ دينيٌّ ، أو يمنعه من الاختيار والدِّراسة اسمٌ قديمٌ لا صلة له بالأدب ، والأدباء ، يجب أن يكون حرَّ التَّفكير ، واسع الأفق ، بعيد النَّظر ، متطلِّعاً إلى الدِّراسة ، والتَّجربة ، واسع الاطِّلاع على الكنوز القديمة ، يفهم الأدب في أوسع معانيه ، ويعتقد : أنَّه تعبيرٌ عن الحياة ، وعن الشُّعور ، والوجدان في أسلوبٍ مفهمٍ ، مؤثِّرٍ لا غير .

إنَّني لا أزدري كتب الأدب القديمة ـ من رسائل ، ومقاماتٍ ، وغيرها ـ ولا أقلِّل من قيمتها اللُّغوية ، والفنيَّة ، وأعتقد : أنَّها مرحلةٌ طبعيَّةٌ في حياة اللُّغات ، والآداب ، ولكنَّني أعتقد : أنَّها ليست الأدب كلَّه ، وأنَّها لا تحسن تمثيل أدبنا العالي ؛ الَّذي هو من أجمل آداب العالم ، وأوسعها ، وأنَّها جنت على القرائح ، والملكات الكتابيَّة ، والمواهب ، والطَّاقات ، وعلى صلاحية اللُّغة العربيَّة ، ومنعت من التوسُّع ، والانطلاق في آفاق الفكر ، والتَّعبير ، والتَّحليق في أجواء الحقيقة ، والخيال ، وتخلَّفت بها هذه الأمَّة العظيمة ذات اللُّغة العبقريَّة ، والأدب الغنيِّ فترةً غير قصيرةٍ ، فخيرٌ لنا أن نعطيَها حظَّها من العناية ، والدِّراسة ، ونضعها في مكانها الطَّبعيِّ في تاريخ الأدب ، وطبقات الأدباء ، وأن ننقِّب في المكتبة العربيَّة من جديدٍ ، ونعرض على ناشئتنا ، وعلى الجيل الجديد نماذجَ جديدةً من الكتب القديمة للأدب العربيِّ ؛ حتَّى يتذوَّق جمال هذه اللُّغة ، وينشأ على الإبانة ، والتَّعبير البليغ ، ويتعرَّف على هذه المكتبة الواسعة ، ويستطيع أن يفيد منها .

على هذا الأساس ، وعلى هذه الفكرة ألَّفنا كتابنا : « مختاراتٌ من أدب العرب » وهاهو الجزء الأوَّل من هذا الكتاب يجمع بين الطَّبعيِّ ، والفنِّيِّ ـ ولكلٍّ قيمةٌ أدبيَّةٌ ـ ويجمع بين القديم ، والحديث ، نرجو أن يقع من الأدباء والمعلِّمين موقع الاستحسان ، والقبول .

وقد عنيت بترجمة أصحاب النُّصوص ، وأشرت إلى مكانتهم الأدبيَّة ، وما تمتاز به القطعة الَّتي اقتبست من كتاباتهم الكثيرة ، وأدبهم الجمِّ ، ليستعين به المعلِّمون في تربية الذَّوق الأدبيِّ ، ومعرفة الفضل لأصحابه .

وشكري ، واعترافي لأستاذنا العلامة السَّيِّد سُليمان النَّدْوي[1] معتمد دار العلوم ، ندوة العلماء ، والدُّكتور السَّيِّد عبد العلي الحسني[2] مدير ندوة العلماء ، والأستاذ محمد عمران خان النَّدْويِّ الأزهريِّ عميد دار العلوم سابقاً ؛ الَّذين كان لتشجيعهم ، وإتاحتهم للفرص فضلٌ كبير في تأليف هذا الكتاب ، عام ١٣٥٩هـ ، وتقريره للدِّراسة في دار العلوم ندوة العلماء .

كما كان لحضرات الأساتذة : الشيخ محمد حليم عطا[3] مدرِّس الحديث الشَّريف في دار العلوم ، والأستاذ الكبير السَّيِّد طلحة الحسنيِّ[4] معلِّم الكلِّيَّة الشَّرقية في لاهور سابقاً ، والأستاذ محمَّد ناظم النَّدوي أستاذ آداب اللُّغة العربيَّة في دار العلوم سابقاً ، والأستاذ عبد السَّلام القدوائي النَّدْويِّ أستاذ التَّاريخ ، والسياسة في دار العلوم سابقاً توجيهاتٌ ، وآراء سديدةٌ ، ومساعداتٌ غاليةٌ .

وشكري ، وتقديري للأستاذ عبد الحفيظ البلياويِّ ، الَّذي ساعد المؤلِّف ، وتناول الكتاب بشرح الغريب ، وإيضاح الغامض ؛ توفي إلى رحمة الله في ١٧ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩١هـ المصادف ١٠ أغسطس ١٩٧١م .

والحمد لله أولًا ، وآخراً ، وصلَّى الله على خير خلقه وخاتم رُسله سيِّدنا ، ومولانا محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه .

١٣٩١هـ ـ ٦ مايو ١٩٧١م
لعشرٍ خلون من ربيع الأوَّل

أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي
ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

---

(١) توفي إلى رحمة الله تعالى لثلاث عشرة خلون من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ ـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣م .

(٢) توفي إلى رحمة الله تعالى في ٢٢ ذي القعدة سن ١٣٨٠هـ ـ الموافق ٧ مايو ١٩٦١م .

(٣) كانت وفاته يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٥٥م .

(٤) المُتوفَّى ٢٢ رجب ١٣٩٠هـ ، الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠م .

مُقدِّمة الجُزء الثَّاني

الحمد لله ، والصَّلاة ، والسَّلام على رسول الله .

أما بعد : فقد ظهر كتاب « مختارات من أدب العرب » عام ١٣٥٩هـ في جزء واحد ، وكانت الفكرة الَّتي تسيطر على الكتاب عند تأليفه هي أن نختار أجمل النُّصوص ، وأكثرها حيويَّةً ، في أدبنا العربيِّ الإسلاميِّ ، بصرف النَّظر عن مستواها اللُّغويِّ ، فكانت المختارات من درجاتٍ مختلفةٍ في المادَّة اللُّغوية ، والمستوى الأدبيِّ ، كان الطَّالب يتأرجح بين السُّهولة ، والصُّعوبة ، وربَّما كان في ذلك ترويحٌ لنفسه ، إلا أنَّنا رأينا في الزَّمن الأخير ـ وأشار به علينا بعض رجال التعليم ـ أن نقسم هذه المختارات في قسمين باعتبار درجاتها اللُّغوية ، ومستواها الأدبيِّ ؛ ليسهل تطبيق هذا الكتاب ، والانتفاع به في مناهج التَّعليم العربية ، وليوافق مستوى الطلبة من طبقتين مختلفتين ، وقد اضطرنا بعض الأحيان ملاحظةُ النَّاحية التَّاريخية ، والحرص على استعراض الأدب العربيِّ في تقدُّمه ، وتطوُّره ، وفي مراحله التَّاريخية المختلفة إلى عرض نماذج للنثر الفنيِّ ، لا يرتضيها الذَّوق العربيُّ السَّليم ، ويرى فيها النَّاقد انحرافاً عن السَّليقة العربيَّة الأولى ، وخضوعاً للآداب العجميَّة ، وعوامل اجتماعيَّة ، ولكنَّه واقعٌ تاريخيٌّ وثروةٌ لغويَّةٌ أدبيَّةٌ ، وأسلوبٌ من أساليب الكتابة ، لم يسع المؤلف الإعراض عنها ، فأدخلها في الكتاب تقريراً للحقيقة ، ووفاءً للتَّاريخ .

وهكذا جاء الكتاب في جزأين ، الجزء الأول ، والثَّاني ، بعدما كان جزءاً واحداً ، وانتهزنا فرصة إعادة الطَّبع ، فأضفنا إلى الكتاب بعض نصوصٍ أخرى لرجالٍ لا يعدُّون من الأدباء المحترفين المنقطعين إلى الأدب والكتابة ، على أنَّها لا تقلُّ في جمالها الأدبيِّ ، وحسن التَّعبير ، وصدق التَّصوير عن النُّصوص الأدبيَّة ، التي يقع عليها الاتفاق ، بل تفوق كثيراً منها .

وقد ساعدني في إعداد الطَّبعة الثَّانية الأستاذ محمَّد الرَّابع الحسنيُّ أستاذ الأدب في دار العلوم ، وكان له فضلٌ في اختيار بعض القطع الجديدة .

وكان الاستعجال في الطَّبعة الأولى قد حال دون الشَّرح الوافي ، والحلِّ الكافي للمفردات الغريبة ، وإيضاح المقصود ، وكان زمن المؤلف يضيق عن إتمام هذه النَّاحية لأشغاله الكثيرة المتنوِّعة ، فقيَّض الله لهذا الغرض الأستاذ أبا الفضل عبد الحفيظ البلياوي (رحمه الله) مدرِّس الأدب العربيِّ في دار العلوم ، وعنده الخبرة التامَّة بمدارك الطَّلبة ، وما يحتاجون إليه من الشَّرح ، وحلِّ الكلمات الغريبة ، وما يشكل عليهم ، فتناول الكتاب ، واعتنى بحلِّ الغريب ، وإيضاح الغامض ، وكشف القناع عن مقاصد الكتاب ، وبذل في ذلك وقتاً طويلاً ، وتحمَّل عناءً كبيراً ، وانتسخ الكتاب بقلمه ، ومثله للطبع ، فللأستاذ الفاضل شكر المؤلف ، وتقدير المعلمين ، وثناء الطَّلبة ، وفوق كلِّ ذلك ثوابُ المحسنين ، وأجر العاملين .

وقد حَلَّينا جيدَ هذا الكتاب ـ كما فعلنا في الجزء الأوَّل ـ بقطعٍ مقتبسةٍ من القرآن الحكيم ، وهذا الَّذي شرَّف قدر الأدب العربي ـ إذ نزل بلغته ـ وجعله أدباً عالميَّاً ، وأدباً خالداً ؛ ليعلم الطلبة أنَّه من نوع آخر . وأنَّه ليس من مدارك البشر ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ وأتبعنا ذلك مختاراتٍ من الحديث النَّبويِّ الشَّريف ، ليعلموا : أنه في الطَّبقة الأولى من البلاغة البشريَّة ، والحكمة النَّبويَّة .

ولله الحمد في الأولى ، والآخرة !

أبو الحسن علي الحسني النَّدْويُّ
لكهنؤ (الهند)

لعشرٍ خلون من ربيع الأول ١٣٩١هـ
٦ مايو ١٩٧١م

قصص النَّبيِّين

للأطفال

(الجزء الأوّل ، والثّاني ، والثّالث)

مؤسّسة الرِّسالة (بيروت)

مؤسّسة الصَّحافة والنَّشر

لكهنؤ (الهند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ابن[1] أخي العزيز !

أراك حريصاً على القصص ، والحكايات ، وكذلك كلُّ طفلٍ في سنِّك ، تسمع هذه القصص بكلِّ رغبةٍ ، وتقرؤها بكلِّ رغبةٍ ، ولكنِّي أتأسَّف لأني لا أرى في يدك إلا حكايات السَّنانير ، والكلاب ، والأسد ، والذِّئاب ، والقردة ، والدِّببة وعلينا العهدة في ذلك ، فذلك هو الَّذي تجده مطبوعاً .

وقد بدأتَ تتعلَّمُ اللُّغة العربيَّة ؛ لأنَّها لغة القرآن ، والرَّسول ، والدِّين . ولك رغبةٌ غريبةٌ في درسها ، ولكنِّي أخجل أنَّك لا تجد ما يوافق سنَّك من القصص العربيَّة إلا قصص الحيوانات ، والأساطير ، والخرافات .

فرأيت أن أكتب لك ، ولأمثالك أبناء المسلمين قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم صلاة اللهِ وسلامه) بأسلوبٍ سهلٍ ، يوافق سنَّك ، وذوقك ، ففعلتُ ، وهذا هو الكتاب الأوَّل من « قصص النَّبيِّين للأطفال » أهديه إليك .

وقد حاكيت فيه أسلوبَ الأطفال ، وطبيعتهم ، فلجأت إلى تكرار الكلمات ، والجمل ، وسهولةِ الألفاظ ، وبسط القصَّة .

وأرجو أن يكون هذا الكتاب الصَّغير أوَّل كتابٍ يقرؤه الأطفال في اللغة العربيَّة ، ويدرسونه في مدارسهم .

وسأتحفك ـ إن شاء الله ـ بقصصٍ للأنبياء ممتعةٍ ، شائقةٍ ، واضحةٍ ، سهلةٍ ، خفيفةٍ ، جميلةٍ ، ثمَّ لا يكون فيها شيءٌ من الكذب .

---

(١) محمد بن الدُّكتور عبد العلي الحسني ابن أخ المؤلف ، وقد نبغ بحمد الله في العربيَّة ، وهو الآن ئيس تحرير مجلَّة « البعث الإسلامي » الصادرة في لكهنؤ (الهند) .

أقرَّ الله بك يا محمَّد! عين أبويك ، وعمِّك ، وعين الإسلام ، وأعاد بك بركاتِ آبائكَ على هذا البيت ، وعلى المسلمين . . .

(أبو الحسن) علي الحسني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ، وسلامٌ على عباده الَّذين اصطفى .

أمَّا بعد : فقد ظهر الجزء الأول من « قصص النَّبيِّين للأطفال » وهو يشتمل على قصَّة سيدنا إبراهيم ، وقصَّة سيدنا يوسف عليهما صلوات الله ، وسلامه ، فكان الاعتناء به كبيراً تخطَّى أمل المؤلف ؛ فقد تلقَّاه رجال التَّعليم ، وأولياء الأطفال بحفاوةٍ ، وترحيبٍ ، ونوَّهت به المجلات الإسلاميَّة في عبارة قويةٍ ، ونشط الأطفال ، وتلاميذ المدارس الصِّغار لقراءته ، ورغبوا فيها رغبةً لم يكن المؤلف يترقبها ، وقد قرأنا في أسارير جباههم الوضَّاحة ، وفي ملامح وجوههم النَّيِّرة ـ وهم يقرؤون هذا الكتاب ـ سطور السُّرور ، والنَّشاط ، وسُرِرْنا كثيراً وحمدنا الله لمَّا سمعنا الصِّغار يحكون قصَّة سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يوسف . وقد ذلَّت بها ألسنتُهم ، وهضمتها عقولهم الصَّغيرة .

كل ذلك شجَّعنا على التقدُّم في هذا الطريق ، وحثَّنا على إتمام هذه السِّلسلة ، وهانحن أولاء نتحف الصغار وأولياءهم الكبار بجزءٍ آخر من سلسلة « قصص النبيين للأطفال » مشتملاً على قصَّة نوحٍ ، وقصَّة هودٍ ، وقصة صالحٍ ، عليهم السَّلام .

وفي ثنايا القصص ، ومطاويها فوائدُ تفسيريَّةٌ ، وتاريخيَّةٌ ، وأجوبةٌ عن أسئلةٍ خفيَّةٍ قد يتناجى بها الضَّمير .

وعلى المعلِّمين أن يُطالبوا التَّلاميذ بحكاية هذه القصص ، ويكلفوهم تلاوتها ، واستحضارها ، وإعادتها ، فقد جرَّبنا في ذلك فائدةً كبيرةً .

والله المسؤول أن ينفع بالكتاب طلبة العربيَّة ، والنَّاشئة الإسلاميَّة ، ويحبِّب إليهم أشخاص الأنبياء ، وسيَرهم ، والاقتداء بهم ، وبالله التَّوفيق .

(أبو الحسن) علي الحسني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمة

الحمد لله ، وسلامٌ عَلى عباده الَّذين اصطفىٰ .

أمَّا بعد ، فإنَّ كاتب هذه السُّطور يَحمدُ الله على أنَّه وفّقه ليعود إلى سلسلة « قصص النَّبيِّين للأطفَال » ، بعد فترةٍ طالت مدَّة ثلاثين سنةً ، فقد كانت بداية هذه السِّلسلة في سنة ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤ ، وإتمامها على نهاية الجزء الثَّالث المشتمل على قصَّة سيّدنا موسىٰ ـ عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسَّلام ـ في سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ، ثم شُغلَ المؤلِّف بأعمالٍ كتابيَّة تأليفيَّةٍ أخرى ، ورِحلاتٍ طويلةٍ متواليةٍ ، صرفته عن إتمام هذه السِّلسلة الَّتي رزقها الله قبولاً عظيماً في حلقات التَّعليم والمدارس الشَّعبيَّة والحكوميَّة في شبه القارة الهنديَّة والبلاد العربيَّة ، وصدرت لها طبعاتٌ في القاهرة ، وبيروت .

وألحَّ بعض رجال التَّعليم ، والتَّربية ، وقادة الفكر على إتمام هذه السِّلسلة بقصص مَنْ بقيَ منَ الأنبياء بعد سيِّدنا موسَىٰ ، وإكمالها بقصَّة خاتم النَّبِيِّين صلوات الله وسلامه عليه ، فهي مسك الختام ، ونهاية المطاف ، ورأوا : أنَّ هذا العمل أفضل ، وأجدى من كثير ممَّا يشغل المؤلِّف ، ومن الموضوعات الَّتي يُعالجها ، وكان المؤلِّف يشعرُ في بعض الأحيان بأنَّ الأمر ما عاد سهلاً له ، لبعد العهد به ، وأنَّه يصعب عليه أن ينزل إلى مستوى الأطفالِ ، وأسلوبهم ، واللُّغة الَّتي يفهمونها ، ولكنَّ الله يَسَّر له هذه المهمَّة ، فَوَضَع الجزء الرَّابع في شهر رمضان سنة ١٣٩٥هـ ، وهو الَّذي بين يدي القرَّاء ، ثمَّ وفقه اللهُ لوضع الجزء الخامس المشتمل على السِّيرة النَّبويَّة على صاحبها الصَّلاة ، والسَّلام ، وسَيَلي هذا

الجزء إن شاءَ الله . والحمد لله ، الَّذي بعزَّته ، وجلاله تتمُّ الصَّالحات ، والصَّلاة والسّلام على خير خلقه محمدٍ ﷺ .

١٩/ شوال سنة ١٣٩٦هـ

أبو الحَسَن علي الحَسَني النَّدْويُّ

دار العُلوم ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

القراءة الرّاشدة

للأطفال

مؤسّسة الصّحافة والنّشر
لكهنؤ ـ الهند
دار ابن كثير ـ دمشق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمةٌ عن الكتاب

الحمدُ لله ، وسلامُ على عباده الَّذين اصطفى ، أمَّا بعد : فإنَّ الهند منذ فَتَحها الإسلامُ لا تزال تدين بتدريس اللُّغة العربيَّة ، وتعتقد : أنَّها لغة الإسلام ومفتاح كنوز الكتاب ، والسُّنَّة ، ونبغ فيها أدباء ، ومؤلِّفون في اللُّغة العربيَّة يتجمَّل تاريخ الإسلام بذكرهم ، وتزدان بمؤلَّفاتهم مكتبة الإسلام العامرة .

انقرضت من الهند دولة المسلمين ، ولم يُطوَ بساط المدارس الإسلاميَّة ، فلا تزال مصابيحها تضيء بين عواصف ، ورياحٍ هوجاء ، وهي الآن تعدُّ بالآلاف ، والمتعلمون فيها يربو عددهم على إحصاء بعض البلاد الإسلامية .

ولم يزل للهند منهاجٌ خاصٌّ في العلوم العقليَّة ، والرياضيَّة ، والعلوم الآليَّة ، من وضع علماء الهند ، أو من اختيارهم ، نال قبولاً عظيماً في الأقطار الإسلاميَّة البعيدة ، فكانت مؤلَّفاتهم ، وشروحهم تدرَّس ، ويتمجَّد العلماء بتدريسها ، والاقتدار على شرحها ، ويتظرَّف الطَّلبة بدرسها ، وفهمها حتَّى كان منهاج الدَّرس النِّظامي من اختيار العلامة نظام الدِّين اللكهنوي (م١١٦١هـ) ومن وضع نجباء تلاميذه ، وتلاميذهم ، فكان له دويٌّ في العالم الإسلاميِّ ، ونفوذٌ عجيبٌ في الأوساط العلميَّة .

بجانب هذه الثَّروة العلميَّة الضَّخمة ، والغنى الوافر في ناحية علوم الحكمة ـ كما يسمِّيها القوم ـ ترى عوزاً شائناً ، وتفريطاً عظيماً في ناحية اللُّغة العربيَّة ، فإذا أسقطنا من منهاج الدَّرس قسط الشِّعر ، وصرفنا النَّظر عن كتاب الحماسة والسَّبع المعلقات ، وديوان المتنبِّي ـ فإنَّ كلَّ ذلك لا يعلم اللُّغة ، ولا يمرِّن على الكتابة ،

والخطابة ، بل يروِّض الفكر ، ويفتح القريحة ، ويبعث الذَّوق ـ لم نجد في منهاج درسنا القديم ما يتعلَّم به الطَّالب اللُّغة ، ويتعرَّف بها غير مقامات الحريري ، والمقامات ـ كما يعرف القارىء ـ مثال للنَّثر الفنيِّ ، والأدب الصِّناعي ، وإذا شئت ؛ قلت : مثال لفنِّ البيان ، والبديع ، لا للنَّثر العربيِّ الطَّبعيِّ السَّلسال ، ولا يمكن أن يتعلَّم بها الطَّالب مبادىء اللُّغة العربيَّة ، ويتدرَّب على الكتابة ، والخطابة ، ويقضي حاجةً في نفسه ، ومن ثمَّ كان من حظِّ الأدباء ، والمنشئين في العربيَّة في هذه البلاد النَّثر المقيَّد المغلول ، والأدب السَّقيم المسلول ، والقلم المنثلم المفلول ، واللِّسان المتلجلج الخذول .

درج على ذلك أجيالٌ خلف أجيالٍ ، انسلخت قرونٌ إثر قرونٍ ، لا ندري كيف كان ذلك إلا أنَّا لا نرى كتاباً في النَّثر العربيِّ يدرَّس في المدارس غير المقامات إلى القرن الثَّالث عشر الهجري ، حتَّى جاء الشَّيخ أحمد الشَّرواني من اليمن ، وألَّف كتاباً صغيراً يشتمل على قصص ، وحكايات فكاهيَّة ، ونوادر ، ومِلَحٍ ، وأبياتٍ ، وسمَّاه « نفحة اليمن » فاهتبله علماء الهند كأنَّما هبط من عَلياء لماهم فيه من فاقةٍ إلى كتاب يدرسه الطَّلبة قبل المقامات ، وعضوا عليه بالنَّواجذ ، وهم منذ ذلك اليوم عكوفٌ عليه لا يرون عنه محيصاً .

وشعرت بعض الأوساط بما فيه من خللٍ ، وخطلٍ ، وسوء تمثيلٍ للحضارة الإسلاميَّة ، وسيرة المسلمين السَّلف ، وعبثٍ بعقلية الأطفال الأبرياء بما فيه من مجونٍ ، وهزل ، فاستعاروا كتباً مؤلفة من البلاد العربيَّة ، ولكن سرعان ما علموا أنَّها على نقاء لغتها ، وحسن وضعها ، واحتوائها على مادَّةٍ علميَّةٍ نافعة لا توافق ذوق المسلمين في الهند ، وباكستان ، وما جاورها من البلاد ، ولا تقضي حاجة رجال التَّعليم في هذه البلاد ، وتشتمل على مادَّةٍ في تاريخ البلاد التي أُلِّفت فيها ، وتراجم رجالها البلديين ، وجغرافية تلك البلاد ، إنَّ أبناء هذه البلاد في غنى عن معرفتها فضلاً عن حفظها ، وإنَّ أبناء الهند ، وغيرها من الأقطار الإسلاميَّة في حاجةٍ إلى معرفة المهمِّ ، والممتع من جنسها ممَّا يخصُّ بلادهم ، أو ممَّا يعمُّ المسلمين جميعاً .

فترى مثلاً في الجزء الأوّل من القراءة الرّشيدة الّتي وضعتها وزارة المعارف العموميّة في مصر ، والّتي تدرس في بعض المدارس العربيّة في الهند ، درساً عن جزيرة الرّوضة في القاهرة ، ونشيداً عن مصر العزيزة ، ودرساً عن عيد وفاء النِّيل ، وفي الجزء الثّاني حواراً بين مصر ، والإسكندرية ، ودرساً عن الأهرام ، والقناطر الخيريّة ، وعن محمّد علي باشا ، وقس على ذلك بقيّة الأجزاء ، وقس عليها السّلاسل الأخرى .

ماذا يهمُّ الطّالبَ الهنديَّ ، أو الباكستانيَّ ، أو الحجازيَّ ، أو الأفغانيَّ من معرفة هذه الموضوعات المصريّة ، ولماذا يحفظ نشيد الفخر المصري ويتغنّى :

مصـر العـزيـزة لـي وطـنٌ　　　وهـي الحمـى وهـي السَّكـن
وهـي الفـريـدة فـي الـزَّمـن　　　وجميـعُ مـا فيـه حسـن

ولماذا يتعرَّف ، وهو في مرحلة التّعليم الأولى بعظيم مصر محمد علي باشا ، وهو أحقُّ بمعرفة من هو أعظم من خديو مصر ، وأهمُّ في التاريخ الإسلامي ، كذلك يعزُّ على الطّالب الصّغير الّذي لم ينشأ في مصر أن يفهم . . . الدُّروس الخاصّة بمصر ، لبعده عن الدِّيار المصريّة ، وجهله للعوائد والتّقاليد المصريّة ، كما ترى في درس عيد وفاء النِّيل .

أفلا يحسن بنا أن نبدل منها دروساً في السِّيرة النّبوية ، وفي تاريخ الإسلام ، وعن رجال الإسلام ، وأئمّته ، وإذا كان لابدَّ من موضوعات بلديّةٍ ـ وإنّها لا شكَّ منشِّطةٌ لذهن الطّالب الصّغير ـ فلماذا لا نضع دروساً عن الأمكنة ، والآثار ، والأبنية الوطنيّة التي شادها المسلمون في البلاد ، وعن أعيادٍ ، ومواسم إسلاميّة ، فإذا كان ذلك في الهند ، أو باكستان مثلاً ، نضع للطّالب درساً خاصّاً ببلاده ، أو عامّاً للمسلمين ، كدروس عن آثار الملوك الإسلاميِّين في هذه البلاد ، أو في العالم الإسلاميِّ .

وكذلك في الرِّجال هو أحقُّ بمعرفة فاتحي الهند ، والغزاة المنتصرين ، والملوك الصّالحين ، ورجال العلم ، والدِّين الّذين أنجبتهم أرض الهند .

زد على ذلك كلّه : أنَّ هذه الكتب المؤلَّفة في البلاد العربيَّة عاريةٌ عن الرُّوح الدِّيني لمصالح تعليميَّة ، وسياسيَّة في تلك البلاد ، أو لثقافة أبنائها الحديثة ، ولا يرضى المسلم في شبه قارة الهند أن يجرِّد اللُّغة العربيَّة ، وأدبها من الرُّوح الدِّيني ، ويدرس اللُّغة العربيَّة كلغة بشريَّةٍ عامَّةٍ لها أدبُها ، وجمالُها ؛ لأنَّ صلة العجم باللُّغة العربيَّة إنَّما هي عن طريق الدِّين ، والكتاب المبين ، وسنَّة سيد المرسلين ، عليه الصَّلاة ، والتَّسليم ، وإنَّما يعنيه أمر اللُّغة العربيَّة ، لأنَّها لغةٌ لا يُتوصَّل بغيرها إلى منابع الدِّين ، ومشارعه الصَّافية ، فيجب أن يستعان بها على دراسة الكتاب ، والسنَّة بغير واسطةٍ ، ويتقرب إلى تلك البيئة الَّتي نبع منها الأدب الإسلاميُّ بأوسع معنى الكلمة ، فإذا انقطعت الصِّلة بين اللُّغة ، والدِّين ، والأدب الإسلاميِّ كان للهنديِّ ، ولكلِّ عجميٍّ قليلُ رغبةٍ في هذه اللُّغة الكريمة .

كلُّ ذلك كان يطالب بأن يكون للمسلمين في بلاد العجم منهاج درسٍ خاصٍّ بهم ، يضعونه وفقاً لشؤونهم الخاصَّة ، وتبعاً لطبيعتهم الدِّينيَّة .

إنَّ عاراً على المسلمين الهنديِّين ، والباكستانيِّين ـ وقد ظفروا بالاستقلال السِّياسيِّ ـ ألا يكون لهم استقلالٌ في مناهج التَّعليم ، مع أنَّ الاستقلال العلميَّ والفكريَّ مقدَّمان على الاستقلال السِّياسيِّ ، وكلُّ استقلالٍ سياسيٍّ لا يسبقه ، أو لا يدعمه استقلالٌ علميٌّ فكريٌّ تطرَّق إليه الوهن سريعاً ، وتسرَّب فيه الرِّقُّ الفكريُّ ، أو العلميُّ ، ثمَّ تبعه الرِّقُّ السِّياسيُّ .

كان من أهم الواجبات في هذه الأيام أن يُعنى العلماء ، ورجال التَّعليم الدِّينيِّ بوضع منهاجٍ تعليميٍّ رشيدٍ حكيم ، يفوق مناهج التَّعليم اللاَّدينيَّة في السُّهولة ، وتوفير الوقت ، ومراعاة نفسيَّة الصِّغار ، ويمتاز عنها في التَّربية الخُلقيَّة ، والدِّينيَّة ، وتهذيب النَّفس ، مع إفادة الطَّالب بكلِّ ما تهمُّ معرفته من الشؤون الكونيَّة ، والتاريخيَّة ، والموادُّ العامَّة ، مبنياً على أحدث مبادىء التَّعليم ، واختياراته .

وكان من حقِّ هذه المهمَّة العلميَّة الدِّينيَّة الجليلة ـ ولها خطرُها ، وأثرها في حياة المسلمين ، وفي مستقبل التَّعليم الدِّيني ـ أن تتألَّف لها لجانٌ من العلماء ، والمعلِّمين الكبار ، وأصحاب المعاهد الجليلة ، وأن يبذلوا في سبيلها قسطاً صالحاً

من أوقاتهم ، وجهودهم ، وأن يقدِّموها على كثيرٍ من أشغالهم العلميَّة ، والسِّياسيَّة ، فإنَّ هذه المهمَّة الواسعة المعقَّدة لا يستقلُّ بها الأفراد ، وإنَّها لتنوء بالعصبة أولي القوَّة ، ولكن العلماء ـ مع الأسف ـ في شغلٍ شاغلٍ عن هذا العمل الجدِّي الَّذي يقتضي صبراً طويلاً ، وعناءً شديداً ، واختياراً واسعاً ، وتعاضداً قوياً ، ثمَّ إنَّه كثير الخطر ، بطيء الأثمار ، قليل الاشتهار .

إنَّ خطر هذه المهمَّة ، وجلالتها ، وإن الأخطار المحدقة بنظام التعليم الدِّيني الَّتي تهدِّد حياة المسلمين الدِّينيَّة ، واشتغال الأكفاء عنه بما هو أهمُّ لديهم منه ، حثَّ مؤلِّف هذه الكتب على أن يكون جندياً مغامراً في سبيل هذا الجهاد ، وأن يكون عاملاً صغيراً في مهمَّة التَّعليم الدِّينيِّ ، وأن يؤدي من حقوق هذه اللُّغة الكريمة ، ومن حقوق المعلِّمين الَّذين حبَّبوا إليه هذ اللغة وسهلوها له ما يستطيع ، وأن يقوم بإذن الله بجزءٍ من أجزاء هذا العمل الجليل ؛ رغم ضعف صحَّته ، وتشتُّت باله ، وانشعاب فكره ، وتزاحم أشغاله ، وكثرة أسفاره .

قام المؤلف أوَّلاً بوضع مجموعة المختارات في الأدب العربيِّ ، فجاءت بإذن الله تعالى مجموعةً تمثِّل الأدب العربيَّ الإسلاميَّ في جميع مظاهره ، ومناحيه الأدبيَّة ، والتَّاريخية ، والتَّهذيبيَّة من العصر الإسلامي الأوَّل إلى القرن الرابع عشر الهجري ، تجمع بين ألوان الأدب العربيِّ المختلفة ، وبدائعه من وحيٍ سماويٍّ وبلاغةٍ نبويَّة ، وخطبٍ لأشهر خطباء العرب في أزهر عصور العربيَّة ، ورواياتٍ ، وقصصٍ ، ورسائل ، وكتبٍ ، ومناقشاتٍ ، ومحاوراتٍ ، ورحلاتٍ ؛ وأحاديث منزليَّةٍ مبسَّطةٍ ، وجدٍّ ، وهزلٍ ، وحكمةٍ ، ولهوٍ ، تلقَّتها بعض الدوائر العلميَّة ، والمعاهد ـ على بطءٍ ـ بالقبول ، وأدخلتها في مناهج الدَّرس .

ثمَّ رأى المؤلف كتباً صغيرةً لبعض أدباء مصر في حكايات الأسد والذِّئاب ، والقردة ، والدِّببة ، حتَّى الخنازير ، والكلاب ، فصيحة العبارة قليلة المغزى ، عربيَّة الوضع ، أفرنجيَّة الرُّوح ، إسلاميَّة اللُّغة جاهلية السَّبك ، فيها صور الحيوانات في اللِّباس الغربيِّ ، فساءه ألا يقرأ أبناء المسلمين في العربيَّة أيضاً إلا قصص الحيوانات ، والأساطير ، والخرافات ، فكتب لهم قصص الأنبياء ، والمرسلين

عليهم الصَّلاة ، والسَّلام بأسلوبٍ سهلٍ يُحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات ، والجمل ، وسهولة الألفاظ ، وبسط القصة وزيَّن الكتاب بصور مناظر الطَّبيعة ، والأبنية المقدَّسة ، وقد وصفها المرحوم الأستاذ مسعود عالم النَّدْوي بأنَّها تعلم مبادىء الدِّين أوَّلاً والأدب ثانياً .

ثمَّ رأى المؤلف أنَّ كلَّ ذلك لا يسدُّ مسدَّ سلسلة القراءة الَّتي تحتوي على موادَّ في اللُّغة ، والأدب متنوعةٍ بأسلوبٍ تدريجيٍّ ملائمٍ لذوق النَّاشئة المسلمة الهنديَّة . ونشء البلاد الإسلاميَّة عامَّةً ، فوضعها في أجزاء ، واجتهد في :

١ ـ أن تكون اللُّغة أدبيَّةً دينيَّةً عليها مسحة من جمال أدب الكتاب ، والسُّنَّة .

٢ ـ استعمال الكلمات المستحدثة الَّتي لها أصل عربيٌّ ، واشتقاق صحيحٌ لموضوعاتٍ عصريةٍ قد عوَّل المؤلِّف فيها في الغالب على قرارات مجمع فؤاد الأوَّل لِلُّغة العربيَّة ، حتَّى لا يلجأ الطَّالب في استعمال الكلمات العجميَّة ، أو الدَّخيلة ، أو يكون لها لسانٌ أخرس في المناسبات العصريَّة .

٣ ـ تكرار المفردات العربيَّة حتَّى يتمرَّن عليها الطَّالب .

٤ ـ تنوُّع الموضوعات ، والمواد لينشط الطَّالب ، وينتقل فيها من فائدة علميَّةٍ إلى حديثٍ ممتعٍ ، وحوارٍ لذيذٍ ، ومن درسٍ علميٍّ إلى حكايةٍ تاريخيَّةٍ ، ومن نثرٍ إلى شعرٍ ، أو نشيدٍ .

٥ ـ نقل الحكايات الواردة في الحديث إلى لغة تنشأ على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال .

٦ ـ دروسٌ خلقيَّةٌ تهذيبيَّةٌ تعلِّم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة .

٧ ـ تضمين الدُّروس الأدعيَّة المأثورة ، والآداب الدِّينيَّة بحيث لا يشعر الطَّالب بأنَّها تلقى عليه إلقاء بل يحفظها عفواً في ثنايا الدُّروس ، والحكايات .

٨ ـ الرُّوح الدِّينيُّ السَّاري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه ، ويعمُّ ذلك الدروس الدِّينيَّة ، ودروس المعلومات الكونيَّة ، والطبيعية ، والحيوانيَّة ، والنباتيَّة ، وعن الاختراعات الحديثة .

وإلى القرَّاء ، أصحاب المدارس ، وأولياء الأطفال الجزء الأوَّل من هذه السلسلة ، وسيتلوه ـ إن شاء الله ـ الأجزاء الأخرى ، والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب ، وبيده العصمةُ والتَّوفيق ، ولا حول ، ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم .

لخمسٍ بقين من رجب ١٣٦٥هـ

أبو الحسن علي الحسني

دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

قصص من التَّاريخ الإسلاميِّ

للأطفال

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

بين يَدي الكِتاب

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين سيِّدنا محمَّدٍ ، وآله ، وصحبه أجمعين ، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد : فقد اتَّفق علماءُ التَّربية ، وعلماء النَّفس على أنَّ الحكايات الخفيفة الشَّائقة ، الموجَّهة ، الهادفة من أقوى وسائل التَّربية ، والصِّياغة الخُلُقيَّة ، والمبدئيَّة ، والدِّينيَّة ، والإيمانيَّة ؛ إذا كانت متصلةً بأقطاب الإيمان ، واليقين ، والدِّيانات ، والرِّسالات .

وإذا كانت هذه القصصُ ، والحكايات على مستوى عقول الأحداث ، والأطفال ، وفي اللُّغة الَّتي يفهمونها بسهولةٍ ، ويسيغونها ، ويتذوَّقونها ، كانت مدرسةً للأطفال ، يتعلَّمون فيها المبادىء ، والأخلاق الفاضلة ، والدَّوافع النَّبيلة ، والمشاعر الكريمة الرَّقيقة ، من غير أن تثقلَ عليهم ، ومن غير سآمةٍ ، وملل .

ولا أبْلَغَ ولا أصْدَقَ من قول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ ﴾ [يوسف : ١١١] !

ويقول مخاطباً لنبيِّه ﷺ : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

ويقول في مفتتح سورة يوسف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

لذلك عُنِيَتْ أكثرُ اللُّغات ، والآداب ، والدِّيانات ، والبيئات ، والمعنيُّون بتربية الأطفال ، وإنشاء الجيل الجديد على الأخلاق الفاضلة ، وخِلال المروءة ، والفتوَّة ، والإيثار ، والتَّضحية ، والرُّجولة ، والبطولة بجمع حكاياتٍ شائقةٍ مثيرةٍ ،

تلائم سنَّ الأطفال ، وعقليّتهم ، ومدى قدرتهم على الوعي ، والتذوّق[1] ؛ حتّى تكونت من ذلك مكتبةٌ زاخرةٌ في لغةٍ حيّةٍ راقيةٍ ، وفي كلِّ بيئةٍ عاقلةٍ واعيةٍ تُعنى بتربية الأطفال ، وإنشاء النّاشئة ، والجيل الجديد على حُبِّ أهدافها ، ومثُلها ، وقيمها الّتي تحتاجُ إليها ، وتغار عليها ، قلّما تُستثنى من ذلك لغةٌ من لغات العالم المتمدِّن ، وشعبٌ من الشُّعوب العاقلة المثقّفة .

والنّاشئة الإسلاميّة ، والأطفال المسلمون أحوج من كلِّ ناشئةٍ ، وجيل في سنِّ الحداثة إلى قصصٍ ، وحكاياتٍ تغرسُ فيهم حبَّ الخير ، والفضيلة ، والبطولة ، والتّضحية ، والجهاد ، والشّهادة في سبيل الله ، وإيثار الآخرة على الدُّنيا ، والعزوف عن سفاسف الأمور ، وفضول الحياة ، والحبِّ لله وللرّسول ، ولأصحابه ، وأتباعه ، والّذين بذلوا نفسهم ، ونفيسهم في سبيل الله ، وحموا الدِّين ، ودافعوا عن المسلمين ؛ لأنَّ سعادة الدُّنيا ، وفلاح البشر يتوقّف على نشوئهم النُّشوء الصّالح وتضلُّعِهم بروح الدّعوة إلى الله ، والكفاح في سبيل الله ، والتحلّي بالحياة المثالية النّموذجيّة .

والتّاريخ الإسلاميُّ مِنْ أغنى الثّروات التّاريخيّة ، والمكتبات العالميّة ، في روائع إيمانيّةٍ ، وخلقيّةٍ ، ومثلٍ إنسانيّةٍ رفيعةٍ ، باعثةٍ على الهمم العالية ، والاتّجاهات ، والمطامح الخيِّرة النّبيلة ، وكتب التاريخ الموثوق بها مليئةٌ طافحةٌ بمثل هذه الحكايات ، والقَصص ، والمُثل ، والنّماذج ، ولكنَّ الأقلام المُسلمة ، والمؤسّسات التّربويّة ، ودُورَ النّشر في العالم الإسلاميِّ ـ نقول هذا مع أسفٍ ، واعتذار ـ لم تُعْطِ هذا الجانب المهمَّ حقَّه من العناية ، والجمع ، والتّأليف ، فلا يزال أطفالُ المسلمين ، ومن كان في سنٍّ حديثةٍ يعيشون في قلّةٍ ، ونُدْرةٍ ؛ إذا لم نقلْ : في فقرٍ ، وَعَوزٍ من هذا الصِّنف من كتبٍ صغيرةٍ ، تجمع هذه الحكايات ، والملتقطات من كتب التّاريخ الضّخمة ، وتكوِّن مكتبةً للأطفال المسلمين ، تسهلُ الاستفادة منها ، وتقوى الرغبة فيها ، ويدوم أثرُها في نفوس الأطفال ، والنّشء الحديث .

---

(١) يستوي في ذلك الصِّغار في السِّنِّ ، والبدائيُّون في دراسة لغةٍ من اللُّغات .

وقد شرح اللهُ صدرَ الكاتب لالتقاط حكاياتٍ خفيفةٍ ، شائقةٍ ، مثيرةٍ ، مفيدةٍ من كتب السِّيرة وتاريخ الإسلام ، والسِّير ، والتَّراجم بعدما وفَّقه الله لتأليف سلسلةٍ من (قصص النبيين للأطفال ١ ـ ٥) كانت موضع عنايةٍ ، وتقديرٍ في الأوساط المدرسيَّة في شبه القارَّة الهنديَّة ، والبلاد العربية ، وثناءٍ ؛ وإعجاب من رجال التَّربية ، وقادة الفكر الإسلاميِّ ، وهذا في الأربعينات الأولى من التَّقويم الحديث ، وصدرت عدَّةُ رسائل صغيرةٍ ، في كلِّ رسالةٍ حكايةٌ ، ثمَّ شُغِل عنها بأشغاله التَّعليميَّة ، والدَّعويَّة ، والتَّأليفية في موضوعاتٍ كبيرةٍ علميَّةٍ ، ولكنَّه شعر بمسيس الحاجة أخيراً إلى مواصلة هذا الموضوع ، والزِّيادة في مادَّته ، فاختار موادَّ جديدةً من كُتُب التَّاريخ ، وصاغها في لغةٍ سهلةٍ ، وأسلوبٍ مُبسَّط لائقٍ بالأطفال ، والَّذين حصل لهم إلمامٌ باللُّغة العربيَّة ، وبدؤوا يفهمون اللُّغة السَّهلة الميسَّرة ، فتكوَّنت بذلك رسالةٌ ، أو كتابٌ صغيرٌ ، يحتوي على ثماني عشرة (١٨) حكايةً ، يرجو المؤلِّف أن ينالَ بهذه الخطوة البدائيَّة المباركة تقدير رجال التَّربية ، وأصحاب الأقلام في اللُّغة العربيَّة ، وأنْ تليها خطواتٌ ، وتُؤلَّف مجموعاتٌ تحتوي على مثل هذه الحكايات ، وربما تكون أبلغ ، وأقوى ، وأجمل لغةً ، وأسلوباً من هذا الكتاب الصَّغير ، فيكون بذلك نالَ أجر النِّيَّة والعزم ، والتَّرغيب في مواصلة هذه الرِّحلة ، وإثراء المكتبة الإسلاميَّة بجناح خاصٍّ بالأطفال ، وثروةٍ نافعة ذاتِ قيمةٍ دينيَّةٍ ، تربويَّة ، خُلُقيَّةٍ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل : ٩] .

١٨/ ٦/ ١٤١١هـ — **أبو الحسن علي الحسني النَّدوي**

٦/ ١/ ١٩٩١م — **الأمين العام لندوة العلماء ـ لكهنؤ**

ورئيس رابطة الأدب الإسلاميِّ العالميَّة

فهرس

مقدمات الإمام الندوي لكتبه

(الجزء الثالث)

الموضوع | الصفحة

مقدماته لمؤلفاته في الدراسات القرآنية ٥
النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ٧
الصراع بين الإيمان والمادية ١٥
المدخل إلى الدراسات القرآنية ١٩
تأملات في القرآن ٢٥
مقدماته لمؤلفاته في السيرة ٣١
السيرة النبوية ٣٣
سيرة خاتم النبيين للأطفال ٤٩
الطريق إلى المدينة ٥٥
جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية ٦١
مقدماته لكتبه في الفقه والعقيدة ٦٥
الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة ٦٧
العقيدة والعبادة والسلوك ٧٧
مقدماته لكتبه في السير والتراجم ٩١
المرتضى (سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه) ٩٣
رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الأول) ١٠٧
رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الثاني) ١١٣

الموضوع | الصفحة

رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الثالث) ١١٩
رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الرابع) ١٣٣
إذا هبت ريح الإيمان ١٤١
الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف ١٤٩
روائع إقبال ١٥٥
شخصيات وكتب ١٦١
مقدماته لكتبه الدعوية والفكرية ١٧١
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٧٣
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ١٨٩
العرب والإسلام ١٩٧
المسلمون وقضية فلسطين ٢١١
كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية ٢١٩
أكبر خطر على العالم العربي ٢٣٥
إلى الإسلام من جديد ٢٤٣
ربانية لا رهبانية ٢٤٩
مواساة أم مساواة ؟ ٢٥٣
ردة . . . ولا أبا بكر لها ٢٥٧
أحاديث صريحة في أمريكا ٢٦١
التفسير السياسي للإسلام ٢٦٧
أريد أن أتحدث إلى الإخوان ٢٨٧
المجتمع الإسلامي المعاصر ٢٩٥
مقدماته لكتبه حول الفرق والطوائف ٣٠١
صورتان متضادتان ٣٠٣
القادياني والقاديانية ٣٠٩
مقدماته لكتبه في الحضارات والمدنيات ٣١٩
المسلمون تجاه الحضارة الغربية ٣٢١

الموضوع	الصفحة
الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف	٣٢٧
الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية	٣٣٣
بين الدين والمدنية	٣٣٩
مقدماته لكتبه في التعليم والتربية	٣٤٥
نحو التربية الإسلامية الحرة	٣٤٧
دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء . . .	٣٥١
مقدماته لكتبه حول المذكرات والرحلات والسيرة الذاتية	٣٥٥
مذكرات سائح في الشرق العربي	٣٥٧
من نهر كابل إلى نهر اليرموك	٣٦٧
أسبوعان في المغرب الأقصى	٣٧١
في مسيرة الحياة	٣٧٥
مقدماته لكتبه عن الهند	٣٩٣
المسلمون في الهند	٣٩٥
الأضواء على الحركات والدعوات الدينية في الهند	٤٠٣
مقدماته لكتبه الأدبية	٤٠٧
مختارات من أدب العرب	٤٠٩
قصص النبيين (للأطفال)	٩٢٧
القراءة الراشدة (للأطفال)	٤٣٥
قصص من التاريخ الإسلامي (للأطفال)	٤٤٥